

# زُجَلَةُ التَّفَاسِيرِ

تاليف

المؤلف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

التبويب سنة ١١٩٨ هـ

الجزء الثالث

تحقيق ونشر

مركز الدراسات والبحوث الإسلامية

رقم الكتاب

٤١٠٩٨

# زبدة التفاسير

تأليف

المولى فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني رحمته الله

المتوفى سنة ٩٨٨ هـ . ق

الجزء الثالث

مكتبة كتب الشيعة

كتابخانه

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

شماره ثبت: ٠٠٨٧٤١

تاریخ ثبت:

تحقیق و نشر

مؤسسة المعارف الإسلامية

shiabooks.net

www.maktaba.net

کاشانی، فتح الله بن شکر الله . - ۹۸۸ ق .

زبدة التفاسیر / تألیف فتح الله بن شکر الله الکاشانی الشریف : تحقیق مؤسسه المعارف الإسلامیة - [ویرایش ۲۲] . - قم : مؤسسه المعارف الإسلامیة ، ۱۴۲۳ ق - ۱۳۸۱ .

ISBN : 964 - 7777 - 02 - 5 : (دوره) . ج ۷

ISBN : 964 - 7777 - 03 - 7 (ج ۱) . ج ۳

ISBN : 964 - 7777 - 05 - 1 (ج ۳) . ج ۴

ISBN : 964 - 7777 - 07 - 8 (ج ۵) . ج ۶

ISBN : 964 - 7777 - 09 - 4 (ج ۷) . ج ۷

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما . عربی - کتابنامه .

۱ . تفاسیر شیعه - قرن ۱۰ ق . الف . بنیاد معارف اسلامی . ب . عنوان .

۱۳۸۱ ۲۹۷ / ۱۷۲۶ BP ۹۶ - ۳۲ ۹۲

م ۸۱ - ۲۶۵۴۳ کتابخانه ملی ایران



۱۳۹

## هویة الكتاب :

اسم الكتاب : زبدة التفاسیر / ج ۲ .  
تألیف : العلاء فتح الله الکاشانی .  
تحقیق و نشر : مؤسسه المعارف الإسلامیة .  
الطبعة : الأولى ۱۴۲۳ هـ . ق .  
المطبعة : عترة .  
العدد : ۲۰۰۰ نسخة .

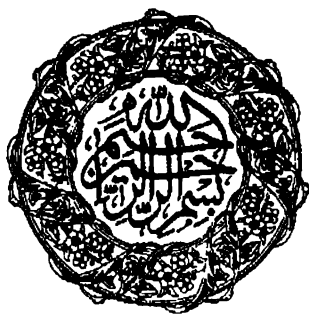
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمؤسسة المعارف الإسلامیة

ایران - قم المقدسة

ص . ب ۷۶۸ / ۳۷۱۸۵ تلفون ۷۷۳۲۰۰۹ - فاکس ۷۷۴۳۷۰۱

E - mail : m\_islamic@ayna.com









## سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنيّة . وآيها خمس وسبعون .

وفي خبر أبي عن النبي ﷺ : «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له ، وشاهد يوم القيامة أنه بريء من النفاق . وأعطي من الأجر بعدد كلّ منافق ومنافقة . في دار الدنيا عشر حسنات . ومحى عنه عشر سيئات . ورفع له عشر درجات . وكان العرش وحملته يصلون عليه أيام حياته في الدنيا» .

وعن الصادق عليه السلام : «من قرأها في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبداً . وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً . ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم . حتى يفرغ الناس من الحساب» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

ولما قضى الله سبحانه في سورة الأعراف قصص الأنبياء وختمها بذكر

نَبِيْنَا ﷺ، افتتح سورة الأنفال بذكره، ثم ذكر ما جرى بينه وبين قومه، فقال: ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرُّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ﴾ ﴿يَسْأَلُوْنَكَ﴾ أي: يسألك يا محمد جماعة من أصحابك ﴿عَنِ الْاَنْفَالِ﴾ أي: عن حكمها.

واختلف في الأنفال ما هي؟ فقال ابن عباس وجماعة: إنها غنيمة بدر. وقال قوم: هي أنفال السرايا. وقيل: هي ما شدّ عن المشركين من عبد وجارية من غير قتال. وقال قوم: هو الخمس.

والصحيح ما قال الباقر والصادق عليهما السلام: إنها كلّ ما أخذ من دار الحرب بغير قتال، وكلّ أرض انجلى أهلها عنها بغير قتال أيضاً، ويسمّيها الفقهاء فيئاً، والأرضون الموات، والآجام، وبطون الأودية، وقطائع الملوك إذا لم تكن مفضوية، وميراث من لا وارث له.

﴿قُلِ الْاَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُوْلِ﴾ ولمن قام مقامه بعده من الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم، يصرفونها حيث شاؤوا من مصالحهم ومصالح عيالهم. وقال عليه السلام: «إنّ غنائم بدر كانت للنبي ﷺ خاصة، فقسمها بينهم تفضلاً منه ﷺ». وهو مذهب أصحابنا الإمامية. ويؤيده أنّ الأنفال جمع نفل، وهي الزيادة على الشيء، سمّي به لكونه زائداً على الغنيمة، كما سمّيت النافلة نافلة لزيادتها على الفرض، وسمّي ولد الولد نافلة لزيادته على الأولاد. وقيل: سمّيت النافلة نفلًا، لأنّ هذه الأمة فضلت بها على سائر الأمم.

واختلفوا في نسخ هذه الآية، فقال جماعة من المفسرين: نعم، نسخت بآية ﴿وَاعْلَمُوْا اَنْمَّا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ <sup>(١)</sup> الآية. وقال الطبري <sup>(٢)</sup> وأصحابنا: ليست منسوخة. وهو الحق، لعدم المنافاة بينها وبين آية الخمس، لما ذكرنا من المغايرة بين الموضوعين.

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) تفسير الطبري ٩: ١١٩.

وقال سعيد بن المسيّب وجماعة: لا نفل بعد الرسول ﷺ. ومنعه جماعة من الفقهاء وأصحابنا. لما بيّنا أنها للامام القائم مقامه.

وفائدة الجمع بين الله ورسوله ﷺ كفائده في قوله: ﴿فَأَنْ يَبَّهْ حُفْسُهُ وَبِلُرْسُولٍ﴾<sup>(١)</sup> على وجه يأتي إن شاء الله. فالمعنى: حكمها مختص بالله تعالى ورسوله. وتخصيصها علم بفعل الرسول، فإن فعله حجة كقوله. وفي الكشاف<sup>(٢)</sup>: أن حكمها مختص بهما، الله حاكم، والرسول منفذ.

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من فعل كذا فله كذا. فتسارع الشبان فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم، وبقي الشيوخ والوجوه تحت الرايات. فلما كانت الغنيمة جاء الشبان يطلبون نفلهم. فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا ردها، أي: عوناً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا. وجرى التشاجر بينهم. فنزلت. فقسم رسول الله ﷺ النفل بينهم بالسوية.

وعن سعد بن أبي وقاص: قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأعجبني، فجننت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت له: إن الله قد شفى صدري من المشركين، فهب لي هذا السيف. فقال: ليس لي هذا ولا لك. فما جاوزت إلا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزلت سورة الأنفال. فقال: يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي. وإنه قد صار لي، فاذهب فخذ.

وقال عبادة بن الصامت: اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله ﷺ. فقسمه بيننا على السواء. فخاطبنا بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة في الأنفال ﴿وَأَضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال

(١) الأنفال: ٤١، وسيأتي تفسيرها في ص: ٤٢.

(٢) الكشاف: ٢: ١٩٥.

التي بينكم من المنازعة بالمحابة والانتلاف، والمساعدة والمواساة فيما رزقكم الله تعالى، وتسليم أمره إلى الله والرسول.

وقال الزجاج: «ذات بينكم» أي: حقيقة وصلكم. ومنه: ﴿لَسَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> أي: وصلكم واجتماعكم على أوامر الله.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك. أو إن كنتم كاملي الإيمان. فإن كمال الإيمان بطاعة الأوامر، والانتفاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا نُلِيتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

ثم بين صفة خلص المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا دُخِرَ اللَّهُ﴾ ذكر عندهم عقوبته وعدله، ووعيده على المعاصي بالعقاب، واقتداره عليه ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره تهيباً من جلاله، واستعظماً

له. وأما إذا ذكرت نعمة الله على عباده، وإحسانه إليهم، وفضله ورحمته عليهم، وثوابه على الطاعات، اطمأنت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْفَنُ الْقُلُوبِ﴾<sup>(١)</sup>، وسكنت نفوسهم إلى عفو الله. فلا تنافي بين الآيتين.

وقيل: هو الرجل يهّم بمعصية فيقال له: اتق الله، فينزح عنها خوفاً من عقابه.

﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أي: ازدادوا يقيناً وطمأنينة نفس وتصديقاً بها، منضماً إلى يقينهم بما أنزل قبل ذلك من القرآن. كما روي عن ابن عباس أنّ المعنى زادتهم تصديقاً مع تصديقهم بما أنزل إليهم قبل ذلك. يعني: أنهم يصدّقون بالأولى والثانية والثالثة، وهكذا فكلّ ما يأتي من عند الله فيزداد تصديقهم كميّة لا كميّة، لأنّ الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان عندنا.

وقيل: إنّ المراد ازدياد الايمان، لا طمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلّة، أو بالعمل بموجبها. وهو قول من قال: إنّ الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناءً على أنّ العمل داخل فيه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم. ولا يخشون ولا يرجون إلّا إياه.

﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إنّما خصّ فرض الصلاة والزكاة بالذكر لعظم شأنهما، وتأكد الأمر فيهما.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المستجمعون لهذه الخصال الحميدة ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هم الذين استحَقُّوا إطلاق اسم الإيمان حقيقة عليهم، لأنّهم حقّقوا إيمانهم، بأن ضمّوا

إليه مكارم أعمال القلوب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي المعيار عليها، من الصلاة والصدقة. و«حقاً» صفة مصدر محذوف، أي: إيماناً حقاً. أو مصدر مؤكّد للجمله أنّي هي «أولئك هم المؤمنون» كما تقول: هو عبدالله حقاً، أي: حق ذلك حقاً.

﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ شرف وكرامة وعلو منزلة. وقيل: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لما فرط منهم من السيئات ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: حظّ عظيم أعدّ لهم فيها على سبيل التعظيم لا ينقطع عدده. ولا ينتهي أمده. وهذا معنى الثواب.

﴿خَفَا اخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الكاف في محلّ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك. والمعنى: أنّ حالهم في كراهة ما حكم الله في الأنفال، مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للحرب.

ويجوز أن يكون في محلّ النصب، على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله: «الأنفال لله والرسول» أي: الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم، نباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك مع كراهتهم، يعني: من المدينة، لأنّها مهاجرة ومسكنه، أو بيته فيها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه. وسبب كراهتهم أنّ عمر قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون ركباً، منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقّي العير، لكثرة المال وقلة الرجال.

فلما خرجوا بلغ أهل مكة خروجهم، فنادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل

مكة النجاء<sup>(١)</sup> النجاء على كل صعب وذلول، غيركم أموالكم، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة أخت العباس بن عبدالمطلب رؤيا قبل ذلك بثلاث ليال، فقالت لأخيها: إني رأيت عجباً، رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق<sup>(٢)</sup> بها، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة. فحدث بها العباس، فقال أبو جهل: ما يرضى رجالهم أن ينتبؤا حتى تنتبأ نساؤهم. وبرواية أخرى قال: هذه نبيّة ثانية من بني عبدالمطلب.

فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهم النفير في المثل السائر: لا في العير ولا في النفير. فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت، فارجع بالناس إلى مكة. فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمر، ونقيم القينات<sup>(٣)</sup> والمعازف بيدر، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا. وإن محمداً لم يصب العير. وإنّا قد أعضضناه<sup>(٤)</sup>. فمضى بهم إلى بدر. وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة.

ونزل جبرئيل فقال: يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشاً. فاستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: ما تقولون: إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟

(١) أي: أسرعوا أسرعوا.

(٢) أي: رمى بها إلى فوق.

(٣) أي: المغنّيات، والواحدة: قينة.

(٤) في الصحاح (٣: ١٠٩١-١٠٩٢): «أعضضته الشيء فعضّه. ويقال: أعضضته سيفي، أي:



قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو.

فتغير وجه رسول الله ﷺ. ثم ردّ عليهم فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل.

فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو.

فقام عند غضب النبي ﷺ أبو بكر وعمر وقالوا فأحسننا.

ثم قام سعد بن عبادة فقال: أنظر أمرك فامض، فوالله لو سرت إلى عدن أبين<sup>(١)</sup> ما تخلف عنك رجل من الأنصار.

ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فإننا معك حيث ما أحببت، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون﴾<sup>(٢)</sup>. ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، ما دامت عين منا تطرف. فضحك رسول الله ﷺ.

ثم قال: أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار. لأنهم كانوا عدده، وقد قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذماننا، نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان النبي ﷺ يتخوف أن الأنصار لا يروا نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة.

فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل.

قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما

(١) في الصحاح (٥: ٢٠٨٢): «أبين اسم رجل نسب إليه عدن، يقال: عدن أبين».

(٢) المائدة: ٢٤

أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

ففرح رسول الله ﷺ، ونشطه قول سعد ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعبير ليس دونها شيء. فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح. فقال له النبي ﷺ: لِمَ؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك.

وكانت تلك الكراهة من بعضهم لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ وهو في موقع الحال. أي: أخرجك في حال كراهتهم خروجك من بيتك إلى حرب مشركي مكة في بدر.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ ينازعونك في إشارك الجهاد بإظهار الحق، لا يشارهم تلقى العبير عليه. ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم أنهم ينصرون أينما توجهوا، وذلك بإعلام الرسول. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعبير، وهلا قلت لنا لنستعد وتأهب؟ وذلك لكراهتهم القتال.

ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يجذب إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، فقال: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه. وكان ذلك لقلّة عددهم، وعدم تأهبهم، إذ روي أنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان. وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ إما النفير أو العير. وهذا على إضمار «اذكر». و«إحدى» ثاني مفعولي «يعدكم». وقد أبدل منها قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل الاستعمال ﴿وَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾. يعني: العير، فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، ولذلك يتمنونها، ويكرهون الطائفة التي هي ذات الشوكة. لكثرة

عددهم وعدّتهم. والشوكة الحدة، مستعارة من واحدة الشوك.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أن يشنه، أي: يعزّ الاسلام ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾  
بآياته المنزلة في محاربتهم، أو بأوامره للملائكة بالإمداد ﴿وَيَقْطَعُ ذَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾  
باستئصالهم وقتلهم وأسرههم وطرحهم في قليب بدر. والذابر: الآخر. من: دبر إذا  
أدبر. وقطع الذابر عبارة عن الاستئصال.

والمعنى: أنكم تريدون الفائدة العاجلة، ولا تريدون مكروهاً. والله يريد ما  
يرجع إلى علوّ أمور الدين وإظهار الحق، وما يحصل لكم من فوز الدارين. فشتان  
ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم، وغلبكم  
عليهم مع كثرتهم وقتلتكم، فأذلهم وأعزكم.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلّق بمحذوف، تقديره: فعل ذلك لتثبيت دين الحق  
﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي: الشرك. وليس بتكرير، لأنّ الأول لبيان المراد، وما بينه  
وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول ﷺ على اختيار  
ذات الشوكة ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهَمَّ  
أَلْفَ، وَإِلَى أَصْحَابِهِ وَهَمَّ ثَلَاثِمِائَةَ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَمَدَّ يَدَهُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ  
أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ  
كَذَلِكَ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ مِنْ مَنَكِبِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيضُونَ زِينَتَكُمْ﴾ وهذا  
بدل من «إذ يعدكم»، أو متعلّق بقوله: «ليحقّ الحق»، أو على إضمار «اذكر».

وقيل: استغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي  
ربّ انصرنا على عدوك، أغثنا يا غياث المستغيثين.

﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغاثكم وأجاب دعوتكم ﴿أَنْتِي مُبِدِعُكُمْ﴾ بأنّي مبدعكم،  
فحذف الجازّ وسلط عليه الفعل.

وقرأ أبو عمرو بالكسر<sup>(١)</sup> على إرادة القول، أو إجراء «استجاب» مجرى

(١) أي: بكسر: إن.

«قال». لأن الاستجابة من القول.

﴿بِإِنْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، قد أرحوا أذناها بين أكتافهم ﴿مُرْدِفِينَ﴾ متبعين المؤمنين، أو متبعين بعضهم بعضاً، من: أردفته إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين، من: أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب: مردفين بفتح الدال، أي: متبعين أو متبعين، بمعنى: أنهم كانوا مقدّمة الجيش أو ساقاتهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي: إمدادكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَيَنْظِفُونَ بِهِ قُلُوبَكُمْ﴾ فيزول ما بها من الوجل، لقلتكم وذلتكم ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ بالملائكة وغيرهم من الأسباب ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فينصر من يشاء، قلّ العدد أم كثر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمنع عن مراده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، يجريها على ما تقتضيه الحكمة. وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوهما وسائط، فلا تحسبوا النصر منها حقيقة، ولا تياسوا منه بفقدها.

واختلف في أن الملائكة هل قاتلت يوم بدر أم لا؟ فقيل: ما قاتلت ولكن شجعت وكثرت سواد المسلمين وبشّرت بالنصر، وإلا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبرئيل أهلك بريشه من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد تمود وقوم صالح بصيحة واحدة.

وقيل: إنها قاتلت. وروي عن ابن مسعود أنه سأله أبو جهل من أين يأتيها الضرب ولا نرى الشخص؟ فقال: من قبل الملائكة، فقال: هم غلبونا لا أنتم، وعن ابن عباس أيضاً: أن الملائكة قاتلت يوم بدر. وفي رواية: قاتلت يوم بدر، ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين.

وروي: أن رجلاً من المسلمين بينما هو يشتد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربة بالوسط فوقه، فنظر إلى المشرك قد خرّ مستلقياً وشوّ وجهه، فحدّث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء.

وعن أبي داود المازني: تبعت رجلاً من المشركين لأضره يوم بدر، فوق رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفي.

وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النَّعَاسَ﴾ بدل ثانٍ من «إذ يعدكم»، أو متعلق بالنصر. أو بما في «عند الله» من معنى الفعل، أو يجعل «أو» بإضمار «اذكر».

وقرأ نافع بالتخفيف، من: أغشيه الشيء إذا غشّيته إياه. والفاعل على القراءتين هو الله تعالى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يَغَشَّاكُمُ النَّعَاسُ بالرفع.

﴿أَمَنَةٌ مِّنْهُ﴾ أمناً من الله تعالى. وهو مفعول له باعتبار المعنى، فإن قوله «يغشيكم النعاس» متضمن معنى: تنسون، و«يغشاكم» بمعناه، فيكون فاعل الفعل المعلل والعلّة واحداً. و«منه» صفة لـ«أمنة». والمعنى: إذ يتغشون لأنكم الحاصل من الله بإزالة الرعب من قلوبكم، فإنّ الانسان لا يأخذ النوم في حال الخوف، فآمنهم الله تعالى بزوال الرعب عن قلوبهم، كما يقال: الخوف مسهر، والأمن منيم. والأمنة الدعة التي تنافي المخافة.

وعن ابن عباس: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة الشيطان.

﴿وَيُنزِلُ عَلَيْنَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من الحدث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: الجنابة، لأنّه من تخميله أو وسوسته وتخويله إياهم من العطش. وذلك أنّ المشركين قد سبقوهم إلى الماء، ونزل المسلمون في كتيب<sup>(١)</sup> أعفر تسوخ فيه الأقدام، وناموا فاحتلم أكثرهم، فتمثل لهم إبليس وقال: يا أصحاب محمد أنتم تزعمون أنّكم على الحق، وأنتم تصلون على الجنابة. وقد عطشتم، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء، وهاهم الآن يمشون إليكم، فيقتلونكم ويسوقون بقيتكم إلى مكة. فحزنوا لذلك، فأنزله الله المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى

(١) الكتيب: التلّ من الرمل.

الوادي، واغتسلوا وتوضؤوا، واتخذوا الحياض على عدوة<sup>(١)</sup> الوادي، وتلبّد<sup>(٢)</sup> الرمل الذي كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت وسوسة الشيطان، وطابت النفوس.

﴿وَيَلْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وليشدّ عليها. ومعناه: يشجّع قلوبكم. ويزيدكم قوة قلب وسكون نفس، والثقة على لطف الله ﴿وَيُنَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي: بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة. فإن الجراءة تثبت القدم في مواطن الحرب.

﴿إِذْ يُوجِي رَبَّنَا﴾ بدل ثالث، أو متعلق بـ«يثبت» ﴿إِلَى الْغَلَائِجَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إيعانتهم وتثبيتهم. وهو مفعول «يوجي». ﴿فَلْيَبْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالباشارة، أو بتكثير سوادهم، أو بمجاهدة أعدائهم.

وقوله: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كالنفسير لقوله: «أني معكم فبئسوا». ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفار. ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعاليها التي هي المذابح. لأنها مفاصل. فكان إيقاع الضرب فيها حزاً وتطهيراً للروس، لأنها فوق الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع، أي: حزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم من اليدين والرجلين، فإن الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل. فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً.

وفيه دليل على أنهم قاتلوا. ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين، إما على تغيير الخطاب، أو على أن قوله: «سألتني» إلى قوله: «كل بنان» تعلقين للملائكة ما يثبتون المؤمنين به، كأنه قال: قولوا لهم قولي هذا.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من القتل أو الأمر به. والخطاب في «ذلك»

(١) العدو: المكان المتباعد، أو المرتفع

(٢) تلبّد الرمل أي: تجمّع ولصق بعضه ببعض

لرسول. أو لكل أحد من المخاطبين قبل ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ذلك العقاب العاجل أو أمر الملائكة به بسبب مشاققتهم ومخالفتهم لهما. واشتقاقه من الشق، لأن كلاً من المعاندين في شق خلاف شق الآخر، كالمعاداة من العدو بمعنى الجانب، والمخاصمة من الخصم، وهو أيضاً الجانب.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

﴿ذُكِّمُكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات. ومحلّه الرفع، أي: الأمر ذلكم، أو ذلكم واقع، أو نصب بفعل دلّ عليه قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ أو غيره، مثل: باشروا أو عليكم، فتكون الفاء عاطفة ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطفت على «ذلكم»، أو نصب على المفعول معه. والمعنى: ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الأجل، أو الجمع بينهما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَاتِلٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَذُوقُوا بَأْسَ غَضَبِ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

ولتا آمد سبحانه المسلمين بالملائكة، ووعدهم النصر والظفر بالكفار، نهاهم عقبه عن الفرار. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا﴾



متزاحفين. حال من «الذين كفروا». والزحف: الجيش الدهم<sup>(١)</sup> الذي يرى لكثرتيه كأنه يزحف. أي: يدب ديباً. من: زحف الصبي إذا دب على إسته قليلاً قليلاً. سمي بالمصدر. والجمع زحوف. والمعنى: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل. ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْآذِنَاتِ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين من العدو.

ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل والمفعول، أي: إذا لقيتموهم متزاحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا. أو حال من الفاعل. كأنهم أخبروا بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين وهم زحف اثنا عشر ألفاً.

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ يُبْزَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يريد الكر بعد الفر، يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه، وهو باب من خدع الحرب ومكائدها. أو يكون التحرف لأجل إصلاح لأمته<sup>(٢)</sup> وسائر اسلحته ﴿أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب لبستعين بهم. وانتصاهما على الحال، و«إلا» لغو لا عمل لها. أو على الاستثناء من المولين. أي: ومن يؤلهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً. ووزن متحيز متفعل لا متفعل، لأنه من: حاز يحوز، فبناء متفعل منه متحوز.

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> الآية.

وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

وعن ابن عباس: أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر.

روي أنه لما طلعت قريش من العنقل قال ﷺ داعباً لله تعالى: هذه قريش

(١) الدهم: العدد الكثير.

(٢) الأمة: الدرع.

(٣) الأنفال: ٦٦.

جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني. فأتاه جبرئيل وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام: أعطني قبضة من حصاء الوادي، فأعطاه فرمى بها في وجوههم، وقال: شأهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتلت وأسرت. فنزلت: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بإنزال الملائكة وإلقاء الرعب في قلوبهم.

﴿وَمَا زَمَيْتُ﴾ بما محمد رمة توصلها إلى أحداقهم، ولم تقدر عليه ﴿إِذْ زَمَيْتُ﴾ أي: أتيت بصورة الرمي ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ زَمَى﴾ أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا، وتمكنت من قطع دابرهم، وهذا من عجائب المعجزات. واللفظ كما يطلق على المسمى، يطلق على ما هو كماله والمقصود منه.

وقيل: معناه: ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصاء، ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم.

وقيل: إنه نزل في طمئة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم، فجعل يخور حتى مات. أو في رمة سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه. وأكثر المفسرين على القول الأول.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ولكن بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين.

﴿وَلِيُبَيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ ولنعم عليهم نعمة عظيمة من ذلك النصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، أو من عنده تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثهم

ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بناتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، ومحلّه الرفع، أي: الغرض أو الأمر ذلكم. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيُ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه، أي: المقصود إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: موهن بالتشديد، وحفص: موهن كيد بالإضافة والتخفيف.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ نَعُدُوا  
شُدُّ وَلَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا  
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنُقَهُ وَآتَمَّ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا  
تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ  
الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ  
أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

ثم خاطب أهل مكة على سبيل التهكم بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ  
الْفَتْحُ﴾ وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللَّهُمَّ انصر  
أعلى الجندين، وأهدى الفتتين، وأكرم الحزبين. وبرواية أخرى: اللَّهُمَّ انصر أقرانا  
للضيف، وأوصلنا للرحم، وأفكنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره. وإن كنا  
على حق فانصرنا.

وروي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أهرجر وأقطع للرحم فأحسه اليوم، أي: فأهلكه.

﴿وَإِنْ تَقْتُهِمُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتضامته سلامة الدارس وخير المنزلتين. وقيل: «إن تستفتحوا» خطاب للمؤمنين. و«إن تنتهوا» للكافرين. ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربه ﴿نَعُدُّ﴾ لنصره. ﴿وَلَنْ تُغْنِي﴾ ولن تدفع ﴿عَنكُمْ فِتْنَتَكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْنًا﴾ من الإغناء أو المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: وَأَنَّ بِالْفَتْحِ، على تقدير: ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك.

وقيل: الآية خطاب للمؤمنين. والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول ﷺ فهو خير لكم. وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهبيح العدو. ولن تغني حشدك كثيرتك إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فإن الله مع الكاملين في إيمانهم.

ويؤيد ذلك أمر الله سبحانه المؤمنين بالطاعة التي هي سبب النصر، ونهيمهم عن التولي عن رسول الله ﷺ بعد تلك الآية، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: لا تتولوا عن الرسول. فإن المراد بالآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه. وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله تعالى في طاعة الرسول، لقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقيل: الضمير للجهاد، أو للأمر الذي دل عليه الطاعة.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة أو المنافقين الذين ادعوا السماع  
﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به ، لأنهم ليسوا بمصدقين ، فكأنهم لا يسمعون  
رأساً .

والمعنى : أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتهم عن طاعة الرسول في  
بعض الأمور - من قسمة الغنائم وغيرها - كان تصديقكم كلاً تصديق ، واشبهه  
سماعكم سماع من لا يؤمن به .

ثم قال ذمّاً للمعرضين عن أمر الله ورسوله : ﴿إِنْ شَرُّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي :  
شر ما يدب على الأرض ، أو شرّ البهائم ﴿الصَّمْمُ﴾ عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن  
قراءته ﴿الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً منه . عدّهم من البهائم أولاً ثم جعلهم شرّها .  
لا يباله ما ميّزوا به وفضلوا لأجله ، وهو العقل .

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ في هؤلاء الصمّ البكم ﴿خَفِيْرًا﴾ انتفاعاً باللفظ  
﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ للطف بهم حتّى يسمعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي : ولو  
لطف بهم وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عنه ولم ينتفعوا به . أو ولو لطف بهم  
فصدّقوا لارتدّوا بعد التصديق والقبول ، وكذبوا فلم يستقيموا ﴿وَهُمْ مُفْرَضُونَ﴾  
لعنادهم . وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه لا يمنع أحداً اللطف ، إذا علم أنّه ينتفع به .  
وقال الباقر عليه السلام : «بنو عبد الدار لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد  
بن حرملة» . وكانوا يقولون : نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمد صلى الله عليه وآله ، وقد قتلوا  
جميعاً بأحد . وكانوا أصحاب اللواء .

وقيل : قالوا للنبيّ : أحي لنا قصياً ، فإنّه كان شيخاً مباركاً حتّى يشهد لك  
فؤمن بك . فالمعنى : لأسمعهم كلام قصي .

وعن ابن جريج : هم المنافقون ، وعن الحسن : هم أهل الكتاب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ  
لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

ثم أمر سبحانه عباده بطاعة رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ  
وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة والامتثال ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق، ولأن دعوة  
الله تسمع من الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينيّة والأحكام الشرعيّة، فإنّها  
حياة القلب، والجهل موته، قال:

لا تعجبن الجهول حلته فذاك ميت وتوبه كفن

أو ممّا يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم، من العقائد الحسنة المرضية  
والأعمال السنيّة. أو من الجهاد، فإنّه سبب بقاء المؤمنين، إذ لو تركوه لغلّبهم العدو  
وقتلهم. أو الشهادة، لقوله: ﴿بَلْ أَخْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد. كقوله:  
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>(٢)</sup>. فإنّ الحائل بين الشيء وغيره أقرب إلى ذلك  
الشيء من ذلك الغير. وتبيّه على أنّه مطلع على مكنونات القلوب وضمايرها. ممّا  
عسى يغفل عنه صاحبها، فكأنّه بينه وبين قلبه.

أو حتّى على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله تعالى  
بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة.  
أو تصوير وتخيل لتملّكه على العبد قلبه، فيفسخ عزائمّه، ويغيّر مقاصده.

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) ق: ١٦.

ويبدله بالخوف أمناً، وبالأمن خوفاً، وبالذكر نسياناً، وبالنسيان ذكراً، وما أشبه ذلك ممّا هو جائز عليه تعالى. ومنه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «عرفت الله بفسخ العزائم». وما جاء في الدعاء: يا مقلب القلوب.

وروى يونس بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أنّ الله يحول بين المرء وقلبه» معناه: لا يستيقن القلب أنّ الحق باطل أبداً، ولا يستيقن القلب أنّ الباطل حق أبداً.

وروى هشام بن سالم عنه قال: «معناه: يحول بينه وبين أن يعلم أنّ الباطل حق». أوردهما العياشي في تفسيره<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اتقوا ذنباً يعمتكم أثره. كترك النهي عن المنكر، والمداينة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وإظهار البدع، والتكاسل في الجهاد. وقيل: الفتنة العذاب.

وقوله: «لا تصيبن» لا يخلو: إما أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر معطوفاً عليه بحذف الواو، أو صفة ل«فتنة».

فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، بل تعمكم. وإتّما جاز دخول النون في جواب الشرط، مع أنّه متردّد لا يليق به النون المؤكدة، لأنّ فيه معنى النهي فساغ، كقوله: ﴿ادْخُلُوا مَسَاجِدَكُمْ لَا يُخَاطَبُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾<sup>(٢)</sup>، وكما نقول: إنزل عن الدابة لا تطرحك، ويجوز، لا تطرحنك.

وإذا كانت نهياً - بعد أمر باتقاء الذنب - عن التعرّض للظلم، فإنّ وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه. فكأنّه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرّضوا

(١) تفسير العياشي ٢: ٥٢ ح ٣٦ و ٣٩.

(٢) النمل: ١٨.

للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة. وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا فتنة مقولاً فيها: لا تصيبين. ونظيره قوله: حتى إذا جنّ الظلام واختلط جاءوا بمدق هل رأيت الذنب فط والمذق اللبن المخلوط بالماء. والمعنى: بمدق مقول فيه هذا القول. لأن فيه لون الورقة<sup>(١)</sup> التي هي لون الذنب. وبعضه قراءة ابن مسعود: لتصيبين، على جواب القسم المحذوف. ويكون «من» للتبيين على هذا، لأن المعنى: لا تصيبنكم خاصة على ظلمكم، لأن الظلم أقبح منكم من سائر الناس. وللتبويض على الوجه الأول. وفي الكشاف: «روي عن الحسن: أنها نزلت في عليّ وعطار وطحعة والزبير، وهو يوم الجمل خاصة. قال الزبير: نزلت فينا وقرآناها زماناً، وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها».

وروي: أن الزبير كان يساير رسول الله ﷺ يوماً، إذ أقبل عليّ عليه السلام. فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله: كيف حبك لعلي؟ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي. إني أحبته كحبي لوالدي أو أشدّ حباً. قال: فكيف أنت إذا سرت إليه تقائله؟<sup>(٢)</sup> وقال في المجمع<sup>(٣)</sup>: «روى الثعلبي بإسناده عن حذيفة أنه قال: أتتكم فنن كقطع الليل المظلم، يهلك كلّ شجاع بطل، وكلّ راكب موضع، وكلّ خطيب مصقع<sup>(٤)</sup>».

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال لعطار: «إنه سيكون بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، وحتى يقتل بعضهم بعضاً، وحتى يبرأ بعضهم من بعض، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني عليّ بن أبي طالب،

(١) الورقة: سواد في غبرة، والأورق: الذي لونه لون الرماد.

(٢) الكشاف ٢: ٢١٢.

(٣) مجمع البيان ٤: ٥٢٤.

(٤) راكب موضع أي: مسرع، والمصقع: البليغ.



فإن سلك الناس كلهم وادياً وسلك عليّ وادياً فاسلك وادي علي . وخُلِّ عن الناس .  
يا عمار إن عليّاً لا يردك عن هدى . ولا يدلك على ردى . يا عمار طاعة عليّ  
طاعتي . وطاعتي طاعة الله»<sup>(١)</sup> . رواه السيّد أبو طالب الهروي بإسناده عن علقمة  
والأسود عن أبي أيوب الأنصاري .

وفي كتاب شواهد التنزيل للحاكم أبي القاسم الحسكاني رحمه الله . وحدثنا  
عنه السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني . حدثني محمد بن القاسم ابن أحمد .  
قال : حدثني أبو سعيد محمّد بن الفضيل بن محمّد . قال : حدثنا محمّد ابن صالح  
العرزمي . قال : حدثنا عبدالرحمن بن أبي حاتم . قال : حدثنا أبو سعيد الأشج . عن  
أبي خلف الأحمر . عن إبراهيم بن طهمان . عن سعيد بن أبي عروبة . عن قتادة . عن  
سعيد بن المسيّب . عن ابن عباس قال : «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : «وَاتَّقُوا فِتْنَةً» قَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ : مَنْ ظَلَمَ عَلِيّاً مَقْعَدِي هَذَا بَعْدَ وَفَاتِي . فَكُنَّا مَجْحُودِي نَبْوَتِي وَنَبْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ  
قَبْلِي»<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عباس : أنه سئل عن هذه الفتنة فقال : أبهما ما أبهم الله .

﴿وَاغْلَبُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتق المعاصي والمظالم .

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ

النَّاسُ فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ثم عاد سبحانه إلى وقعة بدر . وبين حالتهم السالفة في القلّة والضعف .  
وإنعامه عليهم بالنصر والتأييد والتكثير . فقال ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ معشر المهاجرين ﴿إِذْ  
أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي : وقت كونكم أقلّة أدلّة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكّة .

(١) مجمع البيان ٤ : ٥٣٤ .

(٢) شواهد التنزيل ١ : ٢٧١ ح ٢٦٩

يستضعفكم قريش قبل الهجرة. و«إذ» هنا مفعول به، وليس بظرف لـ «مستضعفون». وقيل: الخطاب للعرب، كانوا أذلاءً في أيدي الفرس والروم.

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يستلبكم كفار قريش إن خرجتم من مكة. أو من عداهم، فإنهم كانوا جميعاً معادين مضادين لهم.

﴿فَأَوَّكِمُ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تحصنون به عن أعدائكم  
 ﴿وَأَيَّدِكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ وقواكم على الكفار بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَزَرَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إرادة أن تشكروا هذه النعم.

وعن قتادة: كانت العرب أذل الناس وأشقاها عيشاً، وأعراهم جلدأ، يؤكلون ولا يأكلون، فمكّن الله لهم في البلاد، وودع عليهم في الرزق والغنائم، وجعلهم ملوكاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام. فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ.

فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة. وكان مناصحاً لهم، لأنّ عياله وماله وولده كانت عندهم.

فبعثه رسول الله، فاتاهم. فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أنّه الذبيح فلا تفعلوا. فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنّي قد خنت الله ورسوله. فنزلت في شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ﴾ من الخون. وهو النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام. ومنه: تخونه، أي: تنقصه. ثمّ استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

والمعنى: لا تخونوا الله بترك أوامره، والرسول بترك سننه وشرائعه. وعن الحسن: أنّ من ترك شيئاً من الدين وضعه فقد خان الله ورسوله. ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ ولا تخونوا الأمانات فيما بينكم، بأن لا تحفظوها. وهو مجزوم بالمطف على الأول، أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون. أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح. أو أنتم تعلمون ما في الخيانة من الذمّ والعقاب.

ونما نزلت هذه الآية شدّ أبو لبابة نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً، حتى خرّ مغشياً عليه. ثمّ تاب الله عليه. فقبل له: يا أبا لبابة قد نيب عليك. فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلّني، فحلّه بيده.

ثمّ قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبيتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها

الذنب، وأن انخلع عن مالي. فقال النبي: يجزيك الثلث أن تصدق به.

وهذه الرواية مروية أيضاً عن الكلبي والزهري.

وقال عطاء: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إن أبا سفيان خرج من مكة.

فأتى جبرئيل عليه السلام النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه

واكتبوا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم.

فأنزل الله هذه الآية.

وقال السدي: كانوا يسمعون الشيء من النبي ﷺ فيفشونه حتى يبلغ

المشركين، فنزلت.

وقيل: المراد بالخيانة الغلول في المغنم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمُوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الائم أو

العقاب، أو محنة من الله تعالى لبلوكم فيهم، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كأبي

لبابة ﴿وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر رضا الله تعالى عليهم، وراعى حدوده

فيهم، فعليكم أن تزهّدوا في الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحبّ الأولاد.

ولا تؤثروهما على نعيم الأبد.

قال في المجمع: «بَيّن سبحانه بهذه الآية أنه يختبر خلقه بالأموال والأولاد.

ليتبيّن الراضي بقسمه ممن لا يرضى به، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم،

ولكن ليظهر الأفعال التي بها يستحقّ الثواب والعقاب. وإلى هذا أشار

أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، لأنه

ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة. ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن،

فإن الله سبحانه يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمُوالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ». وقد روي هذا المعنى

عن ابن مسعود أيضاً<sup>(١)</sup>.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ  
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ولمّا أمر الله سبحانه بالطاعة وترك الخيانة، بيّن بعده ما أعدّه لمن امتثل أمره في الدنيا والآخرة. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ إن تتقوا عقابه باتقائه معاصيه وأداء فرائضه ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هداية ونوراً في قلوبكم. وشرحاً في صدوركم بوسيلة التوفيق واللفظ. تفرّقون به بين الحقّ والباطل. أو نصراً وفتحاً. كقوله تعالى ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾<sup>(١)</sup> لأنّه يفرّق بين المحقّ والمبطل، بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين. أو مخرجاً من الشبهات. أو نجاة عمّا تحذرون في الدارين. أو ظهوراً يشهّر أركانكم في أقطار الأرض ويبتّ صيتكم. من قوله: بتّ أفعل كذا حتّى سطع الفرقان، أي: الصبح.

﴿وَيُكَفِّرْ﴾ ويستتر ﴿عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم بالتجاوز والعتو عنها. قيل: السيئات الصغائر. والذنوب الكبائر. وقيل: المراد ما تقدّم وما تأخّر. لأنّها في أهل بدر، وقد غفرهما الله تعالى لهم.  
﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على خلقه بما أنعم عليهم في الدنيا من أنواع النعم من غير سبق استحقاق منهم، وفي الآخرة بما زاد على قدر استحقاقهم.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ  
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

روي أنّ قريشاً - لمّا أسلمت الأنصار وباعوه - خافوا أن يعلو أمره ويعظم

شأنه. فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ. وقال: أنا شيخ من نجد. ما أنا من تهامة. دخلت مكة فسمعت باجتماعكم. فأردت أن أحضركم. ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً.

فقال أبو البختری: رأيت أن تحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا بابه غير كوة، تلقون إليه طعامه وشرابه منها، وترىصوا به ريب المنون.

فقال إبليس: بنس الرأي، يأتكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيت أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع واسترحم.

فقال إبليس: بنس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا. فقال الشيخ: هذا الفتى هو أجودكم رأياً.

فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره بالهجرة وأن يبيت في مضجعه علياً، فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببردي، فإنه لن يصل إليك أمر تكرهه، وخرج مع أبي بكر إلى الغار. وياتوا مترصدين، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه فأبصروا علياً فبهتوا، وخيب الله سعيهم. واقتصوا أثره. وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الجبل ومروا بالغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاثاً، ثم قدم المدينة، فأبطل الله تعالى مكرهم.

فذكر ﷺ هاهنا رسوله إنجاءه إياه من مكرهم حين كان بسكة، ليشكر الله على خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم. فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اذكر إذ يحتال كفار قريش في إبطال أمرك، ويدبرون في هلاكك ﴿لِيُفْتِنُوكَ﴾ بالوفاق أو الحبس أو الإثخان بالجرح، من قولهم: ضربه حتى أثبتته لآحراك به ولا

براح<sup>(١)</sup>. والأول مروى عن ابن عباس. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسوقهم وخناجرهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة.

﴿وَيَمَكُرُونَ﴾ ويمخفون المكائد لك ﴿وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ ويمخفي الله ما أعد لهم حتى يأتهم بغتة. أو المراد بمكر الله مجازاته إيّاهم على مكرهم. أو معاملته معهم معاملة الماكرين. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً. أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل. وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة، أو لضرب من التأويل. ولا يجوز إطلاقها ابتداءً. لتضمنه القبح والذم. تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن عناد هؤلاء الكفار في الحق. فقال: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص. قائله النضر بن الحارث بن كلدة. فإنه حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون، قال: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار، فزعم أن هذا مثل ذلك، وأنه من جملة الأساطير. وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم.

وقبل: هو قول الذين ائتمروا في أمره صلى الله عليه وسلم. وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم عن أن يقولوا مثله؟! وقد تحدّاهم وقرعهم

(١) أي: لم يبرح ولم يزل من مكانه.

بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة، مع أنفثهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً في باب البلاغة والفصاحة.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْحَقُّ مِنْزَلاًً ﴿مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِزَازَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: حجارة من سجيل عقوبة على إنكاره، كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوْ انزِلْنَا بِعَذَابٍ آيِمٍ﴾ بنوع آخر من أنواع العذاب.

هذا أيضاً من كلام النضر. روي أنه لما قال: «إن هذا إلا أساطير الأولين» قال له النبي ﷺ: ويحك إنّه كلام الله. فقال ذلك. ومراده من هذا القول التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنّه ليس بحق كتعليقه بالمحال عنده، كما في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة.

وفائدة تعريف الحقّ الدلالة على أنّ المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ، وهو تنزيهه، لا الحقّ مطلقاً، لتجويزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل، كأساطير الأولين.

روي أنّ معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة!! قال: أجهل من قومي قومك، قالوا لرسول الله حين دعاهم إلى الحقّ: «إن كان هذا هو الحقّ فأمطر علينا حجارة» ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحقّ فاهدنا له.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

ثم ذكر سبحانه سبب إمهالهم، وموجب التوقف في إجابة دعائهم، مع فرط



عنادهم وشقاهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفي، والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادة الله تعالى، غير مستقيم في قضائه، لفضله وحرمته. قال ابن عباس: إن الله تعالى لم يعذب قومه حتى أخرجوه من مكة. وكذا لا يعذبهم حين الاستغفار عن الذنوب، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين بعد خروجه ﷺ عن مكة، كما روي أن النبى ﷺ لما خرج من مكة بقيت فيها بقية من المؤمنين، ولم يهاجروا لعذر، وكانوا على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفارهم، فلما خرجوا أذن الله في فتح مكة.

وهذا منقول عن ابن عباس وعطية والضحاك. واختاره الجبائي.

وقيل: معناه: وما كان الله ليعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا وهم يقولون: اللهم غفرانك، وإنما يعذبهم في الآخرة. أو المراد فرض الاستغفار على معنى: لو استغفروا لم يعذبوا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُنزِلَ الْفَقْرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup> أي: لو أصلحوا.

﴿وَمَا لَهُمْ آلِي يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وما يمنع تعذيبهم متى لم تكن فيهم، ولم يمكن الاستغفار؟ وكيف لا يعذبون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؟ وحالهم صد الناس عنه، ومن صدّهم عنه إلقاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة، وإحصارهم عام الحديبية. روي أنهم قالوا: نحن ولاية البيت والحرم، فنصدّ من نشاء، وندخل من نشاء.

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أُولِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك، الذين لا يعبدون فيه غير الله تعالى. أو إلا المتقون من

المسلمين، فليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، بل إنما يستأهل ولايته من كان بزاً تقيّاً، فكيف بالكفرة وعبدة الأصنام؟

﴿وَلَكِنْ أَخْتَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه. كأنه استثنى من كان يعلم ويعاند لطلب الرئاسة. أو أراد بالأكثر الجميع، كما يراد بالقلّة العدم.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

روي أنهم كانوا يطوفون عرّاة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي: دعاؤهم، أو ما يستونه صلاة، أو ما يضعون موضعها ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيراً، من: مكا يمكو إذا صفر ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ تصفيقاً. وهو ضرب اليد على اليد. تفعلته من الصدى. أو من: صدّ يصدّ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمٌ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾<sup>(١)</sup> أي: يصيحون، على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء.

واعلم أن مساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق ممن هذه صلاته.

وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته، لما روي أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه فيصفران. ورجلان عن يساره يصفقان بأيديهما، فيخلطان عليه صلاته، فقتلهم الله جميعاً ببدر، كما قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني: القتل والأسر يوم بدر. وقيل: عذاب الآخرة. واللام يحتمل أن تكون للعهد، والمعهود: اتنا بعذاب أليم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾  
 لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

روي أن أبا سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش، وهم فرق مختلفون من قبائل شتى، ومنه يقال: عندي أحبوش منهم، أي: جماعة منهم، سوى من استجاش<sup>(١)</sup> من العرب، وأتفق عليهم أربعين أوفية، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً، أو استأجرهم لأصحاب العير، فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعيئوا بهذا المال على حرب محمد ﷺ، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليمنعوا بذلك الناس عن دين الله الذي أتى به محمد ﷺ. وقيل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر<sup>(٢)</sup>. وغرضهم في هذا الإنفاق الصد عن أتباع محمد، وهو سبيل الله.

وإنما قال: لِيَصُدُّوا، وإن كانوا لم يقصدوا ذلك، من حيث لم يعلموا أن ذلك دين الله، لأن فعلهم ذلك كان صدّاً عن دين الله وإن لم يقصدوا ذلك. ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ بتسامها، ويحتمل أن يكون الأول إخباراً عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق يوم بدر، والثاني إخباراً عن إنفاقهم فيما يستقبل، وهو الإنفاق في يوم أحد. أو يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق.

(١) أي: جمع الجيش منهم.

(٢) الجزر جمع الجزور، وهو من الإبل يقع على الذكر والأنثى.

ومساق الثاني لبيان عاقبته، وأنه لم يقع بعد.

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ ندماً وعملاً، لفواتها من غير مقصود. وجعل ذاتها حسرة - وهي عاقبة إنفاقها - مبالغة. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر، وإن كان الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاً قبل ذلك. أي: مرة تكون لهم ومرة عليهم. وفي هذا دلالة على صحة نبوة النبي، لأنه أخبر بالشيء قبل كونه، فوجد على ما أخبر به.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ثبتوا على الكفر منهم، إذ أسلم بعضهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْتَسِرُونَ﴾ يساقون.

﴿يُمَيِّزُ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: الفريق الخبيث - وهم الكافرون - من الفريق الطيب، وهم المؤمنون. أو يميز الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بـ«يحشرون» أو «يغلبون»، أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله مما أنفقه المسلمون في نصرته. وحينئذٍ اللام متعلقة بقوله: «ثم تكون عليهم حسرة». وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: ليتم من التمييز، وهو أبلغ من الميز.

﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ﴾ ويجعل الفريق الخبيث من الكفار ﴿بَغْضَةً عَلَيَّ بِغَضٍ فَيَزَكِّيهِ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا، لفرط ازدحامهم. أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، ليعاقبهم به. كما قال: ﴿يَوْمَ يُخْفَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾<sup>(١)</sup> الآية. ﴿فَيَجْعَلُهُ﴾ كله ﴿فِي جَهَنَّمَ أَوْلَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث، لأنه مقدر بالفريق الخبيث. أو إلى المنفقين ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاسمرون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْهَوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ

لِلَّهِ فَإِنْ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بدعائهم إلى التوبة والإيمان، فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه. والمعنى: قل لأجلهم، لقوله: ﴿إِنْ يَتَّهَمُوا﴾ على صيغة الغائب، أي: ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من الشرك وعداوة الرسول وسائر ذنوبهم. ومنه قوله ﷺ: «الاسلام يجب ما قبله».

﴿وَإِنْ يَغُودُوا﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير، كما جرى على أهل بدر، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ويضمحل كل دين، ويبقى دين الإسلام وحده.

عن الصادق عليه السلام أنه قال: «لم يحيى تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا بعد سيري من يدرکه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض».

﴿فَإِنْ اتَّهَمُوا﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب: تعملون بالثناء، على معنى: فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير، فيجازيكم عليه أحسن الجزاء. ويكون تعليقه بانتهائهم دلالة على أنه كما يستدعي إثابتهم للمباشرة، يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن لم ينتهوا ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فتقوا بولاية الله ونصرته، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿يَغْفِرُ الْمَوْتَى﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَيَغْفِرُ الْغَبِيْرُ﴾ لا يغلب من نصره.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ  
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَتَمُّ بِالْعُدُوَّةِ  
الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي  
الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ  
مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِ  
قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ لَفَشَلْتُمْ وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيزِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ  
فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

وبعد الأمر بالجهاد بين ما يلحقه من حكم الغنيمة، فقال مخاطباً للمسلمين:  
﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «ما» موصولة، و«من شيء» بيانه، أي: مما يقع  
عليه اسم الشيء، حتى الخيطة والمخيطة، لا في الكنز والمعدن والغوص، فإن  
النصاب شرط فيه، كما صرح به فقهاؤنا في كتبهم. فلفظ «شيء» وإن اقتضى  
العموم، لكن البيان من الأئمة عليهم السلام خصصه.

والغنيمة لغة: هي الفائدة. واصطلاحاً: ما أخذ من الكفار بقتال، وإلا فهو فيء  
ونفل، وهو مذهب أصحابنا والشافعي، ويروى عن الباقر والصادق عليهم السلام. وقيل:

إنهما بمعنى واحد.

ثم إن عند أصحابنا أن الفيء للإمام خاصة، والغنيمة يخرج منها الخمس. كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْهُمْ خُسْفَانَهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: فتأبث أن الله خصه ﴿وَاللُّزْمُ وَاللَّذِي الْأَنْقَرِيُّ﴾ وهذه الأسهم الثلاثة اليوم للإمام القائم مقام الرسول ﷺ ﴿وَالنِّقَاتِيُّ وَالْمَسَاكِينُ وَالْبَنِي السَّبِيلُ﴾ أي: ليتامى آل محمد ﷺ ومساكينهم وأبناء سبيلهم، لا يشركهم في ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقة، لكونها أوساخ الناس، وعوضهم عن ذلك الخمس. وروى ذلك الطبري<sup>(١)</sup> عن علي بن الحسين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر.

وعن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً أنه قال: «لما حرم الله علينا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام، والخمس لنا حلال».

وروا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قيل له: «إن الله تعالى قال: «واليتامى والمساكين» فقال: أيتامنا ومساكيننا»<sup>(٢)</sup>. فثلاثة أسهم آخر للطوائف المذكورين من بني هاشم.

واعلم أيديك الله تعالى أن علماء الجمهور على أن اسم الله هنا للتبرك، وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المذكورين في الآية في حياة الرسول ﷺ، وأن المراد بذي القربى هم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل، لقوله ﷺ: «إن بني المطلب ما فارقونا في جاهلية ولا إسلام، وبنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه». وأن الثلاثة الباقية في باقي المسلمين.

وأما بعد حياة الرسول ﷺ فقال مالك: الأمر فيه إلى الإمام، يصرفه إلى ما يراه أهم من وجوه القرب.

(١) راجع تفسير الطبري ج ١٠: ٧.

(٢) رواه في الكشاف ٢: ٢٢٢.

وقال أبو حنيفة: يقط سهمه ﷺ وسهم ذوي القربى، وصار الكلّ مصروفاً إلى الثلاثة الباقية من المسلمين.

وقال الشافعي: إن سهم الرسول ﷺ يصرف إلى ما كان يصرفه الرسول ﷺ إليه من مصالح المسلمين. وقيل: إلى الإمام. وقيل: إلى الأقسام الأربعة.

وقال أصحابنا الإمامية: إنه يقسم ستة أقسام: ثلاثة للرسول ﷺ في حياته. وبعده للإمام القائم مقامه. وهو المعنى بذوي القربى، والثلاثة الباقية لمن ستمهم الله من بني عبدالمطلب خاصة دون غيرهم.

وقولهم هو الحق. أمّا أولاً: فلأنه لا يلزمهم مخالفة للآية الكريمة بسبب إسقاط سهم الله من البين، وكذا إسقاط سهم الرسول بعد حياته.

وأما ثانياً: فلما ورد من النقل الصحيح عن أئمتنا عليهم السلام. وكذا نقله الخصم عن عليّ عليه السلام، وعن ابن عباس، كما حكاه الزمخشري في الكشاف<sup>(١)</sup>.

وأما ثالثاً: فلأننا إذا أعطينا لفقراء ذوي القربى من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل جاز بالإجماع، وبرئت الذمة يقيناً، وإذا أعطينا غيرهم لم يجز عند الإمامية، فكان التخصيص بذوي القربى أحوط. ولفظة الآية وإن كانت أعم، لكن ما من عام إلا وقد خصّ كما في الأصول، فهذا مخصوص بما رويناه عن أئمة الهدى كما مرّ. على أننا نقول لفظة الآية عامّ مخصوص بالاتفاق، فإنّ ذا القربى مخصوص ببني هاشم، واليتامى والمساكين وابن السبيل عامّ في المشرك والذمي وغيرهم، مع أنّه مخصوص بمن ليس كذلك.

قال السيد<sup>(٢)</sup> عليه السلام: كون ذوي القربى مفرداً يدلّ على أنّه الامام القائم مقام

(١) الكشاف ٢: ٢٢٢.

(٢) الانتصار: ٨٧.



النبي ﷺ . إذ لو أراد الجمع لقال : ذوي القربى .

وفيه نظر ، لجواز إرادة الجنس .

قوله : إذ لو كان المراد جميع قرابات بني هاشم ، لزم أن يكون ما عطف عليه

- أعني : اليتامى والمساكين وابن السبيل - من غيرهم لا منهم ، لأن العطف يقتضي  
المغايرة .

وأجيب بجواز عطف الخاص على العام ، لمزيد فائدة ووفور عناية . فالأولى

حينئذ الاعتماد في هذه الاحتمالات على بيانه ﷺ ، وبيان الأئمة بعده .

وفي الآية المذكورة من التوكيد ما ليس في غيرها ، فإنه صدرها بالأمر

بالعلم ، أي : تحقق عندكم ذلك حتى إنه لم يرد لها ناسخ اتفاقاً . ثم أتى بـ «أن»

المؤكدّة في موضعين . ثم قال : ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو مستعلق بمحذوف دلّ

عليه «واعلموا» أي : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء ، فسلموه

إليهم ، واقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ، فإن العلم للعمل ،

فإذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد ، لأنه مقصود بالعرض . والمقصود بالذات هو

العمل .

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ معطوف على «بالله» أي : إن كنتم آمنتم بالله

وبالمنزل على عبدنا من الآيات والملائكة والنصرة ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر . فإنه

فرّق فيه بين الحقّ والباطل ﴿يَوْمَ النَّفْيِ الْجَافِقَانِ﴾ المسلمون والكفار . بدل منه

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، والإمداد بالملائكة .

عن الكلبي : أنها نزلت ببدر . وقال الواقدي : نزل الخمس في غزوة بني

قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام ، للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً من

الهجرة .

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ من المدينة . وهو بدل ثانٍ من «يوم الفرقان» .

والعدوة بالحركات الثلاث شطّ الوادي. والمشهور الضمّ والكسر. وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ البعدي من المدينة. تأنيث الأقصى. وكان قياسه قلب الواو ياءً، كاللديا والعليا، تفرقة بين الاسم والصفة، فجاء على الأصل شاذاً كالقود، وهو أكثر استعمالاً من القصيا، كما كثر استعمال «استصوب» مع مجيء «استصاب» و«أغيلت» مع «أغالت»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالرَّحْبُ﴾ أي: العير أو قوادها ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم. يعني: الساحل. قال الكلبي: كانوا على شطّ البحر بثلاثة أميال. وهو منصوب على الظرف، واقع موقع خبر المبتدأ، والجملة حال من الظرف قبله.

والفائدة في ذكر هذه المراكز الإخبار عن الحال الدالة على قوّة المشركين وشوكتهم، وتكامل عدّتهم، وضعف المسلمين، وأن غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلاّ بأمر إلهي، لم يتيسر إلاّ بحوله وقوته، وذلك أنّ العدو القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء. والعدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل، ولا يمشى فيها إلاّ بتعب ومشقة، وما كان فيها ماء، وكانت العير وراء ظهور العدو، مع كثرة عددهم، وفرط حمايتهم وحميتهم، وغاية جهدهم في أن لا يبرحوا بهم إلى مكة.

وأيضاً لمثل هذه الفائدة قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي: لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالهم وحالكم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لشيظكم قلنتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد. هيبة منهم، وبأساً من الظفر عليهم، لتتحققوا أنّ ما اتفق لكم من الفتح ليس إلاّ صنعاً من الله تعالى خارقاً للعادة، فتردادوا إيماناً وشكراً.

﴿وَلَيَكُنَّ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد، بل حين وعدكم إحدى

(١) أغالت أو أغيلت المرأة ولذاها: أرضعته وهي حامل.

الطائفتين مبهمة غير مبيّنة، حتى خرجتم لتأخذوا العير راغبين في الخروج، وشخص<sup>(١)</sup> بقريش مخوفين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم، حتى نفروا ليمنعوا غيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى، ووراءهم العير يحامون عليها، حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان.

﴿يُنْقِضِي اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي: حقيقاً بأن يفعل، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

وقوله: ﴿يَيْتُكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه، أو متعلق بقوله: «مفعولاً». والمعنى: ليموت من يموت عن بيّنة عاينها ﴿وَيَخِينُ مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ويميش من يميش عن حجة شاهداها، لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعت بدر من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة للنبي ﷺ.

أو المعنى: ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيّنة وقيام حجة عليه، ويصدر إسلام من أسلم عن يقين وعلم بأنه الدين الحق الذي يجب التمسك به. فالهلاك والحياة مستعارتان للكفر والإسلام. والمعنى «من هلك» و«من حي» المشارف للهلاك الأبدي والحياة السرمدي.

وقرأ ابن كثير برواية البرزّي ونافع وأبو بكر ويعقوب: من حيي بفك الإدغام، للحمل على المستقبل.

﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال من كفر وآمن ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه. فالجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدر «اذكر». أو بدل ثانٍ من «يوم

(١) في هامش النسخة الخطيّة: «شخص به إذا أخرجه منه».

الفرقان». أو متعلق بـ«عليهم». أي: يعلم المصالح، إذ يقللهم في عينك في رؤياك، وذلك أن الله سبحانه أراه إياهم في رؤياه قليلاً. فأخبر بذلك أصحابه، فكان تهيئة لهم وتشجيعاً على عدوهم.

﴿وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيراً لَفَسَلْتُكُمْ﴾ لجنبتهم ﴿وَلَقَاتَزَّغْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال. وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون وما يغير أحوالها، من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

﴿وَإِذْ يُؤَيِّدُكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولاً «يري» ﴿إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ حال من المفعول الثاني. وإنما قللهم في أعين المسلمين لا غير، لما روي عن ابن مسعود أنه قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ فقال: أتراهم مائة؟ تصديقاً لرؤيا رسول الله وتثبيتاً لهم.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور. وروي أيضاً أنه كان يقول: خذوهم بالأيدي أخذاً، ولا تقاتلوهم.

وإنما قللهم في أعينهم قبل القتال ليحترؤا عليهم، ولا يستعدوا لهم بعد اللقاء، ثم كثرهم حتى يرونهم مثلهم، لتفجأهم الكثرة فتبتهتهم، وتكسر قلوبهم، وتفعل<sup>(١)</sup> شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم. وهذا من عظامم آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض، مع التساوي في شروط الرؤية.

﴿يُقِضِي اللَّهُ أَمْراً حَافِئاً مَقْفُولاً﴾ كثره لاختلاف المعلل به. أو لأن المراد بالأمر تم الاكتفاء على الوجه المحكي، وهاهنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه. ﴿وَإِنِّي اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أمور العباد، فيجازيهم على ما يستحقونه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاهْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ  
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ  
بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾  
وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ  
لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا  
لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمَتَافِقُونَ  
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ  
وَأُدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ  
لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ  
اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ  
يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
﴿٥٣﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ

بذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

ثم أمر سبحانه بالقتال والنبات في الحرب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئْتَةً﴾ أي: إذا حاربتم جماعة كافرة، ولم يصفها، لأن المؤمنين ما كانوا يحاربون إلا الكفار. واللقاء مما غلب استعماله في القتال. ﴿فَانْفِثُوا﴾ للقائهم، ولا تفروا.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن القتال، مستعينين به، مستظهريين بذكره، مترقبين لنصره، داعين له على عدوكم. بأن تقولوا: اللهم اخذلهم، اللهم افطع دابرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ تظفرون برادكم من النصره والمثوبة.

وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه بتراشره<sup>(١)</sup> فارغ البال، واتقاً بأن لطغه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه في أيام صفين، وفي مشاهدته مع البغاة والخوارج - من البلاغة والبيان، ونطائف المعاني، وبليغات المواعظ والنصائح - دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شاغل وإن تفاقم الأمر.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ لا تنازعوا فيما بينكم باختلاف الآراء، كما فعلتم ببدر أو أحد ﴿فَتَقَسَّبُوا﴾ فتجنبوا، وتضعفوا عن قتال عدوكم. هذا جواب النهي منصوب بإضمار «أن»، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والريح مستعارة للدولة، شبهت في تمشي أمرها ونفاذها بهبوب الريح ونفوذها. فقبل: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، وركدت ريحه إذا أدير أمره.

(١) الشرائير: النفس وجميع الجسد.

وقيل: المراد بها الحقيقة، فإنَّ النصره لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى. وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

﴿وَأَضْبِرُوا﴾ على قتال الأعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والنصر.  
 ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني: أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطْرًا﴾ للبطر والطرب والفخر، أو بطرين طريين متفاخرين ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة. وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم. فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرأ، ونشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان<sup>(١)</sup>، ونطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها فسقوا كأس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان غناء القيان. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرثين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، من حيث إنَّ النهي عن الشيء أمر بضده.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويعنعون غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوف على «بطراً» إن جعل مصدراً في موضع الحال. وكذا إن جعل مفعولاً له، لكن على تأويل المصدر.  
 ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ مُجِيبٌ﴾ عالم بأعمالكم. فيجازيكم على وفقها.

﴿وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: اذكر وقت تزين الشيطان ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في معاداة الرسول وغيرها ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ لا يغلبكم أحد من الناس، لكثرة عددكم وقوتكم. و«لكم» خبر «لا غالب» أو صفته، تقديره: لا غالب كائن لكم. وليس مفعوله، وإلا لا تنصب، فقيل: لا غالباً لكم. بمعنى: لا غالباً إياكم، كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أي: ناصركم ودافع عنكم السوء. وهذه وسوسة نفسانية. والمعنى: أنه ألقى في خاطرهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون، لكثرة

(١) القيان جمع القَيْتة، وهي المغنّية.

عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم، حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين، وأفضل الدينين، كما ذكر.

﴿فَلَمَّا قَرَأَتِ الْقُرْآنَ﴾ أي: تلاقى الفريقان ﴿نَعَضَ عَلَيَّ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقري، أي: بطل كيده، وعاد ما خذل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزِي مَا لَا تَرْوُونَ﴾ من إمداد الملائكة للمسلمين ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أخاف عذاب الله على أيدي من أراهم، يعني: تبرأ منهم، وخاف عليهم، وأيس من حالهم، لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة.

قيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، وكاد ذلك يثبطهم، فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني - وكان من أشراقهم - في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص.

وروي: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ قال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، ونقل عن الكلبي، وهذا هو المشهور بين المفسرين.

وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: «إني أخاف الله» أنني أخافه أن يصيبني مكروهاً من الملائكة، أو يهلكني، ويكون الوقت في قوله: ﴿إِنِّي يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَغْلُومِ﴾<sup>(١)</sup> هذا الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم ير قبله، فإن الملائكة لا ينزلون إلا لقيام الساعة أو للعذاب، والأول قول الحسن، واختيار ابن بحر.



وفي الحديث: «ما رؤي إبليس يوماً اصفر ولا أدهر ولا أغيظ من يوم عرفه. لما رأى من نزول الرحمة، إلا ما رؤي يوم بدر».

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه، وأن يكون مستأنفاً.  
﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْضٌ﴾ والذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شك وشبهة في الإسلام. وقيل: هم المشركون. وقيل: المنافقون. والعطف لتغاير الوصفين.

﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين ﴿بِإِيْمَانِهِمْ﴾ أي: اغتروا بدينهم، وأنهم ينصرون من أجله، حتى تعرضوا لما لا يدي<sup>(١)</sup> لهم به. فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف.

ثم قال جواباً لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في أموره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل، فيسلط القليل الضعيف على الكثير القوي. ﴿حَكِيمٌ﴾ بفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

﴿وَلَوْ فَزَيْتِي﴾ ولو رأيت، فإن «لو» تجعل المضارع ماضياً عكس «إن» ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ بدر. و«إذ» ظرف «ترى» والمفعول محذوف. أي: ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ. و«الملائكة» فاعل «يتوفى». ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء.

ويجوز أن يكون الفاعل ضميراً لله، وقوله: «الملائكة» مبنياً خبره: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ والحملة حال من «الذين كفروا» واستغني فيه بالضمير عن الواو. وهو على الأول حال منهم، أو من الملائكة، أو منهما، لاشتماله على الضميرين.

(١) يُدِي وَيُدِي جمع اليد، وجمع الجمع الأيدي، يقال: لا بد من لك بهذا، أي: لا قوة ولا طاقة لك به.

﴿وَأَذَابُ لَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاذهم. وقيل: المراد تعميم الضرب، أي: يضربون ما أقبل منهم وما أدبر.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْبِقِ﴾ عطف على «يضربون» بإضمار القول، أي: ويقولون: ذوقوا، بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل: كانت مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا التهبّت النار منها في جراحاتهم. وجواب «لو» محذوف، لتفطيع الأمر وتهويله، تقديره: لرأيت أمراً أظيعاً منكراً.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُبْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي. وهو خبر لـ«ذلك». ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف عليه، أي: ذلك العذاب بسبب: بسبب كفركم ومعاصيكم، وبأن الله يعذب الكفار بالعدل، لأنه لا يظلم عباده في عقوبتهم، وقد بالغ في نفي الظلم عن نفسه بقوله: «ظلام» فإنه صيغة المبالغة. أو تكثير الظلم لأجل كثرة العبيد. أو لأنّ العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاماً يبلغ الظلم متفاقمه.

وقوله: ﴿كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مرفوع المعلّ بالخبر. تقديره: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون. وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه، أي: داموا عليه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حلّ بهم، أي: ذلك العذاب ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أنّ الله ﴿لَمْ يَكْ مُغْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيَّ قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة ﴿حَتَّى يَتَغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: لا بصحّ ذلك في حكمته حتى يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ. كتغير قريش حالهم في صلة الرحم والكفّ عن تعرّض الآيات والرسل بمعاداة الرسول ومن تبعه منهم، والسعي في إرافة دماثهم، والتكذيب بالآيات

والاستهزاء بها، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعث.

وعن السدي: النعمة محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش، فكفروا به وكذبوه، فنقله إلى الأنصار.

وهذا من جري عادة الله تعالى، فإن عاداته سبحانه جارية على تغيير نعمته متى غير العبد أعماله بأسوأ منه، فإنه كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها. فكفرة قريش كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم النبي بالآيات البيّنات، فكذبوه وعادوه، وتحزّبوا عليه ساعين في اراقة دمه، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغير الله ما أنعم به عليهم من إمهالهم، وعاجلهم بالعذاب.

وأصل «يك» يكون، فحذفت الحركة للجزم، ثم الواو لالتقاء الساكنين، ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً، مع أن كثرة الاستعمال أيضاً مقتضية للتخفيف.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبوا الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

وقوله: ﴿كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد، ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: «بآيات ربهم»، وبيان مأخذ به آل فرعون.

وقيل: الأوّل لتشبيه الكفر والأخذ به، والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم.

﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى المبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، فلم يعاقبوا إلا عن استحقاق.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُرُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

ثم ذم الله سبحانه الكفار، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إِنَّ شَرَّ من يدب على وجه الأرض في معلوم الله أو في حكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإصرارهم على الكفر، ولجأهم وعنادهم فيه، فلا يتوقع منهم إيمان، وهم قوم مطبوعون على الكفر بأنهم لا يؤمنون. وذكر الفاء العاطفة للتنبية على أن تحقق المعطوف عليه مستدعٍ لتحقيق المعطوف.

وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من «الذين كفروا» بدل البعض، للبيان والتخصيص. وهم بنو قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ على أن لا يمالئوا عليه عدوًّا فنكثوا، بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا عليه الأحزاب يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالهم.

و«من» لتضمين المعاهدة معنى الأخذ. والمراد بالمرّة مرّة المعاهدة أو مرّة المحاربة، أي: كلما عاهدتم نقضوا العهد ولم يفوا به. وجعلهم الله شرّ الدواب، لأن شرّ الناس الكفار، وشرّ الكفار المصرون منهم، وشرّ المصرين الذين ينقضون العهد. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة القدر وتبعته، ولا يباليون ما فيه من العار والنار، أو نصر الله للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

فَأَمَّا تَشَقَّقْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَايْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

ثم حكم سبحانه في هؤلاء الناقضين للعهد، فقال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَمَّا

تَتَقَفَّنَهُمْ ﴿ فَإِمَّا تَصَادَفْتَهُمْ وَتَنْظُرْنَ بِهِمْ ﴾ ﴿ فِي الْخِزْبِ فَمَشَرَدٌ بِهِمْ ﴾ ففترق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم والنكايه فيهم ﴿ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴾ مَنْ وراءهم من الكفرة. والتشريد تفريق على اضطراب. ﴿ نَعْلَهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ لعل المشركين يتعظون، فلا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتباراً بهم، واتعاضاً بحالهم.

﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خِيَانَةً ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ على طريق مقتصد مستوٍ في العداوة، وذلك بأن تخبرهم بنبد العهد إخباراً ظاهراً مبيّناً لهم أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تبدأهم بالقتال وهم على توهم بقاء العهد، فيكون ذلك خيانة منك. أو على سواء في الخوف، أو العلم بنقض العهد، وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الأول، أي: ثابتاً على طريق سوي، أو من المنبوذ إليهم، أو منهما على غيره، أي: حاصلين على استواء في الخوف أو العلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ تعليل للأمر بالنبذ، والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال، على طريقة الاستئناف. والمعنى: فلا تخنهم، بأن تناجزهم القتال من غير إعلامهم بالنبذ.

قال الواقدي: هذه الآية نزلت في بني قينقاع، وبهذه الآية سار النبي ﷺ إليهم.

وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِيَّاهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿ ٥٩ ﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴿ ٦٠ ﴾ وَإِنْ جَحَحُوا لِّلْسَلَامِ فَاذْجَحَّ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي  
أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ  
جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

ولما تقدم الأمر بقتال الكفار، عقبه سبحانه بوعد النصر والأمر بالإعداد  
لقتالهم، فقال مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَخْضِبُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبِقُوا﴾ مفعولاً  
«يحسبن»، أي: لا تحسبن يا محمد الكافرين قد سبقوا أمر الله وأعجزوه، وأنهم  
فاتوك، فإن الله تعالى يظفرك بهم كما وعدك، ويظفرك عليهم، والسبق والفوت  
بمعنى واحد.

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص بالياء، على أن الفاعل ضمير أحد، أو «من  
خلفهم»، أو «الذين كفروا» والمفعول الأول أنفسهم، فحذف للترار.  
وقيل فيه: أصله أن سبقوا، وهو ضعيف، لأن «أن» المصدرية كالموصول،  
فلا تحذف.

وقيل: وقع الفعل على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُغْزَوْنَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر، وأن  
«لا»<sup>(١)</sup> صلة، و«سبقوا» حال، بمعنى: سابقين أو مقلتين.

والأظهر أنه تعليل للنهي، أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا، لأنهم لا يفوتون  
الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وكذا إن كسرت «إن» إلا أنه تعليل  
على سبيل الاستثاف، ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو.  
وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

(١) أي: زائدة، فيكون المعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنهم يعجزون.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿لَهُمْ﴾ لِنَاقِضِي الْعَهْدِ أَوْ الْكُفَّارِ ﴿مَا اسْتَمَطَقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ مِنْ كُلِّ مَا يَتَّقَوْنَ بِهِ فِي الْحَرْبِ، مِنْ الْعُدَدِ وَسَائِرِ آيَاتِ الْحَرْبِ.

وعن عقبه بن عامر سمعته رضي الله عنه يقول على المنبر: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي، قَالَهَا ثَلَاثًا». وَمَاتَ عَقِبَةُ عَنْ سَبْعِينَ قَوْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَلَعَلَّهُ رضي الله عنه خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَقْوَاهُ.

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسْمٌ لِلخَيْلِ الَّتِي تُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَوْ مُصَدَّرٌ سَمِّيَ بِهِ. يُقَالُ: رَبَطَ رِبْطًا وَرِبَاطًا، وَرَابَطَ رِمَابِطَةً وَرِبَاطًا. أَوْ جَمَعَ رِبِيطًا، كَفَصِيلٍ وَفَصَالٍ. وَعَظْفُهَا عَلَى «قُوَّةٍ» إِذَا فَسَّرَتْ بِكُلِّ مَا يَتَّقَوْنَ بِهِ، كَعَظْفِ جَبْرِئِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

وجاء في الحديث: «أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَقْرَبُ صَاحِبَ فَرَسٍ، وَلَا دَارًا فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ». وَرَوَى: «أَنَّ صَهِيلَ الْخَيْلِ يَرْهَبُ الْجِنَّ».

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ تُخَوِّفُونَ بِهِ. وَعَنْ يَعْقُوبَ: تُرْهِبُونَ بِالتَّشْدِيدِ. وَالضَّمِيرُ «مَا اسْتَطَعْتُمْ» أَوْ لِلْإِعْدَادِ ﴿عَدُّوا لِلَّهِ وَعَدُّوا لَكُمْ﴾ كَقَارِ مَكَّةَ ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ وَتُرْهِبُونَ كَقَارًا آخَرِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفْرَةِ. قِيلَ: هُمُ الْيَهُودُ. وَقِيلَ: الْمَنَافِقُونَ. وَقِيلَ: الْفَرَسُ. وَقِيلَ: كُفْرَةُ الْجِنَّ. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ لَا تَعْرِفُونَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يَعْرِفُهُمْ، لِأَنَّهُ الْمَطَّلَعُ عَلَى الْأَسْرَارِ.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فِي الْجِهَادِ ﴿يُؤْتِ بِإِنِّكُمْ﴾ يُؤَفِّرُ عَلَيْكُمْ ثَوَابَهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ بِتَضْيِيعِ الْعَمَلِ أَوْ نَقْصِ الثَّوَابِ.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ وَإِنْ مَالُوا لِلصَّلَاحِ أَوْ الِاسْتِسْلَامِ، وَمِنْهُ الْجَنَاحُ. وَقَدْ يَمْدَى بِاللَّامِ وَإِلَى. وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ بِكسر السين. ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وَعَاهَدَ مَعَهُمْ. وَتَأْنَيْتُ الضَّمِيرِ لِحَمْلِ السَّلْمِ عَلَى تَقْيِضِهَا وَهِيَ الْحَرْبُ، أَوْ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى الْمَالَةِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه. فإنَّ الله يعصمك من مكرهم، ويحيقهم بهم. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم.  
والآية مخصوصة بأهل الكتاب، لاتصالها بقصتهم. وقيل: عامة نسختها آية السيف<sup>(١)</sup>. والأصح أنها ليست بمنسوخة، لأنها في المواعدة لأهل الكتاب. وآية السيف لعباد الأوثان.

﴿وَأَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ في الصلح، بأن يقصدوا به دفع أصحابك عن القتال، حتَّى يقوى أمرهم فيبدؤوكم بالقتال بالاستعداد التام ﴿فَأَنْ حَسِبَكَ اللَّهُ﴾ فإنَّ محسبك الله تعالى وكافيك من مكرهم ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِخُنُوعِهِ﴾ وبالمؤمنين ﴿جميعاً، ينصرونك على أعدائك، يريد الأتصار، وهم الأوس والخزرج.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما فيهم من العصبية والضعيفة في أدنى شيء، والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، فإنه لم يكن حيان من العرب بينهما من العداوة مثل ما كان بين هذين الحيين، فألف الله بين قلوبهم حتَّى صاروا كنفس واحدة في التحاب والتواد، وهذا من معجزاته ﷺ.

وبيانه قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كان تناهي عداوتهم بحيث لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح، وإزالة ضغائن الجاهلية ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب، يقلبها كيف يشاء. فتصافوا، وصاروا أنصاراً بسمان الاسلام، وبركة سيّد الأنام عليه وآله أفضل الصلاة والسلام.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة، لا يعصي عليه ما يريد ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده.



يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا  
النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا  
مِثْلِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ  
﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ  
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثْلِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ  
الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُبَدِّلَ فِي الْأَرْضِ  
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ  
مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ  
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار، وحث عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾  
كفايك، وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إتما في محل نصب على المفعول معه.  
والمعنى: كفاك الله مع متبعيك من المؤمنين ناصراً. أو في محل الجر عطفاً على  
المكني عند الكوفيين. أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى، أي: كفاك الله عز وجل  
والمؤمنون. وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ بالغ في حثهم عليه. وأصله  
الحرص. وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى - أي: يشرف - على الموت ﴿إِنْ يَكُنْ

مِنْكُمْ عَشْرُونَ ضَابِرُونَ ﴿٦٤﴾ عَلَى الْقِتَالِ ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ مِنَ الْعَدُوِّ ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اللفظ لفظ الخير . والمراد منه الأمر . وهذه عدة من الله بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بتأييد الله وعونه .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر : تكن بالناء في الآيتين . ووافقهم البصريان في «وإن تكن منكم مائة» .

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أن الكفار جهلة بالله واليوم الآخر ، لا يشبتون ثبات المؤمنين ، رجاء الثواب وعوالي الدرجات قتلوا أو قتلوا . ولا يستحقون من الله تعالى إلا الهوان والخذلان ، فيقاتلون على غير احتساب ثواب كالبهائم .

عن ابن جريج : كان عليهم أن لا يقرّوا ، وبثبت الواحد منهم للعشرة . وكان رسول الله ﷺ بعث حمزة بن عبدالمطلب في ثلاثين راكباً ، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب ، فنقل ذلك عليهم وضجوا منه . وكان ذلك الحكم مدة طويلة ، ثم نسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنتين ، بقوله ﷺ : ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فيه (١) لسان : الفتح ، وهو قراءة عاصم وحمزة . والضّم . وهو قراءة الباقيين . والضعف ضعف البدن . وقيل : ضعف البصيرة والاستقامة في الدين ، وكانوا متفاوتين فيها .

وقال في المجمع : «أراد به ضعف البصيرة والعزيمة ، ولم يرد ضعف البدن . فإن الذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلهم أقوىاء البدن . بل كان فيهم القوي والضعيف ، ولكن كانوا أقوىاء البصيرة واليقين . ولما كثر المسلمون واختلط بهم من كان أضعف يقيناً وبصيرة نزل : «الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» (٢) .

(١) أي : في «ضعفاً» .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٥٥٧ .

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ على القتال ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من العدو ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ منهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلم الله أو بأمر الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلبون؟ قيل: كان فيهم قلة فأمروا بذلك، ثم لما كثروا خفف عنهم. وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة قبل التخفيف وبعده، للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد لا يتفاوت، لأن الحال قد يتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

واعلم أن هذه الآية ناسخة للأولى كما مرّ، والمعتبر في الناسخ والمنسوخ بالنزول دون التلاوة. وعن الحسن: أن النغليظ كان على أهل بدر، ثم جاءت الرخصة.

روي أنه كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه سبعة وعشرين. وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب رسول الله، فجمعوا الأسارى وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم. وقتل من أصحاب رسول الله ﷺ تسعة رجال، منهم سعد بن خيثمة، وكان من النقباء من الأوس.

وعن محمد بن إسحاق: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلاً، أربعة من قريش وسبعة من الأنصار، وقيل: ثمانية. وقتل من المشركين بضعة وأربعون رجلاً.

وعن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أول الليل، فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: سمعت أنين عمي العباس في وثاقه. فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله ﷺ.

وفي كتاب علي بن إبراهيم<sup>(١)</sup>: لما قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين منهم وهم قومك وأسرتك، فخذ من هؤلاء الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش.

وروي أن النبي ﷺ يوم بدر كره أخذ الفداء، حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه، فقال: يا رسول الله هذا أول حرب لقينا فيه المشركين، والإتيان في القتل أحب من استبقاء الرجال. وكذا قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، فقدّمهم واضرب أعناقهم، ومكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، ومكّنتي من فلان أضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال أبو بكر: أهلك وقومك؛ استبقهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار.

وأيضاً في كتاب علي بن إبراهيم<sup>(٢)</sup>: كان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم، وأقله ألف درهم. فبعثت قريش بالفداء أولاً فأولاً، فبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع، وبعثت قلائد لها كانت خديجة جهّزتها بها، وكان أبو العاص ابن أخت خديجة، فلما رأى رسول الله ﷺ تلك القلائد قال: رحم الله خديجة هذه قلائد هي جهّزتها بها، فأطلقه رسول الله ﷺ بشرط أن يبعث إليه زينب، ولا يمنعها من اللحوق به، فعاهده على ذلك ووفى له، وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم، وأقله ألف درهم.

ثم نزلت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾ ما استقام لنبي وما صح له ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى﴾

(١) تفسير القمي ١: ٢٧٠.

(٢) لم نجده في تفسير علي بن إبراهيم، والظاهر أنه من كلام الطبري، إذ نقل أولاً عن كتاب علي بن إبراهيم ثم عقبه بما في المتن هنا، وحسبه المؤلف أنه من تنمة المنقول عن تفسير القمي. راجع مجمع البيان ٤: ٥٥٩.

من المشركين لفيديهم أو يمنّ عليهم. وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَسْتَنِي يُحْجَنِي فِي الْأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه بإشاعته. حتى يبدل الكفر ويقبل حزبه، ويعزّز الإسلام ويستولي أهله، من: أئخنه المرض إذا أثقله. وأصله التخانة.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. سمي عرضاً لأنه حدث قليل اللبث. والخطاب للمؤمنين الذين رغبوا في أخذ الفداء من الأسرى. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة، من إعزاز دينه وقمع أعدائه.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكلّ حال ويخصّه بها، ولهذا أمر بالإلتحان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين. وخير بينه وبين المنّ لما تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: حكم فيه ﴿سَبَقَ﴾ في اللوح بإباحة الغنائم لكم، ومن ذلك الفداء، ورفع التعذيب عن أهل بدر. أو عن قوم لم يصرّح لهم بالنهي عنه، أو عن الخطأ في اجتهادهم لأنهم نظروا في أنّ استبقاءهم ربّما كان سيئاً في إسلامهم وتوبتهم، وأنّ فداءهم يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أنّ قتلهم أعزّ للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأقلّ لتسوكتهم. ﴿لَمَسْكُكُمْ﴾ لنا لكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال ابن زيد: قال رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية: «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منكم غير عمر وسعد بن معاذ».

وقيل: معناه: لولا كساب من الله في القرآن أنّه لا يعذبكم والنبّي بين أظهركم، حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية، فإنّها من جملة الغنائم. وقيل: أمسكوا عن

الغنائم ولم يمدّوا أيديهم إليها بعد العتاب على الفداء، فنزلت. والفاء للتسيب، والسبب محذوف، تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وينحوه تشبّهت من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة.

﴿خَلَّالًا﴾ حال من المغموم أو صفة للمصدر، أي: أكلاً حلالاً. وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنوبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾  
وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَابَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

روي أن رسول الله ﷺ كلف العباس أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث.

فقال: يا محمد تركتني أتكفّف<sup>(١)</sup> قريشاً ما بقيت.

فقال: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك، وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقتهم.

فقال: وما يدريك؟

(١) تكفّف الناس: مدكّفه إليهم يستعطي.

قال: أخبرني به ربي.

قال: فأشهد أنك صادق، لا إله إلا الله وأنت رسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله. ولقد دفعته إليها في سواد الليل، ولقد كنت مرتاباً في أمرك، وإذا أخبرتني بذلك فزال ربي وشكّي في نبوتك.

فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ أي: أيديكم قابضة عليهم، وقرأ أبو عمرو: من الأسارى. والقراءة الأولى أولى، لأن الأسير فعيل بمعنى المفعول، وذلك يجمع على فعلى، نحو جريح وجرحى. وقيل: وجه القراءة الثانية تشبيهه بكسالى، كما شبهوا كسلى بأسرى.

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص عقيدة وصحة نيّة في الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء إما بأن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يشيكم في الآخرة. قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، لي الآن عشرون عبداً، إن أدناهم لضرب - أي: ليسافر - في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني: الموعد بقوله: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وروي أنه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفاً، فتوضاً لصلاة الظهر، وما صلّى حتى فرّقه. وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، وأرجو المغفرة.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني: الأسرى ﴿خِيَانَتَكُمْ﴾ نقض ما عاهدوك من الاسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بأن خرجوا إلى بدر وقاتلوا مع المشركين، أو بأن نقضوا الميثاق المأخوذ بالعقل ﴿فَأَمَّا مَنْ مِنْهُمْ﴾ أي: فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر، وسيمكنك منهم ثانياً إن خانوك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يقولونه، وبما في نفوسكم، ويجمع الأشياء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا  
 لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ  
 النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾  
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ  
 كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

ثم ختم الله سبحانه السورة بإيجاب موالاته المؤمنين وقطع موالاته الكافرين .  
 فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي : فارقوا أوطانهم حباً لله تعالى ولرسوله . وهم  
 المهاجرون من مكة إلى المدينة . ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكراع<sup>(١)</sup>  
 والسلاح ، وأنفقوها على المحارِبِ ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ، ونصروهم على  
 أعدائهم ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي : يتولى بعضهم بعضاً في الميراث . وكان  
 المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب ، أو بالمواخاة ، وهذا  
 مروى عن أبي جعفر عليه السلام ، ثم نسخ بقوله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾<sup>(٢)</sup>  
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي : من

(١) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير ، أو اسم لجماعة الخيل خاصة .

(٢) الأنفال : ٧٥ .



توليهم في الميراث. وقرأ حمزة: **وَلَا يَتِيهِمُ بِالْكَسْرِ**. قال الزجاج: هي بفتح الواو من النصره والنسب، وبالكسر هي بمنزلة الإمارة. ووجه الكسر أنه شبه تولي بعضهم بعضاً بالصناعة والعمل، لأن كل ما كان من هذا الجنس مكسور، كالصياغة والكتابة، فكان الرجل بتوليّه صاحبه يباشر أمراً ويزاول عملاً.

﴿وَأِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ كُفْرًا﴾ أي: وإن طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا منكم النصره لهم على الكفار ﴿فِي الَّذِينَ فَعَلْتُمْ الْفَضْرَ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ﴾ من المشركين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد، فلا يجوز لكم نصرهم عليهم، لأنهم لا يتدؤون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في السيرات أو المؤازرة. وهو بفهمه يدل على نهى المسلمين عن موالاته الكفار ومعاونتهم، وإن كانوا أقارب ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تفعلوا ما أمرتم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار، وجعل قرابتهم كلا قرابة في التوارث ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة عظيمة فيها، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا  
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ  
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ  
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

ولما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام، بين أن الكاملين في الايمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. ثم عدلهم الموعد الكريم بقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لاتبعة ولا منة فيه، وذلك لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة، والانسلاخ من الأهل والمال لأجل الدين. وليس بترك، لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم، والآية الأولى للأمر بالتواصل.

ثم أحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد فتح مكة. وقيل: من بعد إيمانكم. ﴿وَهَاجَرُوا﴾ بعد هجرتكم ﴿وَجَاهَدُوا﴾ في الجهاد وبذل الأموال فيه ﴿مَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون. يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(١)</sup> فألحقهم الله بهم تفضلاً منه وترغيباً، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. وحكمهم كحكمكم في وجوب موالاتهم ونصرتهم وإن تأخر إيمانهم وهجرتهم.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وأولوا القرابات ﴿يَعْتَصِمُ أُولَئِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح، أو في القرآن. وهذا نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة كما مر آنفاً. وفيه دلالة على أن من كان أقرب إلى الميت في النسب كان أولى بالميراث. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من المواريث والحكمة، في إنسانيتها بنسبة الاسلام والمظاهرة أولاً، واعتبار القرابة تانياً.





## سورة التوبة

بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا  
فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي  
الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

مدنية، وآياتها مائة وتسع وعشرون.

ولها أربعة<sup>(١)</sup> عشر اسماً:

البراءة، لأنها مفتحة بها، ونزلت بإظهار البراءة من الكفار.

والتوبة، لكثرة ما فيها من ذكر التوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ

يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾<sup>(٣)</sup>.

والفاضة، لأنها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم.

(١) ذكر الشارح ﴿١٠٠﴾ ثلاثة عشر اسماً فقط، وسقط الرابع عشر من قلمه، وهو - كما في تفسير

البيضاوي ٣: ٥٨ - المخزية، لما فيها مما يخزي المنافقين.

(٢ - ٤) التوبة: ١٥ و ٧٤ و ١١٨.

والمبصرة. لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين. أي: تبحث عنها.

والمنفرة لذلك، لأنّ التتّير بمعنى البحث والتفتيش.

والمقشقة. لأنها تبريء من آمن بها من النفاق والشرك، لما فيها من الدعاء

إلى الإخلاص. يقال: قشقه إذا برّأه، وقشقه المريض من علته إذا برىء منها وأفاق.

والبعوث، لأنها تتضمّن ذكر المنافقين والبحث عن سرائرهم.

والمدممة، أي: المهلكة، ومنه قوله: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

والحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسرّونه.

والمثيرة، لأنها أثارَت مخازيهم ومقابحهم.

والمنكّلة، لأنها تتكلّمهم.

والمشرّدة، إذ تشرّدهم.

وسورة العذاب، لأنها نزلت بعذابهم.

وإنما تركت التسمية فيها، لأنها نزلت لرفع الأمان، وبسم الله أمان، كما ورد

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم راس سورة براءة،

لرفع الأمان وللسيف». وهذا منقول عن سفيان بن عيينة. واختاره أبو العباس

المبرّد.

وقيل: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا نزلت عليه سورة أو آية يبيّن موضعها، وتوفّي ولم

يبيّن موضعها، وكانت قصّتها تشابه قصّة الأنفال وتناسبها، لأنّ في الأنفال ذكر

العهود، وفي براءة نبذها، فضمّت إليها، ولهذا سمّينا قريتين، وتعدّان السابعة من

السبع الطوال.

وقيل: لما اختلفت الصحابة في أنّهما سورة واحدة - وهي سابعة السبع

الطوال - أو سورتان تركت بينهما فرجة. ولم يكتب «بسم الله» لقول من قال: هما سورة واحدة.

ويؤيد الأول ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «الأنفال وبراءة واحدة». وروي ذلك عن سعيد بن المسيّب، عن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له». الخبر بتمامه مضى ذكره في صدر سورة الأنفال<sup>(١)</sup>.

وروى الثعلبي بإسناده عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما نزل عليّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو الله أحد، فبأنهما نزلتا ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة».

وعلى قول من قال إنهما سورتان قيل: ولما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة من الكفار، افتتح هذه السورة بأنه تعالى ورسوله بريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم في سورة الأنفال، فقال: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه براءة. و«من» ابتدائية متعلّقة بمحذوف تقديره: واصلة من الله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: انقطاع منهما للعصمة، ورفع الأمان، وخروج من العهود. ويجوز أن تكون براءة مبتدأ، لتخصّصها بصفتها، والخبر قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما تقول: رجل من قريش في الدار. والمعنى: أن الله ورسوله برئتا من العهد الذي عاهدتم به المشركين.

وإنما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين، للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول. فإنهما برئتا الآن منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً، منهم بنو ضمرة وبنو كنانة، فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين، وأمهل المشركين أربعة أشهر

ليسيروا أين شاؤا. فقال خطاباً للمشركين: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾  
شَوَّالِ وَذِي الْقَعْدَةِ وَذِي الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ. آمَنِينَ أَيْنَ شِئْتُمْ، وَذَلِكَ لِصِيَانَةِ الْأَشْهُرِ  
الْحَرَمِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ فِيهَا.

وقيل: إنَّ براءة نزلت في شَوَّالِ سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان.  
وقيل: كان ابتداءؤها من النحر إلى العاشر من ربيع الآخر، لأنَّ التبليغ كان يوم النحر.  
وهو الأصح، لأنَّه مروى عن أبي عبد الله عليه السلام.

وقال ابن عباس: إنَّما أجَّلهم الأشهر الأربعة من شَوَّالِ إلى آخر المحرم، لأنَّ  
هذه الآية نزلت في شَوَّالِ.

قال في الكشاف: «كان نزول براءة سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة  
ثمان، وكان الأمير عتاب بن أسيد، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر على موسم الحج  
سنة تسع، ثم أتبعه علياً عليه السلام راكباً العضباء - وهي ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - ليقرأها  
على أهل الموسم. فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر. فقال: لا يؤدِّي عني إلا رجل  
متي. فلما دنا علي عليه السلام سمع أبو بكر الرغاء فوقف، فقال: هذا رغاء ناقة رسول  
الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور.

وروي: أنَّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبرئيل، فقال: يا محمد لا  
يبلغ رسالتك إلا رجل منك، فأرسل علياً عليه السلام. فرجع أبو بكر إلى رسول  
الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أشيء نزل من السماء؟ قال: نعم، فسر وأنت على  
الموسم، وعلي ينادي بالآي. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن  
مناسكهم. وقام علي يوم النحر عند جمره العقبة فقال: يا أيها الناس إنني  
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. وعن  
مجاهد ثلاث عشرة آية. ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام  
مشرك. ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة. وأن يتم كل

ذي عهد عهده. فقالوا عند ذلك: يا عليّ أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف»<sup>(١)</sup> انتهى كلامه.

وقال في المجمع: «روى عاصم بن حميد، عن أبي بصير، عن الباقر عليه السلام قال: خطب عليّ عليه السلام الناس يوم النحر، واختلط سيفه فقال: لا يطوفنّ بالبيت عريان، ولا يحججنّ بالبيت مشرك، ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته، ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر، وقرأ عليهم سورة براءة»<sup>(٢)</sup>.

وقيل: إنه أخذها من أبي بكر قبل الخروج ودفعها إلى عليّ عليه السلام، وقال: لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني.

وروى أصحابنا: أن النبي صلى الله عليه وآله ولّاه أيضاً الموسم، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن سماك بن حرب، عن أنس بن مالك: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث ببراءة مع أبي بكر إلى أهل مكّة، فلما بلغ ذا الحليفة بعث إليه فردّه، وقال: لا يذهب بهذا إلا رجل من أهل بيتي، فبعث عليّاً عليه السلام»<sup>(٣)</sup>. وتحريم القتال في الأشهر الحرم قد نسخ، وأببح قتال المشركين فيها بعد ذلك.

﴿وَاغْلَبُوا أَنْتُمْ غُنْجِيَّ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي: مذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

(١) الكشاف ٢: ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) مجمع البيان ٥: ٣ - ٤.

(٣) شواهد التنزيل ١: ٣٠٥ ح ٣٠٩.



وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ  
 مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ  
 عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

ولما أخبر بثبوت البراءة أخبر بعد ذلك بوجود الإعلام بما ثبت، فقال:  
 ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي: إعلام منهما إليهم. فعال بمعنى الإفعال.  
 أي: الإيذان، كالأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء. والمراد من الناس الناكثون،  
 أو جميع الناس من عاهد منهم ومن لم يعاهد، ورفع كرفع براءة بعينه على  
 الوجهين، فالجملة معطوفة على مثلها.

﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ قيل: يوم النحر، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن  
 الإعلام كان فيه، ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع،  
 فقال: هذا يوم الحج الأكبر، وروي أن علياً عليه السلام أخذ رجل بلجام دابته فقال: ما  
 الحج الأكبر؟ فقال: يومك هذا، خل عن دابتي. وقيل: يوم عرفة، لقوله ﷺ:  
 «الحج عرفة».

ووصف بالحج الأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج  
 ما يقع في ذلك اليوم من أعماله، فإنه أكبر من باقي الأعمال. أو لأن ذلك الحج  
 اجتمع فيه المسلمون والمشركون، ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، ولم يتفق ذلك

قبله ولا بعده، فمعظم في قلب كل مؤمن وكافر، وظهر فيه عزّ المسلمين وذلّ المشركين.

﴿ اِنَّ اللّٰهَ ﴾ أي: بأن الله، حذف الباء تخفيفاً، ﴿ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ أي: من عهودهم ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ عطف على الضمير المستكن في «بريء» ﴿ فَاِنْ قُتِلْتُمْ ﴾ من الكفر والغدر ﴿ فَهُوَ ﴾ فالتوب ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الإقامة عليهما، لأنكم تنجون به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ وَاِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن التوبة، أو تبتم على التوَلَّى والإعراض عن الاسلام والوفاء ﴿ فَاَعْلَمُوْا اَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِيْ اللّٰهِ ﴾ غير سابقين الله هرباً، ولا فائتين أخذه وعقابه، وفي هذا إعلام بأن الإمهال ليس بعجز، بل إنما هو لإظهار الحجة والمصلحة.

ثم أوعدهم بعذاب الآخرة فقال: ﴿ وَيَبْشُرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْبَلِيْمِ ﴾ في الآخرة، وذكر البشارة مكان النذارة للتهكم.

وقوله: ﴿ اِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾ استثناء من المشركين أو استدراك، فكأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد إلى الناكثين: ولكن الذين عاهدوا منهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوْكُمْ شَيْئًا ﴾ من شروط العهد أصلاً ولم ينكثوه، أو لم يقتلوا منكم ولم يضرّوكم قط ﴿ وَلَمْ يَظَاهِرُوْا عَلَيْكُمْ اَحَدًا ﴾ من أعدائكم ﴿ فَاَتَيْمُوا اِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ اِلَىٰ مَدِيْنَتِهِمْ ﴾ إلى تمام مدّتهم التي وقع العهد إليها، ولا تجروهم مجرى الناكثين، ولا تجعلوا الوفاء كالغادر ﴿ اِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ ﴾ تعليل وتنبية على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

والمراد بهم بنو كنانة وبنو ضمرة وأشباهم، فإنهم قد بقي من أجلهم تسعة أشهر، فأمر النبي ﷺ بإتمامها لهم، لأنهم لم يظاهروا على المؤمنين، ولم ينقضوا عهد رسول الله ﷺ. أو المراد أهل هجر وأهل البحرين وأيلة ودومة الجندل، فإن له ﷺ عليهم عهداً بالصلح والجزية، ولم ينبذ إليهم بنقض عهد ولا حاربهم بعد، لأنهم لم ينقضوا العهد، وكانوا أهل ذمّة إلى أن مضى لسبيله ﷺ.

فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ قَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ  
 وَخَذُواهُمْ وَأَخَصَرُواهُمْ وَأَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا  
 الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ  
 اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

ثم بين سبحانه الحكم في المشركين بعد انقضاء المدّة. فقال: ﴿فَإِذَا  
 اسْتَلَخَ﴾ انقضى. وأصل الانسلاخ خروج الشيء ممّا لا يلبسه، من سلخ الشاة  
 ﴿الْأَشْهُرَ الْحَرَّمَ﴾ التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها. وقيل: هي رجب  
 وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ثلاثة سرد، وواحد فرد. وهذا مخلّ بالنظم،  
 لأنّ اللام في الأشهر الحرم إشارة إلى أربعة أشهر في قوله: «فسيحوا في  
 الأرض أربعة أشهر» فصرّفه إلى غيرها مخلّ بالنظم، وأيضاً مخالف  
 للاجماع.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين، وضعوا السيف فيهم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من  
 حلّ أو حرم ﴿وَخَذُواهُمْ﴾ وأسروهم. والأخذ الأسير. ﴿وَأَخَصَرُواهُمْ﴾  
 واحبسوهم. أو حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. أو امنعوا من التصرف في  
 البلاد. ﴿وَأَقْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ كلّ مرز وطريق ترصدونهم، أي: ضيقوا المسالك  
 عليهم لتلا يتبسطوا في البلاد، فتمكّنوا من أخذهم. والأمر للتخيير. واتصابه على

الظرف، كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾<sup>(١)</sup>. وهذا ناسخ لكل آية وردت في الصلح والإعراض عنهم.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك بالإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. والمعنى: قبلوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لأنَّ عصمة الدم لا تقف على إقامة الصلاة وأداء الزكاة، فثبت أنَّ المراد به القبول. ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوهم ولا تعرّضوا لهم بشيء من ذلك، أو دعوهم يحجّوا ويدخلوا المسجد الحرام. وفيه دليل على أنَّ تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر، أي: فخلّوهم، لأنَّ الله غفور رحيم، غفر لهم ما قد سلف من كفرهم وغدرهم، ووعد لهم الثواب بالتوبة.

﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرّض لهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. و«أخذ» رفع يفعل يفتره ما بعده، لا بالابتداء، لأنَّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. فتقدير الكلام: وإن استجارك أحد ﴿فأجزه﴾ فأتمه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ ابْتَغِهِ مَأْفَقَهُ﴾ موضع آمنه بعد ذلك - يعني: داره التي يأمن فيها - إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كلِّ وقت، وعن الحسن: هي محكمة إلى يوم القيامة. وإنما خصَّ كلام الله لأنَّ معظم الأدلّة فيه.

﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر بالاجارة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الايمان، وما حقيقة ما تدعوهم إليه؟ فلا بدّ من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبّرون.

وعن سعيد بن جبير: «جاء رجل من المشركين إلى عليّ عليه السلام فقال: إن أراد الرجل منّا أن يأتي محمّداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة

قتل؟ قال: لا، لأن الله يقول: «وإن أحد من المشركين استجارك» الآية.

وعن السدي والضحاك: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ  
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقِيمِينَ  
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ  
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا  
فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ  
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصَّلَ آيَاتِ الْقَوْمِ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَوْا أَيْمَانَهُمْ مِنْ  
بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ  
يَنْهَوْنَ ﴿١٢﴾

ولما أمر سبحانه بنبذ العهد إلى المشركين. بين أن العلة في ذلك ما ظهر  
منهم من الغدر. وأمر بإتمام العهد لمن استقام على الأمر، فقال: ﴿كَحَيْفَ يَكُونُ

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴿ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة<sup>(١)</sup> صدورهم وغدرهم، أو لأن يفى الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه. وخبر «يكون»: «كيف»، وقدّم للاستفهام. أو «للمشركين» أو «عند الله»، وهو على الأولين صفة للعهد، أو ظرف له، أو لقوله: «يكون». و«كيف» على الأخيرين حال من العهد. وقوله: «للمشركين» إن لم يكن خبراً فتيبين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل من بني كنانة وبني ضمرة ونظرائهم. ومحلّه النصب على الاستثناء، أو الجرّ على البدل، أو الرفع على أنّ الاستثناء منقطع، أي: ولكنّ الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ ما تحتمل الشرطيّة والمصدرية، أي: فترتبوا أمرهم فلا تقاتلوهم، فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء. أو ما داموا باقين معكم على الطريقة المستقيمة فكونوا معهم كذلك. وهذا كقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> غير أنّه مطلق وهذا مقيد. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ للنكت والغدر، فإنّ الترتب بهم من أعمال المتقين.

﴿كَخَيْفٍ﴾ تكرر لاستبعاد ثباتهم على العهد، أو بقاء حكمه، مع التنبيه على العلة. وحذف الفعل للعلم به، أي: كيف يكون لهم عهد؟ ﴿وَأَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: وحالهم أنّهم إن يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لَا يَزُقُّوْا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا ولا يحفظوا ﴿إِلَّا﴾ حلفاً، وقيل: قرابة، وقيل: ربوبية. ولعلّه اشتق للحلف من الأل، وهو الجوار<sup>(٣)</sup>. يقال: له أليل. أي: أنين يرفع به صوته، لأنّهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم، ثم استعير للقرابة، لأنّها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل: اشتقاقه من: ألل الشيء إذا حدّده، أو من: أَلَّ

(١) الْوَعْرُ: الحقد والعداوة والضغن، ووَغْرَةُ الصدر: شدّة غيظه.

(٢) التوبة: ٤.

(٣) جَارٌ يَجَارُ جُؤَارًا إِلَى اللَّهِ: رفع صوته بالدعاء.

البرق إذا لمع. ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله وإهماله.

وقوله: ﴿يُرْضَوْنَكَمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ كلام مستأنف في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد، وإياء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل، وهذه المخالفة موجبة لعدم مراقبتهم عند الظفر. والمعنى: يتكلمون بكلام الموالين لترضوا عنهم ﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ ما تنفوه به أفواههم، للعداوة والغدر ونقض العهد.

﴿وَإِخْرَجْتَهُمْ فَأَسِيقُونَ﴾ متمرّدون في الكفر والشرك، لأنّه لا عقيدة لهم تمنعهم، ولا مروءة تردعهم، وهم رؤساء الكفرة. أو خارجون عن طريق الوفاء بالعهد. وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التباعد عن الغدر، والتعقّف عمّا يجزّ إلى أحدوثه السوء. ولا يجوز جعل هذه الجملة الفعلية حالاً من فاعل «لا يرقبوا»، فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن والاسلام ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَضَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عن دينه الموصل إلى رحمته، وصرّفوا غيرهم عنه، أو سبيل بيته بحصر الحجّاج والعمّار. والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أذاهم إلى الصّد.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بس العمل عملهم هذا، أو ما دلّ عليه قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير، وقيل: الأوّل عامّ في الناقضين، وهذا خاصّ بالذين اشتروا، وهم اليهود أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُصَفَّدُونَ﴾ المجاوزون النّاية في الظلم والشرارة.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والصّد ونقض العهد ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنُؤُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبيّها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحثّ على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال النّائبين، فكانت قيل: ومن تأمل تفصيلها فهو العالم.

﴿وَأَنْ نَّكْفُرُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ وإن نقضوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود  
 ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ من بعد أن عقدوها ﴿وَوَطَّعُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب  
 وتقييح الأحكام ﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: ققاتلوهم. فوضع أئمة الكفر موضع  
 الضمير، للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر والضلالة.  
 أحقاء بالقتل. وقيل: المراد بالأئمة رؤساء المشركين. فالتخصيص إما لأن قتلهم  
 أهم. وهم أحق به، أو لمنع من مراقبتهم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: أئمة، بتسهيل<sup>(١)</sup> الثانية بلا فصل بينهما.  
 وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب: أئمة، بتحقيق الهمزتين  
 على الأصل. والتصريح بالياء لحن.

وعن حذيفة: لم يأت أهل هذه الآية بعد. وقرأ علي<sup>عليه السلام</sup> الآية يوم الجمل، ثم  
 قال: «والله لقد عهد إلي رسول الله ﷺ وقال لي: يا علي لتقاتلن الفئة الناكثة،  
 والفئة الباغية، والفئة المارقة».

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، أي: لا عهود لهم على الحقيقة - يعني: لا يحفظونها -  
 وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا. فلا تعطوهم الأمان بعد النكث والردة. وفيه دليل على أن  
 الذمي إذا طعن في الاسلام فقد نكث عهده. وقرأ ابن عامر: لا إيمان، بمعنى: لا  
 أمان أو لا إسلام.

وعلى القراءة الأولى استشهد الحنفي على أن يعين الكافر ليس يمينا. وهو  
 ضعيف، لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان.

وعلى الثانية تشبث بها من لم يقبل توبة المرتد. وهو أيضاً ضعيف، لجواز أن  
 يكون بمعنى: لا يؤمنون، على أن الإخبار عن قوم معينين، إذ ليس لهم إيمان  
 فيراقبوا لأجله.

(١) أي: تُلَقِّظُ الهمزة الثانية بين بين، أي: بين مخرج الهمزة والياء.



وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق بـ«قاتلوا» أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، لا إيصال الأذى بهم كما هو طريقة المؤذنين. وهذا من غاية كرمه العميم وفضله الجسيم، جل كرمه وعظم فضله.

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

ثم حرض المؤمنين على القتال، فقال: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ دخول الهمزة على «لا» للإنكار، فأفادت المبالغة في الفعل والتحريض فيه، أي: هلا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم؟ التي حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا بني بكر على خراعة ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة. فأذن الله له في الهجرة، فخرج بنفسه، على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾<sup>(١)</sup>. وقيل: هم اليهود نكثوا عهد رسول الله، وهموا بإخراجه من المدينة.

﴿وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة، لأنه <sup>بَدُّوْكُمْ</sup> بدأهم بالدعوة والزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة. والبادي أظلم، فما يمنعكم أن تقابلوهم وتقاتلوهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ الهمزة للتوبيخ الذي يتضمن التشجيع، أي: أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تركوا أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالي بمن سواه، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع ص: ٣٣ ذيل الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ  
 قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ  
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم أمرهم بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه، والتوعيد عليه،  
 فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسراً ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾  
 غلبة. هذا وعد للمؤمنين إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكّن من قتلهم وإذلالهم.  
 ليثبت قلوبهم ويصحّ نياتهم ﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم،  
 يعني: بني خزاعة. وعن ابن عباس: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة وأسلموا،  
 فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا فإنّ الفرج  
 قريب.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه، وقد أوفى الله تعالى بما  
 وعدهم به، والآية من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ استئناف كلام، وفيه  
 إخبار بأنّ بعضهم سيتوب عن كفره، وقد كان ذلك أيضاً، فإنّ كثيراً منهم قد أسلموا  
 وحسن إسلامهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما كان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل  
 ولا يحكم إلا على وفق الحكمة والمصلحة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

ثمّ تبه سبحانه على جلاله موقع الجهاد، فقال خطاباً للمؤمنين حين كره

بعضهم القتال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أم منقطعة. ومعنى الهزيمة فيها التوبيخ على الحساب. والمعنى: لا تظنوا أنكم تتركون على ما أنتم عليه ﴿وَلَمَّا يَسْأَلْكُمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ والحال أنه لم يبين الله ولم يميز الخالص منكم، وهم المجاهدون في سبيل الله لوجه الله. نفى العلم وأراد نفى المعلوم للمبالغة، فإنه كالرهان عليه، من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه، كما يقال: ما علم الله ما قيل في فلان، أي: ما وجد ذلك. و«لَمَّا» معناها التوقع، فدلّت على أن تميّز ذلك وإيضاحه متوقّع كائن.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على «جاهدوا» داخل في الصلة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُوبِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَجْزِيَ﴾ هو الذي يعرفه الرجل أسرارته ثقة به. شبهة ببطانة الثوب، كما شبهه بالشعار. فعيلة من: ولج، كالدخيلة من: دخل. يعني: بطانة وأولياء يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم أعمالكم فيجازيكم عليها. وهو كالمزيح لما يتوهم من ظاهر قوله: «ولمَّا يعلم الله».

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ  
بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ  
مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ  
إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ولمّا أمر الله تعالى بقتال المشركين، وقطع العصمة والموالاة عنهم، أمر بمنعهم عن المساجد، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صحّ لهم وما استقام ﴿أَنْ

يَعْفُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴿ شَيْئاً مِنَ الْمَسَاجِدِ، فضلاً عن المسجد الحرام الذي هو صدرها ومقدمها. وقيل: هو المراد، وإنما جمع لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامة الجميع، أو لأن كل موضع منه مسجد. ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد.

﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ حال من الواو في «يعمروا». ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وتكذيبهم الرسول، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون حول البيت عراة، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها.

وقيل: هو قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. والمعنى: ما استقام أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة بيت الله تعالى، وعبادة غيره.

روي أن المهاجرين والأنصار عثروا أسارى بدر، ووثق علي بن العباس حين أسر بقتال رسول الله وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول. فقال العباس: تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقالوا: ألكم محاسن؟ قالوا: نعم. ونحن أفضل منكم أجراً. إنا لنعمر المسجد الحرام. ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني. فنزلت: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. لأنهم أوقفوها على الوجه الذي لا يستحق لأجله الثواب عليها عند الله. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ مقيمون مؤبدون لأجله.

﴿إِنَّمَا يَعْفُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ بحدودها المعتبرة في شرع الاسلام ﴿وَأَتَى الزُّكُوتَ﴾ إن وجب عليه إلى مستحقها. والمعنى: إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، لا لغيرهم. ومن عمارتها: رم ما استهدم منها، وكنسها وتنظيفها، وتزيينها بالفرش، وتنويرها

بالسرج، وزيارتها للعبادة، وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم، وصيانتها مما لم تن له، كحديث الدنيا.

وفي الحديث: يأتي في آخر الزمان ناس من أمّتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاتاً، ذكرهم الدنيا وحبّ الدنيا، لا تجالسوهم، فليس الله بهم حاجة.

وروي أيضاً عن النبي ﷺ: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش».

وقال أيضاً ﷺ: «قال الله تعالى: إن بيوتني في أرضي المساجد، وإن زوّاري فيها عمّارها، فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحقّ على المزور أن يكرم زائر».

وعنه ﷺ: «من ألف المسجد ألفه الله».

وقال ﷺ: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايان».

وعنه أيضاً برواية أنس: «من أسرج في مسجد سراجاً لم تنزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه».

وإنما لم يذكر الايمان بالرسول لما علم أنّ الايمان بالله قرينه، وتمامه الايمان به، ولدلالة قوله: «وأقام الصلاة وآتى الزكاة» عليه.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: في أبواب الدين، فإنّ الخشية عن المحاذير جليلة لا يكاد الرجل يتمالك عنها. قيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها، فأريد نفي تلك الخشية عنهم. ﴿فَقَسْنَىٰ أَوْلِيكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإنّ هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتادوهم دائراً بين عسى ولعلّ فما ظنك بأضدادهم؟ ومتعاً للمؤمنين أن يفتروا بأحوالهم ويتكلوا عليها.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
 الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ  
 وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ  
 بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

روي عن الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: أن علي بن أبي  
 طالب عليه السلام والعباس بن عبدالمطلب وطلحة بن شيبه افتخروا، فقال طلحة: أنا  
 صاحب البيت، ويدي مفتاحه، ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب  
 السقاية والقائم عليها. وقال علي عليه السلام: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة  
 ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد. فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ  
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

السقاية والعمارة مصدران من: سقى وعمر، أفلا يشبهان بالجنث، بل لا بد من  
 إضمار، تقديره: أ جعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن؟ أو أ جعلتم سقاية الحاج  
 كإيمان من آمن؟ ويؤيد الأول قراءة من قرأ: سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام.  
 ومعنى الهمة إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المسحطة بالمؤمنين وأعمالهم  
 المثبتة.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي﴾ إلى طريق الثواب ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكفرة ظلّمة بالشرك ومعاداة الرسول ﷺ، منهمكون في الضلالة، فكيف يساؤون الذين هداهم الله ووقّهم للحقّ والصواب؟! وقيل: المراد بالظالمين الذين يسوّون بينهم وبين المؤمنين.

عن ابن سيرين: أَنَّ عَلِيًّا ؓ قَالَ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَمُّ أَلَا تَهَاجِرُ، أَلَا تَلْحَقُ بِرَسُولِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَلَسْتُ فِي أَفْضَلِ مِنَ الْهَجْرَةِ: أَعْمَرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَأَسْقِي حَاجَّ بَيْتِ اللَّهِ؟ فَزَلْتِ.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريده، عن أبيه قال: «بينا شيبه والعبّاس يتفاخران إذ مرّ بهما عليّ بن أبي طالب ؓ، فقال: بماذا تتفاخران؟

فقال العبّاس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاجّ.  
وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام.

فقال عليّ ؓ: استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا.  
فقالا: وما أوتيت يا عليّ؟

قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتما بالله ورسوله ﷺ.  
فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني عليّ؟

فقال: ادعوا عليّاً، فدعي له، فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمك؟  
فقال: يا رسول الله صدمته بالحقّ، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض.  
فنزل جبرئيل وقال: يا محمّد إنّ ربك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عمك: «أجعلتم سقاية الحاجّ» الآيات.

فقال العبّاس: قد رضينا، ثلاث مرّات»<sup>(١)</sup>.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَغْظَمَ نَجْوةً  
عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية  
والعمارة عندكم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ المختصون بالفوز بالثواب ونيل الحسنی  
عند الله دونكم.

﴿يَبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَبِرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ  
مُقِيمٌ﴾ دائم لا يزول. وقرأ حمزة: يبشرهم بالتخفيف. وتنكير المبشر به من الرحمة  
والرضوان والنعيم المقيم، إشعار بأنها وراء صفة الواصف وتعريف المعرف.  
﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأييد، لأنه قد يستعمل للمكث الطويل  
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبه لأجله، أو نعم الدنيا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا  
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ تَمَكَّنْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ  
آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ  
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي  
سَبِيلِهِ فَتَرْتَبِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنها نزلت في ابن أبي بلتعنة حيث  
كتب إلى قريش بخبر النبي صلى الله عليه وآله لما أراد فتح مكة، فنهاه الله تعالى وسائر  
المؤمنين عن موالاته الكفار وإن كانوا في النسب الأقربين، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه



وحرّضوا غيرهم عليه.

وقيل: نزلت نهياً عن موالاته التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمتنونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة.

وقيل: نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرتنا، وذهبت تجارتنا، وبقينا ضائعين.

وروي: أن من المهاجرين من تعلقت به زوجته، ومنهم من تعلق به أبواه وأولاده، فكانوا يمتعونهم من الهجرة، فيتركونها لأجلهم. فبهذه الآية بين سبحانه أن أمر الدين مقدّم على النسب، وإذا وجب قطع قرابة الوالدين والولد فالأجنبي أولى. وبعد نزولها هاجروا، فجعل الرجل يأتيه أبوه وابنه وأخوه أو بعض أقربائه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، وبعد ذلك رخص لهم في الإنفاق.

ثم قال تأكيداً لهذا النهي بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُولْهُمْ مَغْتَمًا﴾ فترك طاعة الله لأجلهم، أو أطلعهم على أسرار المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاته في غير محلها. وفي الحديث: «لا يجد أحد طعم الإيمان حتى يحب في الله ويغض في الله، وحتى يحب في الله أبعد الناس، ويغض في الله أقرب الناس إليه». ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم.

مأخوذ من العشرة. وقيل: من العشرة، فإن العشرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة. وقرأ أبو بكر: عشيراتكم. ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها واقتطعتموها وجمعتوها ﴿وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ تخافون أنها تكسد إذا اشتغلتم بطاعة الله تعالى والجهاد ﴿وَمَسَاكِينُ قَرْضُونَهَا﴾ اخترتموها لأنفسكم، ويعجبكم المقام فيها ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من طاعتهما ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي، فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه ﴿فَقَرَّبُوهَا﴾ فانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ جواب الشرط متضمن للوعيد. والأمر بمعنى العقوبة

العاجلة أو الآجلة. وقيل: فتح مكة. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يرشدهم. بل يخليهم لعنادهم.

وفي الآية تشديد عظيم، فإن فيها تكليف المؤمن أن يتجرد من الآباء والأبناء والعشائر وجميع حظوظ الدنيا لأجل الدين، وقل من يتخلص منه. اللهم وفقنا لما يوافق رضاك، حتى نحبّ فيك الأبعدين، ونبغض فيك الأقربين.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَكُم كُرُوكُمْ  
فَلَمْ تُقِنْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ  
﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ  
تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ تَوَبَّ اللَّهُ مِنْ  
بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

ولما تقدّم أمر المؤمنين بالقتال، ذكرهم بعده ما أتاهم من النصرة حالاً بعد حال، فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني: مواطن الحرب، وهي مواقعها ومواقفها. وروى عن الصادقين عليهم السلام أنهم قالوا: أنها كانت ثمانين موطناً. وروى أن المتوكل اشتكى في مرضه شكاية شديدة، فنذر أن يتصدّق بمال كثير إن شفاه الله، فلما عوفي سأل العلماء عن حدّ المال الكثير، فاختلفت أحوالهم، فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى عليهم السلام، وقد كان حبسه في داره، فأمر أن يكتب إليه، فكتب: يتصدّق بثمانين درهماً. ثم سألوه عن العلة في ذلك، فقرأ هذه الآية، وقال: عدّنا تلك المواطن قبلن ثمانين موطناً.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين. ويجوز أن يقدر: في أيام موطن، أو يفسر الموطن بالوقت، كقتل الحسين عليه السلام. ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَفَرْتُكُمْ﴾ من «يوم حنين» أن يعطف على موضع «في موطن» فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف، حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جميع المواطن.

وهذا قول القاضي في تفسيره<sup>(١)</sup>، ردّ بذلك قول الزمخشري في الكشاف حيث قال: «الواجب أن يكون «يوم حنين» منصوباً بفعل مضمّر لا بهذا الظاهر. وموجب ذلك أن قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ» بدل من «يوم حنين» فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح. لأنّ كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت «إِذْ» بإضمار: اذكر<sup>(٢)</sup>».

وحنين وادّ بين مكة والطائف، كانت فيه الواقعة بين المسلمين - وهم اثنا عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف حضروا فتح مكة، وقد انضمّ إليهم ألفان من الطلقاء - وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف.

فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن تغلب اليوم من قلة. فساءت مقاتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: قائلها أبو بكر. وقد روي عن أصحابنا: أن أبا بكر عانهم، وعلياً عليه السلام أعانهم. فاقتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المسلمون حتى بلغ فلهم<sup>(٣)</sup> مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مركزه، وبقي علي عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم. والعبّاس بن عبدالمطلب أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن يمينه، وأبو سفيان بن الحارث بن

(١) أنوار التنزيل ٣: ٦٤.

(٢) الكشاف ٢: ٢٥٩.

(٣) فلّ القوم: هزمهم، ورجل فلّ وقوم فلّ: منهزم ومنهزمون.

عبدالمطلب عن يساره في تسعة من بني هاشم، وعاشرهم أيمن بن أم أيمن.  
وقال ﷺ للعباس وكان صيئاً: صح بالناس. فنادى: يا معشر المهاجرين  
والأنصار، يا أهل بيعة الشجرة. يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ هذا  
رسول الله ﷺ. فكروا وهم يقولون: لبيك لبيك. ونزلت الملائكة عليهم البياض  
على خيول بلق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين فقال: الآن حمي  
الوطيس<sup>(١)</sup>.

أنا النبي لا كذب      أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم به، ثم قال: انهزموا ورب الكعبة، فانهزموا  
ونزل النصر من عند الله، وانهزمت هوازن، كما حكى الله تعالى ذلك بقوله: ﴿قَلِمَ  
تُفَنِّ عَفْكَكُمْ﴾ أي: الكثرة ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء، أو من أمر العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ  
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾. «ما» مصدرية، والباء بمعنى «مع»، أي: مع رحبها - أي:  
سعتها - لا تجدون فيها مفرّاً تطمئنّ إليه نفوسكم من شدة الرعب، أي: لا تثبتون  
فيها، كمن لا يسعه مكانه، فكأنها ضاقت عليكم. والجازّ والمجرور في موضع  
الحال، أي: ملتبسة برحبها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ﴾ الكفار ظهوركم ﴿مُذْبِرِينَ﴾ منهزمين.  
والإدبار الذهاب إلى خلف، خلاف الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وآمنوا ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا. وإعادة الجازّ للتنبية على اختلاف حالهما. وقيل: هم  
الذين ثبتوا مع الرسول ولم يفرّوا.

وروي الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال:  
«السكينة ريح من الجنة تخرج منها طيبة، لها صورة كصورة وجه الانسان، تكون

(١) في هامش النسخة الخطية: «الوطيس: التور، مثل في شدة الحرّ، فجعله رسول الله ﷺ  
كناية عن شدة الحرب. منه».

مع الأنبياء». رواه العياشي (١) مسنداً.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم، يعني: الملائكة. وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو ستة عشر ألفاً، على اختلاف الأقوال. عن الجبائي: أن الملائكة نزلوا يوم حنين بتقوية قلوب المؤمنين وتشجيعهم، ولم يباشروا القتال يومئذٍ، ولم يقاتلوا إلا يوم بدر.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر، وسبي النساء والذراري، وسلب الأموال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم.

روي: أن ناساً منهم جاءوا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وقد سبي يومئذٍ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال: إن عندي ما ترون، إن خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم.

فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً.

فقام رسول الله ﷺ فقال: إن هؤلاء جاءوا مسلمين، وإننا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه.

فقالوا: رضينا وسلمنا.

فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك

إلينا. فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ إِنَّ  
اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

ولما تقدّم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهم عن المسجد  
الحرام، وحظر عليهم دخوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾  
مصدر. يقال نجس نجساً، وقدر قدراً. ومعناه: ذووا نجس. فجعلوا نجاسة بعينها  
مبالغة في وصفهم - لقرط خبث باطنهم وظاهرهم - بها، كقولهم: زيد فسق، فإن  
معهم الشرك الذي هو رأس النجاسات التي يجب الاجتناب عنها، فالاجتناب عنه  
بطريق أولى، ولأنهم لا يجتنبون الأحداث والأخبار.

وعن ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من  
صافح مشركاً توضأ. وعن الصادق عليه السلام: من صافح الكافر ويده رطبة غسل يده.  
وبه قال فقهاؤنا، فإن الكفار بأنواعهم كافر نجس العين، وظاهر الآية يدل على  
ذلك، وبه أيضاً روايات متظاهرة مروية عن أئمتنا عليهم السلام.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم. وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة، أو  
للمنع عن دخول الحرم، فلا يحجّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية  
﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة براءة النبي ندى فيها علي عليه السلام بالبراءة، وقال: لا يحجّرن  
بعد هذا العام مشرك، وهو عام تسع من الهجرة. وقيل: سنة حجّة الوداع. وعندنا  
أنهم كما منعوا من المسجد الحرام منعوا من جميع المساجد، لاشتراك العلة، وهي  
النجاسة.

وقال قتادة: سآهم نجسآ لأنهم يجنبون ولا يغتسلون، ويحدثون ولا يتوضؤون. ولم يجتنبوا عن أنواع النجاسات، فمنعوا من دخول المسجد. كما أن الجنب وصاحب النجاسات لا يجوز لهم دخول المسجد.

وروي عن عمر بن عبدالمزير أنه كتب: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» الآية، للعلّة المشتركة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قرأ بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان لكم في قدومهم عليكم من الارفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه، أو تفضله على وجه آخر. وقد أنجز الله وعده. أن أرسل السماء عليهم مدراراً أكثر به خيرهم، ووفق أهل جدّة وصنعاء وتبالة<sup>(١)</sup> وجرش فأسلموا وامتاروا<sup>(٢)</sup> لهم. ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجّه إليهم الناس من أقطار الأرض، فحملوا الطعام إلى مكّة، وكان ذلك أعود عليهم ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إن أوجبت الحكمة إغناءكم، وكان مصلحة لكم في دينكم.

وفي الأنوار: «قيده بالمشيئة لتقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضّل في ذلك، وأنّ الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام»<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع على وفق الحكمة والمصلحة.

(١) في هامش النسخة الخطيّة: «التبالة - بفتح التاء، وتخفيف الباء الموحّدة - بلدة صغيرة في اليمن، والجرش - بضمّ الجيم، وفتح الراء - مخلاف من مخاليف اليمن، منه». والمخلاف: الكورة من البلاد - وهي: البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى.

(٢) امتار أي: جمع الطعام والمونة، والميرة: الطعام الذي يدخره الانسان.

(٣) أنوار التنزيل ٣: ٦٥.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ  
يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

وعن ابن عباس: أن الشيطان ألقى في قلوبهم الخوف وقال: من أين  
تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب، وأغناهم بالجزية. ثم بين أن من الكفار من  
يجوز تقيته بالجزية، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لا  
يؤمنون بهما على ما ينبغي، كما بيّناه في أوائل<sup>(١)</sup> سورة البقرة، فإن إيمانهم كلا  
إيمان، ولأن اليهود مثنية والنصارى مثلثة.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة.  
وقيل: رسوله هو الذي يزعمون أتباعه. والمعنى: أنهم يخالفون أصل دينهم  
المنسوخ اعتقاداً وعملاً.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها.  
فالمعنى: ولا يعتقدون دين الاسلام الذي هو الحق. يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذ  
دينه ومعتقده.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان لـ«الذين لا يؤمنون» ﴿حَتَّى يُعْطُوا  
الْجِزْيَةَ﴾ ما تقرّر عليهم أن يعطوه. مشتق من: جرى دينه إذا قضاه، فإنها قطعة من  
المال على أهل الذمة أن يجزوه. أي: يقضوه ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من الضمير. أي: عن  
يد مواتية غير ممتنعة، بمعنى: منقادين. أو عن يدهم، بمعنى: مسلمين بأيديهم غير



باعثين بأيدي غيرهم، ولذلك منع من التوكيل فيه. أو عن غنى، ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير. أو عن يدٍ قاهرة عليهم، بمعنى: أذلاء عاجزين. أو حال من الجزية، بمعنى: تقدماً مسلّمة عن يدٍ إلى يدٍ أو عن إنعام عليهم، فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أذلاء. وهو أن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب، ويسلمها وهو قائم والآخذ جالس، وأن يؤخذ بتليبيه<sup>(١)</sup> ويقال له: أدها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ<sup>(٢)</sup> عنقه.

ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب. ويؤيده أن عمر لم يكن يأخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر، وأنه قال: ستوا بهم سنة أهل الكتاب. وذلك لأن لهم شبهة كتاب، فالحقوا بالكتابيين. وهذا موافق لمذهب فقهاءنا الامامية.

وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا وعند الشافعي. وأما عند الحنيفة فتؤخذ منهم إلا من مشركي العرب. وعند مالك تؤخذ من كل كافر إلا المرتد. وبيان كمية الجزية وسائر ما يتعلق بها من كيفية الأخذ وغيرها مذكور في كتب الفقه.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُرِضَ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

(١) لبيت الرجل تلييباً، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جررته.

(٢) أي: تضرب باليد أو غيرها.

﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ  
 وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا بِهَا وَإِنَّا إِلَٰهٌ وَإِلَٰهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾  
 يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى  
 الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ  
 وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
 يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ  
 ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخَمَّىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ  
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

ثم حكى الله سبحانه عن اليهود والنصارى أقوالهم الشنيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ  
 الْيَهُودُ﴾ أي: بعضهم لا كلهم ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. وهو اسم أعجمي،  
 كعازر وعيزار وعزرائيل. ولعجمته وتعريفه امتنع من الصرف. وقرأ عاصم  
 والكسائي ويعقوب منوناً على أنه عربي. وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة  
 بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياء الله تعالى بعد مائة عام أملى عليهم التوراة  
 حفظاً، فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول  
 كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا، مع تهالكهم على التكذيب.

وعن ابن عباس: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك.

وقيل: قائله فنخاص، وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى ﷺ، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزيز وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبرئيل فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه.

﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَىٰ﴾ أي: بعضهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب، أو لأنه لا يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إنما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم، ونفي للتجاوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق، مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يضاهي قولهم قول الذين كفروا، بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. والمضاهاة المشابهة، والهمزة لغة فيه، وقد قرأ به عاصم، ومنه قولهم: امرأة ضهياً على فَعَيْلٍ، للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم. والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم، على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو قول المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، أو قول اليهود على أن الضمير للنصارى.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله تعالى هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. وقال ابن الأنباري: المقاتلة من القتل، فإذا أخبر عن الله بها كانت بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. ﴿أَنَّهُ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف

يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن اطاعوهم في تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرّم الله، أو بالسجود لهم، كما تطاع الأرباب في أوامرهم. ولهذا يسمّى أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿يَا أَيَّتُهَا الشُّعْبَةُ لَا تَعْبُدِي الشُّعْبَانَ﴾<sup>(٢)</sup>.

روى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك. قال: فطرحت. ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: «اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ». فقلت: إننا لسنا نعبدهم. فقال: أليسوا يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرّمه فتحلّونه؟ قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام أنّهما قالا: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا، ولكنهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم فعبدوهم من حيث لا يشعرون».

وعن فضيل: ما ابالي أطمعت مخلوقاً في معصية الخالق، أو صلّيت لغير القبلة.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أهلوه للعبادة حين جعلوه ابناً لله تعالى. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرُّحْنِ وَتَدَّ فَاثَنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. ﴿وَمَا أَمْرُوا﴾ وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً، فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ ﴿إِلَّا يَعْْبُدُوا﴾ ليطيعوا ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وهو الله تعالى. وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله تعالى

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) مريم: ٤٤.

(٣) الزخرف: ٨١.

بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله تعالى. والأمر هو أدلة العقل والنصوص في الانجيل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية، أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ يخدموا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقدسه عن الولد، أو القرآن، أو نبوة محمد ﷺ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بشركهم، أو بتكذيبهم ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ﴾ الإياء في الأصل المنع والامتناع. وقد جرى مجرى عدم الإرادة والرضا هاهنا. فالمعنى: ولا يريد ولا يرضى ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الاسلام. وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب، لأنه في معنى النفي كما فسر.

وقيل: إنه سبحانه مثل حالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بتكذيبه، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الإضاءة والإنارة، ليطفئه بنفخه ويطمسه.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ محذوف الجواب، وهو: لأنتم، لدلالة ما قبله عليه.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ بالحجج والدلائل المبيّنة ﴿وَيُبَيِّنُ الْحَقَّ﴾ أي: الاسلام وما تضمنته من أحكامه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ كالبيان<sup>(١)</sup> لقوله: «ويأبى الله إلا أن يتم نوره» ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع «المشركون» موضع «الكافرون». للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله. والضمير في «ليظهره» للذين الحق أو للرسول. واللام في الدين للجنس، أي: ليعلي دين الاسلام على سائر الأديان بالحجة والغلبة فينسسخها، أو على أهلها فيخذلهم حتى لا يبقى على وجه الأرض إلا مغلوب، فلا يغلب أحد أهل الاسلام بالحجة، وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجة. وأما الظهور بالغلبة،

(١) خبر لقوله: وقوله، في أول العبارة.

فهو أن كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم.

وقيل: أراد عند نزول عيسى ﷺ لا يبقى أهل دين إلا أسلم أو أدى الجزية. وقال أبو جعفر ﷺ: «إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد ﷺ، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد ﷺ».

وقال الكلبي: لا يبقى دين إلا ظهر الاسلام عليه، وسيكون ذلك ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك.

قال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الاسلام إما بعز عزيز وإما بذل ذليل، أما بعزهم فيجعلهم الله من أهله فيعزوا به، وأما بذلهم فيدينون له».

وعن ابن عباس: أن الهاء في «ليظهره» عائد إلى رسول الله ﷺ، أي: ليحلّمه الله الأديان كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: يأخذونها ويتناولونها من الجهة التي يحرم منها أخذه. وسمى أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. والمعنى: أنهم كانوا يأخذون الرشا في تبديل الأحكام وتخفيف الشرائع والمسامحة فيها من عوامهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويمنعون غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن اتباع دينه الذي هو الاسلام.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ﴾ يقتنون ويجمعون ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يراد به الكثير من الأخبار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضمّ بها. وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدّون حقّه. وحينئذٍ اقترانه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدلّ عليه أنه لما نزل كبر على المسلمين، فذكر عمر لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لم

يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم».

وقوله ﷺ: «ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان باطنياً. وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً» معناه: فليس بكنز أو وعد الله عليه. فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله تعالى أن ينفق فيه.

وكذلك قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها». وقوله: «تباً للذهب وتباً للفضة. قالها ثلاثاً. فقالوا له: أي مال نتخذ؟ قال: لساناً ذاكراً. وقلباً خاشعاً. وزوجة تعين أحدكم على دينه». وتوفي رجل فوجد في منزره دينار. فقال عليه الصلاة والسلام: «كَيْتَان». <sup>(١)</sup> وتوفي آخر فوجد في منزره ديناران. فقال عليه الصلاة والسلام: «كَيْتَان». معناه: ما لم يؤدَّ حقها. لقوله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها. إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار. فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره».

والضمير في «ولا ينفقونها» إلى المعنى. لأن المراد بهما دنائير ودراهم كثيرة. كما قال عليّ ﷺ: «أربعة آلاف وما دونها نفقة. وما فوقها كنز».

وقيل: الضمير راجع إلى الأموال التي يتضمَّنهما الذهب والفضة. أو معناه: ولا ينفقونها والذهب. كما أن معنى قوله: فأني وقَّيَّار بها لغريب. أي: وقَّيَّار كذلك. وحينئذٍ تخصيص الضمير بالفضة لقربها، ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم.

وإنما خصَّ الذهب والفضة من بين الأموال بالذكر. لأنهما قانون التناول. وأثمان الأشياء. ولا يكثرهما إلا من فضلا عن حاجته.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو الكيُّ بهما.

قوله: ﴿يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوم توقد النار ذات حمى شديد

(١) الكَيْتَةُ: اسم المرأة من: كوى.

عليها، من قوله: نار حامية. ولو قيل: يوم تحمى، لم يعط هذا المعنى، وأصله: تحمى بالنار، فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور، تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير.

﴿فَتَكْوَىٰ بِهَا﴾ بتلك الكنوز المحماة ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ تخصيص هذه المواضع، لأن جمعهم وإسماهم كان لطلب الوجاهة بالفنى عند الناس، والتنعم بالمطاعم الشهية، بحيث يتضلعون منها وينفخون جنوبهم، وبالملايس البهية التي يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك. أو لأنهم كانوا يعبسون وجوههم للسائل ويولونه جنوبهم وظهورهم في المجالس. أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة، فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسة التي هي الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن ومآخيره وجنباؤه.

﴿هَذَا مَا كُنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول، أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لمنفعتها، وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنَزْتُمْ تَكْفِيرُونَ﴾ أي: وبال كنزكم والمال الذي تكنزونه وتجمعونه وتمنعون حق الله منه، فحذف لدلالة الكلام عليه.

أورد مسلم بن الحجاج في الصحيح<sup>(١)</sup> أنه قال رسول الله ﷺ: «وما من عبد له مال لا يؤدي زكاته إلا جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنباؤه وظهره، حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».



وروى ثوبان عن النبي ﷺ قال: «من ترك كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً»<sup>(١)</sup> أقرع له ذنبان يتبعه، ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركت بعدك، فلا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضها، ثم يتبعه سائر جسده».

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَتِيمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ  
أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

ولما ذكر سبحانه وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير إخراج الزكاة وغيرها من حقوق الله منه، اقتضى ذلك أن يذكر النهي عن مثل حاله، وهو الظلم في الأشهر الحرم الذي يؤدي إلى مثل حاله أو شر منه في المنقلب، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ مبلغ عدد شهور السنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكم الله وتقديره. وهو معمول «عدّة» لأنها مصدر ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، أو في جميع الكتب المنزلة على أنبيائه، أو فيما أثبتته في حكمه وراه حكمة وصواباً. وهو صفة لـ «اثنا عشر».

وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت، أو بالكتاب إن جعل مصدراً. والمعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر مذ خلق الله تعالى الأجرام والأزمنة. وإنما تعبد الله المسلمين أن يجعلوا سنتهم اثني عشر شهراً

لبوافق ذلك عدد الأهلة ومنازل القمر، دون ما دان به أهل الكتاب. والشهر مأخوذ من شهرة الأمر، لحاجة الناس إليه في معاملاتهم وغير ذلك من مصالحهم المعلقة بالشهور.

﴿بِئْسَ أَزْيَعٌ حُرْمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد؛ ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: تحريم الأشهر الحرم هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. والعرب قد تمسكت به وراثته منهما، فكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه.

﴿فَلَا تَتَلَمَّظُوا فِيهِمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها. وأكثر الأمة على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة. وأولوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن، فإنه أعظم وزراً، كارتكابها في الحرم وحال الإحرام. وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا، وما نسخت. ويؤيد الأول ما روي أنه صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذو القعدة.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ جميعاً مؤتلفين غير مختلفين ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً. وهي مصدر: كف عن الشيء، فإن الجميع مكفوف عن الزيادة، وقع موقع الحال من الفاعل أو المفعول ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها.

وفي هذه الآية دلالة على أن الاعتبار في السنين بالشهور القمرية لا الشمسية، والأحكام الشرعية معلقة بها، وذلك لما علم الله تعالى فيه من المصلحة، ولسهولة معرفة ذلك على الخاص والعام.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّوْنَ عَامًا  
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ  
أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

ولما قدّم سبحانه ذكر السنة والشهر، عقبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر. وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، وكانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون شقّ عليهم ترك المحاربة، فكانوا يحلّونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وربما زادوا في عدد الشهور، فيجعلونها ثلاثة عشر شهراً ليتسع لهم الوقت، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ يعني: من غير زيادة زادوها. وعن نافع برواية ورش: إِنَّمَا النَّسِيءُ بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ يَاءٌ وَإِدْغَامُ الْيَاءِ فِيهَا. ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرّمه الله، وهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم.

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضللاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: يُضَلُّ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وعن يعقوب: يُضَلُّ عَلَى أَنْ الْفِعْلُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ التَّخْلِيَةِ. ﴿يُحَلِّوْنَ عَامًا﴾ يحلّون النسيء من الأشهر الحرم سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ ويحرمون مكانه شهراً آخر في سنة أخرى، فيتركونه على حرّمته.

ويروى أنه حدث ذلك في كنانة، لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إِنَّ آلَهِتَكُمْ قَدْ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْمَحْرَمَ فَأَحْلَوْهُ، ثم ينادي في القابل: إِنَّ آلَهِتَكُمْ

قد حرّمت عليكم المحرّم فحرّموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال.  
**﴿لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾** ليوافقوا عدّة الأربعة المحرّمة ولا يخالفوها.  
 وقد خالفوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم. واللام متعلّقة بـ «يحرّمونه». أو بما دلّ  
 عليه مجموع الفعلين **﴿فَيَجِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾** بمواطاة العدّة وحدها من غير مراعاة  
 الوقت.

**﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾** فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**  
 الهداية موصلة إلى الاهتداء، تخلية وخذلاناً، أي: لا يلفظ بهم.  
 بل يخذلهم. أو هداية موصلة إلى الجنّة، لفرط كفرهم وعنادهم.

قال ابن عباس: أوّل من سنّ النسيء عمرو بن يحيى بن قمعة بن جندب،  
 وقال مجاهد: كان المشركون يحجّون في كلّ شهرين، فحجّوا في ذي الحجة  
 عامين، ثمّ حجّوا في المحرّم عامين، ثمّ حجّوا في صفر عامين، وكذلك في  
 الشهور. حتّى وافقت الحجة التي قبل حجة الوداع في ذي القعدة، ثمّ حجّ  
 النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة، فذلك حين قال  
 النبي ﷺ في خطبته: «ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات  
 والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة،  
 وذو الحجة، والمحرّم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان». أراد ﷺ بذلك  
 أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحجّ إلى ذي الحجة، وبطل  
 النسيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَلْتُمْ  
 إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الدُّنْيَا فِي

الْآخِرَةَ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ  
وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ  
اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا  
تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ  
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

روي أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك  
في زمان عسرة وقيظ وقحط ووقت إدراك الثمار، فأحببوا المقام في المسكن  
والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، وكان ﷺ قلما خرج في غزوة إلا كنى  
عنها وورى بغيرها إلا غزوة تبوك، لبعد شقتها وكثرة العدو، ليتأهب الناس،  
فأخبرهم بالذي يريد واستنفرهم. فلما علم الله سبحانه تناقل الناس عاتبهم فقال:  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْتَرُوا﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في  
الجهاد للقربة، وهو هنا غزوة تبوك ﴿إِنَّمَا قُلْتُمْ﴾ أصله: تناقلتم، فأدغمت التاء في  
التاء تم أدخلت همزة الوصل، أي: تباطأتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق به، كأنه ضمن  
معنى الإخلاق والميل فعدي: «إلى» أي: ملتتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم  
﴿أَرْضِيئَكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وغرورها ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها ﴿فَمَا فَتَّاعَ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر.  
﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾  
بالإهلاك بسبب فظيع، كقحط وظهور عدو ﴿وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم

آخرين مطيعين. كأهل اليمن وأبناء فارس ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر تفاقلكم في نصر دينه شيئاً، فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل: الضمير للرسول ﷺ. أي: ولا تضرّوا الرسول، فإن الله وعد له بالعصمة والنصرة ووعدته حق. وفيه سخط عظيم على المتشاكين، حيث هدّدهم بعذاب عظيم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصره دينه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كما قال جلّت قدرته: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: إن تركتم نصرته فسينصره الله. كما نصره وجعله منصوراً على أعدائه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتِي الثَّقَيْنِ﴾ حال كونه أحد اثنين، أي: لم يكن معه إلا رجل واحد - وهو أبو بكر - فلن يخذله من بعد، فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالل دليل عليه - أعني: قوله: «فقد نصره الله» - مقامه. وإن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتّى نصره في ذلك الوقت. فلن يخذله في غيره. وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأنّ همّهم بإخراجه أو قتله تسيب. لإذن الله له بالخروج.

﴿إِذْ هَمَّا فِي الْغَارِ﴾ بدل من «إذ أخرجه» بدل البعض. إذ المراد به زمان متسع. والغار النقب العظيم في الجبل. وهو هاهنا نقب في أعلى ثور. وثور جبل في يمني مكّة على مسيرة ساعة، مكثا فيه ثلاثاً.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثانٍ أو ظرف لـ «ثاني» ﴿بِضَاجِبِهِ﴾ وهو أبو بكر ﴿لَا تَخْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ مطلع علينا وعالم بحالتنا، يحفظنا وينصرنا. ولما دخلا الغار بعث الله حمايتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت فنسجت عليه. وقال رسول الله ﷺ: اللهم أعم أبصارهم. فلما طلع سراقه بن مالك ونظراؤه فوق الغار جعلوا يترددون حوله. ولم يروه ولا يفتنون. فد أخذ الله بأبصارهم عنه. وسراقه لما رأى بيض الحمام

وبيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لانكسر البيض وتفسخ بيت العنكبوت. فانصرفوا.

وروى علي بن إبراهيم بن هاشم قال: «كان رجل من خزاعة فيهم يقال له أبو كرز، فما زال يقفو أثر رسول الله ﷺ حتى وقف بهم على باب الحجر، فقال: هذه قدم محمد، هي والله أخت القدم التي في المقام، وهذه قدم أبي قحافة أو ابنه. وقال: ما جازوا هذا المكان، إمّا أن يكونوا قد سعدوا في السماء، أو دخلوا في الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار. وهو يقول لهم: أطلبوه في الشعاب فليس هاهنا، وكانت العنكبوت نسجت على باب الغار. ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار، فقال أبو بكر: قد أبصرونا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم».

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أمنت التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، فأيقن أنهم لا يصلون إليه.

وقال بعضهم<sup>(١)</sup>: يجوز أن تكون الهاء التي في «عليه» راجعاً إلى أبي بكر. وهذا بعيد، لأن الضمائر قبل هذا وبعده تعود إلى النبي ﷺ بلا خلاف، وذلك في قوله: «إلا تنصروه فقد نصره الله» وفي قوله: «إذ أخرجه» وفي قوله: «لصاحبه» وقوله فيما بعد: «وأيدته» فكيف يتخللها ضمير عائد إلى غيره؟! هذا، وقد قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال في سورة الفتح: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَأَيُّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو

(١) أنوار التنزيل ٣: ٦٨ - ٦٩.

(٢) التوبة: ٢٦.

(٣) الفتح: ٢٦.

ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحينئذ . وعلى هذا الوجه ، الجملة معطوفة على قوله : «نصره الله» . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ يعني : الشرك ، أو دعوة الكفر ﴿ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ يعني : التوحيد ، أو دعوة الاسلام . والمعنى : وجعل ذلك بتخليص الرسول عن أيدي المشركين إلى المدينة ، فإنه المبدأ له ، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن ، أو بحفظه ونصره له حيث حضر .

وقرأ يعقوب : كلمة الله بالنصب ، عطفاً على «كلمة الذين» . والرفع أبلغ ، لما فيه من الاشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها ، فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار . وفي توسط ضمير الفصل تأكيد زيادة فضل كلمة الله في العلو . وأنها المختصة به دون سائر الكلم .

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ في أمره وتدييره .

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّيُوفُ وَسَيَّخَلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

ثم بين تأكيد وجوب الجهاد على العباد فقال : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا ﴾ لنشاطكم له ﴿ وَثِقَالًا ﴾ عنه لمشقته عليكم . أو لقلته عيالكم ولكثرتها ، أو ركبناً ومشاة ، أو خفافاً وثقلاً من السلاح ، أو صحاحاً ومراضاً ، أو شباناً وشيوخاً . ولذلك لما قال ابن أم مكتوم لرسول الله ﷺ : «أعلي أن أنفر؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيَّ



الْأَعْمَى حَرْجٌ ﴿١﴾. الآية. وعن ابن عباس نسخت بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى﴾ ﴿٢﴾.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما على حسب الحال. وهذا يدل على أن الجهاد بالنفس والمال واجب على من استطاع بهما أو بأحدهما ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير، أو علمتم أنه خير، إذ إخبار الله به صدق فبادروا إليه.

﴿تَوْكَانَ﴾ ما دعوا إليه ﴿عَرْضًا﴾ نفعاً دنيوياً ﴿قَرِيْبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفْرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً ﴿لَا تَتَّبِعُوا﴾ لرافقوك طمعاً في المال ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ المسافة التي تقطع بمشقة.

﴿وَسَيُخَلِّفُونَ بِاللهِ﴾ أي: المتخلفون يحلفون بالله إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ يقولون: لو كان لنا استطاعة العدة أو البدن، فإنهم تمارضوا ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ هو ساذ مسد جوابي القسم والشرط. وهذا من المعجزات. لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب للأيمان الكاذبة، فإن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك، أو لما أسروا به من الشرك. وهو بدل من «سيحلفون» أو حال من فاعله. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذلك، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

عَمَّا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ

الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾

(١) النور: ٦٦.

(٢) التوبة: ٩١.

ثم خاطب النبي ﷺ بما فيه شوب العتاب في إذنه لما استأذنه في التأخر عن الخروج معه إلى تبوك، فقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ هو من لطيف المعاتبه فيما غيره منه أولى، لا سيما للأنبياء. وقد أخطأ جار الله<sup>(١)</sup> في أن «عفا الله عنك» كناية عن الجناية والخطأ. ومعناه: أخطأت وبس ما فعلت جانياً. وحاشا سيد الأنبياء وخير المرسلين أن ينسب إليه جناية وخطأ وسوء فعل، لثبوت عصمته بالأدلة العقلية المانعة عن الجناية والخطأ. وقيل: معناه: أدام الله لك العفو.

﴿لِمَ إِذْنْت لَهُمْ﴾ بيان لما كُني عنه بالعفو من ترك الأولى. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في القعود والتخلف عنك حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب؟! وهلا توقفت ا ﴿حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار ﴿وَفَعَلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه. فإنه أولى من إذنتك في التخلف.

قيل: إنما فعل رسول الله شيشين والحال أن تركهما أولى وأحسن: أخذه الفداء. وإذنه للمنافقين، فعاتبه تعالى عليهما ليلتزم بما هو أولى في الأمور.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

ثم بين سبحانه حال المؤمنين والمنافقين في الاستئذان، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ لا يطلب منك الإذن في القعود عن الجهاد معك بالمعاذير الفاسدة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ليس من

عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا. فإنَّ الخَلَصَ منهم يبادرون إليه ولا يوقفونه على الإذن فيه. فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة أهل التقوى، وعدة لهم بأجزل الثواب.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التخلف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين، للإشعار بأنَّ الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما ﴿وَأَزْتَابَتْ﴾ واضطربت وشكَّت ﴿قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ في شكهم ﴿يَقْرَأُونَ﴾ يتحIRON، فإنَّ التردد صفة المتحير، كما أنَّ الثبات صفة المستبصر. والمراد منهم المنافقون.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

ثمَّ أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ إلى الجهاد ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أهبة ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم للخروج إلى الغزو، لعلمه تعالى بأنَّهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالنميمة بين المسلمين ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل وخذلهم، لما علم منهم من الفساد. وإنما وقع الاستدراك بـ«لكن» لأنَّ قوله: «ولو أرادوا الخروج» يعطي معنى النفي، وكأنَّه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج، لأنَّ الله كره انبعاثهم، فضعفت رغبتهم في الانبعاث.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ النساء والصبيان والزمنى، هذا ذمُّ لهم وتعجيز، وهو إذن رسول الله ﷺ لهم في القعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو تمثيل للإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم.

وفي هذه الآية دلالة على أن إذنه ﷻ لهم غير قبيح، وإن كان الأولى أن لا يأذن، ليظهر للناس نفاقهم.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ  
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ آتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ  
 قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾  
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَنْتَهِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ  
 بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ  
 أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ  
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا  
 لِأُحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ  
 بِأَيْدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

ثم بين سبحانه وجه الحكمة في تشييطهم عن الخروج، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾  
 لو خرج هؤلاء المنافقون إلى الجهاد ﴿فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا  
 خَبَالًا﴾ فساداً وشرراً. ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه،  
 لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء. ولأجل هذا التوهم جعل

الاستثناء منقطعاً. وليس كذلك، لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعمّ العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً، لأن الخبال بعض أعمّ العام.

﴿وَلَاؤُضْعُوا جَلَالَكُمْ﴾ ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب والتفريق، أو الهزيمة والتخذيل، من: وضع البعير وضاً إذا أسرع، وأوضعته أنا. والمراد السرعة بالفساد، لأنّ الراكب أسرع من الماشي. ﴿يَبْغُونَكَ الْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في غزواتكم، أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في «أوضعوا». ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ ضعفة من المسلمين يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ بالمصرّين على الفساد، فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ هي اسم يقع على كلّ شرّ وفساد، أي: نصبوا لك الغوائل، وسعوا في تشتيت شملك وتفريق أصحابك. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: يوم أحد، فإنّ ابن أبي وأصحابه كما تخلّفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثبّة الوداع، انصرفوا يوم أحد، وعن سعيد بن جبیر: وقفوا في غزوة تبوك على النبّة ليلة العقبة ليفتكوها به، وهم اثنا عشر رجلاً.

﴿وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكائد والحيل. واحتالوا في إبطال أمرك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: النصر والتأييد الإلهي ﴿وَوَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ علا وغلب دينه وأهله ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي: على رغم منهم. وهو في موضع الحال. والآيتان لتسلية الرسول ﷺ على تخلّفهم، وبيان ما تبطّهم الله لأجله وكره انبعاثهم له، وهتك استارهم وكشف اسرارهم، وإزاحة اعتذارهم، تداركاً لإذن رسوله تخلّفهم، فموتب عليه لترك الأولى.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَلَا تَقْتُلِي﴾ ولا توقعني في الفتنة. وهي الإثم الذي يلزم العصيان والمخالفة. بأن لا تأذن لي. فأني إن تخلفت بعد أمرك بالجهاد أئمت. وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف. أذن له أو لم يأذن. أو في الفتنة. بسبب ضياع المال والعيال، إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بنساء الروم، لما روي أن رسول الله ﷺ لما استنفر الناس إلى تبوك فقال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر، يعني: نساء الروم، فقال جد بن قيس أخو بني سلمة من بني الخزرج: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني ببنات الأصفر، ولكني أعينك بمالي، فإتركني فأني أخاف أن أقتن بهن، لأنني مستهتر بالنساء. فقال: أذنت لك.

﴿الْأَفِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: الفتنة هي التي سقطوا فيها، وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق، لا ما احترزوا عنه ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جامعة لهم يوم القيامة أو الآن، لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها، فكأنهم في وسطها.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسْؤُهُمْ﴾ لفرط حسدهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعضها ﴿فُصِيحَةٌ﴾ كسر وشدة وبلية، كما اصاب يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ الذي نحن متسمون به، من الحذر والعمل بالحزم واليقظ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع، أي: تبجحوا<sup>(١)</sup> بانصرافهم، واستحمدوا رأيهم في التخلف ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن مقام التحدث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم، أو عن الرسول ﷺ ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإتيانه وإيجابه، من النصرة أو الشهادة، أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ، لا يتغير بموافقته ولا بمخالفته. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ متولي أمورنا وناصرنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(١) تبجح وتباجح أي: افتخر وتعظم وتباهى.

لأنَّ حقهم أن لا يتوكلوا على غيره تعالى، فليفعلوا ما هو حقهم.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَبِصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِخْذَى الْخُسْفَيْنِ﴾ إحدى العاقبتين اللتين كلَّ منهما حسنى العواقب: النصره والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَسْتَرْتَبِصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى السوأين ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِذِّهِ﴾ بقارعة من السماء، كما نزلت على عماد وشمود ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرْتَبِصُوا﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَبِصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم، فإنه لا بد أن يلقى كلنا ما يترتبه ولا يتجاوزه. والمراد بالأمر التهديد، كقوله: ﴿اغفَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِئِنْ هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

تم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا يتنفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على

الكفر، فقال: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ نفقاتكم. والأمر في معنى الخير، كقوله: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾<sup>(١)</sup>. ومعناه: لن يتقبل منكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً. ونحوه قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> أي: لن يغفر الله لهم، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم. وفي تساوي الإنفاقين مبالغة في عدم القبول. وهذا جواب قول جد بن قيس: وأعينك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين: أن لا يؤخذ منهم، وأن لا يثابوا عليه.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف، وما بعده بيان وتقرير له، أعني: قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: أن يقبل بالياء، لأن تأنيث النفقات غير حقيقي ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ متشاكلين ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الإعجاب بالشيء أن يسر به سرور راضٍ به متعجب من حسنه. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد جميع المؤمنين. والمعنى: فلا تستحسنوا ما أوتوا به من زينة الدنيا، فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب ﴿وَتَرَهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِئْتٌ﴾ أي: لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون

(١) مریم: ٧٥.

(٢) التوبة: ٨٠.



بالمشركين، فيظهرون الاسلام تقيّة.

﴿ تَوَجِدُونَ مَلْجَأًا حَصَنًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، مُحْتَصِنِينَ بِهِ مِنْ رَاسِ جَبَلٍ أَوْ قَلْعَةٍ  
 ﴿ أَوْ مَفَازَاتٍ ﴾ غيراناً<sup>(١)</sup>. من: أغار الرجل وغار إذا دخل الغور. وقيل: هو تعدية  
 غار الشيء وأغرته أنا، يعني: أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم. ﴿ أَوْ مَدْخَلًا ﴾ مفتعل  
 من الدخول. وأصله: مدتخلاً، أبدل التاء بعد الدال دالاً، أي: نفقاً يتجحرون<sup>(٢)</sup> فيه.  
 وقرأ يعقوب: مَدْخَلًا، من: دخل، أي: موضع دخول يأوون إليه. ﴿ لَوَلُّوا إِلَيْهِ ﴾  
 لأقبلوا نحوه ﴿ وَهُمْ يَجْفَحُونَ ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء. كالفرس  
 الجموح.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا  
 مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ ﴿ ٥٨ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا  
 حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿ ٥٩ ﴾

روى الثعلبي في تفسيره: أن رسول الله ﷺ كان يقسم غنائم حنين،  
 فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليه. فقال ابن ذي الخويصرة رأس  
 الخوارج: اعدل يا رسول الله. فقال: ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر: يا  
 رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه. فقال النبي ﷺ: دعه، فإن له أصحاباً يحترق  
 أحدهم صلواته مع صلواتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق  
 السهم من الرمية. ثم قال: رأسهم رجل أسود في إحدى يديه أو إحدى يديه مثل

(١) جمع الفار.

(٢) انجحر أي: دخل الجحر.

ثدي المرأة، أو مثل البضعة<sup>(١)</sup> تَدْرُدُ<sup>(٢)</sup>، يخرجون على فترة من الناس. وفي حديث آخر: فإذا خرجوا فاقتلوا. ثم إذا خرجوا فاقتلوا، ثم إذا خرجوا فاقتلوا.

قال أبو سعيد الخدري: أشهد أنني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً عليه السلام حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته رسول الله. وفي ابن أبي خويصرة نزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ وَيَيبِكُ وَيَطْغَنُ عَلَيْكَ﴾. وقرأ يعقوب: يَلْمِزُكَ بِالضَّمِّ، وابن كثير: يلامزك. ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ في قسمتها. ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين، فقال: ﴿فَإِنِ اغْتَوُوا مِنْهَا رِضْوَانًا﴾ وطابت نفوسهم وأقرروا بالله ﴿وَإِن لَّمْ يَغْفُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ «إذا» للمفاجأة نائب مناب الفاء الجزائية.

وقيل: إنها نزلت في أبي الجواظ المنافق. قال: الا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل. وقال ابن زيد: قال المنافقون: ما يعطيها محمد ﷺ إلا من أحب. ولا يؤثر بها إلا من هواه، فنزلت.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بما أعطاهم الرسول من الغنيمة أو الصدقة. وذكر الله للتعظيم، وللتنبية على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره تعالى ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفاً بفضل الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا اليوم ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ زَاغِبُونَ﴾ في أن يغفينا من فضله. والآية بأسرها في حيز الشرط، والجواب محذوف، تقديره: لكان خيراً لهم.

(١) البضعة: القطعة من اللحم.

(٢) أي: ترجرج وتجيء وتذهب. راجع لسان العرب ٤: ٢٨٣.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي  
الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، ودلالة  
على أن أهل النفاق ليسوا من مستحقيها، وأنهم بعداء عن مصارفها، فمالهم التكلم  
فيها ولمن قاسمها، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي: الزكوات لهؤلاء  
الأصناف الثمانية مختصة بهم، ولا يجوز صرفها في غيرهم. ونحوه: إنما السخاء  
لحاتم، أي: ليس لغيره، ويحتمل أن يصرف إلى بعضها. وعن حذيفة وابن عباس  
وغيرهما من الصحابة أنهم قالوا: في أي صنف منها وضعتها أجزأك، وهو مذهبننا.  
فأتى بـ«إنما» التي للحصر للدلالة على أنه لا يستحقها سوى هؤلاء المذكورين.

واختلف في اللام في الفقراء هل للتملك أو لبيان المصرف؟ فقال الشافعي:  
بالأول، فيجب البسط على الأصناف، ويعطى من كل صنف ثلاثة لا أقل. وقال  
مالك وأبو حنيفة بالثاني، فلا يجب البسط، بل لو أعطى زكاته واحداً من أي صنف  
كان جاز، لكن أبو حنيفة لا يعطي ما يؤدي إلى الغني، فلو خالف فعل مكروهاً،  
وملكه المعطى، وبرتت الذمة. ومالك يجوز ذلك إذا أمل إغناه.

وقال أصحابنا: يجوز أي صنف كان ولو واحداً منهم، لكن البسط أفضل،  
وبذلك قال ابن عباس وحذيفة وغيرهما من الصحابة، لأن كون اللام للتملك لا  
وجه له، فإن المستحق لا يملك قبل الأخذ، ولأن حملها على بيان المصرف موافق  
لقول النبي ﷺ الذي عابه المنافقون، فيكون أولى.

والفقير من لا مال له ولا كسب يقع موقماً من حاجته، من الفقار، كأنه أصيب

فقاره. والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون. كأن العجز أسكنه. ويدل عليه قوله: ﴿أَمَّا السَّقِينَةُ فَمَا كَانَتْ بِمَسْكِينٍ﴾<sup>(١)</sup>. وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتموّد من الفقر. وقيل: بالعكس، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾<sup>(٢)</sup>. أو الفقير الزمن المحتاج. والمسكين الصحيح المحتاج. أو الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل. والمسكين الذي يسأل. وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام، ومنقول عن ابن عباس والحسن والزهري ومجاهد. وقيل: بالعكس. وقيل: إنهما قسم واحد، والثاني تأكيد الأوّل، كعطشان نطشان<sup>(٣)</sup>. والتحقيق: أنهما يشتركان في معنى عديمي، وهو عدم ملك مؤونة السنة له ولعياله الواجب النفقة لو كان غنياً.

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها ﴿وَالْمَوْلُفَّةَ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا وتبهم ضعيفة فيه، فيستألف قلوبهم. أو أشرف من العرب يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم. وقد أعطى رسول الله ﷺ عينه بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك. وقيل: أشرف يستألفون على أن يسلموا، فإنه ﷺ كان يعطيهم. وقيل: كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الاسلام والاستعانة بهم. فلما أعزّه الله وأكثر أهله سقط.

﴿وَفِي الرُّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب، وهم المكاتبون يعانون بشيء من الزكاة على أداء النجوم ليفكوا رقابهم من الرق. والعبيد إذا كانوا في شدة يشترون منها ويعتقون، ويكون ولاؤهم لأرباب الزكاة. وعندنا يجوز ابتياع العبيد مطلقاً من الزكاة مع عدم المستحق، أما مع وجوده فلا. والعدول عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة للدلالة على أنهم أحق بأن توضع فيهم الصدقات ممن سبق ذكره، لأن «في» للوعاء. وعلى أن المستحقين قسمان: قسم يقبض لنفسه، وهم الفقراء

(١) الكهف: ٧٩.

(٢) البلد: ١٦.

(٣) انطش: شدة جبلة الخلق. وعطشان نطشان: إتباع. راجع لسان العرب ٦: ٣٥٤ - ٣٥٥.

والمساكين والعاملون والمؤلفة. فهؤلاء يصرفونه في أي جهة شاؤا. فهم مختصون به، فناسب ذلك اللام. وقسم يقبض لأجل جهة معينة يصرفه فيها، ولا يجوز صرفه في غيرها. وهم الرقاب والغارمون وابن السبيل. فناسب ذلك «في».

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ هم الذين ركبتهم الديون في غير معصية، إذا لم يكن لهم وفاء ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على ابتياع الكراع<sup>(١)</sup> والسلاح إجماعاً. وقيل: يدخل فيه بناء القناطر والمصانع وسائر مصالح المسلمين.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله في الغربة، وإن كان غنياً في بلده. وإنما سمي ابن السبيل للزومه الطريق، فنسب إليه. ويشترط في استحقاقه كون سفره مباحاً، والضيف إن كان منقطعاً به في غير بلده فهو داخل في ابن السبيل. وإنما كثر «في» في الأخيرين، ولم يعطف على الرقاب كما عطف الغارمين عليه، لفضل ترجيح لهما.

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية، أي: فرض لهم الصدقات فريضة. أو حال من الضمير المستكن في «للفقراء». ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِنَا خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

روي أن جماعة من المناقبين منهم الجلاس بن سويد وشاس بن قيس

(١) الكراع: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

ومخشى بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر وغيرهم قالوا ما لا ينبغي للنبي ﷺ وذمّوه. فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمداً ما تقولون فيوقع بنا. فقال الجلاس بن سويد: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً أذن سامعة، فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد. والمعنى: هو يسمع كل ما يقال له ويصدقّه. سمي بالجارحة للمبالغة. كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك. أو اشتق له فعل من: أذن اذناً إذا استمع، كأنف وشلل.

﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أذن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله.

ثم فسر ذلك بقوله: «يُؤْمِنُ بِالله» يصدق به، لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم، لما علم من خلوصهم. واللام مزيدة للترفة بين إيمان التصديق، فإنه بمعنى التسليم، وإيمان الأمان، كما في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: هو رحمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سرّه ولا يفضحه، فلا يفعل به ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليه. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم، بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم.

وقرأ حمزة: ورحمة بالجر، عطفاً على «خير» أي: هو أذن خير ورحمة، ولا يسمع غيرهما، وقرأ نافع: أذن بالتخفيف فيهما.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإذاته. وقيل: نزلت هذه الآية

في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أدلم<sup>(١)</sup> أحمر العينين أسفع<sup>(٢)</sup> الخدين مشوه الخلقة، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين. فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئاً صدقه، نقول ما شئنا ثم نأتية ونحلف له فيصدقنا. وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: من اراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

وقيل: إن جلاس بن سويد وغيره من المنافقين قالوا: لئن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير. وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس. فقال: والله ما يقول محمد حق، وأنتم شر من الحمير. ثم أتى النبي ﷺ وأخبره، فدعاهم فسألهم، فحلفوا أن عامراً كذب. فنزلت: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ معاذيرهم فيما قالوا ﴿لِيُرْضَوْكُمْ﴾ لترضوا عنهم، والخطاب للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق. وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين. أو لأن الكلام في إيذاء الرسول وإرضائه. أو لأن التقدير: والله أحق أن يرضوه، والرسول كذلك. ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ باطناً وظاهراً، مدعين بنبوّة محمد مقرين به.

وقيل: إنها نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلفهم ويحلفون.

(١) الأدلم: الذي اشتد سواده في ملوسة.

(٢) الأسفع: أسود اللون إلى حمرة.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا  
 ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا  
 فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنِ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

ثم قال سبحانه على وجه التقرير والتوبيخ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الشأن ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يشاققهما، مفاعلة من الحد ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر، أي: فحق أن له، أو على تكرير «أن» للتأكيد. ويجوز أن يكون معطوفاً على «أنه»، ويكون الجواب محذوفاً، تقديره: من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم خالداً فيها ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: الهلاك الدائم.

روي: أن المنافقين كانوا يستهزؤون بالاسلام، فكانوا يحذرون أن يفصحهم الله بالوحي، فنزلت في شأنهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين، فإن النازل فيهم كالنازل عليهم، من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم.

وقيل: اللفظ لفظ الخبر ومعناه الأمر، أي: ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تخبرهم بما في قلوبهم من النفاق. وهذا حسن، لأن موضع الكلام على التهديد، لقوله: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوْا﴾ أي: اطلبوا الهزاء، هو وعيد بلفظ الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مبرز أو مظهر ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساوئكم.

وقيل: هذا الحذر أظهره على وجه الاستهزاء لا على سبيل التصديق، لأنهم



حين رأوا رسول الله ﷺ ينطق في كل شيء عن الوحي، قال بعضهم لبعض: احذروا ألا ينزل وحي فيكم، يتناجون بذلك ويضحكون به.

وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ  
كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ  
طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُغَدِّبُ طَائِفَةٌ مِمَّا هُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ  
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا  
اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ  
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ  
عَذَابٌ مُّهِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا  
وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ  
بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

روي عن ابن كيسان: أن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل ﷺ رسول الله

بذلك، وأمره أن يرسل إليهم أحداً ويضرب وجوه رواحلهم. وعمّار كان يقود دابته رسول الله ﷺ، وحذيفة يسوقها. فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم. فضربها حتى نحاها. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: إنه فلان وفلان، حتى عدّهم كلهم. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لنا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام مثله، إلا أنه قال: اتسروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض: إن فطن تقول: إنما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن تقتله. فنزلت: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قيل: نزلت في ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هبهات هبهات، فأخبر الله تعالى به نبيه ﷺ فدعاهم، فقال: قلت كذا وكذا؟ فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقتصر بعضنا على بعض السفر، أي: مشقته.

﴿قُلْ أَبِإِنَّهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم، وإشعاراً بعدم الاعتداد باعتذارهم الكاذب.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين: ﴿لَا تَعْفَئِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم، فإنها معلومة الكذب ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه ﴿بِعَذَابِنَا﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء. وقرأ

عاصم بالنون فيهما<sup>(١)</sup> ونصب طائفة .

ثم بين أحوال المنافقين منهم بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَغْضُهُمْ مِنْ بَغْضِ﴾ أي: متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعض الشيء الواحد، وهو تكذيب لهم فيما حلفوا ﴿بِأَنَّهُمْ لَمُنْكَمُ﴾<sup>(٢)</sup> وتقرير لقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>، وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبرات، وقبض اليد كناية عن الشح، أي: شحوا بالخيرات أو الصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿فَسُوا اللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيْبُهُمْ﴾ فتركهم من لطفه وفضله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والانسلاخ عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدرين الخلود فيها ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، نعوذ بالله منها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلي بالنار ﴿مُقِيمٌ﴾ دائم لا ينقطع في الآخرة عنهم، وهو عذاب النار، أو عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، وما يخافونه من الفضيحة.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ محل الكاف رفع، تقديره: أنتم مثل الذين من قبلكم. أو نصب، تقديره: فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم.

ثم بين تشبيههم بهم، ومثل حالهم بحالهم، فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَفْتَحُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ نصيهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق

(١) أي: قراءة «نعم» و«نعذب» بالنون. وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما.

(٢) و (٣) النوبة: ٥٦.

بمعنى التقدير، فإنه ما قدر لصاحبه ونصب، أي: أثبت. ﴿فَاسْتَفْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَفْتَعِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ﴾ ذم الأولين بحظوظهم الناقصة من الشهوات الفانية، والتهائم بها عن النظر في العاقبة. والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم.

﴿وَحُضْنَكُمْ﴾ دخلتم في الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالذين خاضوا، وإفراده باعتبار الفوج أو الخوض، أي: كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوا. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة.

عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة، «كالذين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، لا أعلم إلا أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتبصنهم، حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه».

وروي مثل ذلك عن أبي هريرة، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم، ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً<sup>(١)</sup> بباع، حتى لو أن أحداً من أولئك دخل جحر الضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله: كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟».

وقال عبدالله بن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمناً وهدياً، تبصنون عملهم حذو القعدة<sup>(٢)</sup> بالقعدة، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟

وقال حذيفة: المنافقون الذين فيكم اليوم شرّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. قلنا: وكيف؟ قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم، وهؤلاء أعلنوه. أورد جميعها الثعلبي في تفسيره.

(١) الباع: قدر مذّ الدين، وجمعه أبواع.

(٢) القعدة: ريش السهم. وحذو القعدة بالقعدة يضرب مثلاً للشينين يستويان ولا يتفاوتان، كما أن كل واحدة من القعدة تقدر على قدر صاحبته.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ  
وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

ثم قال سبحانه تهديداً للمنافقين: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ألم يأت هؤلاء المنافقين  
﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ وقوم عاد أهلكوا بالريح  
الصرصر<sup>(١)</sup> ﴿وَتَمُودَ﴾ وقوم صالح أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ نمرود  
وأصحابه، فإنهم أهلكوا بالبعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين، وهم قوم  
شعيب، أهلكوا بالنار يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ ثلاث قريات قوم لوط، انتفكت  
بهم، أي: انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل. وقيل:  
قريات المكذبين المتمردين. وانتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر.

﴿أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالبراهين والحجج والمعجزات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ  
لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم يكن من عادة الله ما يشابه ظلم الناس، كالعقوبة بلا جرم، لأنه  
حكيم لا يجوز أن يفعل القبيح ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها  
للعقاب بالكفر والتكذيب وسائر أنواع المعاصي، واستحقوا العقاب.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ

(١) الريح الصرصر: الشديدة الهبوب أو البرد.

سَيَّرَحْمَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ  
وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

ولما ذكر الله سبحانه المنافقين ووصفهم بقبيح خصالهم، اقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين ويصفهم بضدّ أوصافهم، ليتصل الكلام بما قبله اتصال النقيض بالنقيض، فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله: «المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض» أي: يلزم كل واحد منهم موالاته بعض ونصرته، فهم يد واحدة على سواهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، فإن السين مؤكدة للوقوع، مفيدة لوجود الرحمة لا محالة. ونحوه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾<sup>(١)</sup> ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾<sup>(٣)</sup> ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء، لا يمتنع عليه ما يريد، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها على حسب الاستحقاق.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ تستطيرها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفي الحديث: أنها قصور

(١) مريم: ٩٦.

(٢) النساء: ١٥٢.

(٣) الضحى: ٥.

بناها الله من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزربرجد الأخضر ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود.

وفي الكشاف: «هو علم، لما روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: عدن دار الله تعالى التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصدّيقون، والشهداء. يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك. وقيل: مدينة في الجنة. وقيل: نهر جنّاته على حافاته»<sup>(١)</sup>.

وفي الأنوار: «مرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدّد الموعد لكل واحد، أو للجميع على سبيل التوزيع. أو إلى تغاير وصفه، فكأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها، لتميل إليه طبائهم أول ما يقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، مرعى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين، لا يعترهم فيها فناء ولا تغير. ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأنّ رضاه مبدأ لكلّ سعادة، وسبب لكلّ فوز وكرامة»<sup>(٢)</sup>.

وروي عن النبي ﷺ: «أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً».

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرضوان، أو جميع ما تقدّم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقرونه الدنيا وما فيها.

(١) الكشاف ٢: ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) أنوار التنزيل ٣: ٧٤.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبُنُسَ الْمَصِيرِ ﴿٧٣﴾

تم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالجهاد الذي هو من أعظم الأسباب الموصلة إلى  
النعم المذكورة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالزام  
الحجة وإقامة الحدود ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في الجهادين جميعاً، ولا ترق بهم  
﴿وَمَاوَاهُمْ﴾ وماوى الفريقين ﴿جَهَنَّمُ وَبُنُسَ الْمَصِيرِ﴾.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ  
وَهُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَنَالُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا  
يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي  
الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

وروي عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان جالساً في ظل حجرته،  
فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم نظر الشيطان. فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق،  
فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاه  
بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فنزلت: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما حكى عنهم  
﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام.

روي: أنه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن  
ويصيب المتخلفين. فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً



لنحن شرّ من الحمير، كما مرّ<sup>(١)</sup> آنفاً. فبلغ رسول الله ﷺ فاستحضره، فحلف بالله ما قاله. فنزلت هذه الآية. فتاب الجلّاس. وحسنت توبته.

وروي أن اثني عشر أو خمسة عشر منافقاً تواقفوا عند مرجعه ﷺ من تبوك. أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل، على نحو ما مرّ. فأخذ عمار بن ياسر بخطام<sup>(٢)</sup> راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها. كما سبق. فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقسعة<sup>(٣)</sup> السلاح، فالتفت فإذا قوم مثلثمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا. وعن الباقر عليه السلام: ثمانية منهم من قريش، وأربعة من العرب. فنزلت فيهم: ﴿وَهُمْ أَوْ بِئْسَ أَلْفٌ﴾ من قتل رسول الله ﷺ.

وقيل: نزلت عند إرادتهم إخراجهم ﷺ وإخراج المؤمنين من المدينة، أو عند إرادتهم أن يتوجّوا عبدالله بن أبيّ، أي: يجعلوه أميراً وإن لم يرض رسول الله ﷺ.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا وعابوا. أو ما وجدوا ما يورث نقتهم ﴿إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاييج في ضحك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ صاروا ذوي ثروة وغناء بالفنائم. وقتل مولى للجلّاس، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم، فاستغنى. والاستثناء مفرّغ من أعمّ المفاعيل أو العلل. والمعنى: أنهم جعلوا موضع شكر النعمة كفرانها، وكان الواجب عليهم أن يقابلوها بالشكر.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ﴾ أي: التوب ﴿خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ هو الذي حمل الجلّاس على التوبة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ بالإصرار على النفاق ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا

(١) في ص: ١٣٠.

(٢) الخِطَامُ: حبل يجعل في عنق البعير ويشئى في خطمه، وهو مقدّم أنف الدابة وفمها.

(٣) قسعة السلاح: صوت.

وَالْآخِزَةِ ﴿٧٥﴾ بِالْقَتْلِ وَالنَّارِ ﴿٧٦﴾ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ فَيُنَجِّيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

روي أن ثعلبة بن حاطب قال: «يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا. فقال: قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه. فراجعه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فدعا له، فأتخذ غنماً فتمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة. فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ. فقال: يا ويح ثعلبة. فبعث رسول الله ﷺ لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم. ومرّا بثعلبة فسألاه وأقرأه كتاب رسول الله الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخذت الجزية. وقال: ارجعا حتى أرى رأيي. فلما رجعا قال لهما رسول الله قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة مرتين. فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على الفقراء حقوقهم ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بإنفاقه في طاعة الله. ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله تعالى منه ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن

طاعة الله ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها. وبعد نزول هذه الآية جاء تلبية بالصدقة، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ». فجعل يحشوا التراب على رأسه. فقال: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني. فقبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان.<sup>١</sup>

﴿فَاعْتَبِرْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، وتخلية وخذلاناً، يعني: خذلهم حتى نافقوا فتمكن النفاق في قلوبهم. لا ينفك عنها إلى أن يموتوا. وعن الحسن وقتادة: أن الضمير للبخل. والمعنى: فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ يلقون عملهم، أي: جزاءه، وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ويكونهم كاذبين فيه، فإن خلف الوعد متضمن للكذب مستقيم، ومنه جعل خلف<sup>(١)</sup> الوعد ثلث النفاق. أو في المقال مطلقاً.

﴿أَلَمْ يَخْلَعُوا﴾ أي: المنافقون، أو من عاهد الله تعالى ﴿أَنْ اللَّهُ يَظْلَمَ سِرَّهُمْ﴾ ما أسرّوه في أنفسهم من النفاق، أو العزم على الإخلاف ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، أو تسمية الزكاة جزية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

(١) في هامش النسخة الخطية: «لأن المنافق هو الذي إذا وعد أخلف. وإذا اتهم خان، وإذا حدث كذب».

روي أَنَّهُ ﷺ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ فَجَاءَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِأَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، وَقِيلَ: بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ، وَقَالَ: كَانَ لِي ثَمَانِيَةَ آلَافٍ، فَأَقْرَضْتُ رَبِّي أَرْبَعَةَ، وَأَمْسَكَتُ لِعِيَالِي أَرْبَعَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أُعْطِيتَ وَفِيمَا أَمْسَكَتَ. فَبَارَكَ اللَّهُ لَهُ حَتَّى صَوْلِحَتْ إِحْدَى امْرَأَتَيْهِ عَنْ نِصْفِ الثَّمَنِ عَلَى ثَمَانِينَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ.

وَتَصَدَّقَ عَاصِمُ بْنُ عَدِي بِمِائَةِ وَسَقٍ مِنْ تَمْرٍ، وَجَاءَ أَبُو عَقِيلِ الْأَنْصَارِيُّ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ: بَتَّ لَيْلَتِي أَجْرًا بِالْجَرِيرِ <sup>(١)</sup> عَلَى صَاعِينَ، فَتَرَكْتُ صَاعًا لِعِيَالِي، وَجِئْتُ بِصَاعٍ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْشُرَهُ عَلَى الصَّدَقَاتِ.

فَلَمْزَهُمُ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا: مَا أُعْطِيَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَاصِمُ إِلَّا رِيَاءً، وَلَقَدْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَعْنَتَيْنِ عَنْ صَاعِ أَبِي عَقِيلٍ، وَلَكِنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَذْكَرَ بِنَفْسِهِ لِيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ. فَتَلَّتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ذَمَّ مَرْفُوعٍ أَوْ مَنْصُوبٍ، أَوْ بَدَلَ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «سَرَّهُم»، أَي: الَّذِينَ يَعْيبُونَ وَيَطْعَنُونَ ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الْمُتَطَوِّعِينَ الْمُتَبَرِّعِينَ ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إِلَّا طَاقَتَهُمْ، فَيَتَصَدَّقُونَ بِالْقَلِيلِ ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جَاذَاهُمْ عَلَى سَخَرِيَّتِهِمْ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ.

اسْتَغْفَرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

روي أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي - وَكَانَ مِنَ الْمَخْلَصِينَ - سَأَلَ رَسُولَ

(١) فِي هَامِشِ النُّسخَةِ الخَطِيئَةِ: «الْجَرِيرُ: الْحَبْلُ الَّذِي يَجْرَى بِهِ الْبَعِيرُ. وَمَعْنَاهُ: اسْتَقَى لِلنَّاسِ عَلَى أَجْرِ صَاعِينَ. مِنْهُ».

(٢) الْبَقْرَةُ: ١٥.

الله ﷻ في مرض أبيه - لعنه الله - أن يستغفر له ، فنزلت : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الأمر والنهي في معنى الخبر. والمعنى : لن يغفر الله لهم استغفرت أم لم تستغفر لهم. وفيه معنى الشرط والجزاء. والمراد به المبالغة في اليأس من المغفرة بآته لو طلبها طلب المأمور بها وتركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في أن الله تعالى لا يفعلها. فيريد التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم، كما نصّ عليه بقوله : ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وقد شاع في كلامهم استعمال السبعة والسبعين والسبعائة ونحوها في التكثير دون التحديد.

وما قيل : من أنه قال : لأزيدنّ على السبعين ، فنزلت سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لن يغفر الله لهم. وذلك لأنه ﷻ فهم من السبعين العدد المخصوص ، لأنه الأصل ، فجوّز أن يكون ذلك حدّاً يخالفه حكم ما وراءه ، فبيّن له أن المراد به التكثير دون التحديد.

ضعيف<sup>(١)</sup> ، لأنه خبر واحد لا يعول عليه ، لأنه يتضمّن أن النبي ﷺ يستغفر للكفار ، وذلك غير جائز بالاجماع. وكذا أورد في الآحاد أنه قال ﷺ : لو علمت أنه لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم ل فعلت. ويحتمل أن يكون النبي ﷺ يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به ، فعزم على الاستغفار لهم قبل أن يعلم بكفرهم ونفاقهم. ويمكن أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يخبر بأن الكافر لا يغفر له. أو قبل أن يمنع منه. ويجوز أن يكون استغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة من الكفر. فمنعه الله منه ، وأخبره بأنهم لا يؤمنون أبداً. فلا فائدة في الاستغفار لهم. والله أعلم.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : اليأس من المغفرة وعدم جواز استغفارك ليس لبخل منّا. ولا قصور فيك ، بل ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بسبب الكفر الصارف عنها ﴿ وَاللَّهُ لَا

(١) خبر «ما قيل» قبل أسطر.

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿المتهمين في كفرهم. وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهك في كفره المطبوع عليه لا ينتقل ولا يهتدي. ويجوز أن يكون ذلك تنيهاً على عذر الرسول ﷺ في استغفاره، وهو عدم يأسه عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم. لقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾<sup>(١)</sup>.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

ثم أخبر سبحانه عن المنافقين المخلفين عن تبوك وابتهاجهم بذلك، فقال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين خلفهم النبي ولم يخرجهم معه إلى تبوك، لأنهم استأذنوه في التأخر فأذن لهم، ففرحوا ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ بقعودهم عن

الغزو خلفه. يقال: أقام خلاف الحي، أي بعدهم. ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة، لأنهم خالفوه حيث قعدوا، فيكون انتصابه على العلة أو الحال، أي: قعدوا عن تبوك لمخالفة رسول الله، أو مخالفين.

﴿وَعَرِّمُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشاراً للدعة والراحة على طاعة الله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تبيطاً وإقعاداً عن الجهاد. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي وجبت لهم بالتخلف عن أمر الله ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من هذا الحرِّ بمراتب غير متناهية، وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿تَوَكَّأْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أن مآبهم إليها، أو أنها كيف اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

ثم أخبر عما يؤل إليه حالهم في الدنيا والآخرة: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب. ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كناية عن السرور والغم. والمراد من القلة العدم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فإن رَدَّك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين، يعني: منافقهم، فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم، وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً أو ثمانية عشر ﴿فَاسْتَأْذِنُوكَ بِالنُّزُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مِنِّي أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مِنِّي عَدُوًّا﴾ إخبار في معنى النهي للمبالغة ﴿إِنَّمَا رُزِيقَكُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تليل له. وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم. وأول مرة هي الخرجة إلى غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي: المتخلفين، لعدم لياقتكم للجهاد، كالنساء والصبيان.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ  
اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

روي أن ابن أبي المنافق دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه  
سأله أن يستغفر له، ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلي عليه، فلما مات  
أرسل قميصه ليكفن فيه، وذهب ليصلي عليه، فأخذ جبرئيل بثوبه وتلا عليه: ﴿وَلَا  
تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ يعني: الموت على الكفر والنفاق.

واعلم أن «مات» وقع صفة للنكرة وهو «أحد». وأتى بصيغة الماضي، وإن  
كان متعلق النهي مستقبلاً، نظراً إلى وقت إيقاع الصلاة، فإنه بعد الموت، فيكون  
الموت ماضياً بالنسبة إليه.

وإنما قال: «أبدأ» وإن كان رسول الله ﷺ ليس بأبدى، لأن المراد: لا تصل  
أنت ولا أمتك أبداً، أو يكون المراد أنهم لا يستحقون الصلاة أبداً لكفرهم. والأولى  
أنه قيده بالثانية قطعاً لأطماعهم في ذلك، أو قطعاً لتجويز النسخ. وفي بعض  
الروايات أنه صلى عليه، فقال له عمر: أتصلي على عدو الله؟ فقال له: «وما يدريك  
ما قلت؟ فأني قلت: اللهم احش قبره ناراً، وسلط عليه الحيات والعقارب».

وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهي عن الصلاة عليه، لأن الضئفة  
بالقميص كان مخللاً بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر  
ببدر. روي أنه قيل له: لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: إن قميصي لن  
يغني عنه من الله شيئاً، وإني أؤمل من الله تعالى أن يدخل في الإسلام كثير بهذا  
السبب. فيروي أنه أسلم ألف من الخزرج.



﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء، روي: أنه ﷺ كان إذا صلى على ميت وقف على قبره ساعة يدعو له، فنهى عن الأمرين في المنافقين بسبب كفرهم بالله وموتهم على النفاق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهي، والفسق هنا الكفر، لأنه أعم منه، ويجوز إطلاق العام على الخاص.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ كَرَّرَ للتأكيد، والأمر حقيق به، فإنَّ الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس مغتبطة عليها، ويجوز أن تكون هذه في فريق غير الأول.

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

ثم بين سبحانه تمام أخبار المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ من القرآن، ويجوز أن يراد بها بعضها، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه، ﴿أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا، ويجوز أن تكون «أن» المفسرة، ﴿وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾

اسْتَأْذَنَكَ أَتَوْا الطُّولَ مِنْهُمْ ﴿ ذُورُوا الْفَضْلَ وَالسَّعَةَ، مِنْ: طَالَ عَلَيْهِ طَوْلًا ﴿ وَقَالُوا  
ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴾ الَّذِينَ قَعَدُوا عَنِ الْحَرْبِ.

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ مَعَ النَّسَاءِ. جَمَعَ خَالِفَةً. وَقَدْ يُقَالُ: الْخَالِفَةُ  
لِلَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ. ﴿ وَطَبِعَ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ ﴾ خَذَلْنَا وَتَخَلَّى عَنْهُمْ ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ مَا فِي  
الْجِهَادِ وَمُوَافَقَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ السَّعَادَةِ، وَمَا فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ مِنَ الشَّقَاوَةِ.

﴿ لَنْجِي الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ أَي: إِنْ تَخَلَّفَ  
هَؤُلَاءِ وَلَمْ يَجَاهِدُوا فَقَدْ جَاهَدَ مِنْهُمُ خَيْرٌ مِنْهُمْ ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ مَنَافِعُ  
الدَّارَيْنِ: النَّصْرَ وَالغَنِيمَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةَ وَالْكَرَامَةَ فِي الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: الْحُورُ، لِقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾<sup>(١)</sup>. وَهِيَ جَمْعُ خَيْرَةٍ تَخْفِيفُ خَيْرَةٍ. ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ ﴾ الْفَائِزُونَ بِالْمَطْلُوبِ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ مَا لَهُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْآخِرِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

رَوَى أَنَّ أَسَدًا وَغُفْطَانَ اسْتَأْذَنُوا فِي التَّخَلُّفِ. مَعْتَذِرِينَ بِالْجِهَادِ وَكَثْرَةِ الْعِيَالِ،  
فَنَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ فِي التَّخَلُّفِ. وَقِيلَ: هُمْ  
رَهْطُ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ قَالُوا: إِنْ غَزَوْنَا مَعَكَ أَغَارَتْ طَيْ عَلَى أَهَالِنَا وَمَوَاشِينَا.  
وَالْمَعَذِّرُ إِنَّمَا مَنْ: عَذَّرَ فِي الْأَمْرِ إِذَا قَصَرَ فِيهِ مَوْهَمًا أَنْ لَهُ عِذْرًا وَلَا عِذْرَ لَهُ، أَوْ  
مَنْ: اعْتَذَرَ إِذَا مَهَّدَ الْعِذْرَ، بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الذَّالِ وَنَقْلَ حَرَكَتِهَا إِلَى الْعَيْنِ. وَقُرَأَ

يعقوب: الْمُعْذِرُونَ.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزل في غيرهم، وهم متناقضوا الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الايمان. وإن كانوا هم الأولين فكذبهم بالاعتذار.  
 ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعذرين. فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا آتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قيل: إن عبد الله بن أم مكتوم - وكان ضريب البصر - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله إني شيخ ضريب خفيف الحال خفيف الجسم وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ هم الذين قوتهم ناقصة بالزمانة والعجز، كالهرمي (١) ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ هم أصحاب العلل المانعة من الخروج ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

(١) جمع الهرم، وهو الضيف البالغ أقصى الكبر.

يُنْفِقُونَ ﴿٩١﴾ لفقهم، كجهنمة ومزينة وبني عذرة ﴿حَرْجٌ﴾ إثم في التأخر ﴿إِذَا فَصَحُوا﴾  
بِئْتِهِ وَرَسُولِهِ ﴿٩٢﴾ خلصوا لله ولرسوله بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، كما يفعل  
الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين  
بالصلاح.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم  
سبيل المؤاخظة. وإنما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون  
في سلك المحسنين، غير معاتبين لذلك. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء،  
فكيف المحسن؟! ١٥١

روي أن سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبدالله بن  
كعب، وسالم بن عمير، وتعلبة بن غنمة، وعبدالله بن مفضل، وعليه بن زيد، أتوا  
رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال  
المخسوفة نغز معك. فقال: لا أجد. فتولوا وهم يبكون. فنزلت فيهم:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ عطف على الضعفاء، أو على المحسنين ﴿إِذَا مَا اتَّوَكَّ﴾  
بِتَخْلِفَهُمْ ﴿٩٢﴾ أي: جاؤا يسألونك مركباً يركبونه فيخرجون معك إلى الجهاد، إذ ليس  
معهم من الأموال والظهر ما يمكنهم للخروج في سبيل الله ﴿قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أُخْبِلُكُمْ﴾  
عَلَيْهِ ﴿٩٣﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار «قد» ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب «إذا» أي: رجعوا  
عنك ﴿وَاعْيَنْتُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّفْعِ﴾ أي: من دمعها، فإن «من» للبيان، وهي مع  
المجرور في محلّ النصب على التمييز. وهذا ابلغ من: يفيض دمعها، لأنه يدلّ على  
أن العين جعلت كأنّ كلّها دمعاً فتفاضاً ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة أو الحال أو  
المصدر لفعل دلّ عليه ما قبله ﴿الْأَيْجِدُوا﴾ متعلّق بـ«حزناً» أو بـ«تفيض» على تقدير  
اللام، أي: لتلا يجدوا ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ في مغزاهم.

عن الواقدي: أنهم لما بكوا كثيراً حمل عثمان منهم رجلين، والعبّاس بن

عبدالمطلب رجلين، ويامين بن كعب النضري ثلاثة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعابة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون الأهبة ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والانتظام في سلك الخوالم إيثاراً للدعة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ خذلاناً وتخليه حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَتَفَلَّحُونَ﴾ عاقبته في التخلف.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا  
اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ  
إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا  
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ  
لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾

قيل: إن ثمانين رجلاً من المنافقين، منهم جد بن قيس ومعتب بن قشير، اعتذروا إلى النبي ﷺ في تخلفهم لما قدم راجعاً من تبوك، فقال: لا تجالسوهم ولا تكلموهم، فنزلت: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف بالأباطيل ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذا السفر ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة، لأنه ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، لأنه ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ﴾ أعلمنا بالوحي ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ بعض أخباركم، وهو

ما في ضماثركم من الشرِّ والفساد ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ أتوبون عن الكفر أم تبتون عليه؟ فكأنه استتابه وإمهال للتوبة ﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي: إليه. فوضع الوصف موضع الضمير، للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلتهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضماثرهم وأعمالهم ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرَضُوا عَنْهُمْ ﴾ لتصفحوا عن جرمهم، فلا تعاتبوهم ولا تعنفوهم ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ إعراض ردِّ وإنكار وتكذيب، فلا توبخوهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ نجس كالشيء الخبيث الذي يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس، فإنه لا ينفع فيهم التوبيخ والتعير، فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنبابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الإعراض وترك المعاتبه ﴿ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ والعتاب في الدنيا والآخرة. أو تعليل ثانٍ، والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً، فلا تتكلفوا عتابهم ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يجوز أن يكون مصدرأً، وأن يكون علة.

﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِعَرَضُوا عَنْهُمْ ﴾ بحلفهم. فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ النَّاقِثِينَ ﴾ أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله تعالى وعقابه. أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم، لا يمكنهم أن يلبسوا على الله تعالى. فلا يهتك سترهم، ولا ينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاعتذار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

وفي هذه الآية دلالة على أن من طلب بفعله رضا الناس ولم يطلب رضا الله تعالى، فإن الله يسخط الناس عليه، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال:

«من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا وَأَجْدَرُ الْأَيُّعَلْمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمُ مَسِيئَتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

ولما تقدّم ذكر المناققين بين سبحانه أن الأعراب منهم أشدّ في ذلك وأكثر جهلاً، فقال: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا﴾ من أهل الحضرة، لتوحّشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وقلة استماعهم للكتاب والسنة ﴿وَأَجْدَرُ الْأَيُّعَلْمُوا﴾ وأحقّ وأحرى بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الشرائع، فرائضها وسننها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال كلّ أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ومن مناقبي الأعراب ﴿مَنْ يَتَّخِذُ﴾ يعدّ ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ يصرّفه في سبيل الله ويتصدّق به ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً، ولا يحتسبه عند الله تعالى، ولا يرجو عليه ثواباً، وإنما ينفق رياءً أو تقيّة من أهل الاسلام، لا

لوجه الله ﴿وَيَتْرَبُصُ بِكُمْ الدَّوَابِرُ﴾ دوائر الزمان وحوادث الأتيام وعواقب الأمور من نوب الشدائد، لينقلب الأمر عليكم، وتذهب غلبتكم عليه، فيتخلص من الإنفاق.

﴿عَلَيْهِمْ ذَانِرَةُ السُّوءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون، من قبيل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا﴾<sup>(١)</sup>، أو بالإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم. والدائرة في الأصل مصدر، أو اسم فاعل من: دار يدور. وسُمي به عقبه الزمان. والسوء بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة، كقولك: رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: السُّوء، هنا وفي الفتح<sup>(٢)</sup> بضم السين، وهو العذاب.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما يضمرون. قيل: هم أعراب أسد وغطقان وتميم.

ثم بين سبحانه من الأعراب المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ﴾ سبب قربات. وهي ثاني مفعولي «يتخذ» ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ صفتها، أو ظرف لـ«يتخذ» ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته، لأنه كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله ﷺ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى، لما أتاه أبو أوفى بصدقته.

﴿الْإِنْفَاقِ قُرْبَةً لَهُمْ﴾ تزيههم إلى ثواب الله. وهذا شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديق لرجائهم على الاستئناف، مع حرف التنبيه، و«إِنْ» المحققة للنسبة، والضمير لنفقتهم. وقرأ ورش: قُرْبَةً بضم الراء. ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وعد لهم بإحاطة الرحمة عليهم. والسين لتحقيقه. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لتقريره. وهذه الآية في عبدالله ذي الجادين ورهطه.

(١) المائدة: ٦٤.

(٢) الفتح: ٦.



وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ  
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
 فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

ولما تقدّم ذكر الأعراب بقسميهم، عقبه بذكر السابقين إلى الايمان، فقال:  
 ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: السابقون إلى الايمان وإلى الطاعات. وإنّما مدحهم  
 بالسبق لأنّ السابق إلى شيء يتبعه غيره، فيكون متبوعاً وغير تابع له، فهو إمام فيه  
 وداع إلى الخير يسبقه إليه، وكذلك من سبق إلى الشرّ يكون أسوأ حالاً لهذه العلة.  
 ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ من الذين هاجروا من مكّة إلى المدينة وإلى الحبشة.  
 وهؤلاء السابقون هم الذين صلّوا إلى القبليتين، وقيل: الذين شهدوا بدرأ، أو الذين  
 أسلموا قبل الهجرة.

﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الاسلام. وهم أهل  
 بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة أو اثني عشر رجلاً، وأهل العقبة الثانية، وكانوا  
 سبعين. والذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير، فعلمهم القرآن.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ لحقوا بالسابقين من القبليتين، أو من اتبعوهم  
 بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما  
 نالوا من نعمه الدنيئة والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقرأ ابن  
 كثير: من تحتها، كما هو في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾  
 الذي يصغر في جنبه كلّ نعيم.

قال في المجمع: «وفي هذه الآية دلالة على فضل السابقين ومزيتهم على

غيرهم، لما لحقهم من أنواع المشقة في نصره الدين، فمنها مفارقة العشائر والأقربين، ومنها مباينة المألوف من الدين، ومنها نصره الاسلام مع قلّة العدد وكثرة العدو، ومنها السبق إلى الايمان والدعاء إليه.

واختلف في أوّل من أسلم من المهاجرين. قيل: أوّل من آمن خديجة بنت خويلد، ثمّ عليّ بن أبي طالب. وهو قول ابن عبّاس، وجابر بن عبدالله، وأنس، وزيد بن أرقم، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

وقال أنس: بعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وأسلم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وصلى خلف رسول الله يوم الثلاثاء.

وقال مجاهد وابن إسحاق: إنّه أسلم وهو ابن عشر سنين، وكان مع رسول الله ﷺ، أخذه من أبي طالب وضّمه إلى نفسه يرّيه في حجره، وكان معه حتّى بعث نبياً.

وقال الكلبي: إنّه أسلم وله تسع سنين. وقيل: اثنتا عشرة سنة، عن أبي الأسود. قال السيّد أبو طالب الهروي: وهو الصحيح.

وفي تفسير الثعلبي روى إسماعيل بن أيّاس بن عفيف، عن أبيه، عن جدّه عفيف، قال: كنت امرأً تاجرأً قدّمت مكة أيام الحجّ، فنزلت على العبّاس بن عبدالمطلب، وكان العبّاس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيام الموسم. فبينما أنا والعبّاس بمنى إذ جاء رجل شابّ حين حلّقت<sup>(١)</sup> الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء، ثمّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتّى جاء غلام فقام عن يمينه، فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشابّ فركع الغلام والمرأة، فخرّ الشابّ ساجداً فسجداً معه، فرفع الشابّ فرفع الغلام والمرأة.

(١) أي: ارتفعت.

فقلت: يا عباس أمر عظيم.

فقال: أمر عظيم.

فقلت: ويحك ما هذا؟

فقال: هذا ابن أخي محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب يزعم أن الله بعثه رسولاً، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذا الغلام علي بن أبي طالب، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد، تابعاها على دينه، وأيم الله ما على ظهر الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء.

فقال عفيف الكندي بعدما أسلم ورسخ الاسلام في قلبه: يا ليتني كنت رابعاً. وروى أن أبا طالب قال لعلي عليه السلام: أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبة أمنت بالله ورسوله، وصدقته فيما جاء به، وصليت معه لله. فقال له: ألا إن محمداً لا يدعو إلا إلى خير فالزمه.

وروى عبيدالله بن موسى، عن العلاء بن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبدالله، قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: «أنا عبدالله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتري، صليت قبل الناس سبع سنين». وفي مسند السيد أبي طالب الهروي مرفوعاً إلى أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صليت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين، وذلك أنه لم يصل فيها أحد غيري وغيره».

وقيل: إن أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر. عن إبراهيم النخعي. وقيل: أول من أسلم بعدها زيد بن حارثة. عن الزهري وسليمان بن يسار وعروة بن أبي الزبير.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني<sup>(١)</sup> بإسناده مرفوعاً إلى عبدالرحمن بن

(١) شواهد التنزيل ١: ٣٣٣ ح ٣٤٢.

عوف في قوله تعالى: «والسابقون الأولون» قال: «هم عشرة من قريش، أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب عليه السلام»<sup>(١)</sup>.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَي  
النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ  
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين، فقال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ من جملة من حول بلدتكم، يعني: المدينة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين يسكنون البدو ﴿مُنَافِقُونَ﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، كانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو «مِمَّنْ حَوْلَكُم». ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت: ومن أهل المدينة قوم. ﴿مَرَدُوا عَلَي النِّفَاقِ﴾ أي تمرنوا على النفاق، من قولهم: مرن فلان على عمله ومرد عليه، إذا درب به حتى لان عليه ومهر فيه، فعلى الوجه الأخير «مردوا» صفة موصوف محذوف، ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، قوله: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، أي: أنا ابن رجل جلا ووضوح أمره. وعلى الأول صفة للمناققين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر، أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق.

ودل على مهارتهم في النفاق قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم، أي: مهارتهم فيه وتتوهمهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفى عليك حالهم، مع كمال فطنتك وصدق فراستك.

ثم قال: ﴿تَخْرُنُ تَغْلَفُهُمْ﴾ لا يعلمهم إلا الله المطلع على البواطن، لأنهم يبتغون الكفر في ضمائرهم، ويظهرون لك الايمان وظاهر الإخلاص الذي لا تشك في أمرهم، فهم وإن لبسوا عليك لكن لم يقدرُوا أن يلبسوا علينا.

﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل على أيدي الملائكة، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. عن ابن عباس أنهم اختلفوا في هاتين المرتين فقال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق، وأخرج ناساً وفضحهم. فهذا العذاب الأوّل، والثاني عذاب القبر. ﴿ثُمَّ يُزَادُونَ إِلَيْنَا عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب النار.

وَأَخْرُورُنْ اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ

أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

روي أن ثلاثة من المتخلفين وهم: أبو لبابة مروان بن عبدالمنذر وأوس بن ثعلبة ووديعه بن حزام، أو عشرة، وقيل: سبعة منهم هؤلاء الثلاثة، لما سمعوا ما نزل في المتخلفين عن تبوك أيقنوا بالهلاك. وأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد توبة وندماً على فعلهم، وكان سبب تأخرهم اشتغالهم بإصلاح أموالهم. فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد فصلّى ركعتين، وكانت عادته كلما قدم من سفر قرأهم موتقين فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّهم. فقال: وأنا أقسم أن لا أحلّهم حتى أؤمر فيهم، فنزلت:

﴿وَأَخْرُورُنْ اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بأخر سيء هو التخلف وموافقة أهل النفاق. والواو إما بمعنى الباء، كما في قولهم: بعث الشاء شاة ودرهماً، أي: بدرهم، أو واقعة بمعناه الأصلي

للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر، كما تقول: خلطت الماء واللبن، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: خلطت الماء باللبن، لأنك جعلت الماء مخلوطاً باللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء.

وفيه دلالة على بطلان القول بالإحباط، لأنه لو كان أحد العاملين محبباً لم يكن لقوله: «خلطوا» معنى، لأن الخلط يستعمل في الجمع مع امتزاج، كخلط الماء واللبن، وبغير امتزاج، كخلط الدراهم.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم، وهي مدلول عليها بقوله: «اعترفوا بذنوبهم». ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

روي أنه لما نزلت هذه الآية أطلقهم رسول الله ﷺ بنفسه النفيسة، ولما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهرنا. فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فنزلت: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب، أو حب المال المؤذي بهم إلى مثله. والفعل صفة للصدقة، أي: صدقة مطهرة. ويجوز

أن يكون التاء للخطاب لرسول الله ﷺ ، أي: تطهّرهم أنت.

﴿وَتَزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتسمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين. وقيل: التزكية بمعنى التطهير تأكيداً. ولا شبهة أن التأسيس أولى. وإنما لم يجزم الفعلين ليكون جواباً للأمر. لأن في جعلهما صفتين فائدة زائدة، وهي أن الأمور أخذ صدقة مطهرة، وهي التي تكون عن طيب نفس وانشراح صدر بنية خالصة. لا مطلق الصدقة، ومع الجزم لا يفيد إلا مطلق الصدقة. فعلى هذا تكون التاء للخطاب. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وترحم عليهم بالدعاء لهم بقبول صدقاتهم والاستغفار لهم ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ هو ما يسكن إليه. والمراد أنهم تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، وتطيب بقبول صدقتهم. وجمعها لتعدّد المدعوّ لهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعتبار فهم بذنوبهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرط منهم.

والأمر للوجوب عند أكثر أصحابنا، وعند آخرين للندب. وهذه مسألة أصولية. من أراد تحقيقها فليرجع إلى الكتب الأصولية. وهذا الحكم ثابت في أئمتنا عليهم السلام القائمين مقام رسول الله ﷺ، بل في الفقير والساعي، للتاسي، ولجريان علّة الصلاة فيهم، وهي تطيب النفوس وطمانينة القلوب.

قال الزهري بعد ذكر ما تقدّم: قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأنا انخلع من مالي كلّه. قال ﷺ: يجزيك يا أبا لبابة الثلث. فأخذ عليه السلام ثلث أموالهم وترك الثلثين، لأنّ الله تعالى قال: «خذ من أموالهم» ولم يقل: خذ أموالهم.

وعن الحسن: المراد بها الأمر بأن يأخذ الصدقة من أموال هؤلاء التائبين تشديداً للتكليف، وليست بالصدقة المفروضة، بل هي على سبيل الكفّارة للذنوب التي أصابوها.

وعن الجبائي وأكثر المفسرين أنّ المراد بهذه الصدقة الصدقة المفروضة، أعني؛ الزكاة. وهو الظاهر، لأنّ حملها على الخصوص بغير دليل لا وجه له، فيكون أمراً بأن يأخذ من المالكين للنصاب الزكاة من الورق إذا بلغ مائتي درهم، ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً، ومن الإبل إذا بلغ خمساً، ومن البقر إذا بلغت ثلاثين، ومن الغنم إذا بلغت أربعين، ومن الغلات الأربع إذا بلغت خمسة أوسق.

﴿الْمُ يَعْلَمُوا﴾ الضمير إمّا للمتوب عليهم، والهزمة للتقرير والتسبيه على وجوب علمهم بأنّ الله تعالى هو يقبل التوبة، وهو الذي يأخذ الصدقة. والمعنى؛ ألم يعلموا قبول توبتهم - قبل أن يتوب عليهم وتقبل صدقاتهم - والاعتداد بصدقاتهم. أو الضمير لغيرهم، والمراد به التحضيض عليهما.

﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحّت. وتعديته بـ«عن» لتضمّنه معنى التجاوز. ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها إذا صدرت عن خلوص النية، قبول من يأخذ شيئاً ليؤدّي بدله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّوَابِغُ الرَّجِيمُ﴾ وأنّ من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

ويجوز أن تكون الهزمة للإنكار لعدم علمهم، وذلك أنّهم لمّا سألوا الرسول ﷺ أن يأخذ أموالهم ويقبل توبتهم كما تقدّم ذكره، ولم يعلموا أنّه لا يقبل التوبة غير الله ولا يأخذ الصدقة إلا هو، أنكر ذلك عليهم. وفائدة لفظ «هو» للحصر، أي: لا يقبل إلا هو.

وفي الآية من المبالغة في وجوب العلم بقبول التوبة وأخذ الصدقة، وأنّه كثير القبول للتوبة ورحيم بعباده، ما يظهر لمن تدبّر تركيبها بإيراد الاستفهام بالمعنيين المذكورين، وإردافه بالعلم. ثمّ الإتيان بالجملة المؤكّدة بـ«أنّ» وأداة الحصر، وذلك غاية رافته بعباده ورحمته لهم.

﴿وَقُلْ اعْمَلُوا﴾ ما شئتم ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنّه لا يخفى عليه، خيراً كان



أَوْ شَرًّا ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَنْهُمْ كَمَا رَأَيْتُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ .  
 وَإِنَّمَا أَدْخَلَ السَّيْنَ لِأَنَّ مَا لَمْ يَحْدُثْ لَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الرَّوْيَةُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : كُلِّ مَا تَعْمَلُونَهُ  
 يَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَقِيلَ : أَرَادَ بِالْمُؤْمِنِينَ الشَّهَادَةَ . وَقِيلَ : الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ الْحَفِظَةُ  
 الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْأَعْمَالَ . وَرَوَى أَصْحَابُنَا أَنَّ أَعْمَالَ الْأُمَّةِ تَعْرُضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي  
 كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ فَيَعْرِفُهَا ، وَكَذَلِكَ تَعْرُضُ عَلَى أُمَّةِ الْهُدَى ﷺ الْقَائِمِينَ مَقَامَهُ  
 فَيَعْرِفُونَهَا . وَهَمَّ الْمَعْنِيُونَ بِقَوْلِهِ : «وَالْمُؤْمِنُونَ» . ﴿وَسْتَزِدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ  
 وَالشَّهَادَةِ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بِالْمَجَازَةِ عَلَيْهِ .

وَأَخْرَجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

روي أن كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع - وهم من الأوس  
 والخزرج - لما انصرف رسول الله ﷺ إليهم من تبوك، أتوا عنده وقالوا: يا رسول  
 الله ما لنا من عذر، ولم نتذر إليك بالكذب، وإنما تخلفنا توائماً عن الاستعداد حتى  
 فاتنا المسير. فقال: صدقتم قوموا حتى يقضي الله حكمه. فنهى رسول الله ﷺ عن  
 مكالمتهم، وأمر نساءهم باعتزالهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. فأقاموا  
 على ذلك خمسين ليلة، وبنى كعب خيمة على سلع<sup>(١)</sup> يكون فيها وحده. فنزلت  
 فيهم:

﴿وَأَخْرَجُونَ﴾ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ﴿مُرْجُونَ﴾ مُؤَخَّرُونَ ، أَي : مَوْقُوفٌ أَمْرُهُمْ ،  
 مِنْ : أَرْجَأْتَهُ إِذَا أَخَّرْتَهُ . وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحَمَزَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَحَفْصٌ : مُرْجُونَ بِالْوَاوِ . وَهِيَ  
 لَفْتَانٌ<sup>(٢)</sup> . ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ فِي شَأْنِهِمْ ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إِنْ بَقُوا عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى النِّسْفِاقِ

(١) السَّلْعُ: جَبَلٌ بِالْمَدِينَةِ .

(٢) أَي : قِرَاءَةُ مُرْجُونَ بِالْهَمْزِ وَمُرْجُونَ .

ولم يتوبوا ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ غَنِيهِمْ﴾ إن تابوا. والترديد للعباد. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. ولما أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله تعالى رحمهم وقبل توبتهم. وتصدق كعب بثلت ماله شكراً لله على توبته.

وفي هذه الآية دلالة على صحة مذهبنا في جواز العفو عن العصاة، لأنه سبحانه بين أن قوماً من العصاة يكون أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم وإن شاء قبل توبتهم، فغفا عنهم. ويدل أيضاً على أن قبول التوبة تفضل من الله سبحانه، لأنه لو كان واجباً لما جاز تعليقه بالمشيئة.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِشَهَادَاتِهِمْ لَكَادِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا، وبعثوا إلى رسول

الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم وصلى فيه. فحسداهم إخوتهم المتخلفون، وهم بنو غنم بن عوف، وكانوا من المنافقين، فقالوا: نبي مسجداً فيصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم، وهو الذي سمّاه رسول الله ﷺ الفاسق. وقال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصر وآب بجنود، ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة.

وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، ونبتل بن الحارث. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو لنا بالخير والبركة. فقال: إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه. فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك نزلت:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على «وآخرون مرجون». أو مبتدأ خبره محذوف، أي: وممن وصفنا الذين اتخذوا، أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير واو. ﴿ضِيَارًا﴾ مضارة للمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضرونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قبا ﴿وَإِضْطَادًا﴾ ترقباً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: الراهب ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ«حارب» أي: لأجل من حارب الله ورسوله من قبل أن يتخذوا المسجد، أو بـ«اتخذوا» أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن يوافق هؤلاء بالتخلف.

قيل: أبو عامر كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح<sup>(١)</sup>، فلما قدم

(١) المسوح جمع المشح، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن زهداً وتقشفاً.

النبي ﷺ المدينة حسده، وجمع الجيوش عليه يوم الأحزاب، فلما انهزموا خرج إلى الشام ولحق إلى الروم فتنصر، ومات بقنسرين وحيداً.

﴿وَلِيَخْلِفُنَّ﴾ يعني: هؤلاء المنافقين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ما أردنا بينائه إلا الخصلة الحسنى، أو لإزادة الحسنى، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ يعني: مسجد قبا أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقبا من الاثنين إلى الجمعة. وقبا اسم قرية من قرى المدينة. وهذا أوفق للقصة. وقيل: إنه مسجد رسول الله ﷺ، لقول أبي سعيد: سألت رسول الله ﷺ عنه فقال: هو مسجدكم هذا مسجد المدينة. ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده. و«من» يعم الزمان والمكان. ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى بأن تصلي فيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُجِبُّونَ أَنْ يَتَحَطَّوْا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله. وقيل: من الجنابة، فلا ينامون عليها. ﴿وَاللَّهُ يُجِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه إثناء المحب حبيبه.

وبعد نزول الآية عند قدوم رسول الله ﷺ من تبوك دعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، ففعل واتخذ مكانه كناسة.

قيل: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قبا، فإذا الأنصار جلوس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فأعادها.

فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم،

فقال ﷺ: أترضون بالقضاء؟

قالوا: نعم.

قال: أتصبرون على البلاء؟

قالوا: نعم.

قال: أتشكرون في الرخاء؟

قالوا: نعم.

قال ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة. فجلس ثم قال: يا معشر الأنصار إن الله

عز وجل قد أتى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟

فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاث، ثم نتبع الأحجار الماء.

فلا ﷺ: «رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين».

﴿افقن أسس بنيانته﴾ ببيان دينه ﴿على تقوى من الله ورضوان﴾ على قاعدة

محكمة، هي التقوى من الله تعالى وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خير أم من أسس بنيانته

على شفا جرف هار﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرعاها وأقلها بقاءً، وهو

الباطل. والشفا: الشفير. وجرف الوادي؛ جانبه الذي يتحقر أصله بالماء وتجرفه

السيول، فيبقى واهياً. والهار: الهائر الذي أشفى على السقوط والتهدم. ووزنه فِعْل.

قصر عن هائر. كخلف من خالف. وتظيره: شاك وصات في شائك وصانت. وألغه

ليس بألف فاعل. وأصله: هور وشوك وصوت.

ولما جعل الجرف مجازاً عن الباطل قال: ﴿فأنهز به في نار جهنم﴾ يوقعه

ذلك البناء ويؤدي به - لخوره<sup>(١)</sup> وقلته استمساكه - إلى السقوط في النار. وإنما وضع

شفا الجرف - وهو ما جرفه الوادي الهائر - في مقابلة التقوى، تمثيلاً لما بنوا عليه

أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس. ثم رشحه بانهيابه به في النار، فكان

المبطل أسس بنياناً على شفير جهنم فطاح به في قعرها. ووضعه في مقابلة

الرضوان، تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار، ويوصله إلى

رضوانه تعالى ومقتضياته التي الجنة أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على

(١) خَارَ خَوْرًا: فتر وضعف وانكسر.

صدد الوقوع في النار ساعة فساعة، ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة.  
 وقرأ نافع وابن عامر: أسس على البناء للمفعول. وقرأ ابن عامر وحزمة وأبو بكر: جُزِفَ بالتخفيف.

وملخص معنى الآية: أن الله تعالى شبه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذا صفته، فكما أن من بنى على جانب هذا النهر فإنه ينهار بناؤه في الماء ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم. يعني: أنه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق، فإن عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بثابت، بل واهٍ ساقط.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة. روي عن جابر بن عبدالله أنه قال: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ أي: بناؤهم الذي بنوه. مصدر أريد به المفعول. وليس بجمع، ولذلك قد تدخله التاء، ووصف بالمقرد، وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةٌ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً. والمعنى: أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول وسمه<sup>(١)</sup> عن قلوبهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً، وتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار، وحينئذ يسلون عنه، وهذا في غاية المبالغة. والاستثناء من أعم الأزمنة.

وقيل: المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل، أو في القبر، أو في النار. وقيل: التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً.

وقرأ يعقوب: إلى، بحرف الانتهاء - وروي ذلك عن الصادق عليه السلام - و«تقطع» بمعنى: تتقطع. وهو قراءة ابن عامر وحزمة وحفص.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِنَاتِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

ولما تقدم ذكر المؤمنين والمنافقين عقب سبحانه بالترغيب في الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ عبر سبحانه عن إلتابهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالاشتراء، وجعل الثواب ثمناً، وأعمالهم الحسنة مثمناً، تمثيلاً لإلتابته إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. عن الصادق عليه السلام: «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها».

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل: «يقاتلون» في معنى الأمر. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبتدأ للمفعول. وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب، وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل.

﴿وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء، فإنه في معنى الوعد، يعني: أن الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

وَالْقُرْآنِ ﴿ أَي : وعداً مذكوراً فيهما كما أثبت في القرآن ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴾  
مبالغة في الانجاز. وتقرير لكونه حقاً، أي : لا أحد أوفى بعهده من الله، لأن الخلف  
قبيح لا يقدم عليه كريم، فكيف بالكريم الغني الذي لا يجوز عليه فعل القبيح !؟  
﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب  
لكم عظام المطالب، كما قال : ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ولا ترغيب في الجهاد  
أحسن وأبلغ منه .

ثم وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم الأنفس والأموال بأوصاف  
جليلة ونعوت جميلة، فقال : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ رفع على المدح، أي : هم التائبون  
الراجعون إلى طاعة الله، والمنقطعون إليه، النادمون على ما فعلوه من القبائح.  
والمراد بهم المؤمنون المذكورون. ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، تقديره :  
التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا، لقوله : ﴿ وَكَلَّا وَعَدَدُ اللَّهِ الْحُسْنَى ﴾<sup>(١)</sup>. أو  
خبره «العابدون» أي : التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال.  
﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين ﴿ الْخَامِدُونَ ﴾ لنعمائه، أو  
لكل ما أصابهم من السراء والضراء ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ الصائمون، لقوله ﷺ : «سباحة  
أمّتي الصوم». شبهوا بذوي السباحة في الأرض من حيث إن الصوم يعوق عن  
الشهوات كالسباحة، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا  
الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم، أو الذين يسيحون في  
الأرض فيعتبرون بمجائب الله. ﴿ الرَّاجِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ في الصلاة.

﴿ الْآمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ وَالشَّاهِدُونَ عَنِ الْمُتَكْرِفِ ﴾ عن  
الشرك والمعاصي. والعاطف فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة  
واحدة، كأنه قال : الجامعون بين الوصفين. وأما العاطف في قوله تعالى :



﴿وَالْخَافِضُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع، فللتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل وهذا مجملها. وقيل: للإيدان بأن التعداد قد تمّ بالسابع، من حيث إن السبعة هو العدد التامّ عندهم، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه، ولذلك سميّ واو الثامنة.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل. ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأنّ المؤمن الكامل من كان كذلك. وحذف المبتدأ به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجعل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

روى أصحابنا أنّ هذه الصفات الأئمة المعصومين عليهم السلام، لأنّه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها وكمالها غيرهم.

ولقي الزهري عليّ بن الحسين عليه السلام في طريق الحجّ فقال له: تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحجّ، والله سبحانه يقول: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» الآية. فقال عليه السلام: «أتمّ الآية الأخرى: ﴿التائبون العابدون...﴾ إلى آخرها، تمّ قال: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ».

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ  
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ  
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ  
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

روي أن المسلمين قالوا للنبي عليه السلام: ألا تستغفر لأبائنا الذين ماتوا في

الجاهلية؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَمْثَلِهِمْ﴾ أي: لا ينبغي لنبي ولا لمؤمن أن يطلب المغفرة ويدعو للكافر، ولا يصح ذلك في حكم الله سبحانه. وهذا القول أبلغ من أن يقال: لا ينبغي للنبي، لأنه يدل على قبحه وأن الحكمة تمنع منه، فلو قال: لا ينبغي، لم يدل على أن الحكمة تمنع منه، وإنما كان يدل على أنه لا ينبغي أن يختاره. فمعناه: لم يجعل الله في دينه ولا في حكمه أن يستغفروا للمشركين.

﴿وَلَوْ كَانُوا أَزْوَاجًا﴾ أقرب الناس إليهم في النسب، ودعتهم رقة القرابة وشفقة الرحم إلى الاستغفار لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ النَّجِيمِ﴾ أي: من بعد أن يعلموا أنهم ماتوا على الشرك، فهم مستحقون للخلود في النار، ويظهر أن لهم عذاباً عظيماً.

ثم بين سبحانه الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافراً، سواء كان أباه الذي ولده كما قالت العامة، أو جدّه لأمه أو عمّه على ما رواه أصحابنا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاةٍ﴾ أي: لم يكن استغفاره له إلا صادراً عن موعدة وعدها إبراهيم ﴿إِسَاءَةٍ﴾ وهو قوله: لأستغفرن لك. ومعناه: لأطلبن لك التوفيق للإيمان الذي هو سبب الإيمان الذي يجب ما قبله. ويدل عليه قراءة الحسن: وعدّها أباه. وقيل: صاحب الموعدة أبوه، فإنه وعد إبراهيم أنه يؤمن إن استغفر له، فاستغفر له لذلك.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ أي: أنه مات مشركاً، أو أوحى إليه بأنه لا يليق بما وعد ولن يؤمن ﴿تَبَيَّرَ مِنْهُ﴾ وترك الدعاء له. والقول الأول مروى عن ابن عباس، ومنقول عن أبي جعفر عليه السلام. والثاني مروى عن مجاهد وقتادة. ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ يكثر التأوه. وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿خَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى. والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع سوء خلقه معه، واستماع قوله:

«لأرجمَنَّك» منه .

وعن ابن عباس: الأواه بمعنى الدعاء الكثير الدعاء والبكاء. وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وعن كعب: أن الأواه هو الذي إذا ذكر النار قال: أوه. وروي عبد الله بن شداد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: الأواه هو الخاشع المتضرع.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

روي: أن قوماً من المسلمين ماتوا على الاسلام قبل أن تنزل الفرائض. فقال المسلمون: يا رسول الله إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليستهم ضلالاً. ويؤاخذهم مؤاخذة الكفار ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم حظر ما يجب اتقاؤه. فقبل بيان ذلك لا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم. وهذا دليل على أن الغافل غير مكلف. ولا يخفى أن المراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي، فأما ما يعلم بالعقل، كالصدق في الخير وردّ الوديعة، فغير موقوف على النقل. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في العالمين.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

ولمّا منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربي، وتضمّن ذلك وجوب التبرّء عنهم رأساً. قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي

وَيُعِيثُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لبيّن لهم أنّ الله مالك كلّ موجود، ومتولّي أمره والغالب عليه، ولا يتأتّى لهم ولاية ولا نصرة إلاّ منه، ليتوجّهوا بشرائهم إليه، ويتبرّزوا عمّا عداه، حتّى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ  
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ  
رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ  
بِمَا رَحُبَّتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ  
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

ولما ذكر سبحانه أنّ له ملك السموات والأرض وما بينهما، ولا متولّي ومعطي نعمة ولا ناصر لأحد دونه، بيّن عقبيه رحمته بالمؤمنين ورأفته بهم في قبول توبتهم، فقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ في ترك الأولى من إذن المنافقين في التخلف قبل النهي عنه، كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ إِذْنْتَ لَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وتاب عليهما في المآثم.

وقيل: هو بعث على التوبة، والمعنى: ما من أحد إلاّ وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار. لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup>

(١) التوبة: ٤٣.

(٢) النور: ٣١.

إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه، والترقي إليه توبة من تلك النقيصة، وإظهار فضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباد.

وقال في المجمع<sup>(١)</sup> والجامع<sup>(٢)</sup>: «إنما ذكر النبي ﷺ استفتاحاً باسمه، ولأنه سبب توبتهم، وإلا فمن المعلوم أنه لم يكن منه ما يوجب التوبة. ويؤيده أن الرضا عليه السلام قرأ: لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار».

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ النُّعْزَةِ﴾ في وقتها. وقد تستعمل الساعة في معنى الزمان المطلق، كما تستعمل الغداة والعشيّة في اليوم. والمراد بالعسرة حالهم في غزوة تبوك، فإنهم كانوا في عسرة المركب، حتى يعقب العشرة على بعير واحد. وفي عسرة الزاد، فإن زادهم الشعير المسوس<sup>(٣)</sup> والتمر المدود. وبلغت الشدة بهم حتى قيل: إن الرجلين كانا يقتسمان التمرة، ربما مصّها جماعة ليشربوا عليها الماء. وفي عسرة من الماء في حمارة<sup>(٤)</sup> القيظ والضيق الشديد من القحط، حتى شربوا الفظ، وهو ماء الكرش<sup>(٥)</sup>.

﴿مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عن الثبات على الجهاد واتباع الرسول في تلك الغزوة. ولم يرد بالزيف هاهنا الزيف عن الإيمان، وفي «كاد» ضمير الشأن أو ضمير القوم، والعائد إليه الضمير في «منهم». وقرأ حمزة وحفص: يزيغ بالياء، لأن تأنيث القلوب غير حقيقي. قيل: إن قوماً منهم همّوا بالانصراف عن غزاتهم بغير استئذان، فمصّهم الله تعالى حتى مضوا.

(١) مجمع البيان ٥ : ٨٠.

(٢) جوامع الجامع ١ : ٦٣٥.

(٣) المسوس أي: الذي وقع فيه السوس. وهو دود يقع في الثياب والشعير والخشب ونحوها.

(٤) الحمارة: شدة الحرّ.

(٥) الكرش: هي لذي الخفّ وكلّ حيوان مجترّ بمنزلة المعدة للإنسان.

﴿فَمَ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرر للتأكيد، وتنبه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة ﴿إِنَّهُمْ بِمَهْمِهِمْ زَعُوفٌ رَجِيمٌ﴾ تداركهم برأفته ورحمته.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ وتاب الله على الثلاثة. وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ تخلفوا عن الغزو، أو خلف أمرهم، فإنهم المرجون ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها، لإعراض الناس عنهم بالكليّة. وهو مثل لشدة الحيرة، كأنهم لا يجدون في الأرض موضع قرار ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور ﴿وَضَلُّوا﴾ وعلّموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إلّا إلى استغفاره.

﴿فَمَ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ رجع عليهم بالقبول والرحمة كزرة بعد أخرى ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، أو ليتوبوا أيضاً في المستقبل إن فرطت منهم خطيئة. أو المعنى: رجع عليهم بالتوفيق للتوبة ليتوبوا، أو أنزل قبول توبتهم، أو سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرّة ﴿الرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعيم.

## يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

تمّ خاطب سبحانه المؤمنين المصدّقين بالله المقرّين بنبوّة محمد ﷺ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نيّة وقولاً وعملاً، أي: في توبتهم وإنابتهم. فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ  
 اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا  
 مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطَأً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَالُونَ مِنْ عَدُوِّ  
 نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا  
 يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ  
 أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

ولما قصَّ الله سبحانه فضة الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى  
 تبوك، ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه، وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه،  
 لرافته بهم ورحمته عليهم، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والإزاء على ما  
 كانوا فعلوه، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ  
 رَسُولِ اللَّهِ﴾ عن حكمه. نهي عبث عنه بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ  
 عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا يصونوا أنفسهم عملاً لم يصن رسول الله نفسه عنه، ويكابدوا ما  
 يكابده من الأهوال.

روي أنه كان أبو خيشمة عبدالله بن خيشمة تخلف إلى أن مضى من مسير  
 رسول الله ﷺ عشرة أيام، ثم دخل يوماً على امرأتين له في يوم حار في  
 عريشين لهما، قد رشتاهما وبردتا الماء، وهياتا له الطعام، فقام على العريشين،  
 وقد بلغ بستانه، فياكل منه الرطب ويشرب الماء البارد، فنظر فقال: ظلُّ  
 ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، ورسول الله ﷺ - مع أنه قد غفر الله له ما

تقدّم من ذنبه وما تأخّر - في الضح<sup>(١)</sup> والريح والحرّ والغزو، يحمل سلاحه على عاتقه. وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهياً وامرأتين حسناوين، ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أكلّم واحدة منكما كلمة، ولا أدخل عريشاً حتّى ألحق بالنبى ﷺ. فأناخ ناضحه واشتدّ عليه وتزوّد وارتحل، وامرأتاه تكلّمانه ولا يكلمهما. ثم سار حتّى إذا دنا من تبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق.

فقال النبى ﷺ: كن أبا خيثمة. فلما دنا قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله. فأناخ راحلته وسلّم على رسول الله ﷺ. فقال ﷺ: أولى لك. فحدّثه الحديث. فقال له خيراً واستغفر له.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه قوله: «ما كان» من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظِعْمًا﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْضَمَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الجهاد تقريباً إلى الله ﴿وَلَا يَطْوُونَ﴾ ولا يدوسون بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ﴿مَوْطِنًا﴾ وطأ، أو مكان وطء ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يفضهم وطؤهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفاً يضيق صدورهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ كالقتل والأسر والنهب ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب، وذلك ممّا يوجب المشايعة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُضَيِّعِينَ﴾ على إحسانهم. وهو تعليل «كتب»، وتنبيه على أنّ الجهاد إحسان. أمّا في حقّ الكفّار، فلاّته سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب الداوي للمجنون. وأمّا في حقّ المؤمنين، فلاّته صيانة لهم عن سطوة الكفّار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في

(١) نى هامش النسخة الحطّية: «الضح: ضوء الشمس إذا استسكن في الأرض منه»



مسيرهم . وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل . وهو في الأصل اسم فاعل من : ودى إذا سال . فشاع بمعنى الأرض ، أي : ولا يسيرون ارضاً في ذهابهم ومسجبتهم ﴿إِلَّا كَتِيبَ﴾ أثبت ذلك ﴿لَهُمْ لِيَجْزِيَنَّهُمْ اللهُ﴾ متعلق بـ «كتب» أي : أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أحسن جزاء أعمالهم .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ولما تقدّم الترغيب في الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب ، وتأنب من تخلف عنه بأبلغ أسباب التأنب ، بين موضع الرخصة في تأخر من تأخر عنه ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ اللام لتأكيد النفي . أي : وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم ، كما لا يستقيم أن يتشبّطوا جميعاً ، فإنه يخلّ بأمر المعاش وانتظام العالم غالباً . ولو صحّ وأمكن خروج الجميع ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب على الكافة ، لأنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم .

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كلّ جماعة كثيرة - كقبيلة أو أهل بلدة - جماعة قليلة ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلموا الفقاهة فيه . ويتحملوا مشاقّ تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم . وتخصيصه بالذكر لأنّه أهمّ . وفيه دليل على أنّ التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنّه ينبغي أن يكون غرض المتعلّم فيه أن يستقيم ويقيم . لا الترفع على الناس ، والتبسّط في البلاد ، والترأس فيهم ، والتشبّه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم . ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عمّا ينذرون منه .

واستدلّ به على أن أخبار الأحاد حجة ، لأنّ عموم كلّ فرقة يقتضي أن ينفر

من كل ثلاثة تفرّدوا بقرية طائفة إلى التفقه، لتندر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا، فلو لم يعتبر الإخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك.

قال في الكشاف<sup>(١)</sup>: وللآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل استبق المؤمنون إلى النفي، وانقطعوا جميعاً عن التفقه واستماع الوحي، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأنّ الجدل بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة. ويكون الضمير في «ليتفقهوا» و«لينذروا» لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو. وفي «رجعوا» للطوائف، أي: ولينذر البواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم. وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ  
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ  
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا  
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

ثمّ بين سبحانه ما يجب تقديمه في القتال والقتل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ يقربون منكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ فإنّ القتال وإن كان واجباً مع

جميع الكفار لكن الأقرب منهم فالأقرب، كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته ثم غيرهم من العرب. فحارب قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام. وذلك لأن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى.

وقيل: هم يهود حوالي المدينة، كقريظة والنضير وخيبر. وقيل: الروم، فإنهم كانوا يسكنون الشام، وهو قريب من المدينة.

والأول أصح، لأن السورة نزلت في سنة تسع، وقد فرغ النبي ﷺ من أولئك. وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والترك والديلم تلا هذه الآية.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وشجاعة وصبراً على القتال. ونحوه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض إنكاراً واستهزاء باعتقاد المؤمنين ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ أي: تصديقاً ويقيناً ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَقْنَا لَهُمْ إِيمَانًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة، وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمْ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ بنزولها، أي: يسرون، ويبشرون بعضهم بعضاً، قد تهللت وجوههم وفرحوا بنزولها، لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر ونفاق ﴿فَرَزَقْنَا لَهُمْ رِجْسًا لِيَبْغِضُوا﴾ كفرةً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، فإنهم بتجديد الوحي جددوا كفرهم ونفاقاً فازداد كفرهم عنده واستحکم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحکم وتضاعف ذلك منهم حتى ماتوا عليه.

أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ  
يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ  
أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

ثُمَّ تَبَّه سَبَّحَانَهُ عَلَى إِعْرَاضِ الْمُنَاقِقِينَ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّدْبِيرِ لَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرُوا  
وَيَتَدَبَّرُوا فِيهِ ، فَقَالَ : ﴿أَوَّلًا يَرَوْنَ﴾ يعني : المناققين . وقرأ حمزة بالتاء ﴿أَنَّهُمْ  
يُفْتَنُونَ﴾ . يبتلون بأصناف البليّات ، كالمرض والفحط ، أو بالجهاد مع رسول  
الله ﷺ ، ويعاينون أمره وما ينزل عليه من النصرة والتأييد ، أو يفتنهم الشيطان  
فينقضون عهودهم مع رسول الله ﷺ ، فيقتلهم وينكل بهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ  
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا يتوبون ولا يتوبون من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ ولا  
يعتبرون .

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ﴾ من المسلمين ﴿إِلَى بَعْضٍ﴾ أي :  
تغامزوا بعيونهم إنكاراً للوحي وسخرية ، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم ، قائلين : ﴿هَلْ  
يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لئنصرف ، فإبناً لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا  
الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج  
والانسلاخ لوأذا<sup>(١)</sup> ، فإن لم يرهه أحد قاموا ، وإن يرهه أحد أقاموا . ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾  
عن حضرته مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الايمان خذلانا  
وتخليه . وهو يحتمل الإخبار والدعاء . ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا  
يتدبّرون حتى يفقهوا ويعلموا .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

ثم خاطب الله جميع الخلق. وأكد خطابه بالقسم، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ  
مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم من البشر، ثم من العرب. ثم من بني إسماعيل. وقيل:  
الخطاب للعرب، وليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ. وله فيهم نسب.  
﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه. فهو  
يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب بترك الإيمان ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ على  
إيمانكم وصلاح شأنكم، حتى لا يخرج أحد منكم من الاستعداد به وبدينه الذي  
جاء به ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدم الأبلغ منهما وهو  
الرؤوف، لأن الرأفة شدة الرحمة، محافظة على الفواصل.

قال بعض السلف: لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من  
أسمائه إلا للنبي ﷺ. فإنه قال: «بالمؤمنين رؤوف رحيم»، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ  
لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فاستعن بالله وفوض إليه  
أمرك، فإنه يكفيك معرفتهم<sup>(٢)</sup>، ويعينك عليهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه ﴿عَلَيْهِ  
تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الملك العظيم، أو  
الجسم العظيم الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.

قيل: إن هذه الآية آخر آية نزلت من السماء، وآخر سورة كاملة نزلت سورة

براءة.

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) المعرة: الأذى والمساءة والإثم.



## سورة يونس

مَكِّيَّة، وهي مائة وتسع آيات. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعدد من غرق مع فرعون.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقرين».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاجِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

لما ختم الله سورة براءة بذكر الرسول، افتتح هذه السورة بذكره ﷺ وما أنزل عليه من القرآن، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ﴾ تعديد للحروف على طريق التحدي. وقيل: معناه: أنا الله أرى. وبواقي وجوه التفسير فيه مذكرة في

صدر سورة البقرة. فخمها ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص. وقرأ ورش بين بين. وأمالها الباقون. إجراءً لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي ﴿آيَاتِ الْكِتَابِ النَّحِيمِ﴾ المراد بالكتاب السورة، أو القرآن كله، أو اللوح المحفوظ، فإن القرآن منزل منه. ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم، أو لأنه كلام حكيم، أو محكم آياته لم ينسخ شيء منها.

﴿أَنكَارٌ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب. و«عجباً» خبر «كان»، واسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾. وذكر اللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم ﴿إِلَى زَجَلٍ مِّنْهُمْ﴾ من جنس رجالهم، دون أن يكون عظيماً من عظمتهم.

قيل: كانوا يقولون: العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا ينم أبي طالب. وهو من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم على الأمور الصاجلة، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة. هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظمتهم فيما يعتبرونه إلا في المال، وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك.

وقيل: تعجبوا من أنه عز وجل بعث بشراً رسولاً، كما سبق<sup>(١)</sup> في سورة الأنعام.

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ «أن» هي المفسرة لـ«أن أوحينا» فيه معنى القول، أو المخففة من الثقلية، فتكون في موضع مفعول «أوحينا». وأصله: أوحينا أن الشأن قولنا: أنذر الناس.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عمم الإنذار. إذ قلتما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن

ينذر منه. وخصص البشارة بالمؤمنين، إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿قَدْ صَدَّقَ وَعْدَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة. سميت قدماً لأن السبق والسعي بها، كما سميت النعمة يداً، لأنها تعطي باليد. وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها، والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية.

وعن أبي سعيد الخدري: أن معنى قدم صدق شفاعته محمد ﷺ يوم القيامة. وهو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام.

ولما قال: «أكان للناس عجباً» قالوا: وكيف لا نعجب ولا علم لنا بالمرسل؟! فقال: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول ﴿نَسَاجِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيتون: لساحر، على أن الإشارة إلى الرسول. وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة، معجزة إيتاهم عن المعارضة، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ  
عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ  
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ  
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ  
الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا  
خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ



اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُونَ ﴿٦﴾

ثم بين صفاته الكمالية المنضمة لاستحقاقه العبودية لا غير، المقضية للحكم والمصالح والتدابير التي من جعلتها إعطاء النبوّة لمن يليق بحاله، فقال: ﴿إِنْ زُبُّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التي هي أصول الممكنات ﴿فِي سَبْتَةِ أَيَّامٍ﴾ مع قدرته على إنشائها دفعة واحدة. والوجه في ذلك دلالة صريحة على أنه قادر مختار لا موجب، وتعلماً لعباده التائي في الأمور. وفي الحديث: «التائي من الرحمن، والعجلة من الشيطان».

﴿ثُمَّ اسْفُؤِي عَلَى الْفَرْشِ﴾ مرّ تفسيره مراراً<sup>(١)</sup> ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته، ويهيء بتحريكه أسبابها وينزلها منه. والتدبير النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة. ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعزّ جلاله، وردّ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات المقضية للألوهية والربوبية ﴿اللهُ زُبُّكُمْ﴾ لا غير، إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة، ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلاً عن جماد لا يضرّ ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفكّرون أدنى تفكّر، فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

﴿إِنِّي مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ في العاقبة بالموت أو النشور، لا إلى غيره، فاستعدوا للقاءه ﴿وَعَذَابُ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكّد لنفسه، لأنّ قوله: «إليه مرجعكم» وعد من الله تعالى ﴿حَقّاً﴾ مصدر آخر مؤكّد لغيره، وهو ما دلّ عليه وعد الله عزّ وجلّ. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد بدئه وإهلاكه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ بِالنَّاسِطِ ﴿٦﴾ أي: بعدله. أو بعداتهم وقيامهم على العدل في أمورهم. أو بإيمانهم. لأنه العدل القويم، كما أن الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه، لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه: ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم. لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب، والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة. والعقاب واقع بالعرض. وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، ولذلك لم يعينه. وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

والآية كالتعليل لقوله تعالى: «إليه مرجعكم جميعاً» فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم، كان مرجع الجميع إليه لا محالة.

ثم زاد سبحانه في الاحتجاج للتوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي: ذات ضياء. وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء، كسياط وسوط. والياء فيه منقلبة عن الواو، لكسرة ما قبلها. وعن ابن كثير برواية قنبل: ضياء بهمزتين، في كل القرآن، على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة. وهو أعم من الضوء. وقيل: ما بالذات ضوء، وما بالعرض نور. وتبته سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها، والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكساب منها.

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد. أي: قدر مسير كل واحد منهما منازل، كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ﴾<sup>(١)</sup> أو قدره ذا منازل، أو الضمير للقمر. وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازل، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علّله بقوله:

﴿بَتَّعَلْمُوا﴾ به وبمنازله ﴿عَدَدَ السُّنِينَ وَالْجِسَابِ﴾ أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملتكم وتصرفاتكم.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً ﴿يَفْضَلُ الْآيَاتِ بِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بالتأمل فيها. وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص: يفصل بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع الكائنات فهما ﴿آيَاتٍ﴾ على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته ﴿بِقَوْمٍ يَعْقُونَ﴾ العواقب. وخصهم لأنهم يحذرون العاقبة. فيدعوهم ذلك إلى النظر والتأمل.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

ثم إنه سبحانه أوعد الغافلين عن الأدلة المتقدمة المكذبين بالمعاد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوهمون جزاءنا. لإنكارهم البعث، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة، لغفلتهم عنها، واختاروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها، مقصّرين همهم على لذائذها وزخارفها. أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، لانهماكهم فيما يصادها.

والعطف إمّا لتغاير الوصفين، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات والانهماك في الشهوات، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً. وإمّا لتغاير الفريقين، فإن المراد بالأولين من أنكر البعث ولم ير إلا الحياة الدنيا، وبالأخرين من ألهاه حبّ العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما واضبوا عليه، وتمرتوا به من

المعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ  
فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

ثم وعد سبحانه المؤمنين بعد ما أوعد الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة. أو لإدراك الحقائق. كما قال: وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ؛ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». أو لما يريدونه في الجنة. ومفهوم الترتيب وإن دلّ على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح. لكن دلّ منطوق قوله: «بإيمانهم» على استقلال الإيمان بالسببية، وأن العمل الصالح كالتممة والرديف له.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استئناف. أو خبر ثانٍ، أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير.

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ خبر، أو حال أخرى منه أو من الأنهار، أو متعلق بـ«تجري» أو بـ«يهدى».

﴿دَعَاؤُهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ﴿فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسُبُّكَ تَسْبِيحاً. وذلك لا على وجه العبادة، فإنه لا تكليف في الجنة، بل على طريق التلذذ من غير كلفة. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيي به بعضهم بعضاً. أو تحية الملائكة إياهم ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾. قيل: هي تحية الله لهم. والمعنى: سلمتم من الآفات والمكاره التي ابتلي بها

أهل النار.

﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ وآخر دعائهم ﴿إِنِ الْحَفْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أن يقولوا ذلك. وقيل: إنهم إذا دخلوا الجنة وعابوا عظمة الله وكبرياءه ومجده ونعتوه بنعوت الجلال، ثم حياتهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو الله تعالى<sup>(١)</sup>، فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام. و«أن» هي المخففة من الثقيلة. وأصله: أنه الحمد، على أن الضمير للشأن.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَدَرُ  
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

ثم عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا، المطمئنين إليها، الفاقلين عن الآخرة. فقال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ولو يسرعه إليهم إذا دعوا به على أنفسهم أو على أهاليهم عند الغيظ والضجر، مثل قول الانسان: رفعني الله من بينكم، وقوله لولده: اللهم العنه ولا تبارك فيه ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: كما يعجل لهم إجابة الدعوة بالخير إذا استعجلوها. فوضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم. أو بأن المراد شر استعجلوه، كقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء. وتقدير الكلام: لو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه.

والمعنى: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخيرات ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. وقرأ ابن عامر ويعقوب: لقضى على

(١) أي: حياتهم الله تعالى.

البناء للفاعل، وهو الله تعالى.

﴿فَنذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية. كأنه قيل: ولكن لا نمجّل ولا نقضي، فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً، لإلزام الحجّة عليهم.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن قلة صبر الانسان على الضرّ والشدائد، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ المشقة والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنبِهِ﴾ ملقياً بجانبه، أي: مضطجماً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وفائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال. والمعنى: أنه لا يزال داعياً لا يفتقر عن الدعاء حتّى يزول عنه الضرر، فهو يدعو في حالاته كلّها يستدفع البلاء. واللام في الانسان للجنس.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أزلنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ ووهبنا له العافية ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته الأولى، أي: استمرّ على كفره كما كان قبل أن يمسه الضرّ، أو مرّ عن موقف الدعاء والتضرّع لا يرجع إليه. ﴿كَانَ لَمْ يَدْعُنَا﴾ أي: كأنه لم يدعنا، فحَقِّف وحذف ضمير الشأن، كقوله:

ونسحر مشرق اللون      كأن ثدياه حقان

﴿إِنِّي ضُرُّ﴾ إلى كشف ضرّ ﴿مَسَّهُ كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: زين الشيطان بوسوسته لهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في

الشهوات والأمانى الباطلة، والإعراض عن العبادات عند الرخاء.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ  
فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

ثم أخبر سبحانه عما نزل بالأمم الماضية من المثالات، وحذر هذه الأمة عن مثل مصارعهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة بأنواع العذاب ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حين ظلموا بالتكذيب وفرط العصيان، واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي، وهو ظرف لـ «أهلكنا». ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم. وهو حال من الواو بإضمار «قد»، أو عطف على «ظلموا». ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: وما كانوا يؤمنون حقاً. والمعنى: أن السبب في هلاكهم تكذيبهم الرسل، وعلم الله إصرارهم على الكفر، وأنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن لزمهم الحجّة بإرسال الرسل.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء، وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه، بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم، أو نجزيكم. فوضع المظهر موضع المضمّر للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه. وهو وعيد لأهل مكة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم في الأرض من بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أنعملون خيراً أم شراً؟ فنعاملكم على حسب أعمالكم. و«كيف» في محلّ النصب حالاً

«تعملون»، فإن معنى الاستفهام فيه يحجب أن يعمل فيه ما قبله. والنظر هنا مستعار، بمعنى العلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبه بنظر الناظر وعيان المعاني في تحققه.

وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقْرَانٌ  
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا  
يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ  
اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ  
﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

روي أن خمسة نفر من المشركين، وهم: عبدالله بن أمية المخزومي، والوليد ابن المضيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن ابي قيس العامري، والعاص ابن عامر بن هاشم، قالوا للنبي ﷺ: انت بقران ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، ولا ما نستبعده من الآخرة وأحوالها، أو بدله فتكلم به عن تلقاء نفسك. فنزلت: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالات في الحلال والحرام وسائر الشرائع ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يؤمنون بالبعث والنشور وما يتعلق به، يعني: المشركين ﴿أَنْتَ بَقْرَانٌ غَيْرِ هَذَا﴾ بكتاب آخر نقرؤه، وليس فيه ما نكرهه من معايب آلهتنا، وما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد



الموت ﴿أَوْ بَدَلَهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى. ولعلمهم سألوا ذلك لكي يسعفهم إليه فيلزموه.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يصح لي ﴿أَنْ أُنْذِرَهُ مِنْ بَلْقَاءِ نَفْسِي﴾ من قبل نفسي. وهو مصدر استعمل ظرفاً. وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لأن هذا داخل تحت مقدور الانسان، بأن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل. وأن يسقط ذكر الآلهة. فأما الإتيان بقرآن آخر فقير مقدور عليه للانسان.

﴿إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ لتلليل لقوله: «ما يكون لي»، فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه بوجه. وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض، أي: إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس إلي نسخ ولا تبديل. ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه، ولذلك قيد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك ﴿مَا تَلَوْتُهُ﴾ ما قرأت هذا القرآن ﴿عَلَيْكُمْ وَلَا انزَاخْتُمْ بِهِ﴾ ولا أعلمكم الله به على لساني بأن لا ينزله علي، فلا أقرأ عليكم فلا تعلمونه. وعن ابن كثير برواية قنبل والبرقي مع خلاف: ولأدراكم بلام التأكيد، أي: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم الله به على لسان غيري، ولكنه خصني بهذه الكرامة، يعني: أنه الحق الذي لا محيص عنه، لولم أرسل به لأرسل به غيري. وملخص المعنى: أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله، لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ﴾ فقد أقمت فيما بينكم ﴿عُمْرًا﴾ مقدار عمر أربعين سنة ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه. فهذا دلالة على أن القرآن معجز خارق للعادة، فإن من عاش بين أظهركم أربعين سنة لم يمارس فيها

علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم ينشئ شعراً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بدت<sup>(١)</sup> فصاحته فصاحة كل منطق فصيح، وعلا عن كل منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرّب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه، علم أنه معلّم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبّر والتفكّر فيه لتعلموا أنه ليس إلّا من الله تعالى؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممّن اخترع على الله كذباً. وهذا نفاذ ممّا أضافوه إليه كناية، أو تظليم للمشركين بافترائهم على الله في قولهم: إنه لذو شريك وذو ولد. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فكفر بها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْخِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون المتوغّلون في الطغيان والمصيان.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

روي: **أَنَّ أَهْلَ الطَّائِفِ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّاتَ، وَأَهْلَ مَكَّةَ الْعَزَى وَمَنَاةَ وَهَيْلَ وَأَسَافًا وَنَائِلَةَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، فَزَلَّتْ فِيهِمْ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾** لآته جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر، والمعبود ينبغي أن يكون شيئاً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر **﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** تشفع لنا فيما يهتنا من أمور الدنيا أو الآخرة إن يكن بعث. وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده.

**﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾** أتخبرونه **﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾** وهو أن له شريكاً. وفيه تفرغ وتهكم بهم. أو هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وما لا يعلمه العالم بالذات المحيط بجميع المعلومات لا يكون له تحقق. **﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** حال من العائد المحذوف في «لا يعلم» أي: لا يعلمه، مؤكدة للنفي، منتهية على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي أو أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به **﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** «ما» مصدرية. أي: عن إشراكهم. أو موصولة، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل<sup>(١)</sup> والروم<sup>(٢)</sup> بالتاء.

**﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾** متفقين على ملّة واحدة، موحدين كلهم على الفطرة. وذلك في عهد آدم ﷺ إلى أن قتل قابيل هابيل، أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً. أو مجتمعين على الضلال في فترة من الرسل. **﴿فَاخْتَلَفُوا﴾** بتأبع الهوى والأباطيل، أو ببعثة الرسل، فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى.

(١) النحل: ١٠.

(٢) الروم: ٤٠.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنه يوم الفصل والجزاء ﴿لَنَقُصِبَنَّهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق، ولكن الحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار للتكليف، وتلك للنواب والعقاب.

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: من الآيات التي اقترحوها. وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظيمة المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، لفرط عنادهم وتماديهم في التمرد، وانهماكهم في الغي. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفاصد تصرف عن إنزالها ﴿فَانتَقِظُوا﴾ لنزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجهودكم ما نزل علي من الآيات العظام، واقتراحكم غيره.

ثم أخبر سبحانه عن ذميمة فعالهم فقال: ﴿وَإِذَا أَدْعَاكَ النَّاسُ﴾ يريد بالناس الكفار ﴿رَحْمَةً﴾ صحة وسعة ﴿مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسْتَهْتَمٍ﴾ كمرض وقحط ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ احتيال في دفعها والطعن فيها.

قيل: قحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم الله بغزارة المطر، فصاروا يطعنون في آيات الله، ويكيدون رسوله ويعادونه.

﴿قُلِ اللَّهُ اشْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم، قد دبّر عقابكم قبل أن تدبّروا كيدكم في إطفاء نور الاسلام. وإنما دلّ على سرعتهم المفضل عليها كلمة «إذا» المفاجأة الواقعة جواباً لـ «إذا» الشرطية. والمكر إخفاء الكيد. وهو من الله تعالى إما الاستدراج، أو الجزاء على المكر. ﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمَكَّرُونَ﴾ هذا إعلام للانتقام، وتنبية على أن ما دبّروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً أن يخفى على الله تعالى. وعن يعقوب: يسكرون بالباء، ليوافق ما قبله.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُم بِبُغْيُونٍ فِي الْأَرْضِ بغيرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

تم امتن الله سبحانه على خلقه، بأن عدّد نعمه التي يعطيهم في كلّ حال، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير، ويمكنكم منه بما هيأ لكم من أسباب السير. وقرأ ابن عامر: ينشركم، بالنون والشين من النشر. ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ في السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ بمن فيها. عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه تذكّره لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليئنة الهبوب يستطيعونها ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ سرّوا بتلك الريح، لأنها تبلغهم مقصودهم ﴿جَاءَتْهَا﴾ جواب «إذا»، والضمير للفلك أو الريح الطيبة. بمعنى: تلقّتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف، شديدة الهبوب. هائلة.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من أمكنة الموج. يعني: الموج من الجوانب الأربع. ﴿وظنوا أنّهم أُحيطَ بِهِمْ﴾ وأيقنوا أنّهم دنوا من الهلاك. وهو مثل في الهلاك. أي: أنّهم أهلكوا. وسدّت عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاطت به أعداؤه.

﴿دَعُوا اللَّهَ﴾ عند نزول هذه الشدائد ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك. لتراجع الفطرة، وزوال المعارض من شدة الخوف. وهو بدل من «ظنوا» بدل الاشتمال، لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك، فهو ملتبس به. والجملة الشرطية بعد «حتى» بما في حيزها غاية للتيسير، فكأنه قال: هو الذي يسيركم حتى وقعت هذه الحادثة، وكان كيت وكيت، من مجيء الريح العاصف، وتراكم الأمواج، والظن بالهلاك، والدعاء بالإنباء خالصاً ومخلصاً.

﴿لَئِن أَنْجَيْنَا﴾ يارب ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من جملة من يشكر، على إرادة القول، أو مفعول «دعوا» لأنه من جملة القول.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ أخلصهم الله تعالى من تلك المحن إجابة لدعائهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فاجؤا الفساد فيها، وسارعوا إلى ما كانوا عليه ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مبطلين فيه. وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم، فإنها إفساد بحق.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وبالها عليكم، وإنما بغىكم على أمثالكم وأبناء جنسكم ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى، ويبقى عقابها، ورفع على أنه خبر «بغىكم» و«على أنفسكم» صلته، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ذلك متاع الحياة الدنيا، و«على أنفسكم» خبر «بغىكم» ونصبه حفص على أنه مصدر مؤكد، أي: تمتعون متاع الحياة الدنيا. أو مفعول البغي، لأنه بمعنى الطلب، فيكون الجاز من صلته والخبر محذوف، تقديره: بغىكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال. أو مفعول فعل دلّ عليه البغي، و«على أنفسكم» خبر.

﴿ثُمَّ إِنْ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَسَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه. وروي عنه عليه السلام: «تستان يمجلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين». وعن ابن عباس: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ  
 الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ  
 وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا  
 كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ولما تقدّم ما يوجب الترغيب في الآخرة والترهيد في الدنيا، عقبه سبحانه  
 بذكر صفة الدارين، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حالها العجيبة في سرعة  
 تقضبها، وذهاب نعيمها بعد إقبالها، واغترار الناس بها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ  
 فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ  
 وَالْأَنْعَامُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها  
 وألوانها المختلفة، كعروس أخذت ألوان الثياب والزينة ونزيت بها، وأصل  
 «ازَّيَّنَتْ» تزيت، فأدغم ثم أدخل عليه الهمزة المكسورة، لتعذر الابتداء بالساكن.  
 ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾  
 هو ضرب زرعها ببعض العاهات والآفات بعد أمنهم وإيقانهم أن قد سلم ﴿لَيْلًا أَوْ  
 نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله واستوصل  
 ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ﴾ زرعها، أي: لم يسر، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة.  
 ﴿بِالْأَمْسِ﴾ فيما قبّله، وهو مثل في الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن أنفاً.  
 واعلم أن الممثل به مضروب الحكاية، وهو زوال خضرة النباتات فسجاده،  
 بذهاب حطامها، بعد ما كان غصناً والتف وزين الأرض حتى طمع فيه أهله، وظنوا

أنه قد سلم من الجوائح<sup>(١)</sup>. لا الماء وإن وليه حرف التشبيه، لأنه من التشبيه المركب.

﴿كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المتفكرون به.

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
 ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا  
 ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا  
 السَّيِّئَاتِ جَزَاءً سَنِيَّةً بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ كَأَنَّمَا  
 أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

ولما بين سبحانه أن الدنيا تنقطع وتفتى بالموت كما يفنى هذا النبات بفنون الآفات، وتبته على التوقع لزوالها والتحرز عن الاغترار بأحوالها، رغب عقيبها في الآخرة، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ دار السلامة من التقضي والآفة، أو دار الله. وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبية على ذلك. أو دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها، والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. وهو الذي علم أن اللطف يجدي عليه، فإن مشيئته تابعة لحكمته. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها الذي هو الاسلام والتدرج بلباس التقوى.

(١) الجوائح جمع الجائحة، وهي البلية والتهلكة.



والمعنى: بدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا الذي استرشد فوق بالاهتداء. فإن الحكمة الإلهية مقتضية أن يوفق طالب الحق ويهديه، ويخذل المماند المكابر ويمنع لطفه وتوفيقه عنه.

ثم بين حال أهل دار السلام فقال: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ المشوبة ﴿الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المشوبة تفضلاً، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup>. وعن عليّ عليه السلام: «الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب». وعن ابن عباس: الحسنى مثل حسناتها، والزيادة عشر أمثالها. وعن الحسن: عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر. وعن مجاهد: الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم. وعن أبي جعفر عليه السلام: «الزيادة هي ما أعطاهم الله تعالى من النعم في الدنيا، لا يحاسبهم به في الآخرة».

﴿وَلَا يَزْهَقُ وُجُوهُهُمْ﴾ لا يغشاها ﴿قَتْرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان وأثر كآبة. والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار، كقوله: ﴿تَزْهَقُهَا قَتْرَةٌ﴾<sup>(٢)</sup> و ﴿تَزْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

روى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من عين ترفقت<sup>(٤)</sup> بمائها إلا حرم الله ذلك الجسد على النار، فإن فاضت من خشية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة».

﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض

(١) النساء: ١٧٣.

(٢) عبس: ٤١.

(٣) التلم: ٤٣.

(٤) ترفقت العين: دعت.

لنعيمها، بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله: «الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى» على مذهب من يجوز: في الدار زيد والحجرة عمرو. أو «الَّذِينَ» مبتدأ، والخبر «جزاء سيئة» على تقدير: وجزاء الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. والمعنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة بسيئة مثلها لا يزداد عليها. أو «الَّذِينَ» مبتدأ، والخبر «كأنما أغشيت» أو «أولئك أصحاب النار»، وما بينهما اعتراض. فـ«جزاء سيئة» مبتدأ خبره محذوف، أي: فجزاء سيئة بمثلها واقع. أو بمثلها، على زيادة الباء أو تقدير مقدر: بمثلها.

وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل، لأنه دلّ بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودلّ ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله.

﴿وَتَرَاهُمْ ذُلًّا مَّا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ غَاصِبٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله تعالى ومن عنده، كما يكون للمؤمنين ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَبَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها. و«مظلماً» حال من الليل، والعامل فيه «أغشيت»، لأنه العامل في «قطعاً»، وهو موصوف بالجازر والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة، أو العامل معنى الفعل في «من الليل».

وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: قِطْعًا يسكون الطاء. وعلى هذا يصح أن يكون «مظلماً» صفة له أو حالاً منه.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذه الآية في المشركين، فلا تكون مما يحتج به الوعيديّة.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَمَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا  
 أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

ولما تقدّم ذكر الجزاء بين سبحانه وقت الجزاء، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ  
 جَمِيعًا﴾ نجمع الخلائق أجمعين من كل أوب إلى الموقف ﴿فَمَنْ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا  
 مَكَانَتَكُمْ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿انتم﴾ تأكيد للضمير المتقل  
 إليه من عامله، لأنه سدّ مسدّ: الزموا ﴿وَشَرَكَاؤُكُمْ﴾ عطف عليه ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾  
 ففرقنا بينهم، وقطعنا الوصل التي كانت بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا  
 تَعْبُدُونَ﴾ مجاز عن براءة ما عبده من عبادتهم، فإنهم عبدوا في الحقيقة أهواءهم،  
 لأنها الآمرة بالإشراك لا ما أشركوا به.

وقيل: ينطق الله الأصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي توقّعوا منها.

وقيل: المراد بالشركاء الملائكة والمسيح. وقيل: الشياطين.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العالم بكنه الحال ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ﴾ «إن» هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما قدمت من

عمل، فتعابن نفعه وضره، مقبولة ومردودة، ومنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ السُّرَائِرُ﴾<sup>(١)</sup>. وقرأ

حمزة والكسائي: تلو، من التلاوة، أي: تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التلو، أي: تتبع

عملها فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. ﴿وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا

﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ربهم الثابتة ربوبيته، ومتولّي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوه

مولى. أو الذي يتولّى حسابهم، العدل الذي لا يجور. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم

﴿ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ نَبْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

ثم قرّر سبحانه أدلة التوحيد والبعث عليهم، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: منهما جميعاً، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل: «من» لبيان «من» على حذف المضاف، أي: من أهل السماء والأرض.

﴿ أَمْ نَبْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما؟ أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء؟  
 ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي: ومن يحيي ويميت؟ ومن ينشئ الحيوان من النطفة، والنطفة منه؟ ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم. وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ إذ لا يقدرّون على المكابرة والعناد في ذلك، لفرط وضوحه ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي: المتولّي لهذه الأمور المستحقّ للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته. لأنّه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكار. أي: ليس بعد الحقّ إلا الضلال، فمن تخطى الحقّ - الذي هو عبادة الله - وقع في الضلال ﴿فَأَنَّى تُضْرَفُونَ﴾ عن الحقّ إلى الضلال.

﴿مَخَذَلِكُمْ﴾ أي: كما حقّت الربوبية لله تعالى. أو أنّ الحقّ بعده الضلال، أو أنّهم مصروفون عن الحقّ ﴿حَقَّقْتُ كَلِمَةَ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت حكمه بالعذاب ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمرّدوا في كفرهم، وخرجوا عن حدّ الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أي: حقّ عليهم انتفاء الإيمان. أو تعليل لحقيتها، أي: حقّ عذاب الله على الذين فسقوا، لعدم إيمانهم.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ثمّ احتجّ سبحانه عليهم في التوحيد باحتجاج آخر. فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ من هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله تعالى ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ جعل إعادة الخلق كالإبداء في الإلزام بها، لظهور برهانها، ومكابرة دافعها، وعدم مساعدته عليها. ولذلك أمر الرسول بأن يئوب عنهم في الجواب، فقال: ﴿قُلْ

اللَّهُ يَبْذُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴿٣٤﴾ لَأَن لَّجَاهِهِمْ وَمَكَابِرَتِهِمْ لَا يَدْعُهُمْ أَن يَعْتَرَفُوا بِهَا ﴿٣٥﴾ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٦﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

ثم استأنف الحجاج بنوع آخر، فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرِكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى الرشد وما فيه من الصلاح والنجاة، بنصب الحجاج وإرسال الرسل، والتوفيق للنظر والتدبر. و«هدى» كما يعدى «إلى» لتضمنه معنى الانتهاء، يعدى باللام، للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية، وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق، ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. وقال: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بما ركب في المكلفين من العقول، ومكنتهم من النظر في الأدلة، ووقفهم على الشرائع. ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾ لا يهتدي ﴿إِلَّا أَن يُهْدَى﴾ من قولهم: هدى بنفسه إذا اهتدى. أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله. وهذا حال أشراف شركائهم، كالملائكة والمسيح وعزير.

وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر: لا يَهْدِي، بفتح الهاء وتشديد الدال. ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد. والأصل: يهتدي، فأدغم، وفتحت الهاء بحركة التاء. أو كسرت لالتقاء الساكنين. وروى أبو بكر: يهْدِي باتباع الهاء. وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد عن الفتحة أو الكسرة، ولم يكن يبال بالالتقاء الساكنين، لأن المدغم في حكم المتحرك. وعن نافع برواية قالون مثله.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه، كقولهم: إن هذه الأصنام آلهة، وأنها شفعاء عند الله. والاستفهام للتعجب.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه ﴿إِلَّا ظُلْمًا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة، كقياس الغائب على الشاهد، والخالف على المخلوق، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر الجميع، أو من ينتمي إلى تمييز ونظر، ولا يرضى بالتقليد الصرف.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق الثابت ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء. ويجوز أن يكون مفعولاً به، و«من الحق» حالاً منه. وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على أتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾

ثم ردَّ الله سبحانه على الكفار قولهم: «أنت بقرآن غير هذا أو بدله»، وقولهم: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ افترى هذا القرآن». فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وما صَحَّ وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى من الخلق ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدّمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها، ولا يكون كذباً، كيف وهو - لكونه معجزاً دونها - عيار عليها، شاهد على صحتها، ونسبه بأنه خير «كان» مقدراً، أو علة لفعل محذوف، تقديره: لكن أنزله الله تصديق الذي بين يديه.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حَقَّق وأثبت من العقائد وفرض الأحكام، وبيان سائر الشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ متنفياً عنه الشك. وهو خبر ثالث داخل في

حكم الاستدراك. ويجوز أن يكون حالاً من «الكتاب»، فإنه مفعول في المعنى، وأن يكون استئنافاً.

﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر آخر، تقديره: كائناً من رب العالمين. أو متعلق بـ«تصديق» أو بـ«تفصيل»، و«لا ريب فيه» اعتراض. أو بالفعل المعلّل بالتصديق والتفصيل، أي: أنزله الله كائناً من رب العالمين. ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب، أو من الضمير في «فيه». ومساق الآية بعد المنع من اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون ﴿افْتِرَاءً﴾ محمد ﷺ؟ ومعنى الهزرة فيه للانكار. ﴿قُلْ﴾ إن افتريته كما زعمتم ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء. فإنكم مثلي في العريّة والفصاحة. وأشدّ تمرناً في النظم والعبارة ﴿وَأَذَعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى، فإنه وحده قادر على أن يأتي بمثله، ولا يقدر على ذلك أحد غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن محمداً اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ بالقرآن الذي لم يعلموه من جميع وجوهه أول ما سمعوه، قبل أن يتدبروا آياته، ويحيطوا بالعلم بشأنه وكنه أمره، من كيفية نظمه وصحة معانيه. أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً. من ذكر البعث وسائر ما يخالف دينهم.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يقفوا بعد على حقيقته. ولم تبلغ أذهانهم معانيه. لنفورهم عما يخالف ما ألفوه من آياتهم. أولم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الإخبار بالقيوم حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب. والمعنى: أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى. ثم إنهم فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه.

ومعنى التوقع في «لَمَّا» أنه قد ظهر لهم بالأخرة إعجازه لساكرّر عليهم التحدي، فجزّبوا قواهم في معارضته فضعفت دونها، أو لمّا شاهدوا وقوع ما أخبر



به طبقاً لإخباره مراراً، فلم يقلعوا عن التكذيب تمرّداً وعناداً.

﴿كَذِبٌ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ  
 ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا  
 بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّةَ وَلَوْ  
 كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا  
 يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ  
 ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ  
 قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا نُزِّلْنَاكَ  
 بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوْفِيقًا فَالْيَتَا مُرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ  
 ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا  
 يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

ثم أخبر سبحانه أن من جملة هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن ونسبوه إلى الافتراء من سيؤمن به في المستقبل، ويصدق بأنه من عند الله، ومنهم من يحوت

على كفره، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المكذبين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من سيؤمن ويتوب عن كفره، أو يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيما يستقبل، بأن يموت على الكفر، أو لا يؤمن به في نفسه، لقلّة تدبره فيه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو بالمصرّين.

تمّ خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن اصرّوا على تكذيبك بعد إزام الحجة ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَنَعْمَ عَمَلُكُمْ﴾ لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، حقاً كان أو باطلاً ﴿أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعلمي، ولا تؤاخذ بعملكم. ومثله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة.

وملخص المعنى: إن عاندوا وأصرّوا على تكذيبك فبترأ منهم وخلّهم، فقد أعذرت في التبليغ إليهم. وهذا وعيد لهم من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. ولا تنافي بين هذه الآية وآية القتال، لأنّه براءة ووعيد. وذلك لا ينافي الجهاد، فلا تكون منسوخة بإنزال آية<sup>(٣)</sup> السيف كما توهم بعضهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكن لا يقبلون ولا يعون، كالأصمّ الذي لا يسمع أصلاً ﴿إِذَا نَتَّعْتِ السَّمْعَ الصَّمَّ﴾ أتقدر على إسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولو انضمّ إلى صممهم عدم تعقلهم، لأنّ الأصمّ العاقل ربما تفرّس واستدلّ وعلم إذا وقع في صماخه دويّ الصوت، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع جميعاً فقد تمّ الأمر.

وفيه تنبيه على أنّ حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا

(١) الشعراء: ٢١٦.

(٢) الأنعام: ١٣٥.

(٣) التوبة: ٥ و ٢٩.

توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره، وعقولهم لنا كانت مؤفة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق، وهو مجرد استماع الصوت.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك ﴿أَفَأَنْتَ تَهْتَدِي الْعُغْيَى﴾ أتقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحدس الأعمى المستبصر ويستظن لما لا يدركه البصير الأحمق. يعني: أنهم في اليأس من قبولهم وتصديقهم الحق كالصم والعمي الذين لا عقول لهم ولا بصائر. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم. والاستفهام في الآيتين للإنكار.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم. أو لا يظلمهم في تعذيبهم يوم القيامة. بل العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستحقاق. وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف «لكن» ورفع الناس.

ثم بين حالهم يوم الجمع بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يعني: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور، لهول ما يرون والجملة التشبيهية في موضع الحال، أي: يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة «يوم»، والمائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله، أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله.

﴿يَتَفَارَقُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم عن القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم، لشدة العذاب عليهم. وهي حال

أخرى مقدّرة، نحو: خرجت مع البازي صائداً، والصيد لا يكون حين الخروج بل بعده. أو بيان لقوله: «كأن لم يلبثوا». أو متعلّق الظرف، والتقدير: يتعارفون يوم يحشرهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول. والمعنى: يتعارفون بينهم قائلين ذلك. أو هي شهادة من الله على خسرانهم. والمعنى: قد خسروا في تجارتهم وبيعهم بالإيمان بالكفر. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من القوى في تحصيل المعارف، فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردى والعذاب الدائم، فما كانوا عارفين بالتجارة المربحة، والمثمرة للسعادة الأبدية.

﴿وَأَمَّا فِرْيَنُكَ﴾ نصرتك ﴿بِعِصْيَانِكَ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ تَتَوَفَّيْنِكَ﴾ قبل أن نريك ﴿فَالْيَوْمَ نَزَجَعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة. وهو جواب «تتوفينك». وجواب «نريتك» محذوف، مثل: فذاك. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: مجاز عليه. ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها، فكأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، ولذا رتبها على الرجوع «ثم». أو معناه: مؤيدٌ شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

﴿وَيَكُلُّ أُمَّةٌ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبيّنات فكذبوه ﴿قَضَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأنجى الرسول وأهلك المكذّبون ﴿وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾.

وقيل: معناه لكلّ أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه، فإذا جاء رسوله الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمن وعقاب الكافر، كقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَأَلَّنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلِكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

ولما وعد سبحانه المكذبين بين عقيه أنهم استعجلوا ذلك على سبيل التكديب والرد، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاءً به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي والمؤمنين.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ من فقر أو مرض ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من غنى أو صحة، فكيف أملك لكم فأستعجل في جلب العذاب إليكم؟! ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه، أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب محدود من الزمان

لهلاكهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون. فلا تستعجلوا فسيحين<sup>(١)</sup> وقتكم وينجز وعدكم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون به ﴿بَيِّنَاتًا﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. وهو بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشغولين بطلب معاشكم ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي شيء من العذاب يستعجلونه، وليس شيء منه يوجب الاستعجال، فإن كلّه مكروه، فلا يلائم الاستعجال؟! وهو متعلق بـ«أرأيتم» لأنه بمعنى: أخبروني. والمجرمون وضع موضع الضمير، للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء الوعيد، لأن يستعجلوه. ويجوز أن يكون معناه التعجب، كأنه قال: أي هول شديد يستعجلون منه؟

وقيل: الضمير في «منه» لله تعالى، وتعلق الاستفهام بـ«أرأيتم». والمعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف، وهو: تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه.

ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل منه المجرمون» جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني؟ ثم تتعلق الجملة بـ«أرأيتم» أو بقوله: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بمعنى: إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. و«ماذا يستعجل» اعتراض، ودخول حرف الاستفهام على «ثم» لإنكار التأخير.

﴿الآن﴾ تؤمنون وقد اضطررتم لحلوله. وهو على إرادة القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: الآن آمنتم به. وعن نافع: الآن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاءً. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على «قيل» المقدر ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾

(١) أي: سيأتي ويقرب وقتكم، من: حان يحين أي: قرب.

المؤلم على الدوام ﴿ هَذَا تُجَزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي .  
 ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ ويستخبرونك ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء  
 النبوة، تقوله بجدُّ أم باطل تهزل به . قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة . والأظهر أن  
 الاستفهام فيه على أصله . لقوله : « ويستنبئونك » . وقيل : إنه للإنكار . و«أحق» مبتدأ ،  
 والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر ، أو خبر مقدم ، والجملة في موقع النصب  
 به «يستنبئونك» .

﴿ قَدْ إِي وَرَيْبِي إِنَّهُ لِحَقٌّ ﴾ إنَّ العذاب لكائن لا شك فيه ، أو ما ادَّعَيْته ثابت .  
 وقيل : كلا الضميرين للقرآن . و«إي» بمعنى «نعم» وهو من لوازم القسم ، كما كان  
 «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة ، ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال :  
 إي والله ، ولا يقال : إي وحده . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ فائتين العذاب ، وهو لاحق  
 بكم لا محالة .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلْكَافِرِ نَفْسًا ظَلَمَتْ ﴾ صفة نفس ، أي : لكل نفس ظالمة بالشرك أو  
 التعدي على الغير ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من خزائنها وأموالها على كثرتها ﴿ لَأَفْتَدَتْ بِهِ ﴾  
 لجعلته فدية لها من العذاب ، من قولهم : افتداه بمعنى : فداه ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا زَاوُوا  
 الْعَذَابَ ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله ، ورأوا من  
 تفاقم الأمر ما سلبهم قواهم ، فلم يطيقوا عنده بكاءً ولا صراخاً ، ولم يقدرُوا أن  
 ينطقوا سوى إسرار الندامة في القلوب .

وقيل : أسرُّ الرؤساء منهم الندامة من أتباعهم ، حياءً منهم وخوفاً من  
 توبيخهم .

وقيل : أسرُّوا الندامة أخلصوها ، لأن إخفاءها إخلاصها ، أو لأنه يقال : سرَّ  
 الشيء لخالصته ، من حيث إنها تخفى ويضنُّ بها .  
 وقيل : معناه : اظهروها ، من قولهم : أسرَّ الشيء وأشره إذا أظهره . فهو من

لغات الأضداد.

ويؤيد المعنى الأول ما روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «إنما استروا الندامة وهم في النار كراهية لشماتة الأعداء».

﴿وَقَضَيْتُمْ لِنَبِيِّنَهُمْ أَنْ يُظْلَمُونَ﴾ ليس فيه تكرار. لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم، والثاني مجازاة المشركين على الشرك، أو الحكومة بين الظالمين والمظلومين. والضمير إنما يتناولهم والحال أنهم لم يذكروا لدلالة الظلم عليهم.

﴿الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرة تعالى على الإثابة والعقاب  
﴿الْإِنِّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ ثابت كائن لا خلف فيه ﴿وَنَجِّنُ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم تدبرهم وتفكرهم في العقبى، وقصر همتهم إلى متاع  
الحياة الدنيا.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا، فهو يقدر عليهما في العقبى، لأن القادر لذاته  
لا يزول قدرته، والمادة القابلة للحياة والموت قابلة لهما أبداً ﴿وَالَّذِينَ تَرَجَعُونَ﴾  
بالموت أو النشور.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ  
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ  
خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

ولما تقدم ذكر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، عقبه سبحانه بذكر جلالة  
موقع القرآن وعظم محله في باب الأدلة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ



مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، والمرغبة في المحاسن، والزاجرة عن القبائح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وهدى إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث أنزل عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من دركات النيران بمصاعد من درجات الجنان. والتكثير في الجميع للتعظيم. وخص المؤمنين بالذكر، وإن كان القرآن عظة ورحمة لجميع الخلق، لأنهم الذين انتفعوا به.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ بإتزال القرآن. والهاء متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أصل الكلام: بفضل الله ورحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا. والتكرير لتأكيد التقرير، وللبيان بعد الاجمال، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا. فأحد الفعلين حذف لدلالة الآخر عليه. ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما. وعن يعقوب: فلتفرحوا بالتاء على الأصل المرفوض.

وعن أبي سعيد الخدري والحسن: فضل الله هو القرآن، ورحمته هو الاسلام. وعن مجاهد وقتادة وغيرهما: فضل الله للاسلام، ورحمته القرآن. وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من هداه الله للاسلام، وعلمه القرآن، ثم شكى الفاقة كتب الله ﷻ الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة. ثم تلا: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» إلى آخر الآية».

وروى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: فضل الله رسول الله. ورحمته علي بن أبي طالب ﷺ. وهو أيضاً مروى عن الباقر ﷺ.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، فإنها منتهية إلى الزوال. وضمير «هو» راجع إلى ذلك. وقرأ ابن عامر: تجمعون. على معنى: فبذلك فليفرح

المؤمنون، فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا  
 قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أُمٌّ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى  
 اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
 يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

ثم أمر نبيّه ﷺ أن يخاطب كفار مكة. فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ  
 رِزْقٍ﴾ جعل الرزق منزلاً لأنه مقدر في السماء، محصل بأسباب منها. و«ما» في  
 موضع النصب ب«أنزل» أو ب«أرأيتم»، فإنه بمعنى: أخبروني. و«لكم» دل على أن  
 الرزق لا يكون إلا حلالاً، ولذا ويخ على التبويض فقال: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا  
 وَحَلَالًا﴾ مثل: ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ  
 لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَرْوَاجِنَا﴾<sup>(٢)</sup> وكالسائبة والبحيرة والوصيلة والحام ونحوها.  
 ﴿قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك بحكمه ﴿أُمٌّ عَلَى اللَّهِ  
 تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة ب«أرأيتم»، و«قل»  
 تكرير للتأكيد، وأن يكون الاستفهام للإنكار و«أم» منقطعة. ومعنى الهمزة فيها  
 تقرير لافتراءهم على الله تعالى.

وكفى بهذه الآية زاجرة زجرأً بليغاً عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام،  
 وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز

إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتيق الله وليصمت، وإلا فهو مفترٍ على الله .  
 ﴿وَمَا عَلَّمَ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ أي شيء ظنهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي :  
 أيحسبون أنهم لا يجازون عليه يوم الجزاء ؟ وهو منصوب بالظن . وفي إيهام الوعيد  
 تهديد عظيم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإرسال  
 الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَكِنْ أَكْفَرْتُمْ لَّا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا  
 كَمَا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ  
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ  
 مُبِينٍ ﴿٦١﴾

ثم بين سبحانه أن إمهاله إيتاهم ليس لجهل بحالهم، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي  
 شَأْنٍ﴾ أي: لا تكون يا محمد في أمر من أمور الدين وحال من أحواله، من تبليغ  
 الرسالة وتعليم الشريعة وغير ذلك. وأصله الهمزة، من: شأنت شأنه إذا قصدت  
 قصده. والضمير في قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ للشأن، لأن تلاوة القرآن معظم شأن  
 الرسول، أو لأن القرآن يكون لشأن، فيكون التقدير: من أجله. ومفعول «تتلو»:  
 ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ على أن «من» تبعية، أو مزيدة لتأكيد النفي. أو للقرآن، وإضماره  
 قبل الذكر ثم بيانه تفضيم له. أو لله تعالى.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعاً ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن  
 هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خصّ مافيه فخامة، وذكر حيث عمّ ما يتناول الجليل

والحقير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين مطلعين عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتندفعون. من: أفاض في العمل إذا اندفع فيه.

﴿وَمَا يَغْزِبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ ولا يبعد عنه، ولا يغيب عن علمه. وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي سبأ<sup>(١)</sup>. ﴿مِنْ مِّثْقَالِ ذُرَّةٍ﴾ في موضع الرفع، و«من» زائدة. والذرة ما يوازن نملة صغيرة أو هباء. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: في الوجود والإمكان، فَإِنَّ الْعَامَّةَ لَا تَعْرِفُ مِمَّا كُنَّا غَيْرَهُمَا لَيْسَ فِيهِمَا وَلَا مَتَعَلِّقًا بِهِمَا. وتقديم الأرض لَأَنَّ الْكَلَامَ فِي شُؤْنِ أَهْلِهَا وَأَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ. والمقصود منه هو البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَخْتَرُ إِلَّا فِي جَنَابِ مُبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله. و«لا» نافية. و«أصغر» اسمها. و«في كتاب» خبرها.

وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر. وَمَنْ عَطَفَ عَلَى لَفْظِ «مِثْقَالِ ذُرَّةٍ» وجعل الفتح بدل الكسر. لامتناع الصرف. أو على محله مع الجواز. جعل الاستثناء منقطعاً. والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ  
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ  
جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

ولما ذكر أنه يحصي أعمال خلقه بشر من تولاّه وذكر ما أعد لهم، فقال:

﴿الْإِنُّ لَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ بِالطَّاعَةِ، وَيَتَوَلَّاهُمْ بِالكَرَامَةِ.

وعن ابن عباس وسعيد بن جبير: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والإحسان. وقيل: هم المتحابون في الله. ذكر ذلك في خبر مرفوع.  
وعن علي بن الحسين عليه السلام: أنهم الذين أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل هذه الدنيا، ورجعوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثم أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويتابون على ما قدموا لآخرتهم.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحيق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول.

وعن ابن زيد: أولياء الله هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. فالآية الأولى مجملة، وهذه مفسرة لها.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بشر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يسنح لهم من المكاشفات، ويشرى الملائكة لهم عند النزاع بأن لا تخافوا ولا تحزنوا ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة. وقيل: «الذين آمنوا» بيان لتوليهم لربهم، وهذه الآية بيان لتوليهم لهم.

وروى عقبه بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «يا عقبه لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلا هذا الدين الذي أنتم عليه، وما بين أحدكم وبين أن يرى ما تقر به عينه إلا أن يبلغ نفسه إلى هذه، وأوماً بيده إلى الوريد، ثم قال: إن هذا في كتاب الله، وقرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». ومحل «الذين آمنوا» النصب أو الرفع على المدح، أو على وصف الأولياء، أو على الابتداء، وخبره «لهم البشرى».

﴿لَا تَجْدِيلُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تفسير لأقواله، ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة

إلى كونهم مبشرين في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه. وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

﴿وَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشرأهم وتكذيبهم وتهديدهم وتدبيرهم في إبطال أمرك، وسائر ما يتكلمون في شأنك. وقرأ نافع: يُخزئك. من: أحزنه. وكلاهما بمعنى. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم. لأنَّ العلبة والتهر جميعاً لله وفي ملكه، لا يملك غيره شيئاً منها. فهو يقهرهم وينصرك عليهم ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعزوماتهم، فيكافئهم عليها.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

ولما سأل الله سبحانه نبيه بقوله: «ولا يخزئك قولهم» فإنهم لا يفوتونني. بين بعد ذلك ما يدل على صحته، فقال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: العقلاء والثقلين. وإذا كان العقلاء عبيده وفي مملكته، ولا يصلح أحد منهم للإلهية، فما وراءهم مما لا يعقل ولا يميز أحق أن لا يكون له نذاً ولا شريكاً، فمن اتخذ غيره رباً من ملك أو إنسي أو جنّي فضلاً عن صنم أو غير ذلك، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة، وإن كانوا يستونها شركاء. ويجوز أن يكون «شركاء» مفعول «يدعون»، ومفعول «يتبع» محذوف دل عليه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون يقيناً، وإنما يتبعون ظنهم أنّها شركاء. ويجوز أن تكون «ما» استفهامية منصوبة بـ«يتبع»، أي: أي شيء

يَتَّبِعُونَ. وموصولة معطوفة على «من». أي: ألا أن الله الذي يتَّبِعُونَهُ من الأصنام. ﴿وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله تعالى، أو يحزرون ويقدرُونَ أنها شركاء تقديراً باطلاً.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

ثم نبّه على عظيم نعمه وكمال قدرته المتوحد هو بهما. ليدلّهم على تفرّده باستحقاق العبادة. فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ متى تقاسون في نهاركم من تعب التردّد في المعاش ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مضيئاً تبصرون فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم، وتهتدون بها. وإنما قال: «مبصراً» ولم يقل: لتبصروا فيه. تفرقة بين الظرف المجرد عن السبب والظرف الذي هو سبب. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبّر واعتبار.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكْدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

ثم حكى الله سبحانه عن صنف من الكفار بأنهم أضافوا إليه اتّخاذ الولد. وهم طائفتان: إحداهما: كفار قريش والعرب. فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

والأخرى: النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، فقال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي: تبناه ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن التبني، فإنه لا يصح إلا من يتصور له الولد، وتعجب من كلمتهم الحمقاء.

ثم علل لتزيهه عن الولد بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فإن اتّخاذ الولد مسبب عن الحاجة التي تنزه الله سبحانه عنها، لأنه الغنيّ بالذات مستغن عن جميع الممكنات ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لغناه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول. والباء متعلق بـ«سلطان»، أو بقوله: «إن عندكم» على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان. وهذا نفي لمعارض ما أقامه من البرهان، مبالغة في تجهيلهم، وتحقيقاً لبطلان قولهم.

ثم وبّخ وقرع على اختلافهم وجهلهم، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير جائز.

﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُقْفَرُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكُذِبُ﴾ باتّخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنة.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ خير مبتدأ محذوف، أي: افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر، أو حياتهم أو تقلبهم عن الحق متاع، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: لهم تمتع في الدنيا. ﴿فَمَنْ لَبِثْنَا مَرَجَعُهُمْ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد بعده ﴿فَمَنْ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ



أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ  
 مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾  
 فَكَذَّبُوهُ فَتَبَّعْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا  
 بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى  
 قَوْمِهِمْ فَبَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ  
 عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٧٤﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقرأ عليهم أخبار نوح وقومه ليعتبروا من حالهم  
 ويدعوا الشرك، فقال: ﴿وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ  
 إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ عِظْمٌ وَشَقٌّ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي﴾ أي: نفسي، تسمية للشيء  
 باسم لازمه، فإنَّ المقام لازم للنفس ولا ينفك منه، كقولهم: فعلت كذا لمكان فلان،  
 أي: لنفسه، أو يكون مصدراً ميميّاً، ومعناه: كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة، أو  
 قيامي على القدمين بالدعوة، فإنهم كانوا إذا وعظوا قاموا على أرجلهم ليكون  
 كلامهم مسوعاً، ﴿وَتَذَكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به  
 واعتمدت.

﴿فَأَجْمِعُوا آمْرَكُمْ﴾ فاعزموا عليه، من: أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم  
 عليه ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: مع شركائكم، أي: احتشدوا كلكم فيما تريدون من  
 إهلاكهم، وابدلوا وسعكم فيه، وهذا على وجه التهكم، كقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ

ثُمَّ كِيدُونَ<sup>(١)</sup>. وقيل: إنه معطوف على «أمركم» بحذف المضاف، أي: وأمر شركائكم. وقيل: إنه منصوب بفعل محذوف، تقديره: وادعوا شركاءكم. وعن نافع: فاجتمعوا من الجمع. والمعنى: أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده، والسمي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ قصدكم إلى إهلاكه ﴿عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ﴾ مستوراً، واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، من: غمته إذا ستره. وفي الحديث: «لا غمة في الفرائض». وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته، وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً. أو المعنى: ثم لا يكن حالكم عليكم غمّاً وهماً إذا أهلكتموني، وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ثُمَّ اقضوا﴾ أدوا ﴿إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي ﴿وَلَا تُنظِرُونَ﴾ ولا تمهلوني.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن تذكيري ونصيحتي، وعن اتباع الحق ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ آخِرٍ﴾. يوجب توليكم لثقله عليكم، واتهامكم إياي لأجله ﴿إِنْ آخِرِي﴾ ما نوابي في الآخرة على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم، يثبني به أمتهم أو توليتهم. والمعنى: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا. ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ المستسلمين المنقادين لحكمه، لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة، وبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم، لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من الفرق ﴿فِي الْفُلِّ﴾ في السفينة، وكانوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا الذين نجوا مع نوح ﴿خَلَائِفَ﴾ خلفاً لمن هلك بالفرق ﴿وَاعْرَفْنَا﴾ بالطوفان ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ﴾ أيها السامع ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْضِرِينَ﴾. هذا تعظيم لما جرى

عليهم، وتحذير لمن كَذَّبَ الرسول، وتسليية له ﷺ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ يعني: هوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعباً، كلُّ رسول إلى قومه ﴿فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الواضحة، والحجج المبيّنة، المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا، لشدة شكيمتهم في الكفر، وتصميمهم على العناد والمكابرة، كما قال: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب الحق، وتمرّنههم عليه قبل بعثة الرسل إليهم. يعني: لم يكن بين حالتهم فرق قبل البعثة وبعدها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع والخذلان والتخليّة ﴿نُطْفِئُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي نخذلهم ونسدّ عليهم أبواب التوفيق وأسباب اللطف، لانهماكهم في الضلال، وتوغّلهم في اتباع الغي والعناد واللجاج. أو نجعل على قلوبهم سمة وعلامة على كفرهم ليعرفهم بها الملائكة فيلعنوهم. وباقى وجوه المعاني في الطبع قد مرّ<sup>(١)</sup> في أوائل سورة البقرة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَا بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفَتِنَا عِمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ  
 فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى  
 أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ  
 سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ  
 وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ  
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ  
 ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ  
 ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾  
 وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إلى فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَئِهِ رؤساء قومه وأهل مجلسه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَاسْتَفْتَرُوا﴾ عن  
 أتباعهما بعد تبينها لهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام، فلذلك تهاونوا  
 برسالة ربهم، واجترأوا على ردها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر الآيات الواضحة، وتتابع  
 المعجزات القاهرة المزيجة للريب والشك ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم ﴿إِنْ هَذَا

لَسِيخْرَ مُبِينٌ ﴿ ظاهر أنه سحر، أو فائق فيه، واضح فيما بين إخوانه.

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴿ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه لسحر، فحذف المحكيّ المقول لدلالة ما قبله عليه. ولا يجوز أن يكون ﴿ أَسِيخْرَ هَذَا ﴾. لأنهم جزموا القول، بل هو استئناف بإنكار ما قالوه من عيبه والطمع عليه. اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكيّ مفهوم قولهم. ويجوز أن يكون معنى «أتقولون»: أتعيبونه وتطعنون فيه؟ من قولهم: فلان يخاف القالة، أي: العيب، كقوله تعالى: ﴿ سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ ﴾<sup>(١)</sup>، فيستغنى عن المفعول.

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ من تمام كلام موسى ﷺ، للدلالة على أنه ليس بسحر، فإنه لو كان سحراً لاضمحلّ ولم يبطل سحر السحرة، ولأنّ العالم بأنه لا يفلح الساحر لا يسحر. ويجوز أن يكون قوله: «أسحر هذا ولا يفلح الساحرون» حكاية من تمام قولهم، كأنهم قالوا: أجتثما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون، كما قال موسى للسحرة: «ماجتثم به السحر إن الله سيبطله».

﴿ قَالُوا اجْتَنَبْنَا بِلْتَاتِنَا ﴾ لتصرفنا. واللّفْت والفتل أخوان، ومطاوعهما الالتفات والافتال. ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من عبادة الأصنام ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْبَانًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: الملك فيها. سمي بها لأنّ الملوك موصوفون بالكبر أو التكبر على الناس فيها باستباعتهم. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدّقين فيما جتثما به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سَاجِدٍ ﴾ وَفَرَأ حَمْرَةَ وَالْكَسَائِي: بكلّ سخار ﴿ غَلِيمٍ ﴾ حاذق فيه.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم

وعصيتهم المجرّفة المملوءة بالزئبق، كما وقع في سورة طه<sup>(١)</sup> ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي: الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سمّيتموه سحراً من المعجزات الباهرة.

وقرأ أبو عمرو: السحر. على أنّ «ما» استفهامية مرفوعة بالابتداء، و«جئتم به» خبرها، و«السحر» بدل منه. أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أهو السحر؟ أو مبتدأ خبره محذوف، أي: السحر هو؟ ويجوز أن ينتصب «ما» بفعل يفسره ما بعده، تقديره: أي شيء جئتم به أهو السحر؟

﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سيمحقه ويدمر عليه، أو سيظهر بطلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّعُ غَفْلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبت ولا يقويه. وفيه دليل على أنّ السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له.

﴿وَيُجِزُّ اللَّهُ الْحَقُّ﴾ ويثبت ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره وقضاياه، ومواعيده بالنصر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ فما صدّقه في مبدأ أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل، وذلك أنّ موسى عليه السلام دعا الآباء فلم يجيبوه إلا طائفة من شبانهم. وقيل: الضمير لفرعون، والذرية: مؤمن آل فرعون، وامراته آسية، وخازنه، وزوجة خازنه، وماشطته.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: مع خوف منهم. والضمير لفرعون. وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو المراد بفرعون آله، كما يقال: ربعة ومضر. أو للذرية أو للقوم، أي: على خوف من فرعون وخوف من أشرف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم. ﴿أَنْ يُفْتِنَهُمْ﴾ أي: يعذبهم فرعون، وهو بدل منه، أو مفعول «خوف». وإفراده بالضمير

للدلالة على أن الخوف من الملائكة كان بسببه .

﴿ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ لغالب فيها ﴿ وَأَنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرَفِينَ ﴾ في الكبر والعتوّ والظلم والفساد، حتى ادّعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِإِلَهِ ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ اسندوا أمركم في العصمة من فرعون واعتمدوا عليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين منقادين لقضاء الله تعالى ، مخلصين له العبادة ، بحيث لاحظ للشيطان فيها أصلاً ورأساً . وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فإنّ المعلق بالايامن وجوب التوكّل ، فإنّه المقتضي له ، والمشروط بالاسلام حصول التوكّل ، فإنّه لا يوجد مع التخليط . ونظيره: إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت ، وإن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوّة .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ، ولذلك أجيبت دعوتهم ، فنجّاهم من فرعون وقومه ، وجعلهم خلفاء في أرضه . فمن أراد أن يصلح للتوكّل على ربّه والتفويض إليه ، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ﴾ موضع فتنة ﴿ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: لا تسلّطهم علينا تخلية فيفتنونا عن ديننا أو يعدّبونا .

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ من كيد فرعون وقومه ، ومن شؤم مشاهدتهم واستعبادهم إيانا . وفي تقديم التوكّل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكّل أولاً لتجابه دعوته .

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ

آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ  
 رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ  
 الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وَأَوْخَيْنَا إِنِّي مُوسَى وَآخِيهِ أَنْ تَبُوؤا﴾ أي: اتخذنا مباءةً ومرجعاً، كقولك: نوطنه، إذا اتخذته وطناً ﴿بِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكنون فيها، أو ترجعون إليها للعبادة ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أنتما وقومكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى. وقيل: مساجد متوجهة نحو القبلة، لما روي أنه دخل موسى مصر بعدما أهلك الله فرعون، أمروا باتخاذ مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى، وأن يجعلوا مساجدهم نحو القبلة، يعني: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة. وقيل: معناه. اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها، وداوموا على فعلها في البيوت.

وعن ابن عباس: إن فرعون أمر بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة، فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم يصلون فيها خوفاً من فرعون، وذلك قوله: «واجعلوا بيوتكم قبلة» أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف. وهذا القول أنسب لسوق كلام ما قبله وما بعده.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى. ثنى الضمير أولاً لأن التبوؤ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور. ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد. ثم وحّد لأن



البشارة في الأصل وظيفه صاحب الشريعة .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ ما يترين به من اللباس والمراكب ونحوهما ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ وأنواعاً من المال ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر حين لم يبق له طمع في إيمانهم ، فاشتد غضبه عليهم لما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غير الضلال ، فدعا عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، ليشهد عليهم أنهم لا يستحقون إلا الخذلان ، وأن يخلي بينهم وبين ضلالهم .

وقيل : اللام للعاقبة ، وهي متعلّقة بـ « آتيت » . وقيل : للتعليل ، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال ، فكأنهم أعطوها ليضلّوا .

ويؤيد الأول قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِيهِمْ ﴾ أهلكتها . والطمس : المحق . قيل : المراد بالطمس على الأموال تغييرها عن جرتها إلى جهة لا ينتفع بها . قال مجاهد وقتادة وعمامة أهل التفسير : صارت جميع أموالهم بعد ذلك الدعاء حجارة ، حتى السكر والغانيذ<sup>(١)</sup> .

﴿ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : واقسها واطبع عليها على وجه الخذلان حتى لا تنشرح للايمان ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَزُورُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ جواب للدعاء ، أو دعاء عليهم بلفظ النهي ، أو عطف على « ليضلّوا » وما بينهما دعاء معترض . وقرأ الكوفيون : ليضلّوا من الضلال . وفائدة هذا الدعاء إظهار التبرّي منهم .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا ﴾ يعني : موسى وهارون ، لأنه كان يؤمن فستاها داعيين ﴿ فَاسْتَقْبِمَا ﴾ فائتبا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إزام الحجّة ، فقد لبث نوح في قومه ألف عام إلا قليلاً ، ولا تستعجلا ، فإن ما طلبتماه كائن ولكن في وقته . روي عن أبي عبد الله عليه السلام : « أنه مكث فرعون فيهم بعد

(١) الغانيذ : ضرب من الحلواء ، فارسيّ معرّب .

الدعاء أربعين سنة».

﴿وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهلة في الاستعمال، فإنَّ

العجلة ليست بمصلحة. وهذا كما قال لنوح: ﴿إِنِّي أَعْظُكُمُ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(١)</sup> أو في عدم الوثوق والاطمئنان بوعده الله تعالى.

وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان: ولا تَتَّبِعَانَّ بالنون الخفيفة وكسرها، لالتقاء

الساكنين، تشبيهاً بنون التثنية. ولا تَتَّبِعَانَّ من: تبع. ولا تتبعان أيضاً.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا

حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلَّنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِنَكُونُ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ

آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: جاوزناهم في البحر، بأن ييسنا لهم

البحر. وفرقنا لهم اثني عشر فرقة حتى بلغوا الشطَّ حافظين لهم ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾

فأدركهم. يقال: تبعته حتى أتبعته. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ باغين وعادين،

أو للبغي والعدو.

روي أن الله سبحانه لما أجاب دعاء موسى أمره بإخراج بني إسرائيل من

مصر ليلاً، فخرج معهم، وتبعهم فرعون وجنوده مشرقيين حتى انتهوا إلى البحر، وأمر الله سبحانه موسى ﷺ فضرب البحر بعصاه فانفلق اثني عشر فرقاً، وصار لكل سبط طريق يابس، وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل، وصار في الماء شبه الخروق، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر فرأوا البحر بتلك الهيئة فهابوا دخول البحر، وكان فرعون على حصان أدهم<sup>(١)</sup>، فجاء جبرئيل على فرس وديق<sup>(٢)</sup>، وخاض البحر وميكائيل يسوقهم، فلما شم أدهم فرعون ريح فرس جبرئيل انسل<sup>(٣)</sup> خلفه في الماء، واقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم البحر وهم أولهم أن يخرج انطبق الماء عليهم.

﴿حَتَّى إِذَا أَنْزَلْنَاهُ لَحِقَهُ﴾ لحقه ﴿الْفَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ﴾ أي: بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وقرأ حمزة والكسائي: إنه بالكسر، على إضمار القول، أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لـ«آمنت».

والمعنى: نكث فرعون عن الإيمان أو ان القبول، وبالغ فيه حين لا يقبل، بأن كثر المعنى الواحد ثلاث مرّات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، فلم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرّة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف. ويحكي أنه حين قال: آمنت بالله وحده، أخذ جبرئيل من رمل البحر فدهسه في فيه، وقال: ﴿الآن﴾ أتؤمن الآن وقد أيسست من نفسك، ولم يبق لك اختيار؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدّة عمرك ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الضالّين المضلّين عن الإيمان.

روي أن جبرئيل أتاه على صورة مستفتٍ حال جلوسه على سرير السلطنة،

(١) أي: يضرب لونه إلى السواد. والدّهنة: السواد.

(٢) وَوَقَّتْ ذات الحافر: أرادت الفحل، فهي وديق.

(٣) أي: خرج.

وقال: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته في حقه وأدعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرَّق في البحر. فلما أجمه<sup>(١)</sup> الفرق ناوله جبرئيل خطه فعرفه ثم غرق.

وروى علي بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: ما أتى جبرئيل رسول الله ﷺ إلا كتيباً حزيناً، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلما أمره الله سبحانه بنزول هذه الآية نزل وهو ضاحك مستبشر، فقال: حبيبي جبرئيل ما أتيتني إلا وتبينت الحزن في وجهك حتى الساعة. قال: نعم يا محمد لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فأخذت حماة فوضعتها في فيه، فقلت: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، ثم خفت أن تلحقه الرحمة من عند الله ويعذبني على ما فعلت، فلما كان الآن وأمرني أن أؤدي إليك ما قلته أنا لفرعون آمنت وعلمت أن ذلك كان لله رضا.

﴿قَالِقَوْمٌ نَنْجِيكَ﴾ تنقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، أو نلقيك على نجوة من الأرض - وهي المكان المرتفع - ليرك بنو إسرائيل، وقرأ يعقوب: ننجيك، من: أنجى. ﴿بِبَدْنِكَ﴾ في موضع الحال، أي: في الحال التي لا روح فيك، يعني: عارياً عن الروح، وإنما أنت بدن فقط. أو كاملاً سويتاً، لم تنقص منه شيئاً ولم يتغير. أو عرياناً من غير لباس. أو بدرعك، وكانت له درع من ذهب يعرف بها.

﴿يَتَكُونُ لِعَنِّ خَلْفَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك علامة. وهم بنو إسرائيل، إذ كان في أنفسهم أن فرعون أجل شأناً من أن يغرَّق. حتى كذبوا موسى ﷺ حين أخبرهم بفرقه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل. أو

(١) أجم الماء فلاناً: بلغناه.

لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك، عبرة ونكالا عن الطغيان، فلا يجترأ على نحو ما اجترأت عليه، أو حجة تدلهم على أن الانسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية، فما الظن بغيره!؟

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صَدِقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَأَنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون

بها.

ثم بين سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صَدِقٍ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً، وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، وما تشعبوا فيه شعباً ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إلا من بعد ما قرؤا التوراة وعلومها أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنوعه وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

فَإِنْ كُتِّبَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ

مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

ثم بين سبحانه صحة نبوة محمد ﷺ، فقال: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص. وهذا على سبيل الفرض والتقدير، كما تقول لعبدك: إن كنت عبدي فأطعني، ولأبيك: إن كنت والدي فتمطّط عليّ، ولولدك: إن كنت ابني فبرّ بي، ويريد بذلك المبالغة. ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَعُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاسأل علماء أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام وكعب الأحبار وتميم الداري وغيرهم، فإنه محقق عندهم، ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك. والمراد تحقيق ذلك، والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة، وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهيج الرسول وزيادة تثبيته، كما ازداد إبراهيم بمعانته إحياء الموتى، لا إمكان وقوع الشكّ له، ولذلك قال ﷺ: «لا أشكّ ولا أسأل». وعن الصادق ﷺ: «لم يشكّ ﷺ ولم يسأل».

وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته أو كلّ من يسمع، أي: إن كنت أيها السامع في شكٍّ ممّا أنزلنا على لسان نبيّنا إليك. وفيه تشبيه على أنّ من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلّها بالرجوع إلى أهل العلم.

وعلى المعنى المذكور أيضاً قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ثبت عندك بالآيات القاطعة والبراهين الساطعة أنّ ما أتاك هو الحقّ الواضح الذي لا مدخل للمرية فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالترزّل عما أنت عليه من الحزم واليقين.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا أيضاً من باب التهيج والتثييت وقطع أطماع الكفار عنه، كقوله: ﴿فَلَا تَكُونُوا ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة من أنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ كل معجزة ودلالة واضحة مما يقترحونها ﴿حَتَّىٰ يَرْوُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فيصيروا ملجئين إلى الإيمان، وحينئذ لا ينفعهم كما لم ينفع فرعون.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

ولما ذكر سبحانه أن إيمان فرعون لم يقبل عند معاينة العذاب، وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس عليه السلام قبيل نزول العذاب، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ فهلا كانت قرية - أي: أهل قرية - من القرى التي أهلكتها ﴿آمَنَتْ﴾ وقت بقاء التكليف قبل معاينة العذاب، ولم يؤخروا التوبة إليها كما أخر فرعون ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف العذاب عنها ﴿إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس ﴿لَمَا آمَنُوا﴾ أول ما رأوا أماراة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي، لتضمن حرف التحضيض معناه،

فيكون الاستثناء متصلاً، لأن المراد من القرى أهلها، كأنه قال: ما من أهل قرية من القرى العاصية الهالكة أهلها حين مشاهدة العذاب فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس لما آمنوا رفعنا عنهم العذاب ﴿وَمَقْتَدِنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم.

روي أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فكذبوه وأصروا عليه، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث، وقيل: إلى أربعين، فذهب عنهم مفاضباً، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمناً بك. فلما مضى اثنان أو مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم، ويسود سطوحهم، فهابوا وطلبوا يونس فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فلبسوا المسوح، وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحنن بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة.

وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن تراذوا المظالم، حتى إن الرجل كان ليأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيرده.

وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم، فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت. فقالوها فكشف عنهم العذاب.

وعن الفضيل بن عياض: قالوا: إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت، وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام: كان فيهم رجلان، اسم أحدهما مليخا عابد، والآخر اسمه روييل عالم، وكان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم، وكان العالم ينهأ ويقول له: لا تدع عليهم، فإن الله يستجيب لك، ولا يحبّ هلاك عباده، فقبل يونس قول العابد،



فدعا عليهم. فأوحى الله تعالى إليهم أنه يأتيهم العذاب في شهر كذا في يوم كذا. فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد، وبقي العالم فيهم. فلما كان اليوم الذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم: افزعوا إلى الله لعله يرحمكم ويردّ العذاب عنكم، واخرجوا إلى المغارة، وفرقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوانات وأولادها، ثم ابكوا وادعوا. ففعلوا فصرف عنهم العذاب، وكان قد نزل وقرب منهم. ومرّ يونس على وجهه مغاضباً كما حكى الله تعالى عنه حتى انتهى إلى ساحل البحر، فإذا سفينة قد شحنت<sup>(١)</sup> وأرادوا أن يدفعوها، فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه، فلما توسّط البحر بعث الله عليهم حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة. فتناسهوا فوق سهم يونس، وأخرجوه فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت ومرّ به في الماء<sup>(٢)</sup>.

وقيل: إن الملاحين قالوا: نقرع فمن أصابته القرعة ألقيناه في الماء، فإن هاهنا عبداً عاصياً أبقاً، فوَقعت القرعة سبع مرّات على يونس. فقام وقال ﷺ: أنا العبد الآبق، وألقى نفسه في الماء وابتلعه الحوت، فأوحى الله إلى ذلك الحوت: لا تؤذ شعرة منه، فإنني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك، فلبث في بطنه ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يوماً.

وقد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين ﷺ عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه. فقال: يا يهودي هو الحوت الذي حبس يونس في بطنه، فدخل في بحر قلزم، ثم خرج إلى مصر، ثم سار منها إلى بحر طبرستان، ثم خرج من الدجلة. قال عبدالله بن مسعود: ابتلع الحوت حوت آخر، فأهوى به إلى قرار الأرض، فكان في بطنه أربعين ليلة، فنأدى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجاب الله له، فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر،

(١) أي: ملئت.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣١٧.

وهو كالفرخ المتمطط<sup>(١)</sup>، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فجعل يستظل تحتها، ووكل الله به وعللاً<sup>(٢)</sup> يشرب من لبنها. فبيست الشجرة، فبكي عليها، فأوحى الله تعالى إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم. فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنك لقيت يونس. فأخبرهم الغلام، ورد الله عليه بدنه، ورجع إلى قومه وآمنوا به. وقيل: إنه ﷺ أرسل إلى قوم غير قومه الأولين.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ  
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ  
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

ولمّا تقدّم أن إيمان الملجأ غير نافع، بين سبحانه أن ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ مشيئة إلباء وقسر ﴿لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يشدّ منهم أحد ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، كما قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُفِزَنَّ عَنْهُمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. ولكن الإلباء منافٍ للتكليف الاختياري الذي هو مناط الأعمال ومدارها. ولو كان المراد بالمشيئة مشيئة أزليّة - كما قال الأشاعرة - لم يصحّ تعليقها بالشرط. ألا ترى أنّه لا يصحّ أن يقال: لو علم سبحانه ولو قدر، كما صحّ: لو شاء ولو أراد.

(١) أي: الساقط شعره، من: تمطط الشعر، أي: سقط.

(٢) الوَعِيل: تيس الجبل، له قرنان.

(٣) الشعاء: ٤.

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو سبحانه لا أنت. وإيلاء حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه، وإنما المكروه هو وحده لا يشارك فيه. لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان، وذلك غير مستطاع للبشر. روي أنه ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به، فنزلت هذه الآية.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ﴿١٠٠﴾ مِنْ النَّفْسِ الَّتِي عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهَا تُؤْمِنُ ﴿١٠١﴾ أَنْ تَكُونَ ﴿١٠٢﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٠٣﴾ أَي: بتسهيله ومنح الطافه وتوفيقه وتمكينه منه، ودعائه إليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ ﴿١٠٤﴾ الْعَذَابَ أَوْ الْخِذْلَانَ، فَإِنَّهُ سَبَبُهُ ﴿١٠٥﴾ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات عناداً ولجاجاً. قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون، وهم المصرون على الكفر، كقوله: ﴿صُمٌّ بُعْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

ثم بين سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم وإرشادهم، فقال: ﴿قُلْ انظُرُوا﴾

تَفَكَّرُوا ﴿مَآذًا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ من عجائب صنعه، كاختلاف الليل والنهار، ومجاري النجوم والأفلاك، وما خلق من الجبال والبحار، وأنبت من الأشجار والثمار، وأخرج من أنواع الحيوانات وغيرها، لتدلّكم على وحدته وكمال قدرته، فَإِنَّ النّٰظِرَ فِيْ اَفْرَادِهَا وَجَمَلَتِهَا يَدْعُوْا اِلَى الْاِيْمَانِ اِلَى مَعْرِفَةِ الصّٰنِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَقَدْرَتِهِ. و«ماذا» إن جعلت استفهامية علّقت «انظروا» عن العمل.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيٰتُ وَالنُّذُرُ﴾ الرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يتوقّع إيمانهم، لعنادهم ولجأهم ومكابرتهم. و«ما» نافية، أو استفهامية في موضع النصب.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ اِلَّا مِثْلَ اَيَّامِ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم، إذ لا يستحقّون غيره، من قولهم: أيام العرب لو قائمها ﴿قُلْ فَاَنْظُرُوا اِنِّيْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ﴾ لذلك، أو فانتظروا هلاكي، إني معكم من المنتظرين هلاككم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا﴾ عطف على محذوف دلّ عليه «إلا مثل أيام الذين خلوا». كأنه قيل: نهلك الأمم ثمّ ننجي رسلنا ومن آمن بهم، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُوْمِنِيْنَ﴾ أي: كذلك الإنجاء، أو إنجاء كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نهلك المشركين. و«حقاً علينا» اعتراض، ونصبه بفعله المقدّر، أي: حقّ ذلك علينا حقاً. وقيل: بدل من «كذلك». وقرأ حفص والكسائي: ننجي مخففاً.

قُلْ يَا اَيُّهَا النَّاسُ اِنْ كُنتُمْ فِيْ شَكٍّ مِّنْ دِيْنِيْ فَلَا اَعْبُدُ الَّذِيْنَ تَعْبُدُوْنَ  
مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلَكِنْ اَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِيْ يَتَوَفَّاكُمْ وَاْمُرْتُ اَنْ اَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ

﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾  
وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالبراءة عن كلِّ معبود سواه، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي﴾ أي: من صحته ﴿فَلَا أَعْبُدُ  
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً  
وعملاً، فأعرضوها على العقل الصرف، وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها،  
وهو أنني لا أعبد ما تخلقونه - كالأصنام المنحوتة من الحجارة والخشب -  
وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خصَّ التوفي  
 بالذكر للتهديد. ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالتوحيد الذي دلَّ عليه  
العقل، ونطق به الوحي. وحذف الجارَّ من «أن» و«أن» مطرد، ومع غيرهما غير  
مطرد، كقوله: أمرتك الخير، أي: بالخير.

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على «أن أكون» غير أن صلة «أن» محكية  
بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض، لأنَّ المقصود وصلها بما يتضمَّن معنى  
المصدر لتدلَّ معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك، سواء الخبر منها والطلب.  
والمعنى: وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه، وبإقبالي عليه، قائماً بأعباء  
الرسالة وتحمل أمر الشريعة، من أداء الفرائض والانتهاز عن القبائح غير عوج عنه،  
أو في الصلاة باستقبال القبلة ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه. أي: مستقيماً في  
الدين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته وتركته  
 ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ فإن دعوته ﴿فَأَنْتَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء للشرط، وجواب لسؤال  
 مقدر عن تبعة الدعاء، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة غير الله. وجعل من الظالمين،  
 لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، ﴿إِنَّ الشُّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>. والخطاب وإن كان  
 متوجهاً إلى النبي ﷺ في الظاهر لكن المراد به أمته.

وَإِنْ يُمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ  
 لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

ثم عقب النهي عن عبادة ما لا ينفع ولا يضر، بأن الله هو الضار والنافع  
 الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو، وإن أرادك بخير لم يرده  
 أحد، فقال: ﴿وَإِنْ يُمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك بضر، كالمرض والفقر ﴿فَلَا  
 كَاشِفَ لَهُ﴾ برفعه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ كالصحة والغنى ﴿فَلَا  
 رَادَّ﴾ فلا دافع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الذي أرادك به، فهو الحقيق بأن يعبد دون الأوثان.  
 ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين، للتمييز على أن  
 الخير مراد بالذات، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول. ووضع الفضل  
 موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير. لا استحقاق لهم  
 عليه.

﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده  
 ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. فتعرضوا لرحمته بالطاعة، ولا تياسوا من غفرانه بالمعصية.  
 والمراد بالمشيئة مشيئة المصلحة.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

ثم ختم الله سبحانه السورة بالموعظة الحسنة، تسلياً للنبي ﷺ، والوعد للمؤمنين والوعيد للمشركين، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ أي: الرسول أو القرآن ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلم يبق لكم عذر، ولا لكم على الله حجة ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه لها ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر بهما ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. واللام «على» دليان على معنى النفع والضرر. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم لأحملكم على ما أريد، وإنما أنا بشير ونذير، فليس عليّ إلا البلاغ، ولا يلزمني أن أجعلكم مهتدين، وأن أنجيكم من النار، كما يجب على من وكل على متاع أن يحفظه من الضرر.

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بالأمر بالقتال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا يحكم إلا بالحق والعدل، إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعاً على السرائر اطلّاعه على الظواهر.



## سورة هود

مَكِّيَّة. وهي مائة وثلاث وعشرون آية. أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأها أعطني من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بنوح وكذَّب به، وبهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء».

وروى الثعلبي بإسناده عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: «قيل: يا رسول الله قد أسرع إليك الشيب، قال: شيبتني سورة هود وأخواتها». وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك، عن أبي بكر قال: «قلت: يا رسول الله عجَّل إليك الشيب، قال: شيبتني سورة هود وأخواتها: الحاقة، والواقعة، وعمّ يتساءلون، وهل أتيتك حديث الغاشية».

وروى العياشي عن الحسن بن علي بن الوشاء، عن ابن سنان، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة هود في كلِّ جمعة بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيين، وحوسب حساباً يسيراً، ولم يعرف له خطيئة عملها يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير العياشي ٢: ١٣٩ ص ١.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

ولما ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحي في قوله: «وأتبع ما يوحي إليك» افتتح هذه السورة ببيان ذلك الوحي، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّكَابُ﴾ مبتدأ وخبر، أو «كتاب» خبر محذوف ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ نظمت نظماً محكماً لا يعرضه تقض، ولا يعتره خلل من جهة اللفظ والمعنى، كالبناء المحكم، أو منعت من الفساد والنسخ. من: أحكم الدابة وضع عليها الحكمة<sup>(١)</sup> لتمنعها من الجراح، أو جعلت حكيمة، منقول من: حكم بالضم إذا صار حكيماً، لأنها مشتملة على أتمهات الحكم النظرية والعملية.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائد، من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص. أو يجعلها سورة سورة وآية آية. أو بالإنزال نجماً نجماً. أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه العباد. و«ثم» للتفاوت في الحال، كما تقول: هي

(١) الحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه يمنعه من مخالفة راحبه.

محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل.

﴿مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أحكمها ﴿خَبِيرٍ﴾ فصلها وبيتها. هذه صفة أخرى ل«كتاب»، أو خبر بعد خبر، أو صلة ل«أحكمت» أو «فصلت». وهو تقرير لإحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي، باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ مفعول له، أي: لأن لا تعبدوا. وقيل: «أن» مفسرة، لأن في تفصيل الآيات معنى القول، كأنه قيل: قال لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله، أي: أمركم بالتوحيد. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للإغراء على التوحيد، أو الأمر بالتبري من عبادة الغير، كأنه قيل: ترك عبادة غير الله، بمعنى: الزموه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب على التوحيد.

﴿وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا زُبُحَكُمْ﴾ عطف على «أن لا تعبدوا» ﴿فَمَنْ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توصلوا إلى مطلوبكم بالتوبة، فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. والمعنى: استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله تعالى بالطاعة. أو استغفروا، والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة - التي هي الاستغفار - واستقيموا عليها. فإيراد «ثم» لتفاوت ما بين الأمرين.

﴿يُمْتَعْنَكُمْ مَتَاعاً حَسَنًا﴾ يعيشكم في الدنيا بالنعم السابغة، والمنافع المتابعة الدينية والمالية ﴿إِنِّي أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، كقوله: ﴿فَلَنُخْصِبْنَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾<sup>(١)</sup>. أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال. والأرزاق والآجال وإن كانت متعلقة بالأعمار، كما ورد في الحديث أن الصدقة تزيد

في العمر وتلاوة القرآن تزيد في الرزق، لكنّها مسماة بالإضافة إلى كلّ واحدٍ فلا تتغير.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطى كلّ ذي فضل في دينه وعمله جزاءً فضله في الدنيا والآخرة لا يبخس منه، أو فضله في الثواب والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات. وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن تولّوا عمّا أمرتم به ﴿فَأَنِّي أَخَافُ أَخْفَكُمُ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: كبير شأنه. وهو يوم القيامة. وقيل: يوم الشدائد. وقد ابتلوا بالقحط حتّى أكلوا الجيفة.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم. وقياس المصدر الميمي أن يكون على وزن مفعّل بالفتح. نحو مدخل. فالمرجع شاذّ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشدّ عذاب. وكأنّه تقرير لكبير اليوم.

أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ بِيَابَهُمْ يَعْلَمُ  
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

روي أنّ طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمّد كيف يعلم؟ وهذا من شدّة جهلهم بالله، فظنّوا أنّهم إذا نتوا صدورهم على سبيل الإخفاء لم يعلم الله تعالى أسرارهم، فنزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يطوونها ويعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﴿لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ من الله بسرّهم، فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه.

وقيل: إن الأخنس بن شريق كان حلو الكلام، يلقي رسول الله ﷺ بما

يحبّ وينطوي بقلبه على ما يكره، ويضرر خلاف ما يظهر، فنزلت هذه الآية .  
وقيل: نزلت في المنافقين . وفيه نظر ، إذ الآية مكيّة والنفاق حدث بالمدينة .  
ويؤيد الأول ما روى العياشي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : «أخبرني جابر  
بن عبدالله أنّ المشركين إذا مروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طأطأ أحدهم رأسه وولّى ظهره  
وغطّى رأسه بتوبه حتّى لا يراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فأنزل الله هذه الآية» .

﴿الَّذِينَ يَسْتَفْتِسُونَ فِي آبَائِهِمْ﴾ أي: حين يتخطّون بشياهم ﴿يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ﴾  
في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم . يعني: يستوي في علمه سرّه وعلمهم ،  
فكيف يخفى عليه ما عسى يظهره؟ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بأسرار ذات  
الصدور . أو بالقلوب وأحوالها .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وْمُسْوَدَّعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

ثمّ بين أنّه عالم بجميع المعلومات كلّها، تقريراً لعلمه بأسرار العباد  
وإعلانهم، فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها،  
لتكفّله إياه تفضلاً ورحمة . ولما ضمن سبحانه أن يتفضّل بالرزق عليهم وتكفّل  
به صار التفضّل واجباً، فلذلك جاء بلفظ الوجوب، كالنذور الواجبة على  
العباد .

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مواضع قرارها ومسكنها من الأرض ﴿وَمُسْوَدَّعَهَا﴾  
حيث كانت مودعة . قيل: الاستقرار في أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات . أو المراد  
منهما أماكنهما في الحياة والممات . ﴿كُلٌّ﴾ كلّ واحد من الدوابّ وأحوالها ﴿فِي  
كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى  
 الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ آبَكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ  
 لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ  
 إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ  
 بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

ثم بين كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد، فقال: ﴿وَهُوَ  
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خلقهما وما فيهما مقدار ستة أيام،  
 لأنها لم تكن هناك بعد، فإن اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها، أو ما في  
 جهتي العلو والسفل. وجمع السموات دون الأرض، لاختلاف العلويات بالذات  
 دون السفليات.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلقهما، لم يكن حائل بينهما، لا أنه كان  
 موضوعاً على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلا، وأن الماء أول حادث بعد  
 العرش من أجرام هذا العالم، وأن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات  
 والأرض، وأن الماء قائم بقدرة الله تعالى على غير موضع قرار، بل كان الله يمسكه  
 بكمال قدرته، وقيل: كان الماء على متن الريح. وكيف كان، فالله ممسك كل ذلك  
 بقدرته.

﴿لِيَبْلُوكُمْ آبَكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بـ«خلق» أي: خلق ذلك ليعاملكم  
 معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم  
 ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم، ودلائل وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها.

وإنما جاء تعليق فعل البلوى بـ«خلق» لما فيه من معنى العلم، من حيث إنه طريق إليه، كالنظر والاستماع، كما في قولك: أنظر أنهم أحسن وجهاً واسمع أنهم أحسن صوتاً. وإنما ذكر صيغة التفضيل والاختبار شامل لفرق المكلفين باعتبار الحسن والقيح، للتحريض على أحاسن المحاسن، والتحضيض على الترقى دائماً في مراتب العلم والعمل، فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح، ولذلك قال ﷺ: **أَيْكُم أَحْسَنُ عَقْلاً، وَأَوْرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟**، والمعنى: أيكم أكمل علماً وعملاً؟

**﴿وَلَيْنَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾** فتوقعه **﴿لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَيْ: مَا الْبَعث، أو القول به، أو القرآن المتضمن لذكره﴾** **﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان، وقرأ حمزة والكسائي: **﴿إِلَّا سَاحِرٌ﴾**، على أن الإشارة إلى قائل هذا القول، وهو الرسول ﷺ.

**﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾** السوعود **﴿إِلَى أُمَّةٍ مُعْتَدِةٍ﴾** إلى جماعة متعاقبه من الأوقات قليلة.

روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله **﴿عَلَيْهِمَا﴾**: **﴿أَنَّ الْأُمَّةَ الْمَعْدُودَةَ هُمُ أَصْحَابُ الْمَهْدِيِّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، كَعَدَّةِ أَهْلِ بَدْرٍ، يَجْتَمِعُونَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَجْتَمِعُ قُرْعٌ﴾** **﴿الْخَرِيفُ﴾**.

**﴿لَيَقُولُنَّ﴾** استهزاء **﴿فَمَا يَخْبَسُهُ﴾** أي شيء يمنع من الوقوع استعجالاً **﴿إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾** كيوم بدر **﴿لَيُنِيرَنَّ فُضُوزُنَا عَنْهُمْ﴾** ليس العذاب مدفوعاً عنهم، و«يوم» منصوب بخبر «ليس» منقذ عنده، وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها، وذلك لأنه إذا جاز تقديم معمول بشرها عليها كان ذلك دليلاً على جواز تقديم غيرها، إذ معمول تابع للعامل، فلا يقع إلا حيث يقع العامل.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم. وإنما وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العذاب الذي كانوا به يستعجلون. فوضع «يستَهْزِءُونَ» موضع: يستعجلون، لأن استعجالهم كان استهزاءً.

وَلَنْ أَدُقُّنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا مِنْهُ ثُمَّ نَرْغَبُنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤَسُّ كُفُورًا ﴿٩﴾  
 وَلَنْ أَدُقُّنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

ثم بين سبحانه حال الانسان فيما قابل به نعمه من الكفران، فقال: ﴿وَلَيَنْ أَدُقُّنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا مِنْهُ﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها ﴿ثُمَّ نَرْغَبُنَهَا مِنْهُ﴾ ثم سلينا تلك النعمة منه ﴿إِنَّهُ لَيُؤَسُّ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى أن يعود إليه تلك النعمة المنزوعة، لقلته صبره وعدم ثقته به ﴿كُفُورًا﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿وَلَيَنْ أَدُقُّنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّةٍ﴾ كصحة بعد سقم، وغنى بعد فقر. وفي إسناد إضافة النعماء إليه تعالى في قوله: «أدقناه» دون الضراء في قوله «مسسته» إيماء إلى أن النعمة من جانبه تعالى مقصود أصلي له، والضراء كداء ساقه إليهم سوء أفعالهم.

﴿لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: المصائب التي ساءتني ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ بطر بالنعم مغتر بها ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أنعم الله عليه، مشغول عن الشكر والقيام بحقوقها. وفي لفظ الإذافة والمسن نبيه على أن ما يجده الانسان في الدنيا من النعم والمحسن كالأنسودح لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء.

لأنّ الذوق إدراك أوّل الطعم، والتمس مبدأ الوصول.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ضَلُّوا﴾ على الضراء، إيماناً بقدره واستسلاماً لفضائه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلانه السابقة واللاحقة ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَاجْرُ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، والاستثناء من الانسان، لأنّ المراد به الجنس، فإذا كان محلّى باللام أفاد الاستغراق، ومن حمله على الكافر، لسبق ذكرهم، جعل الاستثناء منقطعاً.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَانِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ  
 ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِّثْلَهُ مُفْتَرَاتٍ وَاذْعُوا مِنِّي  
 اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ  
 فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

روي عن ابن عباس: أن رؤساء مكة من فريش أنوار رسول الله ﷺ فقالوا:  
 يا محمد إن كنت رسولاً فحول لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بسلطانة يشهدون لك  
 بالنبوة، فنزلت: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ وهو ما يخالف  
 رأي المشركين، سخافة ردهم، استهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء - لوجود ما  
 يدعو إليه - وقوعه، لحوازي أن يكون ما يصرف عنه - وهو عصمة الرسل من الخيانة  
 في الوحي، والثقة في التبليغ - مانعاً.

﴿وَضَانِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي: شارس لك أحياناً ضيق صدرك، بأن تتلوه



عليهم مخافة - فللدلالة على أنه ضيق عارض غير ثابت عدل عن ضيق إلى ضائق  
 - ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾ ينقعه في الاستبعا كالملوك ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾  
 يصدقه. وقيل: الضمير في «به» مبهم يفسر «أن يقولوا». ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ليس  
 عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك، ولا عليك ردوا أو اقترحوا، فما بالك يضيق به  
 صدرك؟! ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه، فإنه عالم بحالهم، وفاعل بهم  
 جزاء أقوالهم وأفعالهم.

روى العياشي بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن  
 أبي طالب عليه السلام: إني سألت ربي أن يواخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن  
 يجعلك وصيي ففعل. فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر في شئ<sup>(١)</sup> بال أحب إلينا  
 مما سال محمد ربه، فهلا سألته ملكاً يعضده على عدوه أو كنزاً يستغني به على  
 فاقته، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ «أم» منقطعة، والهاء «ما يوحى» ﴿قُلْ فَأْتُوا  
 بِعَشْرِ سُورٍ﴾ كل واحدة منها ﴿مِثْلِهِ﴾ في البيان وحسن النظم. تحداهم أولاً بحشر  
 سور، ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحذاهم بسورة. وتوحيد المثل مقام  
 الأمثال باعتبار كل واحدة، لأنه أراد مماثلة كل واحدة منها له. ﴿مُسْفَرَاتٍ﴾  
 مخلفات من عند أنفسكم، إن صيغ أتي اختلقت من عند نفسي كما زعمتم، فإنكم  
 عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر، لتعلمكم القصص  
 والأشعار، وتعودكم نسق النظم وإنشاء الكلام المنشور الذي كاللآلي ﴿وَادْعُوا﴾ في  
 المعاونة على المعارضة ﴿فَمَنْ اسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى.  
 ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه. وجمع الضمير لأن المؤمنين  
 أيضاً كانوا يتحدونهم، وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم، من حيث إنه يجب

اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبية على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم، فلا يغفلون عنه. ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ.

ويؤيد الأول قوله بعد ذلك: ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه، من نظم معجز لجميع الخلق، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه ﴿وَأَنَّ لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله وحده، لأنه العالم القادر بما لا يعلم، ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم، ولتنصيب هذا الكلام الثابت صدقه بإعجازه عليه. وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الاسلام، راسخون مخلصون فيه، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً.

ويجوز أن يكون الخطاب للكفار، والضمير في «لم يستجيبوا» لمن استطعتم، فيكون المعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونهم إلى المظاهرة على المعارضة لعجزهم، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة، فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله، وأنه منزل من عنده، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم مسلمون داخلون في الاسلام، معتقدون للتوحيد، بعد قيام الحجّة القاطعة؟! وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ، لما فيه من معنى الطلب، والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْخَيْرَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا﴾ وحسن بهجتها، بإحسانه تعالى وبرّه  
 ﴿نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ نوfer عليهم أجر أعمالهم في الدنيا وما يرزقون فيها،  
 من الصحة وسعة الرزق والرئاسة وكثرة الأولاد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ لا  
 ينقصون شيئاً من أجورهم. قبل: هذه الآية في أهل الرياء. وقيل: في المنافقين.  
 وقيل: في الكفرة وبرهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأنهم  
 استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة ﴿وُخِطَ  
 مَا صُنَعُوا﴾ ما صنعوه، أي: لم يكن لصنيعهم ثواب ﴿فِيهَا﴾ في الآخرة، لأنهم لم  
 يريدوا به وجه الله، والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص. ويجوز تعليق الظرف  
 بـ«صنعوا» على أن الضمير للدنيا. ﴿وَبَاطِلٌ﴾ في نفسه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم  
 يعمل على الوجه الصحيح الذي هو ابتغاء وجه الله، والعمل الباطل لا ثواب له،  
 وكان كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ  
 إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا  
 تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ على برهان وحجة من الله يدله على أن  
 دين الإسلام هو الحق والصواب فيما يأتيه ويذره. وهو دليل العقل. والهزمة  
 لإنكار أن يتبع من هذا شأنه هؤلاء المقصرين همهم وأفكارهم على الدنيا، وأن  
 يقارب بنهم في المنزلة. يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً ونايماً بيناً، وهو الذي

أغنى عن ذكر الخبر، وتقديره: أضمن كان على بيته كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل: المراد به النبي ﷺ. وقيل: مؤمنوا أهل الكتاب.

﴿وَيَقُولُوا﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ﴿شَاهِدُ مِثَّة﴾ شاهد من الله يشهد بصحته. وهو القرآن ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كِتَابَ مُوسَى﴾ يعني: التوراة، فإنها أيضاً تتلوه في التصديق. أو البيئته هو القرآن، و«يتلوه» من التلاوة، والشاهد جبرئيل، أو لسان الرسول. وهذا منقول عن الحسين بن علي عليه السلام ومحمد بن الحنفية. أو من التلو، والشاهد ملك يحفظه.

وقيل: الشاهد علي بن أبي طالب عليه السلام، يشهد للنبي ﷺ، وهو منه.

وهذا مروى عن أبي جعفر وعلي بن موسى الرضا عليه السلام. ورواه الطبري<sup>(١)</sup> بإسناده عن جابر بن عبد الله عن علي عليه السلام.

والضمير في «يتلوه» إما «من» أو للبيئته باعتبار المعنى، وهو البرهان. ويجوز أن يكون «ومن قبله كتاب موسى» جملة مبتدأة.

﴿إِنَّمَا﴾ كتاباً مؤتتأ به في الدين ﴿وَزُخْفَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل عليهم، لأنه الوسيلة إلى الفوز بخير الدارين.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بيته ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن ضامهم من المتحرزين على رسول الله ﷺ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يردها لا محالة ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّنْ﴾ من الموعد، أو القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ والخطاب للنبي، والمراد أمته، أو المراد كل سامع ﴿وَلَكِنَّ أَخَذَ النَّاسُ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صحته وصدقه عناداً وجحوداً ولجاجاً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ  
 الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾  
 الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ  
 ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
 أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ  
 ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا  
 جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كأن أسند إليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله، أي: لا أحد أظلم منه، وإخراجه مخرج الاستفهام ليكون أبلغ.

﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الموقف، بأن يحبسوا ويعرضوا ويوقفوا موقفاً يراهم الخلائق للمطالبة بما عملوا، أو تعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والحفظة والنبين، أو شهد كل إمام عصر من أئمة المؤمنين، أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب، أو شهيد كأشراف. ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾. وقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ابتداء كلام، أو نتمة كلام الأشهاد. وفيه تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ، لظلمهم بالكذب على الله تعالى.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويصفونها بالاعوجاج عن الحق والصواب وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا عن الحق بالردة، وهم الثابتة عليه. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والحال

أنهم كافرون بالآخرة. وتكرير «هم» لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما كانوا معجزين الله تعالى في الدنيا أن يعاقبهم، بأن يفوتوا منه هرباً إذا أراد إهلاكهم، كما يهرب الهارب من عدو وقد جدّ في طلبه. وإنما خصّ الأرض بالذكر وإن كانوا لا يفوتون الله ولا يخرجون عن قبضته على كلّ حال. لأنّ معاقل الأرض هي التي يهرب إليها البشر، فكأنّه سبحانه نفى أن يكون لهؤلاء الكفّار عاصم عنه ومانع من عذابه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ بأن يتولّوهم فينصروهم ويمنعوهم من العذاب. ولكنّه سبحانه أحرّ عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشدّ وأدوم.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استئناف. وقرأ ابن كثير ويعقوب وابن عامر: يضعف بالتشديد. ومعناه: أنّه لا يقتصر بهم على عذاب الكفر، بل يعاقبون عليه وعلى سائر المعاصي، كما قال في موضع آخر: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾<sup>(١)</sup>. أو كلّما مضى ضرب من العذاب يعقبه ضرب آخر منه مثله أو فوقه. كذلك دائماً مؤبداً، وكلّ ذلك على قدر الاستحقاق.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لفرط تصامهم عن استماع الحقّ وبغضهم له. كأنهم لا يستطيعون السمع ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لفرط تعاميههم عن آيات الله، وكأنّه العلة لمضاعفة العذاب. وقبل: هو بيان ما نفاه من ولاية الآلهة بقوله: «وما كان لهم من دون الله من أولياء» فإنّ ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية. وقوله: «يضاعف لهم العذاب» اعتراض.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدّلوا، وضاع عنهم ما حصلوا، فلم يبق معهم سوى الندامة والحسرة.

﴿ لا خسرتم ﴾ قال الزجاج: «لا» نفي لما ظنوا أنه ينفعهم. فكانَ المعنى: لا ينفعهم ذلك. و«جرم» بمعنى: حَقَّ وثبت. ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ ﴾ بحيث لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم. وقال غير الزجاج: معناه: لا بد ولا محالة أنهم يقبلون معناه: «حقاً». ويستعمل في أمر يقطع عليه ولا يرناب فيه. أي: لا شك أن هؤلاء الكفار هم أخسر الناس في الآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ولما تقدّم ذكر الكفار وما أعد لهم من العذاب، عقبه سبحانه بذكر المؤمنين، إشارة على عادته تعالى أنه يذكر الوعد مع الوعيد وبالعكس، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمانوا إليه، وخنعوا له وانقطعوا إلى بيادته، من الخبت، وهي الأرض المطمئنة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

تم ضرب مثلاً للكافر والمؤمن بقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن ﴿بِالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ فنبه فريق الكفار بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من النَفِّ والطباق، وفيه وجهان: أحدهما: تشبيه الكافر بالأعمى، لتعاقبه عن آيات الله تعالى، وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله تعالى، وتأنيبه عن تدبّر معانيه، وتشبيه المؤمن بالبصير والسميع، لأن أمره بالضد. فيكون كلٌّ منهما مشبهين باثنين باعتبار وصفين. وثانيهما: أن يشبه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بين ضدّيهما.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان عند العقلاء، ﴿مَثَلًا﴾ مثيلاً، أو صفة أو حالاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها، فتعلموا صفة ما ذكرنا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَبِيٌّ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَكَيْفَ تُعَمِّتُكُمْ عَنْ آيَاتِي فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ آلَاتِكُمْ مِمَّا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾

ولما تقدّم ذكر الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، عقب ذلك سبحانه بذكر أخبار الأنبياء، تأكيداً لذلك، وتخويفاً للخلق، وتسلياً للنبي ﷺ، وبدأ بقتضة نوح عليه السلام، لأنه شيخ الأنبياء وأبوهم بعد الطوفان وأسبغهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ملتبساً بهذا الكلام، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة بالكسر على إرادة القول ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أيّن لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من «إني لكم»، أو مفعول «مبين». ويجوز أن تكون «أن» مفسرة متعلّقة بـ«أرسلنا» أو بـ«نذير». ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ﴾ مؤلم، وهو في الحقيقة صفة المعذب، لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة: جدّ جدّه، ونهارك صائم وليلك فائم، للمبالغة.



﴿ فَقَالَ الصَّالُّهُ ﴾ أي: الأشراف، لأنهم يملئون القلوب هيبه وهيبه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ لا مزينة لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الإطاعة، ولذلك لظنهم أن الرسول ينبغي أن يكون من غير جنس المرسل إليه ﴿ وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا ﴾ أخسأؤنا. جمع أزدل، فإنه بالغلبه صار مثل الإسم. كالأكبر. أو أزدل جمع رذل. ﴿ يَا بَدِيءَ الرَّأْيِ ﴾ ظاهر الفكر من غير تعمق، من البدؤ بمعنى الطهور، أو أول الرأي من البدء. والباء مبدلة من الهمزة، لانكسار ما قبلها. ودرأ أبو عمرو بالهمزة. وانتصابه بالظرف، على حذف المضاف، أي: وقت حدوث يادبي الرأي. والعامل فيه «اتبعتك».

وإنما استردلوهم لذلك أو لفرهم، فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، كان الأحظ بها أشرف عندهم، والمحروم منها أزدل، كما ترى أكثر المتسمين بالاسلام يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانهم. ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله، وإنما يبغده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوة والسأهيل لها، على أن الأنبياء بعثوا مرعيين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصفرين لشأنها وشأن من أخذ إليها. ﴿ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ ﴾ لك ولمن أتبعك ﴿ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ يوهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ﴿ بَلْ نَقُفُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ إيتاك في دعوى النبوة، وإيتاهم في دعوى العلم بصدقك، فغلب المخاطب على الغائبين.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي ﴿ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رِخْفَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ بإيتاء المعجزة البيئته، أو النبوة ﴿ فَخَفِيَتْ غُشْيُكُمْ ﴾ خفيت عليكم، فلم تهلكم. وتوحيد الضمير لأن البيئته في نفسها هي الرحمة. أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة. أو على تقدير: فعميت بعد البيئته. وحذفها للاختصار، أو لأنه لكل واحدة منهما. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: فعميت، أي: أخفيت.

﴿ أَنْزَلْنَاهُمْ مَاءً ﴾ أنزلهم مائها، ونجبركم على الاهتداء بها ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَهَا

غَارِهُونَ ﴿ تَكَرُّهُونَهَا وَلَا تَنْتَابُونَهَا، وَلَا تَسْأَلُونَ فِيهَا. وَحَيْثُ اجْتَمَعَ ضَمِيرَانِ،  
وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا مَرْفُوعًا، وَفَدَّمَ الْأَعْرَفَ مِنْهُمَا، جَازٍ فِي الثَّانِي الْفَصْلَ وَالْوَصْلَ.

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ  
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿ ٢٩ ﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ  
يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ  
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ  
يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ٣١ ﴾

ثم أنكر نوح على قومه استغفالهم التكليف، والعامل إنما يستقل الأمر إذا  
لزمته مؤونة تمله، فقطع ﷺ هذا العذر بقوله: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على  
التبليغ، وهو وإن لم يذكر إلا أنه معلوم متا ذكر. ﴿ مَالًا ﴾ جعلاً ﴿ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى  
اللَّهِ ﴾ فإنه المأمول منه.

قيل: إنهم كانوا يسألونه طرد المؤمنين ليؤمنوا به، أنفة من أن يكونوا معهم  
على سواء. فقال نوح في جوابهم: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾  
فبخاصمون طاردهم عنده تعالى، أو إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه، فكيف أطردهم؟!  
﴿ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ بقاء ربكم، أو بأقدارهم وأنهم خير منكم، أو في  
التماس طردهم، أو تسفهون عليهم، بأن تدعوهم أراذل.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ من يمنعي من انتقام الله وعذابه ﴿ إِنْ  
طَرَدْتُهُمْ ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ لتعرفوا أن التماس الطرد  
وتوقيف الايمان عليه ليس بصواب، بل محض خطأ.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ خزائن رزقه وأمواله. فأدعي فضلاً عليكم  
ثما يقولون في الدنيا. حتى تجحدوا فضلي بقولكم: «وما نرى لكم علينا من فضل»  
﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ عطف على «عندي خزائن الله» أي: ولا أقول أنا أعلم الغيب  
حتى تكذبوني استبعاداً. أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمانر قلوبهم.  
وأعلم أن هؤلاء اتبعوني يادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب. وعلى الثاني يجوز  
عطفه على «أقول».

﴿وَلَا أَقُولُ ابْنِي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا: «ما أنت إلا بشر مثلنا» ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ  
تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: لا أحكم في شأن من استزدلتموهم وتعيب أعينكم لفقرهم  
﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فإن ما أعدده الله لهم في الآخرة خير مما آناكم في الدنيا.  
والازدراء افعال، من: زرى عليه إذا عابه، قلبت تاوذة دالاً لتجانس الراء في الجهر.  
والإسناد إلى الأعين للمبالغة. وللتنبيه على أنهم استزدلوهم من غير رؤية. بما  
عابنوا من رثانة حالهم وقلّة مسألهم، دون تأمل في كمالاتهم ومعانيهم. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ  
بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بما في قلوبهم من الإخلاص وغيره ﴿إِنِّي إِذًا لَبِنُ الظَّالِمِينَ﴾ إن  
قلت شيئاً من ذلك المذكور.

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَاكَ أَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأِنَّا بِمَا تَعَدَّدْتَ أَنْ كُنْتَ مِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾  
وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ  
رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا  
بِرِيءٌ مِمَّا تَجْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

ثم حكى سبحانه جواب قوم نوح عما قاله لهم، فقال: ﴿فَالَوْ لَا يَا نُوحُ لِمَ جَاءَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَخَذْتَنَا جِدَالِنَا﴾ فأطلته، أو أتيت بأنواعه ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب، فإننا لا نؤمن بك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى والوعد. فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: ليس الإتيان بالعذاب إني بل إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إن اقتضت حكمته عاجلاً وأجلاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب، أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ﴾ شرط، وجزاؤه محذوف دل عليه ما قبله. والجملة جواب قوله: ﴿إِنْ خَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ونقدير الكلام: إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي. ومعنى الإغواء: أنه إذا عرف الله من الكافر الإصرار والعناد فخلاه وشأنه ولم يلحظه سمي ذلك إغواءً وإضلالاً، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعوي فلطف به سمي إرشاداً وهداية. وقيل: «أن يغويكم» أن يهلككم، من: غوى الفصيل غوىً إذا بشم<sup>(١)</sup> من كثرة شرب اللبن فهلك. ومعناه: أنكم إذا كنتم من التصميم على الكفر بالمنزلة التي لا تنفعكم نصائح الله ومواعظه وسائر الطافه، كيف ينفعكم نصحي؟! وهذا جواب لما أوهما من أن جداله كلام باطل.

﴿هُوَ زَيْكُكُمْ﴾ خالقكم والمنصرف فيكم وفق حكمه ﴿وَأَلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ إن صحح وتثبت أني افتريته ﴿سَفَلِي﴾ إجرامي ﴿عقوبة إجرامي وافترائي﴾ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ بِمَا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، فلا وجه لإعراضكم عني.

(١) في هامش النسخة الخطية: «الْبَشْبُ - محرّكة - مرضى يقال له البشبة».

وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا  
 كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ  
 ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ  
 سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾  
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ  
 إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا  
 مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا  
 بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ  
 فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُنْ  
 مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوْبِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ  
 الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ إِلَّا مَنْ قَدْ وَجَدَ مِنْهُ مَا  
 كَانَ يَتَوَقَّعُ مِنْ إِيْمَانِهِ. و«قد» للتوقع. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن حزن بانس مستكين  
 ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بما فعلوه من تكذيبك وإبذائك ومعاداتك، فقد حان وقت

الانتقام لك منهم. فأفظه الله من إيمانهم، وأعلمه أن إيمانهم كالمحال الذي لا يتعلق به التوقع، ونهاه أن يفتن بما فعلوه من التكذيب والايذاء.

﴿وَأَضَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً برأى منا، أي: بحفظنا إياك من أن تزيع في صنعتك عن الصواب، وأن يحول بينك وبين عملك أحد من أعدائك، حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه. وذكر الأعين لتأكيد الحفظ. فعبّر بكثرة آله الحس - الذي يحفظ به الشيء، ويراعى عن الاختلال والزيغ - عن المبالغة في الحفظ والرعاية، على طريق التمثيل. ﴿وَوَحِينَا﴾ إليك، وإلهامنا لك كيف تصنعها، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فهم، ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفه.

﴿وَيَضَعُ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَكَلَّمَا مَرْءٌ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزؤا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء جداً أو ان عزته، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ﴿قَالَ إِنْ نَسَخَرُوا مِنَّا الْآنَ﴾ الآن ﴿فَأِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ في المستقبل إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة ﴿حَتَّىٰ تَسْخَرُونَ﴾ منا الساعة. وقيل: المراد بالسخرية الاستجهال.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾ في محلّ النصب بـ«تعلمون» أي: تعلمون الذي يأتيه ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم، وبالعذاب الغرق ﴿وَيَجْلُ عَلَيْهِ﴾ وينزل أو يحلّ عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وهو عذاب النار. ويجوز أن تكون «من» استفهامية. وتكون تعليقا.

قال الحسن: كان طول السفينة ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعاً، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وبابها في عرضها.

وقال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام، وطبقة للهوام والوحش. وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوام، وأوسطها للدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد. وكانت من خشب الساج.

وروت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى، حتى إذا كان آخر زمانهم غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ققطعها، وجعل يعمل على سفينته، وقومه يمرّون عليه فيسألونه فيقول: أعمل سفينة. فيسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة على البر فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون. فلما فرغ منها وفار التور وكثر الماء في السكك خشيت أم صبي عليه، فكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي».

وروى علي بن إبراهيم عن أبيه، عن صفوان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما أراد الله هلاك قوم نوح عقم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يلد لهم مولود. فلما فرغ نوح من اتخاذ السفينة أمره الله تعالى أن ينادي بالسريانية أن يجمع إليه جميع الحيوان، فلم يبق حيوان إلا وقد حضر، وأدخل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين ما خلا الفار والسنور. ولما شكوا أهل السفينة إليه سرقين الدواب والقتدر، دعا بالخنزير فمسح جبينه فمطس فسقط من أنفه زوج فارة فتناسل، فلما كثروا وشكوا إليه منهم دعا بالأسد فمسح جبينه فمطس فسقط من

أنفه زوج سنور، وكان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلاً<sup>(١)</sup>.  
وفي حديث آخر: أنهم شكوا إليه العذرة، فأمر الله الفيل فعطس فسقط  
الخنزير.

وروى الشيخ أبو جعفر في كتاب النبوة، بإسناده عن حنان بن سدير عن أبي  
عبدالله عليه السلام قال: «آمن مع نوح ثمانية نفر».

قيل: إن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدّثنا  
عنها. فانطلق بهم حتّى انتهى إلى كتيّب من تراب. فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال:  
أتدرون من هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا كعب بن حام.

قال: فضرب الكتيّب بعصاه فقال: قم ياذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب  
عن رأسه وقد شاب.

فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟

قال: لا، متّ وأنا شاب، ولكنّي ظننت أنّها الساعة فمن ثمّ شبت.

قال: حدّثنا عن سفينة نوح.

قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت  
ثلاث طبقات: طبقة للدوابّ والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير.

ثمّ قال عليه السلام: عد ياذن الله كما كنت، فعاد تراباً.

وقوله عزّ اسمه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقلوبه: «ويصنع الفلك» وما  
بينهما حال من الضمير فيه. أو «حتّى» هي التي يبتدأ بعدها الكلام. دخلت على  
الجملة من الشرط والجزاء. ﴿وَفَازَ الْمَسْفُورُ﴾ نبع الماء منه وارتفع بشدّة اندفاع.



كالقدر تفور. والتثور تتور الخبز، وهو تتور كان لآدم ابتداءً منه النبوع على خرق العادة، وكان في الكوفة في موضع مسجدھا. وهو مروى عن ائمتنا عليهم السلام. أو في الهند، أو بعين وردة من أرض الجزيرة في دار نوح. وقيل: التثور وجه الأرض، أو أشرف موضع فيها.

وروى المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: «كان الثور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة مسجد الكوفة.

قال: قلت: وكيف كان بدء خروج الماء من ذلك الثور؟

قال: نعم إن الله أحب أن يري قوم نوح آية، ثم إن الله سبحانه أرسل عليهم المطر فيفيض فيضاً، وفاض الفرات فيضاً، وفاضت العيون كلها فيضاً فرقمهم، وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة.

فقلت: فكم لبث نوح في السفينة حتى نضب الماء فخرجوا منها؟

فقال: لبث فيها سبعة أيام بليلاتها.

فقلت له: إن مسجد الكوفة لتقديم؟

قال: نعم، وهو مصلى الأنبياء، ولقد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسري به إلى السماء. قال له جبرئيل: يا محمد هذا مسجد أبيك آدم. ومصلى الأنبياء، فانزل فصل فيه. ثم إن جبرئيل عرج به إلى السماء».

وفي رواية: أن السفينة استقلت بما فيها، فجرت على ظهر الماء مائة وخمسين يوماً بليلاتها.

وروى أبو عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مسجد كوفان وسطه روضة من رياض الجنة. الصلاة فيه بسبعين صلاة، صلى فيه ألف نبي وسبعون نبياً، وفيه فار الثور وجرت السفينة، وهو سرة بابل ومجمع الأنبياء عليهم السلام».

وقيل: معنى «فار الثور» طلع الفجر وظهرت أمارات دخول النهار وتقضي

الليل . من قولهم : نَوَّرَ الصَّبحَ تَوِيرًا . روي ذلك عن عليٍّ عليه السلام . وقيل : معناه : اشتدَّ غضب الله عليهم ، ووقعت نقمته بهم .

﴿ قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا ﴾ في السفينة ﴿ مِنْ كُلِّ ﴾ من كلِّ نوع من الحيوانات المنتفع بها ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكرًا وأنثى . هذا على قراءة حفص ، والباقون أضافوا <sup>(١)</sup> ، على معنى : احمل اثنين من كلِّ زوجين ، أي : من كلِّ صنف ذكر وصنف أنثى . وعلى القراءة الأولى «اثنين» مفعول «احمل» . وعلى الثانية صفة «زوجين» .

﴿ وَأَهْلُكَ ﴾ عطف على «زوجين» على القراءة الأولى ، و«اثنين» على الثانية . والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ بأنه من المغرقين . يريد ابنه كنعان وأمه واعلة ، فإنهما كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ والمؤمنين من غيرهم ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . قيل : كانوا تسعة وسبعين ، زوجته المسلمة ، وبنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ أي : صيروا فيها . جعل ذلك ركوباً ، لأنها في الماء كالمركوب في الأرض . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ فَجَرَّهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ متصل بـ«اركبوا» حال من الواو ، أي : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله ، وقت إجرائها وإرسالها أو مكانهما . على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر . والمضاف محذوف ، كقولهم : آتيتك خفوق النجم . وانتصابهما بما قدرناه حالاً . ويجوز رفعهما بـ«بسم الله» ، على أن المراد بهما المصدر . أو جملة من مبتدأ وخبر ، أي : إجراؤها بسم الله ، على أن بسم الله خير ، أو صلة والخبر محذوف . وهي إما جملة مرتجلة لا تعلق لها بما قبلها ، أو حال مقدّرة من الواو أو الهاء . روي أنه كان إذا أراد أن تجري قال : بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست . ويجوز أن يكون

(١) أي : قرأوا «كلِّ زوجين» مضافاً .

الاسم مقحماً، كقوله (١)؛ ثم اسم السلام عليكمما.

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: مجراها بالفتح، من: جرى. واتفقوا على ضم الميم في «مرساها» ﴿إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه «اركبوا»، أي: فركبوا مسئين وهي تجري وهم فيها ﴿فِي مَوْجٍ﴾ من الطوفان. وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه. ﴿كَانِجِبَالٍ﴾ أي: موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها وعظمتها. روي عن الحسن: أن الماء ارتفع فوق كل شيء وفوق كل جبل ثلاثين ذراعاً. وقيل: خمسة عشر ذراعاً.

وقيل: إن سفينة نوح سارت لعشر مضي من رجب، فسارت ستة أشهر حتى طافت الأرض كلها لا يستقر في موضع، حتى أتت الحرم فطافت بموضع الكعبة أسبوعاً، وكان الله تعالى رفع البيت إلى السماء، ثم سارت بهم حتى انتهت إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل، واستقرت عليه اليوم العاشر من المحرم. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة في أول يوم من رجب، فصام وأمر من معه أن يصوموا ذلك اليوم. وقال: من صام ذلك اليوم تباعد عنه النار مسيرة سنة. فصارت سنة».

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان ﴿وَكَانَ فِي مَغْرَبٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه. ومفعل للمكان، من: عزله عنه إذا أبده. ﴿يَا بُنَيَّ ازْكَبْ مَعَنَا﴾ اركب معنا في السفينة بشرط الإيمان لتسلم من الفرق. قيل: هو منافق وأبوه لم يعلم نفاقه. والجمهور كسروا الياء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن،

(١) للبيد بن ربيعة العامري، ونماه:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكمما ومن ييك حولاً كاملاً فقد اعتذر

غير ابن كثير، فإنه وقف عليها في لقمان، في الموضع<sup>(١)</sup> الأول باتفاق الرواة، وفي الثالث<sup>(٢)</sup> في رواية قبيل، وغير عاصم، فإنه فتح هاهنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع.

وقد أدغم<sup>(٣)</sup> الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص، لتقاربهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانزال.

﴿قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أن يفرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: من الطوفان الذي هو بأمره ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ إلا الراحم، وهو الله تعالى، أو إلا مكان من رحمهم الله، وهم المؤمنون، أي: لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد، وهو مكان من رحمهم ونجّاهم، يعني: السفينة. فردّ بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم العائد به إلا معتصم المؤمنين، وهو السفينة، وقيل: «لا عاصم» بمعنى: لا إذا عصمة، كقوله: في عيشة راضية. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن من رحمه فهو معصوم.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه، أو ابنه والجبل ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾

فصار من المهلكين بالماء.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

ثم بين سبحانه الحال بعد انتهاء الطوفان، فقال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ انشفي ماءك الذي نبعث به العيون، واشربيه حتى لا يبقى على وجهك شيء منه،

(٢٠١) لقمان: ١٣ و ١٧.

(٣) أي: باء «اركب» في ميم «معنا».

من البلع بمعنى النشف ﴿وَيَأْتِيهِمْ مِنْ أَلْفِ سُفْهُنَ﴾ أمسكي عن المطر . من الإقلاع بمعنى الإمساك . نوديا بما ينادى به أولوا العلم ، وأمرأ بما يؤمرون . تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما . بالآمر المطاع الذي يأمر المتفاد لحكمه المبادر امتثال أمره . مهابةً من عظمته . وخشية من أليم عقابه .

وفي الكشاف: «أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء . غير ممتعة عليه . كأنها عقلاء مميّرون . قد عرفوا عظمتهم وجلالته وتوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبيّنوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له . وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له . والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث»<sup>(١)</sup> .

﴿وَبَعْضُ الْمَاءِ﴾ نقص ، من : غاضه إذا نقصه ﴿وَقَضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿وَأَسْقَوَتْ﴾ استوت السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل الموصل . وقيل : بالشام . وقيل : بآمد . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هلاكاً ﴿بِلِقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ يقال : بعد بعداً إذا بعده بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده . ثم استعير للهلاك . وخصّ بدعاء السوء .

وفي الأنوار : «هذه الآية في غاية الفصاحة . لفخامة لفظها . وحسن نظمها . والدلالة على كنه الحال . مع الإيجاز الخالي عن الإخلال . وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل . وأنه متعین في نفسه . مستغني عن ذكره . إذ لا يذهب الوهم إلى غيره . للعلم بأنّ مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار»<sup>(٢)</sup> .

وقال في المجمع : «وفي الآية من بدائع الفصاحة وعجائب البلاغة ما لا

(١) الكشاف ٢ : ٣٩٧ .

(٢) أنوار التنزيل ٣ : ١١٠ .

يقاربه كلام البشر ولا يدانيه. منها: أنه خرج مخرج الأمر، وإن كانت الأرض والسماء من الجماد، ليكون أدل على الاقتدار. ومنها: حسن تقابل المعنى واختلف الألفاظ. ومنها: حسن البيان في تصوير الحال. ومنها: الأيجاز من غير إخلال، إلى غير ذلك مما يعلمه من تدبره، وله معرفة بكلام العرب ومحاوراتهم. ويسرّ أن كفّار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفوا أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية. فقال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين. وتركوا ما أخذوا فيه واقتروا<sup>(١)</sup>.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ  
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ  
فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾  
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي  
أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

ثم حكى الله سبحانه تمام قصة نوح، فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أي: أراد نداءه، بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه النداء ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كلّ وعد تعده حق لا ينطرق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجي أهلي،

فما حاله أو فماله لم ينج؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه ﴿وَأَنْتَ أَخْكَمُ  
الْحَاكِمِينَ﴾ لَأَنَّكَ أَعْلَمُهُمْ وَأَعْدَلُهُمْ. أو لَأَنَّكَ أَكْثَرَ حِكْمَةٍ مِنْ ذَوِي الْحِكْمِ. على أَنَّ  
الحاكم من الحكمة، كالدارع من الدرع.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين الكافر والمؤمن. وأشار إليه  
بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فَإِنَّهُ تَعْلِيلٌ لِنَفْيِ كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِهِ. وأصله: إِنَّهُ ذُو عَمَلٍ  
فَاسِدٍ. فجعل ذاته ذات العمل الفاسد للمبالغة. ثم بَدَّلَ الفاسد بغير الصالح، تصريحاً  
بالمناقضة بين وصفي الأهلية وغير الصلاح، وانتفاء ما أوجب النجاة - من صالح  
العمل - لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب: إِنَّهُ عَمِلَ، أَي: عَمِلَ عَمَلًا  
غَيْرَ صَالِحٍ.

وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب. وفي الحديث القدسي:  
«خَلَقْتُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَنِي وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَخَلَقْتُ النَّارَ لِمَنْ عَصَانِي وَلَوْ  
كَانَ سَيِّدًا قُرَشِيًّا».

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فلا تلمس مني التماساً لا تعلم أصواب هو  
أم غير صواب؟ حتّى تقف على كنهه. وإنما سمى نداءه سؤالاً لتضمّن ذكر الوعد  
بنجاة أهله استنجاهه في شأن ولده، أو استفسار المانع للإنجاز في حقه. وإنما سمّاه  
جهلاً وزجر عنه بقوله: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأنّ استثناء من سبق  
عليه القول من أهله قد دلّه على الحال، وأغناه عن السؤال، لكن أشغله عنه حبّ  
الولد حتّى اشتبه الأمر عليه.

وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون المشددة. وكذا نافع وابن عامر، غير أنّهما  
كسرا النون، على أَنَّ أصله: تسألني، فحذفت نون الوقاية، لاجتماع التونات،  
وكسرت الشديدة للياء، ثم حذفت اكتفاءً بالكسرة. وعن نافع إثباتها في الوصل.  
والوعظ: الدعاء إلى الحسن، والزجر عن القبيح، على وجه الترغيب

والترهيب. ومعنى الكلام: إني أدعوك إلى الحسن، وأزجرك عن القبائح، كراهة أن تكون، أو لئلا تكون من الجاهلين الذين يسألون شيئاً قبل أن يتأملوا فيه تأملاً تاماً، ليعلموا صحة سؤالهم عن فسادهم. ولا شك أن وعظه سبحانه يصرف عن الجهل وينزه عن القبيح.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي آغُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ أن أطلب منك فيما يستقبل ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك واتعاضاً بموعظتك ﴿وَأَلَّا تَغْفِرَ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال الذي يكون تركه أولى. والمراد بالغفران هنا لازمه، وهو إعطاء الثواب على فعل الأولى، وعدم حرمانه منه لتركه. ﴿وَتَرْحَمَنِي﴾ بالتوبة عن ترك الندب ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أعمالاً، لتفويتي الثواب الذي يترتب على فعل الأولى. وقيل: قاله على سبيل الخضوع لله عز اسمه والتذلل له والاستكانة، وإن لم يسبق منه ذنب لعصمته.

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ  
سَنُعَذِّبُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا  
إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

ثم حكى الله سبحانه ما أمر به نوحاً حين استقرت سفينته على الجبل بعد خراب الدنيا بالطوفان، فقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ انزل من السفينة مسلماً محفوظاً من المكاره من جهتنا، أو مسلماً عليك مكرماً ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك حالاً بعد حال. والبركات: الخيرات الناميات. أو زيادات في نسلك



حتى تصير آدمياً ثانياً. ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ وعلى أمم هم الذين معك. سموا أمماً لتحرّيبهم، أو لأنّ الأمم تتشعب منهم. ف«من» للبيان. والأوجه أن تكون للابتداء. والمعنى: وعلى أمم ناشئة ممّن معك إلى آخر الدهر. والمراد بهم المؤمنون، لقوله: ﴿وَأُمَّمُ سَنُنَفِّتُهُمْ﴾ أي: وممّن معك أمم سنمتهم في الدنيا ﴿فَمَنْ يَفْسُهُمْ مِّنْ أَعْدَابِ الْيَوْمِ﴾ في الآخرة. والمراد بهم الكفار من ذرّيّة من معه. وقيل: هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله عليهم، والعذاب ما نزل بهم.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح. ومحلّها الرفع بالابتداء، وخبرها ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: بعضها ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ خبر ثانٍ. والضمير للقصة، أي: موحة إليك. أو حال من الأنبياء. أو هو الخبر و«من أنباء» متعلّق به. أو حال من الهاء في «نوحيا». ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ خبر آخر، أي: مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك. أو حال من الهاء في «نوحيا» أو الكاف في «إليك» أي: جاهلاً أنت وقومك بها. وفي ذكر القوم تنبيه على أنّه لم يتعلّمها، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لتالم يسمعوها فكيف بواحد منهم؟ ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح عليه السلام ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر والنصرة. وفي الآخرة بالفوز ﴿بِالْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

وَالَّذِي عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِبَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ  
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ  
 وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا  
 تُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ  
 بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا  
 أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي  
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا  
 نُزِيلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ هُنَّ حِسَابًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ  
 الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا يَعْلَمُونَ الْقَوْمُ هُودٌ ﴿٦٠﴾

تم عطف سبحانه قصة هود عليه السلام على قصة نوح، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ﴾  
 في النسب ﴿هُودًا﴾ عطف على قوله: «نوحاً إلى قومه». و«هوداً» عطف بيان.  
 ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ و«حدوه» ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله  
 تعالى كذباً، باتخاذكم الأوثان له شركاء، وجعلها شفعاء.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَبْتَنِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كل  
 رسول به قومه إزاحة للتهمة وتمحيصاً للنصيحة، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة

بالمطامع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم، فترفوا المحق من المبطل، والصواب من الخطأ.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توسلوا إليها بالتوبة، فإن التبري عن الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدرور، كالمغزار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبتهم بكثرة المطر وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حرّاصاً عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج إلى الماء والقوة في صنع العمارات.

وقيل: حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسايتهم ثلاث سنين، فوعدهم هود ﷺ على الإيمان والتوبة كثرة الأمطار وتضاعف القوة على التناسل.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ لا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصريين على إجرامكم.

وفي الكشّاف عن الحسن بن عليّ ﷺ: «أنه وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابيه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي، فعلمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين. فبلغ ذلك معاوية فقال: هلا سأله مم قال ذلك؟، فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود ﷺ: «ويزدكم قوّة إلى قوتكم» وقول نوح ﷺ: ﴿وَيُعِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي﴾<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالُوا يَا هُوَذَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك. وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات، كما قالت قريش لرسول

(١) نوح: ١٢.

(٢) الكشّاف ٢: ٤٠٢.

الله ﷻ: لولا أنزل عليه آية من ربه، مع كثرة آياته من ربه ومعجزاته. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك. حال من الضمير في «تاركي». ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إفناط له من الإجابة والتصديق.

وفي المجمع: «إنما حملهم على دفع البيّنة مع ظهورها أشياء، منها: تقليد الآباء والرؤساء. ومنها: اتهامهم لمن جاء بها، حيث لم ينظروا فيها نظر تأمل. ومنها: أنه دخلت عليهم الشبهة في صحتها. ومنها: اعتقادهم لأصول فاسدة دعتهم إلى جحدها. وإنما حملهم على عبادة الأوثان أشياء، منها: اعتقادهم أن عبادتها تقربهم إلى الله زلفى. ومنها: أن الشيطان ربما ألقى إليهم أن عبادتها تحفظهم في الدنيا. ومنها: أنهم ربما اعتقدوا مذهب المشبهة، فاتخذوا الأوثان على صورته عندهم فعبدوها»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ ما نقول إلا قولنا: اعتراك، أي: أصابك. من: عراه يعروه إذا أصابه ﴿بِعُضِّ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون، لسبك إياها وصدك عن عبادتها، ومن ذلك تهذي وتكلم بالخرافات. والجملة مقول القول، وإلا لغو، لأن الاستثناء مفرغ، أي: ما نقول شيئاً إلا قولنا: اعتراك بعض آلهتنا بسوء.

﴿قَالَ إِنِّي﴾ أي: أجاب عن مقاتلهم الحمقاء بأنّي ﴿أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: أشهد الله على براءتي من آلهتكم وفراغي عن إضراركم، تأكيداً لذلك وتثبيتاً له. وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانةً بدينهم، وقلة مبالاة بهم.

قال ﴿فَيُجِئُونِي جَمِيعاً﴾ أي: اجتمعوا على الكيد في إهلاكى ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾ لا تهملوني، فإنّي لا أبالي بكم وبكيدكم. وإنما قال: «واشهدوا» ولم يقل: وأشهدكم على طبق «أشهد الله»، لأنّ إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد

صحيح ثابت في معنى تثبت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم. دلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن لا يحبه: اشهد على أنّي لا أحبّك، تهكماً به واستهانة بحاله.

والذي بعثه على هذا القول أنّهم إذا اجتهدوا في إهلاكه، ورأوا أنّهم عجزوا من أوّلهم إلى آخرهم - وهم الأقوياء الأشداء - أن يضروه، لم يبق لهم شبهة أنّ آلهتهم التي هي جماد لا يضرون ولا ينفع لا تتمكّن من إضراره انتقاماً منه، فلزمت الحجّة عليهم. وهذا من جملة معجزاته، فإنّ مواجهة الواحد الجسم الضعيف من الجبابرة الفتاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لتقته بالله تعالى، وتبطلهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه، ولذلك عبّبه بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تقريراً له.

والمعنى: أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني، فأني متوكّل على الله تعالى، واثق بحفظه، وهو مالكي ومالككم، فلا يحيق بي ما أردتم، ولا تقدرون على إهلاكه، لأنّه يصرف كيدكم عنّي.

﴿مَا مِنْ ذَائِبَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: إلا وهو مالك لها قادر عليها، فهي ذليلة مقهورة له، والأخذ بالناصي تمثيل لذلك، فإنّ من أخذ بناصية غيره فقد قهره وأذله.

ولما ذكر نوّكّه على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التوكّل عليه من قهره وسلطانه، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنّه على الحقّ والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تتولّوا لم آعاتب على التفريط في الإبلاغ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أدّيت ما عليّ من الإبلاغ والزام الحجّة، فأبينم إلا بكذيب

الرسالة. فلا تفرط مني ولا عذر لكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم. بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم. يوحدونه ويعبدونه ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ بتوليكم وإعراضكم ﴿شَيْئاً﴾ من الضرر، أي: لا ضرر عليه في إهلاككم، لأنه لم يخلقكم لحاجة منه إليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مجازاتكم. أو حافظ مستولٍ عليه. فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، أو أمرنا بالعذاب ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تكرير لبيان مانجأهم منه. وهو السموم. كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديارهم، فستقطع أعضاؤهم. وقيل: أراد بالتنجية الثانية إنباءهم من عذاب الآخرة. تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم، فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ هُمْ رُسُلُ اللَّهِ قَالُوا يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْعَمَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي  
قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا  
أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا  
قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا مِنَكُمْ رَحِمَةٌ فَتَنْصُرُونِي مِنَ اللَّهِ  
إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ

فَذَرَوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَسُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثَامِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآلِ إِنَّ شَوْدَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدُ لَشَوْدٍ ﴿٦٨﴾

﴿وَبَلَدٌ آعَادٌ﴾ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة، أو لأن الإشارة إلى قبورهم ﴿جَحَدُوا﴾ كفروا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم أمروا بطاعة كل رسول ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني: كبراءهم الطاغين. و«عنيد» من: عَنَدَ يَعْنِدُ عَنُوداً إذا طغى. والمعنى: عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم. وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرد بهم.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين، يكتبهم في العذاب ﴿الْآلِ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه، أو كفروا بسمه، أو كفروا به، فحذف الجارز ﴿الْآبُعْدُ لَعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك. والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما صدر عنهم من الآثام العظام. وكثر «ألا»، وأعاد ذكر عاد، ولم يكتف بالضمير. تفضيلاً لأمرهم، وحثاً على الاعتبار بحالهم ﴿قَوْمٌ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد. وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم.

والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

ثم عطف على ذلك قصة صالح وقومه فقال: ﴿وَالسَّىٰ قُودُ﴾ منع صرفه باعتبار التعريف والتأنيث، فإنه بمعنى القبيلة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو كونكم منها لا غيره. فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب ﴿وَاسْتَغْفَرَكُمْ فِيهَا﴾ عَمَّرَكُمْ فيها واستبقاكم، من العمر. وعن الضحَّاك: كانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة. أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها. وقيل: هو من العمري، بمعنى أعماركم فيها دياركم، ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم. أو جعلكم معمرين دياركم، بأن تسكنوها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم، فإن الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمره إياها، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾ أي: دوما على التوبة ﴿إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة ﴿مُجِيبٌ﴾ لداعيه.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ لما نرى فيك من مخائل رشك والساداد. أن تكون لنا سيِّداً ومستشاراً في الأمور، وأن توافقنا في الدين، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجائنا عنك ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبرء عن الأوثان ﴿مُرِيبٌ﴾ موقع في الريبة، من: إرابه إذا أوقعه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي، من: أراب في الأمر إذا كان ذا ريبة.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ حرف الشك باعتبار المخاطبين ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ نبوة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ فمن يعنني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ حينئذٍ باستبَاعكم إِيَّاي ﴿غَيْرَ تَخْبِيرٍ﴾ غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به



والتعرض لعذابه. أو فما تزيدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران. ويؤيده ما روي عن ابن عباس أن معناه: ما تزيدونني إلا بصيرة في خسارتكم.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أشار الى ناقته التي جعلها معجزته، لأنه سبحانه أخرجها لهم من جوف صخرة يشاهدونها على تلك الصفة. وخرجت كما طلبوه وهي حامل، وكانت تشرب يوماً جميع الماء فتفرد به ولا ترد الماء معها دابة، فإذا كان يوم لا ترد فيه وردت الواردة كلها الماء، وهذا أعظم آية ومعجزة. وأضافها إلى الله تشريفاً لها، كما يقال: بيت الله. ونصب «آية» على الحال، وعاملها معنى الإشارة. و«لكم» حال منها، تقدمت عليها للتكثيرها.

﴿فَذُرُّوهَا﴾ فاتركوها ﴿تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ ترع نباتها، وتشرب ماءها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا﴾ ولا تصيبوها ﴿بِسَوْءٍ﴾ قتل أو جرح أو غيره ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخى عن مستكم لها بالسوء إلا يسيراً، وهو ثلاثة أيام.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ فَمَنْعُوا فِي نَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم. سمي المنزل والبلد داراً لأنه يدار فيه بالتصرف. أو في داركم الدنيا. ﴿فَلَا تَأْتِيهِمُ الْأَرْبَعَاءُ وَالْخَمِيسُ وَالْجُمُعَةُ﴾ ثم تهلكون. قيل: عقروها يوم الأربعاء، وهلكوا يوم السبت.

روي أنهم لمأعقروا الناقة سعد فصيلها الجبل ورغاً ثلاث مرّات، فقال صالح: لكلّ رغبة أجل يوم. فاصفرت ألوانهم أول يوم، ثم احمرت من الغد، ثم اسودت اليوم الثالث، فهو قوله: ﴿ذَبْكَ وَغَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير مكذوب فيه، فاتسع فيه بإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود. أو غير مكذوب على المجاز، وكان الواعد قال له: أفي بك، فإن وفي به صدقه، وإلا كذبه. أو وعد غير كذب، على أنه مصدر، كالمجلود بمعنى الجلد، والمعقول بمعنى الإدراك، والمصدوقة بمعنى الصدق.

روى جابر بن عبدالله الأنصاري: أن النبي ﷺ لما نزل الحجر في غزوة

تبوك قام فخطب الناس، وقال: أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم الناقة، وكانت ترد من الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحلبون من لبنها مثل الذي كانوا يشربون من مائها يوم غبها، فعتوا عن أمر ربهم، فقال: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام» وكان وعداً من الله غير مكذوب. ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان في مشارق الأرض ومغاربها منهم إلا رجلاً كان في حرم الله، فمنعه حرم الله من عذاب الله، يقال له: أبو رغال. قيل: يا رسول الله من أبو رغال؟ قال: أبو تقيف.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾  
 أي: ونجيناهم من خزي يومئذ، وهو هلاكهم بالصيحة، أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بفضب الله وباسمه. وقرأ نافع: يَوْمِئِذٍ بِالْفَتْحِ. على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾  
 القادر على كل شيء. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب عليه.

﴿وَآخِذِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أمر الله سبحانه جبرئيل فصاح بهم صيحة ماتوا عندها ﴿فَاصْبِرْخَوْا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ في منازلهم ميتين واقعين على وجوههم. وقيل: قاعدین على ركبهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يكونوا في منازلهم قط، لانقطاع آثارهم بالهلاك، من: غنى بالمكان أي: أقام، وغنى أي: عاش ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾، نوته أبو بكر هاهنا وفي النجم<sup>(١)</sup> والكسائي في جميع القرآن، وابن كثير ونافع وأبو عمرو في قوله<sup>(٢)</sup>: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ذهباً إلى العمى، فإنه مذكر. أو الأب<sup>(٣)</sup> الأكبر.

(١) النجم: ٥١.

(٢) أي: قرأوا: لثمود.

(٣) أي: على هذين التقديرين يكون «ثمود» منصرفاً، لأنه مذكر. وأما إذا فسر بالقبيلة، يكون =

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ  
 أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ  
 مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ  
 فَضَحَكَتْ فَتَبَسَّرْنَا مَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا  
 وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾  
 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ  
 مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجَادِلًا فِي  
 قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ  
 هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم ولوط، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ﴾  
 يعني: الملائكة. قيل: كانوا أربعة رابعهم اسمه كروبييل. وهذا منقول عن أبي  
 عبد الله عليه السلام. وقيل: تسعة. وقيل: أحد عشر. ﴿يَالْبَشْرَىٰ﴾ ببشارة الولد ﴿قَالُوا  
 سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً. ويجوز نصبه بـ«قالوا» على معنى: ذكروا سلاماً.  
 لتضمن الذكر القول. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: أمركم أو جوابي سلام، أو وعليكم سلام.  
 رفعه إجابة بأحسن من تحييتهم. وقرأ حمزة والكسائي: يسلم. وكذلك في

الذاريات<sup>(١)</sup>، وهما لغتان، كحريم وحرام. والمراد به الصلح.

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما ابطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه. والجاز في «أن» مقدر. والحنيذ المشوي بالرفف، وهو الحجارة المحماة في أخدود من الأرض. وقيل: الذي يقطر دسمه، من: حنذت الفرس إذا عرقتة بالجل<sup>(٢)</sup>، لقوله: بمجل سمين.

﴿فَلَمَّا زَايَ أَيُّدِيهِمْ﴾ فلما رأى إبراهيم أيدي الملائكة ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إلى العجل الحنيذ أيديهم ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكر ذلك، فإن نكر وأنكر واستنكر بمعنى ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وخاف أن يريدوا به مكروهاً، وذلك أن أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض أمنه صاحب الطعام على نفسه. وقيل: إنه ظنهم لوصفاً يريدون به سوء. والإيجاس الإدراك. وقيل: الإضمار.

﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِبِلْنَا إِيَّاهُ قَوْمٌ لُوطِيٌّ﴾ إنا ملائكة مرسله إليهم بالعذاب، وإنما لم نمد إليه أيدينا لأننا لا نأكل. قيل: إنهم دعوا الله فأحيا العجل الذي كان ذبحه إبراهيم وشواه فرغا، فعلم حينئذ أنهم رسل الله.

﴿وَأَمْرَاتُهُ قَاتِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة ﴿فَضَحِكْتَ﴾ سروراً بزوال الخيفة، أو بهلاك أهل الخبائث، أو بإصابة رأيها، فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً، فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل: «فضحكت» من الضحك بفتح الضاد بمعنى: حاضت. يقال: ضحكت الأرنب إذا حاضت. ومنه: ضحكت السمرة إذا سال صمغها. وهي: سارة بنت هارون بن ياحور بن ساروع بن فالع. وهي كانت ابنة عم إبراهيم.

﴿فَنَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ نصب «يعقوب» ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام. وتقديره: ووهبنا من وراء إسحاق

(١) الذاريات: ٢٥.

(٢) أي: ألقيت عليه الجل وأجريته حتى عرق.

يعقوب. وقيل: إنه معطوف على موضع «إسحاق»، فإنه مفعول بواسطة الجرّ، أو على لفظ «إسحاق»، وفتحته للجرّ، فإنه غير منصرف. وردّ للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع، على أنه مبتدأ خبره الظرف، أي: ويعقوب مولود من بعده.

وعن ابن عباس: الورا ولد الولد. ولعلّه سميّ به لأنه بعد الولد. وعلى هذا تكون إضافته إلى إسحاق ليس من حيث إن يعقوب وراءه، بل من حيث أنه وراء إبراهيم من جهة إسحاق. وعن الشعبي: أنه قيل له: هذا ابنك؟ قال: نعم من الورا، وكان ولد ولده. وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أنّ الولد المبشّر به يكون منها، ولأنّها كانت عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى﴾ يا عجباً. وأصله في الشرّ، فأطلق على كلّ أمر فظيع. والألف فيه مبدلة عن ياء الإضافة. وكذلك: يا لهفأ ويا عجباً. ﴿الِدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين، أو تسعة وتسعين ﴿وَهَذَا بَطْلِي﴾ زوجي. وأصله القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة وعشرين. ونصبه على الحال، والعامل فيها معنى اسم الإشارة. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني: الولد من الهرمين.

وهو استعجاب من حيث العادة التي أجراها الله، دون القدرة، ولذلك ﴿قَالُوا﴾ قالت الملائكة منكرين عليها: ﴿اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ بكثرة خيراته النامية الباقية ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: إنّ هذه وأمثالها ممّا يكرمكم الله به أهل بيت النبوة، فليست بمكان عجب، فإنّ خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات، ليس ببدع وعجيب، ولا حقيق بأن يستغربه عاقل، فضلاً عمّن نشأت وشابت في ملاحظة الآيات.

قال في الكشف: «قوله: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ مستأنف علّل به إنكار التعجب، كأنه قيل: إياك والتعجب، فإنّ أمثال هذه الرحمة والبركة متكاترة من الله عليكم. وقيل: الرحمة النبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل،

لأنّ الأنبياء منهم، وكلّهم من ولد إبراهيم<sup>(١)</sup>.

ونصب «أهل البيت» على المدح، أو النداء لقصد التخصيص، كقولهم: اللهم اغفر لنا أيّتها العصابة.

روي: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بقوم فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه. فقال عليه السلام: لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم: ورحمة الله وبركاته أهل البيت».

﴿إِنَّهُ خَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.  
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ ما أوجس من الخيفة، واطمأن قلبه بعرفانهم  
أنهم الملائكة ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بدل الروع ﴿يُجَادِلُنَا﴾ يجادل رسلنا ﴿فِي قَوْمٍ لُّوطٍ﴾ في شأنهم. وكانت مجادلته إيتاهم قوله لهم: إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. فما زال ينتقص حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا. فقال: إن فيها لوطاً؟ قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينّه وأهله. وقيل: إنّه جادلهم وقال: بأيّ شيء استحقوا عذاب الاستئصال؟ وهل ذلك واقع لا محالة، أم هو تخويف ليرجعوا إلى الطاعة؟ وبأيّ شيء يهلكون؟ وكيف ينجي المؤمنين؟

وقوله: «يجادلنا» إمّا جواب «لما»، جيء به مضارعاً على حكاية الحال. أو لأنّه في سياق الجواب بمعنى الماضي، كجواب «لو». أو دليل جوابه المحذوف، مثل: اجترأ على خطاب رسلنا، أو شرع في جدالهم. أو متعلّق بالجواب أقيم مقامه، مثل: أخذ أو أقبل يجادل رسلنا.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَخَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوّه من الفرطات، والتأسّف على صدور ما هو تركه أولى ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله تعالى بما يحبّ ويرضى. وفيه بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقّة قلبه وفرط

ترحمه. رجاء أن يرفع العذاب عنهم.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ على إرادة القول، أي: قالت الملائكة: يا إبراهيم ﴿اعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ عن الجدل، وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن حكمة، والعذاب نازل بهم لا محالة، وهو أعلم بحالهم ﴿وَأَنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ غير مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ساءه مسجينهم، لأنهم جاؤه في صورة غلمان حسان الوجوه، فظن أنهم أناس، فخاف عليهم خبت قومه وسوء سيرتهم، فيعجز عن مدافعتهم. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: سيء وسيئت بإشمام السين الضمّ، وفي العنكبوت<sup>(١)</sup> والملك<sup>(٢)</sup>. والباقون باختلاس حركة السين.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدره. وهو كناية عن شدّة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من: عصبه إذا شدّه.

قال الصادق عليه السلام: «جاءت الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه، ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض. فقال لهم: اتوا المنزل، فتقدّمهم ومشوا خلفه. فقال في نفسه: أي شيء صنعت؟! آتي بهم قومي وأنا أعرفهم، فالتفت إليهم فقال: لتأتون شراراً من خلق الله. وكان قد قال الله لجبرئيل: لا تهلكهم حتى يشهد لوط عليهم ثلاث مرّات. فقال جبرئيل: هذه واحدة. ثمّ مشى لوط ثمّ التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه ثنتان. ثمّ مشى ولما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال مثل ذلك. فقال جبرئيل عليه السلام: هذه الثالثة. ثمّ دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله، ولما رأت امرأته هيئة حسنة صعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا، فدخلت، فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون، فذلك قوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه، كأنهم يدفنون دفعاً لشدّة طلب الفاحشة من أضيافه.

(١) العنكبوت: ٣٣.

(٢) الملك: ٢٧.



﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي: ومن قبل ذلك الوقت ﴿كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الفواحش

مع الذكور، فتمرّزوها ولم يستحيوا منها، حتى جازًا يهرعون لها مجاهرين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فتزوجوهن. وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم.

لخبثهم وعدم كفاءتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار كما قيل، فإنه شرع مجدد في الاسلام. وكذا كان أيضاً في مبدأ الاسلام، فإن رسول الله ﷺ زوج ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل أن يسلموا وهما كافران، ثم نسخ ذلك أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه، حتى إن ذلك أهون منه. أو إظهار لشدة غيظه من ذلك كي يرقوا له. وقيل: المراد بالبنات نساء قومه، فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية.

﴿هُنَّ اطْفَؤُهُنَّ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً، وأحلّ عملاً. وهذا مثل قولك: الميتة أطيب من

المغصوب وأحلّ منه، ولا يلزم أن يكون في المغصوب طيب وحليّة. فالأطهر بمعنى كثير النزاهة والطيب في نفسه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مواقة الذكران، أو بترك جميع الفواحش ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾

ولا تفضحوني، من الخزي. أو ولا تخجلوني، من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿فِي ضَمِيغِي﴾ في شأن أضيافي، فإن إخزاء ضيف الرجل إخزأه ﴿أَتَيْنَسُ مِنْكُمْ زَجُلٌ زَشِيدٌ﴾ أي: في جملتكم رجل واحد يهتدي إلى سبيل الرشده وفعل الجميل، والكف عن القبيح.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة، لأن نكاح الإناث أمر

خارج من مذهبنا الذي نحن عليه، فإننا نرغب عن نكاح الإناث بنكاح الذكران ﴿وَأِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي: لو قويت بنفسي على دفعكم ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُحْنٍ

شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمتع به عنكم. شبهه بركن الجبل في شدته ومنعته. قال جبرئيل

في جوابه: إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ. وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد». وجواب «لو» محذوف، تقديره: لدفعتكم.

روي أن لوطاً أغلق بابَه دون أضيافه، وأخذ يجادلهم من وراء الباب، فتسوّروا الجدار، فلَمَّا رأت الملائكة ما على لوط من الكرب ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لهلاكهم فلا تنتم ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ إلى إضرارك، ولن يقدرُوا عليه بإضرارنا، فهوّن عليك، ودعنا وإياهم، فخلّاهم أن يدخلوا، ففتح الباب فدخلوا. فاستأذن جبرئيل ربّه في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه - وله جناحان، وعليه وشاح من درّ منظوم، وهو براق الشنايا - فضرب جبرئيل بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله ﷻ: ﴿قَطَمْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وعن الصادق عليه السلام: «كأبر قوم لوط معه حتّى دخلوا البيت، فصاح به جبرئيل أن يا لوط دعهم يدخلوا، فلَمَّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا يقولون: النجاء النجاء»<sup>(٢)</sup>، فإنّ في بيت لوط سحرة».

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقطع الهمزة من الإسراء. وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن<sup>(٣)</sup> من السرى. ﴿بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة منه. وعن ابن عباس: في ظلمة الليل. ﴿وَلَا يَلْتَفَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف، أو لا ينظر إلى ورائه. والأوّل قول ابن عباس، والثاني قول مجاهد. والنهي في اللفظ ل«أحد» وفي المعنى للوط. وعلى هذا، كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة. ﴿إِلَّا أَزْوَاجَكَ﴾ استثناء

(١) القمر: ٣٧.

(٢) أي: أسرعوا أسرعوا.

(٣) الحجر: ٦٥، طه: ٧٧، الشعراء: ٥٢، الدخان: ٢٣.

من قوله: «فأسر بأهلك».

قال في الأنوار: «وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف، فإنه إن فسر بالنظر إلى الوراثة في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البدل من «أحد»، ولا يجوز حمل القراءتين على الروایتين في أن الملائكة أمروا لوطاً أن يخلفها في المدينة مع قومها أو يخرجها، فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت: يا قوماء، فأدركها حجر فقتلها - كما قال صاحب الكشاف<sup>(١)</sup> - لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة. والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: «لا يلتفت» مثله في قوله: ﴿فَأَقْضَوْهُ إِذَا قِيلَ﴾<sup>(٢)</sup>. ولا يبعد أن يكون أكثر القراء على غير الأوضح. ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات، بل عدم نهيها عنه استصلاحاً، ولذلك علّله على طريقة الاستئناف - لبيان هلاكها معهم - بقوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَضَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ كأنه علّة الأمر بالإسراء. روي: أنه قال لوط: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. فقال: أريد أسرع من ذلك، لضيق صدره بهم. فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فهذا جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، أو أمرنا بالعذاب. ويؤيده الأصل، وجعل التعذيب مسبباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا﴾ فإنه جواب «لما». وكان حقه: جعلوا عليها، أي: الملائكة المأمورون به، فأسند سبحانه إلى نفسه من حيث إنه

(١) الجملة المعترضة من كلام المؤلف، وليست من كلام البيضاوي، راجع الكشاف: ٢، ٤١٦.

(٢) النساء: ٦٦.

(٣) أنوار التنزيل: ٣، ١١٦.

المسبب، تعظيماً للأمر، فإنه روي أنّ جبرئيل عليه السلام ادخل جناحه تحت مدائنهم الأربع ورفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن بعد التقلب، تغليظاً للعقوبة. أو على شذاها. ﴿حِجَازَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر. لقوله: ﴿حِجَازَةٌ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(١)</sup>. وهذا معرب، وأصله: سنج كل. وقيل: إنه من: أسجله إذا أرسله، أو أدرّ عطيته. والمعنى: من مثل الشيء المرسل، أو من مثل العطية في الإردار. أو من السجل، أي: مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به. وقيل: أصله من سجين. أي: من جهنم، فأبدلت نونه لأمأ. ﴿مَنْضُوبٍ﴾ نضد معداً لعذابهم في السماء. أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطار الأمطار. أو نضد بعضه على بعض، وألصق به.

﴿مُسَوِّفَةٌ﴾ معلمة للعذاب. وقيل: معلمة ببياض وحمرة، أو بسيماء تتميز به عن حجارة الأرض. أو باسم من يرمى بها. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه، أي: فيها علامات يدل على أنها معدة للعذاب ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم. روي أنّ حجراً بقي معلقاً بين السماء والأرض أربعين يوماً، يتوقع به رجل من قوم لوط كان في الحرم، حتى خرج منها فأصابه. قال قتادة: وكانوا أربعة ألف ألف.

وفي خاتمة الآية وعيد لكلّ ظالم. وعنه عليه السلام أنه سأل جبرئيل عليه السلام فقال: «يعني ظالمي أمّتك، ما من ظالم منهم إلا وهو عرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة».

وقيل: الضمير للقرى. أي: هي قريبة من ظالمي مكة، يمرّون بها في

أسفارهم إلى الشام. وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ  
مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ  
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَانِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ  
تَرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ  
﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا  
حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا  
اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

ثم عطف سبحانه قصة شعيب على ما تقدمها من قصص الأنبياء عليهم السلام. فقال:  
﴿وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم، أو أهل مدين. وهو بلد  
بناه، فسَمِّي باسمه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ  
وَالْمِيزَانَ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً، فإنه أصل الأمر. ثم نهاهم عما اعتادوه من  
البخس المنافي للعدل، المخل بحكمة التعارض. ثم علل لهذا النهي بقوله: ﴿إِنِّي  
أَرَأَكُم بِخَيْرٍ﴾ بسعة وثروة من الأموال تغنيكم عن البخس والتطفيف. أو بنعمة حقها.

أن تفضلوا على الناس شكراً عليها، لا أن تنقصوا حقوقهم. أو بسعة من الله، فلا تزيلوها عنكم بما أنتم عليه من البخس.

﴿وَأَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّجِيبٍ﴾ لا يشدّ منه أحد منكم. وقيل: عذاب مهلك، من قوله: ﴿وَأَجِيبُ بِقُرْبِهِ﴾<sup>(١)</sup>. والمراد عذاب يوم القيامة، أو عذاب الاستئصال. وأصله من إحاطة العدو. وتوصيف اليوم بالإحاطة - وهي صفة العذاب - لاشتماله عليه، فإنّ الزمان يشتمل على ما يحدث فيه.

ثم صرّح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّهُمْ عَمَلًا أَوْفُوا﴾ أي: أوفوا حقوق الناس في المكيلات والموزونات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ونقصان، فإنّ الازدياد فوق أصل الإيفاء مندوب غير مأمور به. وفيه تشبيه على أنّه لا يكفيهم الكفّ عن تعمد التطفيف، بل يلزم السعي في الإيفاء، ولو بزيادة لا يتأتى الإيفاء بدونها، كفسل اليد من باب المقدّمة.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص. فإنّه أعمّ من أن يكون في المقدار أو في غيره. وكذا قوله: ﴿وَلَا تَغْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإنّ العتو يعمّ تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد.

وقيل: المراد بالبخس مكس درهم مثلاً، إذ كانوا يأخذون من كلّ شيء يباع شيئاً، كما تفعل السماسرة، أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء، فنهوا عن ذلك. والعتو: السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح، كما فعله الخضر عليه السلام.

وقيل: معناه: ولا تغنوا في الأرض مفسدين أمر دينكم ومصالح آخرتكم. ﴿بِقِيَّةِ اللَّهِ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزّه عمّا حرّم عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا تجمعون بالتطفيف.

قال في الكشاف: «إضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه الذي يجوز أن يضاف إليه. وأما الحرام فلا يضاف إلى الله، ولا يسمّى رزقاً على مذهبنا»<sup>(١)</sup>.  
**﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** بشرط أن تؤمنوا، فإن خيريتها باستبعاث الثواب مع النجاة، وذلك مشروط بالإيمان. أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم. وقيل: البقية الطاعة، فإنه يبقى ثوابها أبداً والدنيا تفتنى. ويؤيده قوله تعالى: **﴿وَالنَّبَاتَاتُ الضَّالِحَاتُ حَيْرٌ﴾**<sup>(٢)</sup>.

**﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾** أحفظكم عن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت حين أنذرت. أو لست بحافظ عليكم نعم الله لولم تركوا سوء صنيعكم.

**﴿قَالُوا﴾** إنما أجابوه بعد أمرهم بالتوحيد استهزاءً وتهكماً بصلاته **﴿يَا شُعَيْبُ اصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَفْرُقَ مَا يَتَّبِعُ آبَاؤُنَا﴾** من الأصنام. اشعروا بذلك أن مثل قولك لا يدعو إليه داع عقلي، وأن ما دعاك إليه وساوس من جنس ما تواظب عليه. وكان ﷺ كثير الصلاة، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الإفراد. والمعنى: أصلواتك التي تداوم عليها ليلاً ونهاراً تأمرك بتكليف أن تترك، فحذف المضاف، لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. وإسناد الأمر إلى الصلاة على طريق المجاز، كإسناد النهي إليها في قوله: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**<sup>(٣)</sup>.

**﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾** عطف على «ما»، أي: وأن تترك فعلنا ما نشاء في أموالنا. وهذا جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء. وقيل: كان شعيب

(١) الكشاف ٢: ٤١٩.

(٢) الكهف: ٤٦.

(٣) المنكيات: ٤٥.

ينهاهم عن تقطيع الدراهم والدنانير، فأرادوا به ذلك. ثم قالوا تهكمأ به: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ  
الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ لأنهم قصدوا بذلك وصفه بضد ذلك، وهو غاية السّفه والغيّ،  
فكسوا ليتهكموا به، كما يقال للشحيح: لو أبصرك حاتم لسجد لك. أو علّلوا إنكار  
ما سمعوا منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال  
ذلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة ﴿مِنْ  
رَبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة ﴿وَرَزَقْتِي مِنْهُ﴾ من عنده وبإعانته، بلا  
كدّ مّي في التحصيل ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من المال الحلال  
الطيب غير مشوب بالنجس. وجواب الشرط محذوف، تقديره: فهل يصح لي مع  
هذا الإتمام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه  
في أمره ونهيه؟ وهل يصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن  
المعاصي، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك؟ وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير  
مألوفهم، والنهي عن دين آبائهم.

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: ما أريد أن أسبقكم إلى  
شهواتكم التي نهيتكم عنها وأختارها لنفسي، فأستبدّ بها دونكم، فلو كانت صواباً  
لأثرتها ولم أعرض عنها، فضلاً عن أن أنهي عنها. يقال: خالفت زيداً إلى كذا إذا  
قصده وهو مولٌّ عنه، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس.

﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم أموركم بأمري بالمعروف  
ونهي عن المنكر ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما دمت أستطيع الإصلاح، أي: فلو وجدت  
الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه. و«ما» مصدرية واقعة موقع الظرف، أي: مدة  
استطاعتي وتمكّني منه. وقيل: خيرية بدل من لإصلاح، أي: المقدار الذي  
استطعته، أو إصلاح ما استطعته، فحذف المضاف.



ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا الترتيب شأن، وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يفعله ويتركه أحد حقوق ثلاثة، أهمها وأعلىها حق الله. وثانيها: حق النفس. وثالثها: حق الناس. فقال شعيب: كل ذلك يقتضي أن أمرم بما أمرتكم به، وأنهاكم عما نهيتكم عنه.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما كوني موفقاً لإصابة الحق والصواب إلا بهدأته ومعونته. والمعنى: أتى أطلب التوفيق من ربي في إمضاء الأمر على سننه، وأطلب منه التأييد والإظهار على عدوه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وفوضت الأمور إليه، فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في حد ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار. وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد. وهو يفيد الحصر بتقديم الصلة على «أنيب»، كتقديم الصلة على «توكلت».

وفي هذه الكلمات الثلاثة طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله ﷻ والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بشراشره، وحسم أطماع الكفار. وإظهار الفراغ عنهم، وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم، بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء.

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِي أَخْزَىٰ عَلَىٰكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآبَعْدَا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ لا يكسبنيكم خلافي ومعاداتي ﴿أَنْ يُصِيبْتُمْ﴾ مثل ما أصاب قوم نوح، من العرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجفة. و«أن» بصلتها ثاني مفعولي «جرم» فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين، ككسب. وعن ابن كثير: لا يجرم منكم بضم الياء. وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد. كما نقل أكسبه المال وكسب المال. والأول أفصح، كما أن «كسبته مالا» أفصح من: أكسبته، فإن «أجرم وأكسب» أقل دوراناً على السنة الفصحاء.

﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ زماناً أو مكاناً، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم. وعن قتادة: أن دارهم قريبة من داركم. أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوىء. فلا يبعد عنكم ما أصابهم. وإفراد البعيد لأن المراد: وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد. ولا يبعد أن يسوى في أمثاله - كقريب وكثير وقليل - بين المذكر والمؤنث، لأنها على زنة المصادر، كالصهيل وهو صوت الفرس، والنهيق صوت الحمام.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ داوموا على الاستغفار والتوبة عما أنتم عليه ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿وَدُودٌ﴾ فاعل بهم ما يفعل البليغ المودة لمن يودّه من اللطف والاحسان. وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

﴿قَالُوا﴾ قال قوم شعيب له حين سمعوا منه الوعظ والتخويف ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْنَا﴾ ما نفهم ﴿كثييراً ممّا نقول﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس، وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكيرهم. وقيل: قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم، لشدة نفرتهم عنه.

﴿وَأَنَا لَنُرَاكُ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوء، أو مهيناً لا عز لك فيما بيننا. وقيل: أعمى بلفظ حمير، كما يسمى ضريراً، أي: ضرّ بذهاب بصره. وهو مع عدم مناسبه يردّه التقيد بالظرف وهو «فينا». فإن من كان أعمى يكون كذلك كيف كان غير مختص ببعض مكان.

﴿وَلَوْلَا زَهْرُكَ﴾ قومك وعزّتهم عندنا، لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى التسعة ﴿لَوَجَّعْنَاكَ﴾ لفتلناك برمي الأحجار، أو بأصعب وجه. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لا تعزّ علينا ولا تكرم، فتمننا عزّتك عن الرجم. وهذا من عادة السفية المحجوج اللجوج يقابل الحجج والآيات بالسبّ والتهديد.

وقد دلّ إيلاء ضميره حرف النفي على أنّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت علينا بعزیز، بل رهطك هم الأعزّة علينا، ولذلك ﴿قَالَ﴾ في جوابهم ﴿يَا قَوْمِ أَزْهَبِي أَغْرُ﴾ أعظم حرمة ﴿عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؟ ولو قيل: وما عززت علينا، لم يصحّ هذا الجواب.

﴿وَإِتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَ كُمْ ظَهَرِيًّا﴾ وجعلتموه كالمسيّ المنبوذ وراء الظهر، لا يعبأ به بإشراككم به وإهانتكم رسوله. وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ، والرّد

والتكذيب. والظهريّ منسوب إلى الظهر، والكسر من تغييرات النسب، كالأمس يقال له: إمسي بالكسر.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً، فلا يخفى عليه شيء منها، فيجازي عليها.

ثم قال تهديداً لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اغْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ﴾ لا تخلو المكانة من أن تكون بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة، أو يكون مصدراً من: مكن مكانة فهو مكين. والمعنى: اعملوا قازين على جهتكم التي أتمت عليها من الشرك والشنآن لي، أو اعملوا متمكّنين من عداوتي مطيعين لها.

﴿إِنِّي غَامِلٌ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يجوز أن تكون «من» استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون أيّنا يأتيه عذاب يخزيه وأيّنا هو كاذب. وأن تكون موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقيّ الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب. وذكر الفاء في «فسوف تعلمون» في سورة الأنعام<sup>(١)</sup> للتصريح بأن الإصرار والتمكّن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها هاهنا لأنّه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل.

﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطف على «من يأتيه» لا لأنّه قسيم له، كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أوعدوه وكذّبوه قال: سوف تعلمون من المعذّب والكاذب مني ومنكم. وقيل: كان قياسه: ومن هو صادق، لينصرف الأوّل إليهم والثاني إليه، لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: «ومن هو كاذب» على زعمهم.

﴿وَازْتَقِبُوا﴾ وانتظروا ما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ زَبِيبٌ﴾ منتظر. فعيل بمعنى الرقيب كالصريم، أو المراقب كالعشير بمعنى المعاشر، أو المرتقب كالرفيع بمعنى

المرتفع .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إِنَّمَا ذَكَرَهُ بِالْوَاوِ لَا بِالْفَاءِ كَمَا فِي قِصَّةِ لُوطٍ وَصَالِحٍ . إِذْ لَمْ يَسْبِقْهُ ذِكْرُ وَعْدِ يَجْرِي مَجْرَى السَّبَبِ لَهُ . بِخِلَافِ قِصَّةِ صَالِحٍ <sup>(١)</sup> وَلُوطٍ <sup>(٢)</sup> ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ بَعْدَ الْوَعْدِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْذُوبٌ﴾ <sup>(٣)</sup> وَقَوْلُهُ : ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصَّبِيحُ﴾ <sup>(٤)</sup> ، فَلِذَلِكَ جَاءَ بِنَاءِ السَّبِيَّةِ .

﴿وَأَلْخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قِيلَ : صَاحَ بِهِمْ جَبْرَائِيلُ ﷺ فَهَلَكُوا ﴿فَاضْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ مَبِينٌ . وَأَصْلُ الْجُثُومِ الزُّرُومُ فِي الْمَكَانِ . ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كَأَنَّ لَمْ يَقِيمُوا فِيهَا ﴿أَلَا بُعْدُ لِيَغْدِينَ كَمَا يُبْعَدُونَ تَمْوُدًا﴾ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ ، لِأَنَّ عَذَابَهُمْ كَانَ أَيْضًا بِالصَّيْحَةِ ، غَيْرَ أَنَّ صَبِيحَتَهُمْ كَانَتْ مِنْ تَحْتِهِمْ ، وَصَيْحَةُ مَدِينٍ كَانَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ . وَ«يُبْعَدُ» بِالْكَسْرِ مَخْصُوصٌ ، بِمَعْنَى الْبَعْدِ الَّذِي يَكُونُ بِسَبَبِ الْهَلَاكِ . وَالْبُعْدُ بِالضَّمِّ مَصْدَرٌ : بُعِدَ وَيُبْعَدُ . وَالتَّبَعْدُ بِالْفَتْحِ مَصْدَرُ الْمَكْسُورِ خَاصَّةً . يُقَالُ : بَعِدَ بُعْدًا وَبَعْدًا ، إِذَا بَعُدَ بَعْدًا بَعِيدًا بِحَيْثُ لَا يَرْجَى عَوْدُهُ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَاتَبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْسَى الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

ثُمَّ عَطَفَ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ مُوسَى ﷺ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ . فَيُقَالُ :

(٢٠١) هود: ٦٦ و ٨٢ .

(٤٠٣) هود: ٦٥ و ٨١ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هو المعجزة القاهرة المخلصة من التلبيس والتمويه على أتم وجه، وهي العصا. وإفرادها بالذكر لأنها أبرها. ويجوز أن يراد بهما واحد، أي؛ ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته، واضحاً في نفسه، أو موضحاً نبوته، فإن «أبان» جاء لازماً ومتعدياً. والفرق بين الآيات والسلطان المبين: أن الآية تعم الأمانة والدليل القاطع، والسلطان يخص بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء، كالعصا.

﴿إِنِّي فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتبعوا أمره بالكفر بموسى ﷺ. أو فما اتبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا - لفرط جهالتهم - طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان، الداعي إلى مالا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل. وذلك أنه ادعى الإلهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والنشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، ومثله بمعزل عن الإلهية ذاتاً وأفعالاً.

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد، أو ذي رشد، وإنما هو غي محض وضلال صريح. وفيه تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار، كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال. يقال: قدم، بمعنى: تقدم. والمعنى: أن فرعون يمشي بين يدي قومه يوم القيامة على قدميه حتى يهجم بهم على النار، كما كان يقدمهم في الدنيا يدعوهم إلى طريق النار. ﴿فَأَوْرَثَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه. ونزل النار لهم منزلة الماء، فسئ إتيانها وروداً، تهكماً. ﴿وَيَفْسُ الْوِزْدَ الْمَمْرُورُ﴾ أي: بسس المورود الذي وردوه، فإن الورد إنما يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش، والنار بالصد. والآية كالدليل على قوله: «وما أمر فرعون برشيد»، فإن من كان هذه عاقبته

لم يكن في أمره رشد. أو تفسير له. على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ أي: هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يلعنون في الدنيا والآخرة ﴿يَنْفَسُ الرُّقْدَ الْمَرْفُودَ﴾ بشس العون المعان، أو العطاء المعطى. وأصل الرقد ما يضاف إلى غيره ليعمده، فإن رقد الدنيا عون ومعين لعذاب الآخرة ومدد له، ورفد الآخرة معان لرفد الدنيا. وإنما ساءه رقداً، لأنه في مقابلة ما يعطى أهل الجنة من أنواع النعم. والمخصوص بالذم محذوف، أي: رقدهم، وهو اللعنة في الدارين.

ذَلِكَ مِنْ أُنْبَاءِ الْقُرَى نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَاتِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعِيٌُّّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾

﴿ذَلِكَ﴾ ذلك التِّبَّاءُ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ﴾ بعض ﴿النُّقَرَى﴾ أنباء بعض القرى المهلكة ﴿نَقَضَهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك ﴿مِنْهَا﴾ من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾ باقٍ، كالزرع القائم على ساقه ﴿وَخَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثر، كالزرع المحصود. وهذه الجملة مستأنفة لا محل لها. وقيل: حال من الهاء في «نقضه». وليس بصحيح، إذ لا واو ولا ضمير.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن عرّضوها للهلاك بارتكاب ما يوجبها ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما قدرت أن تدفع عنهم ﴿إِلَهَتَهُمُ﴾ التي يذعون، يعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ شيئاً من بأس الله، هي حكاية حال ماضية. ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: عذابه. و«لَمَّا» منصوب بـ«مَا أَغْنَتْ». ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هلاك وتخسير. يقال: تبّ إذا خسر، وتبّبه غيره إذا أوقعه في الخسران.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ مرفوع المحلّ. أي: مثل ذلك الأخذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي: أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من القرى. وهي في الحقيقة لأهلها، لكنّها لما أقيمت مقامه أجريت عليها. وفائدة هذه الحال الإشعار بأنهم أخذوا الظلمهم، وإنذار كلّ ظالم ظلم نفسه أو غيره من وخامة العاقبة. ﴿إِنْ أَخَذَ إِلَيْمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه. وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما قصّ الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبها، أو إلى



ما نزل بالأمم الهالكة ﴿لَايَةً﴾ لعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يعتبر به عظمته، لعلمه بأن ما حاق بهم انموذج مما أعدَّ الله تعالى للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر به عن موجباته، لعلمه بأنَّها من إله مختار، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، فإنَّ من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم - كالفلاسفة - لم يقل بالفاعل المختار، وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكية اتفقت في تلك الأيام، لا لذنوب المهلكين بها. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وإن لم يذكر صريحاً لكن دلَّ عليه قوله: «عذاب الآخرة» وقوله: ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾، والتعير من الفعلية إلى الاسمية للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنَّ الثبات من شأنه لا محالة، وأنَّ الناس لا ينفكون عن هذا اليوم، فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمٌ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾<sup>(٢)</sup>. ومعنى الجمع له: الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: مشهود فيه أهل السماوات والأرضين بحيث لا يغيب عنه غائب، فاتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لا مشهوداً فيه، لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه عن سائر الأيام، فإنَّ سائرهما كذلك.

ثمَّ أخير سبحانه عن اليوم المشهود، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: ذلك اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة متناهية، على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل، من زمان حياتهم إلى المقدر، لا منتهاها، فإنه غير معدود.

(١) التنازعات: ٢٦.

(٢) التناهن: ٩.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي: اليوم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾<sup>(١)</sup>. والمراد بإتيانه إتيان هوله وشدائده، إذ لولا هذا التقدير لزم أن يكون الزمان ظرفاً لنفسه. أو المراد: يأتي الله، أي: أمره تعالى، كقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>.  
 وقرأ ابن كثير وعاصم وحزمة: يَأْتِ بحذف الياء، اجتزاءً عنها بالكسرة.  
 وانتصب الظرف بـ «أذكر» أو بقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعاة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بإذن الله تعالى، كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾<sup>(٣)</sup>. وهذا في موقف. وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> في موقف آخر، فإن ذلك اليوم يوم طويل له مواقف ومواقف، وفي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفون عن الكلام، فلا يؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم، وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم. أو المأذون فيه هي الجوابات الحقّة، والممنوع عنه - في قوله: «ولا يؤذن لهم» - هي الأعذار الباطلة.

﴿فَعَبَّئَهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف. ولم يذكرها، لأن ذلك معلوم مدلول عليه بقوله: «لا تكلم نفس». أو للناس في قوله: «مجموع له الناس». ﴿شَقِيًّا﴾ وجبت له النار بإساءته ﴿وَسَعِيدًا﴾ وجبت له الجنة بإحسانه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النَّفْسِ ﴿وَشَهِيْقٌ﴾ وهو ردُّ النَّفْسِ. واستعمالهما في أوّل النهيق وآخره. والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغتهم، وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحبس فيه روحه،

(١) يوسف: ١٠٧.

(٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) النبأ: ٣٨.

(٤) المرسلات: ٣٥-٣٦.

أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ليس ذلك لارتباط دوامهم في النار بدوامهما، فإن النصوص القاطعة دالة على تأييد دوامهم وعلى انقطاع دوامهما. فالمراد منه التعبير عن التأييد والمبالغة بما كان العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، كما قالوا: هو دائم ومؤبد ما دام جبل قيس باقياً، وما أقام ثبير، وما لاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأييد عندهم، ومعلوم أنها فانية. وعلى تقدير الارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السماوات والأرض زوال عذابهم، ولا من دوامه دوامهما، إلا من قبيل مفهوم المخالف، ودلالة المفهوم ليست بحجة على المذهب الصحيح. وعلى تقدير حججه لا يقاوم المنطوق الصريح القاطع الدال على التأييد المؤبد، وعدم الانقطاع.

أو المراد سماوات الآخرة وأرضها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي بَدَّلْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾<sup>(١)</sup>. وهما مخلوقتان للأبد. وأيضاً لا بد لأهل الآخرة من مظل ومقل. وكل ما علاك وأظلك سماء. وكل ما أقلك أرض. وهذا القول مرجوح، من حيث إنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلائق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب، فكيف يجوز له التشبيه، إذ لا بد من وجود الشبه فيه؟

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم - وهم فساق الموحدين - يخرجون منها، وذلك كافٍ في صحة الاستثناء، لأن زوال الحكم عن الكل يكفي زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني. فإنهم سفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأييد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعضيائهم فقد سعدوا بإيمانهم.

وهذا مروى عن ابن عباس . وجابر بن عبدالله . وأبي سعيد الخدري ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وجمع من المفسرين .

إن قيل : فعلى هذا لم يكن قوله : «فمنهم شقي وسعيد» تقسيماً صحيحاً ، لأن شرط التقسيم أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه .

قلنا : ذلك الشرط من حيث التقسيم ، لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع ، وهاهنا المراد مانع الخلو ، فإن المعنى المراد : أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين . وحالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة . وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين .

وقيل : الاستثناء من الخلود باعتبار أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ، بل يعدّون بالزمهرير ، وبأنواع آخر من العذاب سوى عذاب النار ، وبما هو أغلظ منها كلها ، وهو سخط الله عليهم وخسئته لهم وإهانتة إياهم ، كما أن أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا منهم ، وهو رضوان الله ، كما قال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ﴾<sup>(١)</sup> . فلهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو . فهو المراد من الاستثناء . والدليل عليه قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ بِمَا يُرِيدُ﴾ أي : إنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب المخلد . كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ بطاعات الله ، وانتهائهم عن المعاصي ﴿فَفي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ غير مقطوع . وهو تصريح بأن الثواب لا يتقطع .

وقيل : «إلا» بمعنى : سوى . كقولك : علي ألف إلا الألفين القديمين . والمعنى :

سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السماوات والأرض .  
 وقرأ حمزة وحفص : سَعِدُوا على البناء للمفعول . من : سَعَدَهُ اللهُ تعالى ،  
 بمعنى : أسعده . و«عطاء» نصب على المصدر المؤكّد ، أي : أعطوا عطاءً ، أو الحال  
 من «الجنة» ، فإنّه مفعول بواسطة .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ  
 قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

ولمّا قصّ سبحانه قصص الكفّار ، وما أحلّ بهم من نقمه ، وما أعدّ لهم من  
 عذابه ، قال تسلية لرسوله ، وعدة بالانتقام منهم ، ووعيداً لهم : ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾  
 شكّ بعد ما أنزل إليك من مآل الناس ، من الشقاوة والسعادة ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ «ما»  
 مصدرية ، أي : من عبادة هؤلاء المشركين ، في أنّها ضلال مؤدّ إلى مثل ما حلّ بمن  
 قبلهم ممّن قصصنا عليك سوء عاقبة عبادتهم . أو موصولة ، أي : من حال ما يعبدونه  
 في أنّه يضرّ ولا ينفع .

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ استئناف ، معناه : تعليل النهي عن  
 المرية ، أي : هم وآباؤهم سواء في الشُّرك . ما يعبدون إلّا كعبادة آبائهم ، على تقدير  
 المصدرية . أو ما يعبدون شيئاً إلّا مثل ما عبده من الأوثان ، على تقدير الموصولة .  
 وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك ، فسيلحقهم مثله ، لأنّ التماثل في الأسباب -  
 وهي عبادة الأوثان هنا - يقتضي التماثل في المسببات ، وهي العقوبات . ومعنى  
 «كما يعبد» : كما كان يعبد ، فحذف لدلالة «مِنْ قَبْلُ» عليه .

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم من العذاب كما وقينا آباءهم . أو من  
 الرزق ، فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبّه . ﴿غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ حال  
 من النصيب ، لإفادة معنى التوفية حقيقة ، ورفع توهم المعنى المجازي ، فإنّك تقول :

وقيته حقه، وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ  
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوقينَهُمْ رَبُّكَ  
أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

ثم بين أن تكذيب هؤلاء الكفار بالذي آتيناك، كتكذيب أولئك بالكتاب  
الذي آتينا موسى، فقال: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم  
وكفر به قوم، كما اختلف هؤلاء في القرآن.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: كلمة إنظار العذاب إلى يوم القيامة  
﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى، أو بين قومك، بإنزال ما يستحقه المبطل ليمتيز به  
عن المحق ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع  
في الريبة.

﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ التنوين عوض المضاف إليه، أي: وإن كلَّ المختلفين فيه،  
المؤمنين منهم والكافرين. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف<sup>(١)</sup> مع الإعمال،  
اعتباراً للأصل. ﴿لَمَا لِيَوقينَهُمْ﴾ ربههم ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام في «لما» موطئة  
للقسم، والثانية للتأكيد، أو بالعكس. و«ما» مزيدة بين اللامين للفصل. والمعنى:  
وإن جميعهم والله لِيَوقينَهُمْ ربك جزاء أعمالهم، من حسن وقبح، وإيمان وكفر.

وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة: لَمَا بالتشديد، على أن أصله: لمن ما، فقلبت  
النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميّات، فحذفت أولاهن. والمعنى: لمن الذين

(١) أي: بتخفيف «إِنْ».

يُوفِينَهُمْ رَبَّكَ جزاء أعمالهم.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

ولما بين أمر المختلفين في التوحيد والنسبة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد، أمر رسوله بالاستقامة مثل ما أمر بها، فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: فاستقم مثل الاستقامة التي أمرت بها. على جادة الحق، غير عادل عنها.

وهذه الاستقامة شاملة للاستقامة في العقائد، كالتوسط بين التشبيه والتعطيل، بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، وفي الأعمال، من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات، من غير إفراط وتفریط مفوّت للحقوق ونحوها. وهي في غاية العسر، ولذلك قال ﷺ: «شيبتي سورة هود»، كما نقل عن ابن عباس أنه قال: ما نزلت آية كانت أشدّ ولا أشقّ على رسول الله ﷺ من هذه الآية. ولهذا قال: «شيبتي سورة هود والواقعة وأخواتهما».

وروي أنّ بعض أصحابه قال: «قد أسرع فيك الشيب». فقال: شيبتي سورة هود. فقال: ما الذي شيبك منها، أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: لا، ولكن قوله: «فاستقم كما أمرت».

وعن الصادق عليه السلام: «فاستقم كما أمرت» معناه: افتقر إلى الله بصحة العزم<sup>(١)</sup>. ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ عطف على المستكن في «استقم» وإن لم يؤكّد بمنفصل، لقيام الفاصل مقامه. والمعنى: فاستقم أنت ليستقم من تاب من الشرك

والكفر وآمن معك .

﴿وَلَا تَطْفَؤْا﴾ ولا تخرجوا عما حد لكم من حدود الله ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه . وهو في معنى التعليل للأمر والنهي .

وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف ، بنحو قياس واستحسان .

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمِمَّا كُنتُمْ لَكُمْ مِنَ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرَافِعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ  
الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا  
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

ثم نهى الله سبحانه عن المداهنة في الدين والميل إلى الظالمين . فقال : ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا إلى الذين وجد منهم الظلم ادنى ميل ، فإن الركون هو الميل اليسير ، كالتزيي بزيتهم ، وتعظيم ذكرهم ، وكذا الرضا بفعالهم ، ومصاحبتهم ومداهنتهم ، ومد العين إلى زهرتهم ﴿فَقَفَّسْكُمْ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم . وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين - أي : الموسومين بالظلم - ثم بالميل إليهم كل الميل . ثم بالظلم نفسه ، والانهماك فيه ؟!

وقال سفيان : في جهنم وإد لا يسلكها إلا القراء الزائرون للسلوك . وعن الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً . وعن محمد بن مسلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء .



وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه».

وقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء؟ قال: لا. فقيل: يموت؟ فقال: دعه يموت.

والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عن الاستقامة بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفریط.

﴿وَمَا تَكْتُمُ مِنْ نُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم. والواو للحال من قوله: «فتمسككم النار» أي: فتمسككم النار وأنتم على هذه الحال. ﴿فَمَنْ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أي: ثم لا ينصركم الله، إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم. و«ثم» لاستبعاد نصره إياهم. وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجه لهم.

قال في المجمع: «الركون إلى الظالمين المنهي عنه هو الدخول معهم في ظلمهم، وإظهار الرضا بفعالهم، أو إظهار موالاتهم. فأما الدخول عليهم أو مخالطتهم ومعاشرتهم دفعا لشركهم فجائز. وقريب منه ما روي عن أئمتنا عليهم السلام»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غدوة وعشيّة. وانتصابه على الظرف، لأنه مضاف إلى النهار. كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره. ﴿وَوُزْنًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من: أزلفه إذا قربه. وهو جمع زلقة.

وصلاة الغداة صلاة الصبح، لأنها أقرب الصلوات من أول النهار. وصلاة العشيّة العصر. وقيل: المغرب. وقيل: الظهر والعصر. لأن ما بعد الزوال عشيّ.

وصلاة الزلف: العشاء الآخرة. وقيل: صلاة طرفي النهار: الغداة والظهر والعصر. وصلاة زلف الليل: المغرب والعشاء الآخرة.

وعن رسول الله ﷺ: «المغرب والعشاء زلفتا الليل».

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَهِبْنَ السُّيُئَاتِ﴾ يكفرنها. قال أكثر المفسرين: إن الصلوات

الخمسة تكفر ما بينها من الذنوب، لأن الحسنات معروفة باللام. وقد تقدم ذكر الصلوات.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: «فاستقم» وما بعده. وقيل: إلى القرآن. ﴿يُخْزِي

لِلذَّاكِرِينَ﴾ عظة للمتعظين.

قيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، كان يبيع التمر، فأته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر. فذهبت إلى بيته، فضمتها إلى نفسه وقبلها. فقالت له: اتق الله. فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل. فقال: أنتظر أمر ربي. فلما صلى صلاة العصر نزلت هذه الآية. فقال: نعم، اذهب فإنها كفارة لما عملت.

وروى الواحدي بإسناده عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان، قال: «كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصناً يابساً منها فهزّه حتى تحات ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطايا كما يتحات هذا الورق، ثم قرأ هذه الآية: «وأقم الصلاة» إلى آخرها»<sup>(١)</sup>.

وإسناده عن أبي أمامة قال: «بينما رسول الله ﷺ في المسجد ونحن قعود معه إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدّاً فأقمه. فقال: هل شهدت

الصلاة معنا؟ قال: نعم، يا رسول الله. قال: فإن الله قد غفر لك حدك، أو قال: ذنبك»<sup>(١)</sup>.

وبإسناده عن الحارث، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله في المسجد ننتظر الصلاة، فقام رجل فقال: يا رسول الله إنني أصبت ذنباً، فأعرض عنه. فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قام الرجل فأعاد القول. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة وأحسنتم لها الطهور؟ قال: بلى. قال: فإنها كفارة ذنبك»<sup>(٢)</sup>.

وروا عن أبي حمزة الثمالي قال: «سمعت أحدهما رضي الله عنه يقول: إن علياً رضي الله عنه أقبل على الناس فقال: أي آية في كتاب الله أرجى عندكم؟

فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٣)</sup>.

فقال: حسنة، وليست إياها.

وقال بعضهم: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾<sup>(٤)</sup>.

قال: حسنة، وليست إياها.

وقال بعضهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٥)</sup> الآية.

فقال: حسنة، وليست إياها.

وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِنَّا فَعَلْنَا فَأَوْسًا أَوْ ظَلْمًا﴾<sup>(٦)</sup> الآية.

قال: حسنة، وليست إياها.

(١) الوسيط ٢: ٥٩٤ - ٥٩٥.

(٢) الوسيط ٢: ٥٩٥.

(٣) (٥، ٣) النساء: ٤٨ و ١١٠.

(٤) الزمر: ٥٣.

(٥) آل عمران: ١٣٥.

قال: ثم أحجم<sup>(١)</sup> الناس. فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: لا والله ما عندنا شيء.

قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ». وقرأ الآية كلها. يا علي، والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه، لم ينفتل<sup>(٢)</sup> وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك، حتى عدّ الصلوات الخمس.

ثم قال: يا علي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهج جارٍ على باب أحدكم، فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن<sup>(٣)</sup>، ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكان يبقى في جسده درن؟! فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي». وقيل: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» معناه: أن الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيئات، فكأنها تذهب بها.

وقيل: إن المراد بالحسنات التوبة، فإنها تذهب السيئات، بأن تسقط عقابها، لأنه لا خلاف في أن العقاب يسقط عند التوبة.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أُمَّرًا مَفْضُوبِينَ﴾ عدول عن المضر ليكون كالبرهان على المقصود - والذي هو الأمر بالصبر - ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان دائماً.

وهذه الآيات اشتملت على الاستقامة، وإقامة الصلوات، والانتهاز عن الطغيان، وعن الركون إلى الظلمة، وغير ذلك من الحسنات.

(١) أي: كثروا وامتنعوا.

(٢) أي: لم ينصرف.

(٣) الدرّن: الوسخ.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفُسَادِ  
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ  
 وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا  
 مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

ولما ذكر سبحانه إهلاك الأمم الماضية والقرون الخالية، عطف ذلك بأنهم اتوا  
 في هلاكهم من قبل نفوسهم، ولو كان فيهم مؤمنون يأمرن بالصلاح وينهون عن  
 الفساد لما استاصلناهم رحمة منّا، ولكنهم لما عثم الكفر استحقوا عذاب  
 الاستئصال، فقال بياناً لذلك: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي: فهلا كان. وقد حكوا عن الخليل  
 كل «لولا» في القرآن لمعناها: هلا. إلا التي في الصافات<sup>(١)</sup>، ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارِكَهُ نِعْمَةٌ  
 مِنْ رَبِّهِ لَفَنَدَبَ بِالْعُرَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدَّتْ  
 تَزَكَّى﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ من الرأي والعقل، أو أولوا فضل وخير.  
 وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما يخرج منه وأجوده، فصار مثلاً في  
 الفضل والجودة، ومنه يقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم. ويجوز أن  
 يكون مصدراً بمعنى القوى، كالتيقنة بمعنى التقوى، أي: ذوو بقاء على أنفسهم

(١) الصافات: ٥٧.

(٢) القلم: ٤٩.

(٣) الفتح: ٢٥.

(٤) الإسراء: ٧٤.

وصيانة لها من العذاب.

﴿يَذْهَبُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم، لأنهم كانوا كذلك. ولا يصح اتصال «إلا» إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ عطف على مضر دل عليه الكلام، إذ المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات، واهتموا بتحصيل أسبابها، وأعرضوا عما وراء ذلك ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ عطف على «اتبع» أو اعتراض. ومعنى «مجرمين»: كافرين. كأنه أراد أن يبين ما كان سبباً لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم، واتباعهم للهوى، وترك النهي عن المنكرات، مع الكفر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما صح وما استقام ﴿بِيُنْهَى الْقَرْيَ بِظُلْمٍ﴾ اللام لتأكيد النفي. والظلم بمعنى الشرك، أي: لا يصح في حكمته أن يهلك أهل القرى بسبب شركهم ﴿وَأَهْلُهَا مُضِلُّونَ﴾ يتعاطون الحق فيما بينهم، ولا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «وأهلها مصلحون» أي: أنصف بعضهم بعضاً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه، ومن ذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حق العباد. وقيل: الملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم.

وقيل: معناه: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منه، ولكن إنما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقيل: المعنى لا يؤاخذهم بظلم واحد مع أن أكثرهم مصلحون، ولكن إذا عم الفساد وظلم الأكثرون عذبهم.

﴿ ١١٨ ﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿ ١١٨ ﴾  
 إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّةٍ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ  
 وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ ١١٩ ﴾ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّيْتُ بِهِ  
 فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٢٠ ﴾ وَقُلِ لِلَّذِينَ  
 لَا يُؤْمِنُونَ ااعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿ ١٢١ ﴾ وَأَنْتَظِرُونَ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ  
 ﴿ ١٢٢ ﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ  
 عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢٣ ﴾

ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً  
 وَاحِدَةً ﴾ لا اضطر الناس وقسهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة. أي: ملّة واحدة،  
 وهي ملّة الاسلام. كقوله: ﴿ إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾<sup>(١)</sup>. وذلك بأن يخلق في  
 قلوبهم العلم بأنهم لو راموا غير ذلك لمنعوا منه. ولكن ذلك ينافي التكليف، ويبتل  
 الغرض بالتكليف. لأن الغرض استحقاق الثواب، والإلجاء يمنع من استحقاق  
 الثواب، فلذلك لم يشأ الله ذلك، بل مكّنه من الاختيار الذي هو أساس التكليف،  
 ليستحقوا الثواب، فاختر بعضهم الحق وبعضهم الباطل.

﴿ وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ أي: في الأديان، يهودي ونصراني ومجوسي وغير  
 ذلك ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أي: إلا ناساً من المؤمنين، فإنه سبحانه هداهم ولطف بهم،

فاتَّفَقوا على ما هو أصول دين الحق، غير مختلفين فيه. والمعنى: ولا يزالون مختلفين بالباطل إلا من رحم الله بفعل اللطف لهم، وهم الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بجميع أنبيائه ورسله وكتبه، فإن من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل.

﴿وَلِذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلَّ عليه الكلام الأول. يعني: ولذلك التمكن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ليُشِيبَ الَّذِي يَخْتَارُ الْحَقَّ بِحَسَنِ اخْتِيَارِهِ، ويعاقب من يختار الباطل بسوء اختياره.

أو إشارة إلى الرحمة في قوله: «رحم ربك». وعدم تأنيث اسم الإشارة باعتبار معناه، وهو الفضل والإنعام والإحسان، كقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾<sup>(١)</sup> بتذكير الخبر باعتبار معناه.

وقيل: إشارة إلى الاختلاف، واللام للمعاقبة. يريد: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ وَعَلِمَ أَنَّ عَاقِبَتَهُمْ تَوَلَّى إِلَى الْاِخْتِلَافِ الْمَذْمُومِ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾<sup>(٢)</sup>.

أو إشارة إلى اجتماعهم على الإيمان، وكونهم فيه أمة واحدة، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيده، أو قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ من عصاتهما ﴿اجْفَعِينَ﴾ لعلمه بكثرة من يختار الباطل. ومعنى «تمت»: وقع مخبرها على ما أخبر به، أو وجب قول ربك، أو مضى حكم ربك.

﴿وَكَلَّمَ﴾ وكلَّ نَبَأٌ ﴿نَقَّضَ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَازِكٌ﴾ بيان «كلًا» أو بدل منه. وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص، وهو زيادة يقينه. وطمأنينة قلبه، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار. فإن تكاثر الأدلة أثبت للقلب، وأرسخ للعلم، أو مفعول، و«كلًا» منصوب

(١) (٢، ١) الأعراف: ٥٦ و ١٧٩.

(٢) (٣) الذاريات: ٥٦.



على المصدر. بمعنى: كل نوع من أنواع الاقتصاد نقص عليك ما نتبت به فؤادك من أنباء الرسل.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة، أو الأنباء المقتصة عليك بالأساليب المختلفة ﴿الْحَقُّ﴾ أي: ما هو حق وصدق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ﴾ وتذكرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اغْفُلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها. مثل قوله: ﴿اغْفُلُوا مَا شِئْتُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على حالنا مما أمرنا الله به. ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما قصص الله من النقم النازلة على أمثالكم.

﴿وَبِهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة، لا يخفى عليه خافية مما فيهما، فلا يخفى عليه أعمالكم.

وما نقل عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ورواه<sup>(٢)</sup> عنه الخاص والعام من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها، وكذا ما نقل عن أولاده المعصومين عليهم السلام من الأمور الغيبية، فهو متلقى عن النبي صلى الله عليه وآله مما أطلع الله عليه. فلا معنى لنسبة من روى عنهم هذه الأخبار المشهورة إلى أنه يعتقد كونهم عالمين بالغيب، كما اعترض ذلك بعض المخالفين على الشيعة الإمامية عناداً وتعصباً وعداوة. وهل هذا إلا سبب قبيح وتضليل لهم، بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذهب خبير؟ والله يحكم بينه وبينهم وإليه المصير. كما قال: ﴿وَالنَّبِيُّ﴾ وإلى حكمه ﴿يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه، فينتقم لك منهم.

(١) فصلت: ٤٠.

(٢) انظر الأحاديث الغيبية ٢: ١٢٩ وبعدها.

وقرأ نافع وحفص: يرجع على البناء للمفعول.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك أمرهم وناصرك عليهم. وفي تقديم الأمر بالمادة على التوكّل تنبيه على أنّ التوكّل إنّما ينفع العابد. ﴿وَمَا زُكِّبَ بِقَائِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم، فيجازي ما تستحقّه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص هنا وفي آخر النمل بالياء.

روي عن كعب الأحبار أنّه قال: خاتمة التوراة خاتمة هود.



## سورة يوسف

أيها مائة وإحدى عشرة آية بالاجماع. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هوّن الله تعالى عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً».

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله ﷺ قال: «من قرأ سورة يوسف في كل يوم أوفي كل ليلة، بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين. وقال: إنها كانت في التوراة مكتوبة».

وروى إسماعيل بن أبي زياد عن أبي عبدالله ﷺ عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، ولا تعلموهن سورة يوسف، وعلموهن المغزل وسورة التور».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن

كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

ولما ختم الله تعالى سورة هود بذكر قصص الرسل، افتتح هذه السورة بأن من تلك القصص قصة يوسف وإخوته، وأنها من أحسن القصص، فقال: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرُّخْفِ الْمُرْجِيمِ الرِّبْلِكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات السورة، وهي المراد بالكتاب، أي: تلك الآيات آيات السورة الظاهر أمرها في الإعجاز، أو الواضحة معانيها، أو المبيّنة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا، إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين: أسألوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف؟ فنزلت.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿فَرَأَانَا عَرَبِيًّا﴾ بدل من الهاء، أو حال. وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي «عربياً»، كما تقول: مررت بزيد رجلاً صالحاً، فإن «رجلاً» توطئة للحال، وهو «صالحاً». أو هو الحال، لأنه مصدر بمعنى مفعول، أي: مقروءاً، و«عربياً» صفة له، أو حال من الضمير في القرآن. أو حال بعد حال. وفي كل ذلك خلاف.

وسمى البعض قرأناً، لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض. وصار علماً للكل بغلبة الاسمية، كالنجم للثريا.

﴿تَعَلَّمْ تَعْقِلُونَ﴾ علة لإنزاله بهذه الصفة، أي: أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلفتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم، فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيهام.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أحسن الاقتصاص، لأنه اقتص على أبداع أسلوب وأعجب نظم. وهو مصدر، تقول: قصص الحديث يقصه قصصاً، كقولهم: شلّه يشلّه شللاً إذا طرده، أو «فعل» بمعنى مفعول، كالنقص والسلب، ونحوه التنبأ والخبر بمعنى: المنبأ والمخبر به، أي: أحسن ما يقص، لاشتماله على الحكم والآيات، والعبر والنكت، وسائر العجائب التي ليست في غيرها. واشتقاقه

من: قصّ أثره، إذا اتبعه، لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن إذا قرأه، لأنه يتلو - أي: يتبع - ما حفظ منه آية بعد آية.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ مصدرية، أي: بإيحاتنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ يعني: السورة. ويجوز أن يكون «هذا» مفعول «نقّص» على أن «أحسن القصص» نصب على المصدر.

ثم علّل لكونه موحى. فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ وإنّ الشان كنت ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل إيحاتنا هذه القصّة إليك ﴿لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ عنها، ولم تخطر ببالك، ولم تفرح سمعك قط. و«إن» هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ  
فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ  
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَسِّمُ نِعْمَةً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا  
أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

ثم ابتدأ بقصّة يوسف، فقال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ منصوب بتقدير: اذكر. أو بدل من «أحسن القصص» - إن جعل مفعولاً - بدل الاشتمال، لأنّ الوقت يشتمل على ما يقصّ فيه. ويوسف عبري، ولو كان عربياً لصرف.

﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. وعن النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

﴿يَا أَبَتِ﴾ أصله: يا أبي. فعوض عن الياء تاء التأنيث، لتناسبها في الزيادة. ولذلك قلبها هاءً في الوقف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. وكسرها، لأنها عوض حرف يناسب الكسرة. إلا ابن عامر فإنه فتحها في كل القرآن، لأنها حركة أصلها، أو لأنه كان: يا أبنا، فحذف الألف وبقي الفتحة. وإنما جاز: يا أبنا، ولم يجز: يا أبتي، لأنه جمع بين العوض والمعوّض. وإنما لم تسكن التاء كأصلها، وهو: يا أبي، لأنّ التاء حرف صحيح نزل منزلة الاسم، فيجب تحريكها، ككاف الخطاب.

﴿إِنِّي زَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية، لقوله: «لا تقصص رؤياك»، وقوله: «هذا تأويل رؤياي». ﴿أَخَذَ عَشْرَ كَوْكَبَاتٍ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

روي عن جابر أنّ يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت، فنزل جبرئيل فأخبره بذلك. فقال: إن أخبرتك فهل تسلم؟ قال: نعم. قال ﷺ: جريان، والطارق، والذّيال، وقابس، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، والفرغ، ووثاب، وذو الكتفين، رآها يوسف ﷺ. والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له. فقال اليهودي: إي والله إنّها لأسماؤها».

وعن ابن عباس: أنّ يوسف رأى في المنام ليلة الجمعة ليلة القدر أحد عشر كوكباً نزلن من السماء فسجدن له، ورأى الشمس والقمر نزلتا من السماء فسجدتا له، فالشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته الأحد عشر.

وقيل: الشمس أبوه، والقمر خالته، وذلك أنّ أمّه راحيل قد ماتت.

ويجوز أن يكون الواو في «والقمر والشمس» بمعنى «مع» أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر. وأخر الشمس والقمر ليعطفها على الكواكب على طريق الاختصاص، بياناً لفضلها واستبادهما بالمزية على غيرها من الطوالع،

كما أحرّ جبرئيل وميكائيل عن الملائكة ثم عطفهما عليها لذلك .  
 وقوله: ﴿ زَانِيَتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم التي رأهم عليها -  
 على تقدير سؤال - وقع جواباً، كأنه قال له يعقوب: كيف رأيتها؟ فقال: رأيتهم لي  
 ساجدين، فلا تكرير. وإنما أجزيت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم.  
 عن وهب: أن يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصاً طوالاً  
 كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، فإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها  
 وغلبتها. فوصف ذلك لأبيه، فقال: إيتاك أن تذكر هذا لإخوتك. ثم رأى وهو ابن  
 اثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصّها على أبيه. فقال له: لا  
 تقصّها عليهم، فيبغوا لك الغوائل.

وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة. وقيل: ثمانون.  
 وقال في الكشف<sup>(١)</sup> والأنوار<sup>(٢)</sup>: «إن يعقوب عليه السلام عرف دلالة الرؤيا على أن  
 يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، ويفوّقه على إخوته، وينعم  
 عليه بشرف الدارين، كما فعل بأبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغهم».

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير ابن، صغره للشفقة أو لصغر السن، لأنه كان ابن اثنتي  
 عشرة سنة. وقرأ حفص هاهنا وفي الصافات<sup>(٣)</sup> بفتح الياء. ﴿ لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلٰى  
 إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة.

قال في الأنوار: «الرؤيا كالرؤية، غير أنها مختصة بما يكون في النوم، ففرّق  
 بينهما بحرفي التأنيث، كالقربة والقريبى. وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق  
 المتخيّلة إلى الحس المشترك. والصادقة منها إنما تكون باتّصال النفس بالملكوت،

(١) الكشف ٢: ٤٤٤ .

(٢) أنوار التنزيل ٣: ١٢٧ .

(٣) الصافات: ١٠٢ .



وهي عالم المجردات، لما بينهما من التناسب، عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتصوّر بما فيها ممّا يليق بها من المعاني الحاصلة هناك. ثم إن المتخيّلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحسّ المشترك، فتصير مشاهدة. ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى، بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكليّة والجزئية، استغنت الرّؤيا عن التعبير، أي: وقع ما رآه بعينه، وإلا احتاجت إليه»<sup>(١)</sup>.

وإنما عدّي «كاد» باللام، وهو متعدّ بنفسه، لتضمّنه معنى فعل يتعدّى به، وهو: يحتالوا، ليفيد معنى الفعلين تأكيداً، ولذلك أكّد بالمصدر، وعلّل بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، لما فعل بآدم وحواء، فلا يألوا جهداً في تسويلهم، وإثارة الحسد فيهم، حتّى يحملهم على الكيد.

روى أبو حمزة الثمالي عن زين العابدين عليه السلام: «أنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق به، ويأكل هو وعياله منه، وأنّ سائلاً مؤمناً صوّماً اعتزّ<sup>(٢)</sup> ببابه عشية جمعة عند أوان إفطاره، وكان مجتازاً غريباً، فهتف على بابه واستطعمهم وهم يسمعون، فلم يصدّقوا قوله، فلما ينس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر، وشكا جوعه إلى الله تعالى، ويات طاوياً، وأصبح صائماً حامداً لله. ويات يعقوب وآل يعقوب بطاناً، وأصبحوا عندهم فضلة من طعامهم، فابتلاه الله سبحانه بيوسف عليه السلام، وأوحى إليه أن استعدّ لبلائي، وارض بقضائي، واصبر للمصائب. فرأى يوسف هذه الرّؤيا في تلك الليلة».

﴿وَمَذْلُكٌ﴾ أي: وكما اجتباك لمثل هذه الرّؤيا الدالّة على شرف وعزّ، وكمال نفس وكبرياء شأن ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنّبوة والملك، أو لأمر عظام. والاجتباء من: جيبت الشيء إذا حصلت له نفسك.

(١) أنوار التنزيل ٣: ١٢٧.

(٢) اعتزّ به: أتاه للمعروف من غير أن يسأل. والمعترّ: الفقير.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه الذي يفهم من «كذلك». لأنه يلزم أن يكون تعليم التعبير أيضاً سابقاً، فيلزم أن يعلم تعبير رؤياه قبل ذلك الوقت، وليس كذلك، لأن هذا التعليم في مستقبل الزمان، لقوله: ﴿وَنَحْنُ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ وَأَلْفَ مَوْءَاتٍ﴾. كآته قيل: وهو يعلمك.

﴿مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا. سُمي التعبير تأويلاً. لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في المنام. وسمى الرؤيا أحاديث، لأنها أحاديث تلك الرؤيا إن كانت صادقة. وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة. أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى، وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء. وهو اسم جمع للحديث، كأباطيل اسم جمع للباطل.

روي: أن يوسف أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها.

﴿وَيُتِمُّ بِعَفْوِكَ﴾ معنى إتمام النعمة: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، فجعلهم أنبياء وملوكاً، ثم نقلهم إلى نعيم الآخرة والدرجات العلى من الجنة ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد أهله ونسله، بأن يثبتهم على ملة الإسلام. ويشرفهم بمكانك، ويجعل فيهم النبوة. وأصل آل: أهل، بدليل أن تصغيره أهيل. إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، فيقال: آل النبي وآل الملك.

﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة. وقيل: على إبراهيم عليه السلام بالخلة والإنجاء من النار، وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم. وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. والقول الأخير قول أكثر المفسرين. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلك، أو من قبل هذا الوقت ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لـ «أبويك» ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

## لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمَسْئَلِينَ ﴿٧﴾

ثم أنشأ سبحانه في ذكر قصة يوسف، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي: في قصتهم ﴿آيَاتٌ﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، أو عبر وأعاجيب، أو علامات نبوتك ﴿لِلْمَسْئَلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم فأخبرهم بالصحة من غير سماع ولا قراءة كتاب.

والمراد بالإخوة بنو علّاته الأحد عشر. والعلات إخوة من أمهات شتى. وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، وهو أكبرهم. ولاوي، وزبالون، ويشخر، ودينه. وهذه السبعة كانوا من ليا بنت خالة يعقوب. تزوّجها أولاً، فلما توفيت تزوّج أختها راحيل. فولدت له بنيامين ويوسف. وقيل: جمع بينهما، ولم يكن الجمع محرماً حينئذ. وأربعة آخرون: جاد، ودان، ونفتالي، وأشر، من سرّيتين: زلفة وبلهة.

إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اَقْلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

ثم أخبر سبحانه عمّا قال إخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إياه، فقال: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ﴾ اللام للابتداء. وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. ﴿وَأَخُوهُ﴾ بنيامين. وتخصيصه بالاضافة لاختصاصه بالأخوة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ وحده لأن «أفعل من» لا يفرق فيه بين الواحد وما فوجه، والتذكير والتأنيث، بخلاف أخويه، فإنّ الفرق واجب في المحلّى باللام جائز في المضاف.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء، أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية للمهتات فيها. والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً. سحوا بذلك لأن الأمور تعصب بهم، أي: تشتد. ﴿إِنْ آتَانَا نَفِيًّ حَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عن طريق الحق والصواب، لتفضيله المفضل، أو لترك التعديل في المحبة.

روي أنه كان أحب إليه، لما يرى فيه من الخصال الحسنة الرضية. والخلال السنية المرضية، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فزاد حسدهم حتى حملهم على التعرض له.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله: «إذ قالوا»، كأنهم اتفقوا على ذلك إلا من قال: لا تقتلوا. وقيل: إنما قاله شمعون. وقيل: دان ورصي به الآخرون. ﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة مجهولة بعيدة عن الصمران. وهو معنى تنكيرها وإيهامها، ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى: يخلص لكم وجه أبيكم، فيقبل بكليته عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد. فذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. وقيل: «يَخُلْ» يفرغ لكم من الشغل بيوسف.

﴿وَتَكُونُوا﴾ جزم بالعطف على «يخل»، أو نصب بإضمار أن ﴿مِنْ بَغْدِهِ﴾ بعد يوسف، أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتهم. أو صالحين مع أبيكم، يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه. أو صالحين في أمر دنياكم، فإنه ينتظم لكم بعد يوسف بخلو وجه أبيكم.

واعلم أن أكثر المفسرين على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء. وقال بعضهم: لم يكونوا أنبياء. لأن الأنبياء لا تقع منهم القبائح. وهذا موافق لأصول مذهب الإمامية.

وقال علم الهدى عليه السلام: «لم تقم لنا الحجة بأن إخوة يوسف الذين فعلوا به ما فعلوا كانوا أنبياء. ولا يمتنع أن يكون الأسباط الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوة

الذين فعلوا بيوسف ما قصه الله عنهم. وليس في ظاهر الكتاب أن جميع إخوة يوسف وسائر الأسباط فعلوا بيوسف ما حكاه الله تعالى من الكيد. ويجوز أن يكون هؤلاء الإخوة في تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم، ولا توجه إليهم التكليف. وقد يقع متن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال، ويعاتب على ذلك ويلام ويضرب»<sup>(١)</sup>. وهذا الوجه قول البلخي والجبائي. ويدل عليه قوله: «يرتع ويلعب». وقوله: «وتكونوا من بعده قوماً صالحين» لا ينافي ذلك، فإن المراهق يجوز أن يعلم ذلك خاصة، خصوصاً إذا كان مرتباً في حجر الأنبياء ومن أولادهم.

وروى أبو جعفر بن بابويه عليه السلام في كتاب النبوة بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن حنان بن سدير، قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام أكان أولاد يعقوب أنبياء؟ فقال: لا، ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء. ولم يارقوا الدنيا إلا سعداء، تابوا وتذكروا ما صنعوا». وقال الحسن: كانوا رجالاً بالفين، ووقعت ذلك منهم صغيرة.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

ثم أخبر سبحانه عن واحد من جملتهم بقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من إخوة يوسف. وهو يهوذا. وكان أحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال: ﴿فَلْنُ أَنْزِخَ الْأَرْضَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. وقيل: روبيل، وهو ابن خالة يوسف. وقيل: لاوي. رواه علي بن إبراهيم<sup>(٣)</sup> في تفسيره. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن القتل أمر عظيم ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ﴾ في قعره. سمي به لغيوبته عن عين الناظر. وقرأ نافع غيابات في الموضعين

(١) تنزيه الأنبياء: ٤٣ - ٤٤.

(٢) يوسف: ٨٠.

(٣) تفسير القمي: ١: ٣٤٠.

على الجمع . كأنه لتلك الجبّ غيابات ، أي : اسافل . والجبّ البئر التي لم تطو . لأنّ الأرض تجبّ جبّاً . أي : تقطع . ﴿يَلْقِطُهُ﴾ يأخذه ﴿بِفِضِّ السَّيِّئَةِ﴾ بعض الذين يسيرون في الأرض ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمشورتي . أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم . وهو التفريق بينه وبين أبيه . فإنّ هذا رأيي .

واختلف في ذلك الجبّ ، فقال قتادة : هو بئر بيت القدس . وعن كعب : بئر بين مدين ومصر . وعن وهب : بئر بأرض الأردن . وقال مقاتل : بئر على رأس ثلاث فراسخ من منزل يعقوب .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾  
 أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِئُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ عِنْدَ اتِّفَاقِ آرَائِهِمْ فِيمَا تَأَمَّرُوا فِيهِ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ، كَيْفَ سَأَلُوا أَبَاهُمْ، فَقَالَ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لِمَ تَخَافُنَا عَلَيْهِ؟ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ مخلصون في إرادة الخير له والشفقة عليه، وفي هذا دلالة على أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَأْبَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْسَلَهُ مَعَهُمْ، لظهور حسدهم ليوسف عليه، فأرادوا استنزاله عن رأيه وعاداته في حفظه منهم، لما تنسَم<sup>(١)</sup> من حسدهم، والمشهور «تأمتا» بالإدغام مع الإشمام. وعن نافع ترك الإشمام.

﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إِلَى الصَّحْرَاءِ ﴿فَنَزَعُ﴾ نَسَعُ فِي أَكْلِ الْفَوَاكِهَةِ وَنَحْوِهَا، مِنَ الرَّتَمَةِ، وَهِيَ الْخَصْبُ ﴿وَتَلْعَبُ﴾ بِالِاسْتِبَاقِ وَالِاتِّصَالِ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ، لَا لِمَجْرَدِ اللَّهْوِ، وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ لِعِبَادَتِهِ فِي صُورَتِهِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: نَرْتَعُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ: ارْتَعَى يَرْتَعِي، وَنَافِعٌ بِالْكَسْرِ وَالْيَاءِ فِيهِ وَفِي «تَلْعَبُ»، وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَيَعْقُوبُ بِالْيَاءِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ، عَلَى إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى يُوسُفَ. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَحَافِظُونَ﴾ أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لِشِدَّةِ مَفَارِقَتِهِ عَلَيْهِ، وَقَلَّةِ صَبْرِي عَنْهُ ﴿وَإِخَافُ﴾ عَلَيْهِ إِنْ ذَهَبْتُمْ بِهِ إِلَى الصَّحْرَاءِ ﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾ لِأَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ مَذَابِةً، وَقِيلَ: لِأَنَّ يَعْقُوبَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ يُوسُفَ قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ عَشْرَةَ أَذْوَابٍ لِيَقْتُلُوهُ، وَإِذَا ذُئِبَ يَحْمِي عَنْهُ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ انشَقَّتْ فَدَخَلَ فِيهَا يُوسُفَ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَقَدْ هَمَزَهَا عَلَى الْأَصْلِ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ فِي رِوَايَةِ الْبُزْجِيِّ، وَأَبُو عَمْرٍو دَرَجًا وَوَقْفًا، وَعَاصِمٌ وَحَمْزَةً دَرَجًا، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ: تَذَابَّتْ الرِّيحُ إِذَا هَبَّتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. ﴿وَإِنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لِاسْتِغْثَالِكُمْ بِالرَّتَعِ وَاللَّعْبِ، أَوْ لِقَلَّةِ اِهْتِمَامِكُمْ بِحِفْظِهِ.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللَّامُ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَجَوَابُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا

(١) تنسَم فلانُ الخبر: تَلَطَّفَ فِي التَّمَاهِ شَيْئًا فَنَشِينًا.

لَخَاسِرُونَ ﴿ ضفء عجزة مغبونون، كالذين تذهب عنهم رؤوس أموالهم. أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار. والواو في «ونحن» للحال.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وعزموا على إلقائه فيها. وجواب «لَمَّا» محذوف، مثل: فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي أنهم لَمَّا برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة، وأخذوا يؤذونه ويضربونه، وكلما استفتت بواحد منهم لم يفتنه إلا بالإهانة والضرب، حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا ابتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء. فقال يهوذا: أما أعطيتموني موتاً ألا تقتلوه؟ فلَمَّا أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بشياهم، فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه. فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتواري به. وإنما نزعه ليلطخوه بالدم، ويحتالوا به على أبيهم. فقالوا له: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يلبسوك ويؤنسوك. ودلوه في البئر، فلَمَّا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة، فقام عليها وهو يبكي. فنادوه، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام.

وقيل: إن الجب أضاء له وعذب ماؤه حتى أغناه عن الطعام والشراب. وعن مقاتل: كان الماء كدرأً فصفا وعذب، ووكل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه.

ويروى أن إبراهيم صلوات الله عليه حين ألقى في النار جرد عن ثيابه، فأتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيممة<sup>(١)</sup> علقها في عنق يوسف، فجاءه جبرئيل فألبسه إياه، وهو القميص الذي وجد يعقوب ريح يوسف فيه. وأوحى إليه كما قال عز:

(١) التيممة: خُرزة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفن الأرواح.



اسمه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة. وقيل: كان مراهقاً أوحى إليه في صغره. كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام ﴿لَقَدْ نَبَّأْنَاهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ لتحدثتهم بما فعلوا بك بعد أن تتخلص مما أنت فيه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف، لعلوا شأنك، وكبرياء سلطانتك، وبعده عن أوهامهم، وطول العهد المغير للحلي والهيئات. وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه معتارين - أي: يشترون الغلّة - فعرفهم وهم له منكرون. فبشره جبرئيل عليه السلام في البشر بما يؤل إليه أمره إيناساً له وتطيباً لقلبه. وقيل: «وهم لا يشعرون» متصل بـ«أوحينا»، أي: أنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

وفي كتاب النبوة عن الحسن بن محبوب، عن الحسن بن عمارة. عن مسمع أبي سيار، عن الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا أَلْقَى إِخْوَةَ يُوسُفَ إِتَاهُ فِي الْجَبِّ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ فَقَالَ لَهُ: يَا غَلامَ مِنْ طَرَحِكَ؟

فقال: إخوتي. لمنزلي من أبي حسدوني، ولذلك طرحوني.

فقال: أتحب أن تخرج من هذا الجب؟

قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

فقال له جبرئيل: فَإِنَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ يَقُولُ لَكَ قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِدِيْعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ، أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَجْعَلَ مِنْ أَمْرِي فَرْجاً وَمَخْرَجاً، وَتَرْزُقَنِي مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ وَمِنْ حَيْثُ لَا أَحْتَسِبُ.

فقالها يوسف، فجعل الله له من الجب يومئذ فرجاً، ومن كيد المرأة مخرجاً، وأتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب».

وروى علي بن إبراهيم: «أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام قَالَ فِي الْجَبِّ: يَا إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ

وإسحاق ويعقوب، ارحم ضعفي وقلّة حيلتي وصغري»<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ آخر النهار ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين ليوهموه أنهم صادقون، وفيه دلالة على أنّ البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي في دعواه. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم؟ قالوا: لا قال: فما لكم وأين يوسف؟

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ تتسابق في العدو أو في الرمي. وقد يشترك الافتعال والتفاعل. كالانتضال والتناضل. ﴿وَمَرَّخْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ بمصدق لنا، لسوء ظنك بنا، وفرط محبتك ليوسف ﴿وَلَوْ كُنَّا ضَادِقِينَ﴾ من أهل الصدق والثقة عندك.

﴿وَجَاءُوا عَلَيَّ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: ذي كذب، بمعنى مكذوب فيه. ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة، كزيد عدل. و«على قميصه» في موضع النصب على الظرف، أي: فوق قميصه. أو على الحال من الدم إن جوّز تقديمها على المجرور.

روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا قميصه بدمها، وزلّ عنهم أن يمزّقوه، ولما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح وسأل قميصه، فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتّى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزّق عليه قميصه. ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: سهّلت لكم أنفسكم، وهوّنت في أعينكم أمراً عظيماً، من السؤل، وهو الاسترخاء. قيل: إنه كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حين قدّ من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتدّ بصيراً، وحين جاءوا عليه بدم كذب. ففتنّه يعقوب على أنّ الذنب لو أكله لخرق قميصه.

وقيل: لما قال لهم يعقوب ذلك قالوا: بل قتله اللصوص. فقال ﷺ: فكيف قتلوه وتركوا قميصه. وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله؟!  
 ﴿فَضَبْرُ جَمِيلٍ﴾ أي: فأمرني صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل أو أحسن أو أمثل أو أولى. وفي الحديث: «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق».  
 ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: بالله أستعين على دفع ما تصفونه، أو على احتمال ما تصفونه من هلاك يوسف.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ  
 وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ  
 مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ  
 أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي  
 الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه في الحب، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة يسرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الحب، وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من إلقائه فيه، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الحب في قفرو بعيدة من العمران، وإنما هو للرعاة، وكان ماؤه ملحاً فعذب ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾

الذي يرد الماء ويستقي لهم. وكان هو مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ دَلْوَةً﴾ فأرسلها في الجبِّ ليملأها، فتدلّى يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان ﴿قَالَ يَا بُشَيْرُ هَذَا غُلَامٌ﴾ نادى: البشري، بشارة لنفسه أو لقومه. كأنه قال للبشارة: تعالي فهذا أوانك، وقيل: هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين: يا بشراي بالإضافة.

قال النبي ﷺ: «أعطي يوسف شطر الحسن، والنصف الآخر لسائر الناس».

وقال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه جداً، جمع الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساقين والعضدين، خميص البطن، صغير السرّة. وكان إذا تبسّم رأيت النور في ضواحه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع النور يلتهب عن تناياه. وكان حسنه كضوء النهار عند الليل. كان يشبه خلق آدم ﷺ يوم خلقه الله ﷻ وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. ويقال: إنّه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

فلما رآه المدلي ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ أي: الوارد وأصحابه من سائر الرقعة. وقيل: أخفوا أمره، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس: الضمير لإخوة يوسف، وذلك أنّ يهوذا كان يأتيه كلّ يوم بالطعام، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها، فأخبر إخوته فأتوا الرقعة وأسروه، أي: كتموا أنّه أخوهم، فقالوا: هذا غلامنا أبقى منا، فاشتروه من إخوته، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه.

﴿بِضَاعَةٍ﴾ نصب على الحال، أي: أخفوه متاعاً للتجارة. واشتقاقه من البضع، بمعنى القطع، فإنّه ما بضع من المال للتجارة. ﴿وَأَنْتَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ بما يصنعون، لم يخف عليه أسرارهم، أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيه.

﴿وَشَرُوهُ﴾ أي: باعوه، أو اشتروه من إخوته. وفي مرجع الضمير الوجهان.

﴿بِشْمَنِ بَخْسٍ﴾ مبخوس، لزيغه أو نقصانه نقصاناً ظاهراً ﴿تَزَاهِمَ﴾ بدل من الثمن ﴿مَعْدُونَةً﴾ قليلة، فإنهم كانوا يزنون ما بلغ الأوقية، ويعدون ما دونها. قيل: كان عشرين درهماً. وقيل: اثنين وعشرين. وقيل: عشرة. فافتسموها درهمين درهمين.

﴿وَكَانُوا فِيهِ﴾ في يوسف ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الراغبين عنه. والضمير في «وكانوا» إن كان للإخوة فظاهر. وإن كان للرفقة وكانوا بائعين من العزيز، فزهدهم فيه لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به، خائف من انتزاعه. مستعجل في بيعه وإن كانوا مبتاعين من الإخوة، فلأنهم اعتقدوا أنه آبق. و«فيه» متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف. وإن جعل بمعنى «الذي» فهو متعلق بمحذوف يبيّنه «الزاهدين»، لأن متعلق الصلة لا يتقدّم على الموصول.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر. واسمه قطفير أو اطفير، والعزيز لقبه، ومن كان بمكانه يسمى بالعزيز. لعزته عند الناس، ولهذا لما عبّر يوسف رؤيا الملك سمي العزيز وجعل مكان العزيز. وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي، وقد آمن بيوسف حين شاهد منه المعجزات، ومات في حياته.

وقيل: كان فرعون موسى، عاش أربعمئة سنة، وكان إلى زمن موسى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾<sup>(١)</sup>.

والمشهور أن فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشر سنة، ولبت في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة.

واختلف فيما اشتراه به من جعل شراه غير الأول، فقيل: عشرون ديناراً، وزوجاً نعل، وثوبان أبيضان. وقيل: وزنه فضة. وقيل: ذهباً. وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه، فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ.

﴿لِمَرْأَتِهِ﴾ راعيل، ولقبها زليخا. وهي المشهورة. ﴿أَخْرَجِي مَثْوَاهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً، أي: حسناً مرضياً، والمعنى: أحسني تعهده حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا. روي: أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه، فمره وأمر زوجته بإكرامها له. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَفْقَعَنَا﴾ في ضياعنا وأمواننا، ونستظهر به في مصالحتنا ﴿أَوْ نَقْضَهُ وَوَدَا﴾ تبتناه، وكان عقيماً، لما تفرس فيه من الرشد.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما مكنا محبة يوسف في قلب العزيز، أو كما مكناه في منزله، أو كما أنجبناه وعطفنا عليه العزيز ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمر، تقديره: ليتصرف فيها بالمدل ولنعلمه، أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل، ويدبر أمور الناس، ويعلم كتاب الله وأحكامه فينقذها، أو يعبر المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل، كما فعله لسنوات القحط.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا يردّه شيء، ولا ينازعه فيما يشاء، أو على أمر يوسف، يعني: إخوة يوسف أرادوا به شيئاً، وأراد الله تعالى غيره، فلم يكن إلا ما أَرَادَهُ وَدَبَّرَهُ. ﴿وَلَيَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين. وقيل: سنّ الشباب، ومبدؤه بلوغ الحلم. وقيل: الأشدّ ثعاني

عشرة سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون. وقيل: أقصاه ثنتان وستون.  
 ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة. وهو العلم المؤيد بالعمل. أو حكماً بين الناس، أو النبوة.  
 ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني: علم تأويل الأحاديث، أو علم الشريعة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
 الْمُضْسِبِينَ﴾ تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاءً على إحسانه في عمله، وإتقائه  
 في عتفوان أمره. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شيبته، آتاه الله الحكمة في  
 اكتهاله.

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ  
 لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَازِي إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ  
 هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ  
 وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ  
 مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا  
 أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

ثم أخبر سبحانه عن امرأة العزيز وما هممت به. فقال: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي  
 بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبت منه وتمحلت<sup>(١)</sup> أن يواقعها، من: راد يروود إذا جاء وذهب  
 لطلب شيء، ومنه: الرائد. كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل  
 المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه

(١) تمحل الشيء: احتال في طلبه.

ويأخذه منه، وهي هاهنا عبارة عن التمثل لمواقفه إياها. وهذا الكلام أبلغ من: راودته امرأة العزيز أو زليخا، لاستهجان ذكر المرأة في المراودة.

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل: كانت سبعة. والتشديد للتكثير، أو للمبالغة في إيقافها. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: أقبل وبادر، أو تهيات. و«هيت» على الوجهين اسم فعل بني على الفتح، ك: أين. واللام للتبيين، كالتي في: سقياً لك، كأنه قال يوسف: لمن تهيات؟ فقالت: لك. وكذا في: سقياً.

وقرأ ابن كثير بضم التاء وفتح الهاء، تشبيهاً له بـ«حيث». ونافع وابن عامر برواية ابن ذكوان بفتح التاء وكسر الهاء من غير همز، ك: عيط صوت يصاح به الغنم. وهي لغة فيه. وهشام كذلك، إلا أنه يهمز. وقد روي عنه ضم التاء.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُ﴾ إِنَّ الشَّانَ ﴿زُبِّي﴾ سَيِّدِي قَطْفِيرِ ﴿أَحْسَنَ مَنَوَايَ﴾ أحسن تعهدي، إذ قال لك في: أكرمي مثواه، فليس جزاؤه أن أخونه في أهله. وقيل: الضمير لله تعالى، أي: أنه خالقي وأحسن منزلتي، بأن عطف عليّ قلب قطفير، فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المجازون الحسن بالسيء. وقيل: الزناة.

وفي هذه دلالة على أن يوسف لم يهَمَّ بالفاحشة ولم يردّها بقبیح، لأن من همَّ بالقبیح لا يقول مثل ذلك. فقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ معناه: قصدت مخالطته قصداً اختيارياً، فإن الهمَّ بالشيء قصده والعزم عليه. ومنه الهمَّ الذي إذا همَّ بشيء أمضاه. ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ ومال إلى مخالطتها ميلاً طبيعياً بشرياً غير اختياري، مع المنازعة إليها عن شهوة الشباب التي هي تحت القدرة والاختيار.

فالمراد بهمه إياها ميل الطبع البشري مع الامتناع عنه، لا القصد الاختياري والعزم على الفعل الذي هو ممّا يدخل تحت التكليف. والحقيق بالمدح الجميل والأجر الجزيل من الله الجليل من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم. ولولم



يكن ذلك الميل الشديد - المسمى هماً لشدة - لما كان صاحبه معدوحاً عند الله بالامتناع عنه، لأنَّ استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدة. ولو كان همة كهمة عن عزيمة اختيارية، لما مدحه الله بأنه من عباده الصالحين. أو المراد بهمة مشاركة الهم، كقولك: قتلتك لو لم أخف الله تعالى، تريد مشاركة القتل. أو من قبيل: هممت بفلان، أي: بضربه وإيقاع المكروه به. ومن حقَّ القارىء أن يقف على «ولقد هممت به» ويبتدىء قوله «وهم بها»، لاختلاف معنى الهمتين.

ولا يخفى على من له أدنى مسكة لو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لتعيت عليه، وذكرت توبته واستغفاره، كما نعت على آدم عليه السلام زلته، وهي ترك الأولى، وكذا على داود، وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون، وذكرت توبتهم واستغفارهم. كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصاً؟! فلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام الدحض<sup>(١)</sup>، وهو أنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحقَّ من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصادق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار.

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ في قبح الزنا وسوء عاقبته لخاطبتها، لشبق<sup>(٢)</sup> الغلظة وكثرة المبالغة منها، ولا يجوز أن يجعل «وهم بها» جواب «لولا»، فإنها في حكم أدوات الشرط، فلا يتقدم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدلُّ عليه قوله:

(١) المكان الدحض: إذا كان مرزلة لا تثبت عليها الأقدام.

(٢) أي: اشتداد الشهوة.

«وهمّ بها» كما عرفت.

﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف في محلّ النصب، أي: مثل ذلك التثبيت بثبناه، أو في محلّ الرفع، أي: الأمر مثل ذلك ﴿يَنْصُرِفُ عَنْهُ الشُّوْءُ﴾ خيانة السيد ﴿وَالْفَخْشَاءُ﴾ الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَطَاعَتِهِ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كلِّ القرآن إذا كان محلّى باللام، أي: الَّذِينَ أَخْلَصُوا دِينَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

فأخرى الله الحشوية والجبرية حيث أوردوا هذه الفصّة على وجه يؤدّي إلى أنّ يوسف صلوات الله عليه عزم على ارتكاب الزنا الذي هو أقيح القبائح وأفحش الفواحش، فقالوا: إنّه حلّ تكّة سراويله، وجلس من زليخا مجلس المجامع، وقد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسّروا البرهان بأنّه سمع صوتاً: إياك وإياها، فلم يكثرث، فسمعته تانياً فلم يعمل به، فسمع ثالثاً: أعرض عنها، فلم ينجع فيه، حتّى مثل له يعقوب عاصاً على أنملته، وضرب بيده في صدره، فخرجت شهوته من أنامله.

وقالوا: كلّ ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف، فإنّه ولد له أحد عشر ولداً، من أجل ما نقص من شهوته حين همّ.

وقالوا صيح بيوسف: لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له. وقالوا: بدت كفّ فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم، مكتوب فيها: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ يَكْرُمُا كَاتِبِينَ﴾<sup>(١)</sup> فلم ينصرف. ثم رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> فلم ينتبه. ثم رأى فيها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى

(١) الانطار: ١٠ - ١١.

(٢) الإسراء: ٣٢.

الله<sup>(١)</sup> فلم ينجح فيه. فقال الله لجبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة. فانحطَّ جبرئيل وهو يقول: يا يوسف أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟!

وقالوا: رأى تمثال العزيز.

وغير ذلك من الأقاويل الباطلة وتقولاتهم الحشوية. فياله من مذهب ما أفحشه! ومن ضلال ما أبينه! الذي يتضمَّن الجبر والقسر الذي يرتفع معه الاختيار الذي هو مناط التكليف، ويقتضي أن لا يستحقَّ على الامتناع من القبيح مدحاً ولا ثواباً. فلعنة الله عليهم، وعلى من يعتقد ممتقدهم، حتى قال قائل من قبلهم: إنَّ قوله: «ولقد همَّت به وهمَّ بها» خرجاً مخرجاً واحداً، فلمَّ جملتم هُمَّها به متعلقاً بالقبيح، وهُمَّها بها متعلقاً بغيره؟

قلنا: إنَّ من الظاهر أنَّ الظاهر لا يكون دليلاً وحجَّة إذا عارضه الدليل العقلي والنقلي. أمَّا النقلي على أنه ما همَّ بالفاحشة فقوله: ﴿تَذَلُّكَ لِنَضْرُوفِ عَذَّةِ السُّوءِ وَالْقَضَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله: ﴿قُلْنَا خَاشِ بِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾<sup>(٣)</sup>. ولا شبهة في أن العزم على الفاحشة من سوء. وأمَّا العقلي فلاَّه ﷺ نبيّ، والنبيّ لا بدَّ أن يكون معصوماً من جميع الصغائر والكبائر، والقبايح والفواحش، كما قرَّر في الكتب الكلامية بأوضح وجه.

﴿وَاسْتَبَقَا النَّبَاتِ﴾ أي: تسابعا إلى الباب. فحذف الجارّ، أو ضمَّن الفعل معنى الابتدار، فلا يحتاج إلى تقدير صلة. وذلك أنَّ يوسف ﷺ فرَّ منها ليخرج ويتخلَّص

(١) البقرة: ٢٨١.

(٢) يوسف: ٥٢.

(٣) يوسف: ٥١.

منها، وأسرعت وراءه لئلا تمنعه الخروج. روي عن كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش<sup>(١)</sup> القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الباب.

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ اجتذبت من وراءه فانقذ قميصه. والقذ الشق طولاً. والقط الشق عرضاً. ﴿ وَالْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ وصادفا زوجها ﴿ لَدَى الْبَابِ ﴾ عنده. وتسمية الزوج بالسيد لأنه مالك أمرها، أو لأن المرأة تقول لبعها: سيدي. وقيل: إنما لم يقل سيدهما لأن ملك يوسف لم يصح، فلم يكن سيِّداً له على الحقيقة.

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبهاماً بأنها فرّت منه، تبرئة لساحتها عند زوجها، وتغييره على يوسف، وإغراءه به انتقاماً منه. و«ما» نافية أو استفهامية. بمعنى: أي شيء جزاؤه إلا السجن؟ كما تقول: من في الدار إلا زيد؟ وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط ضرباً وجيعاً.

قَالَ هِيَ رَأَوْدَتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِي إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ  
 قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ ٢٦ ﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ  
 فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ  
 كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿ ٢٨ ﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ  
 إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿ ٢٩ ﴾

ولما عرضته له من السجن أو العذاب، وأغرته به، ووجب عليه دفع هذا

(١) فراش القفل: ما ينشب ويدخل فيه، سمي بذلك لرقته.

الضرر عن نفسه ﴿قَالَ﴾ لدفعه ﴿هِيَ زَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ طالبتني بالمؤاتاة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: ابن عمها، وكان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، وهو جالس مع زوجها عند الباب. وقيل: ابن خالها صبيّاً في المهد. وهذا أصح. ويؤيده ما روي عن النبي ﷺ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةَ صَغَارًا: ابْنُ مَاشِطَةَ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يَوْسُفَ، وَصَاحِبُ جَرِيحَ، وَعَيْسَى». وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها حجة، وأوتق دليلاً، وأنفى للتهمة عنه.

﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلِ فَضْدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقدت جيبه.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ نُجْرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطيّة محكيّة على إرادة القول، أو على أن فعل الشهادة من القول. كأنه قيل: وشهد شاهد فقال: إن كان قميصه. وتسميتها شهادة وإن لم يكن بلفظ الشهادة، ولم يكن مرتباً، لأنها أدت مؤداهما. والشرط وإن كان ماضياً ولكنه في تأويل المضارع، وهو: إن يعلم أنه كان. فجاز الجمع بين «إن» الذي هو للاستقبال وبين «كان». ونظيره قولك: إن أحسنت إليّ فقد أحسنت إليك من قبل، أي: وإن تمنن عليّ بإحسانك أمنن عليك بإحساني السابق.

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ نُجْرٍ﴾ وبه علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً»، أو إن السوء، أو إن هذا الأمر ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن. والخطاب لها ولأمثالها، أو لسائر النساء. ﴿إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ استعظم كيد النساء وإن كان في الرجال، لأن كيدهن أعلق بالقلب، وألطف به، وأشدّ تأثيراً في أنفس الرجال، فإن قليل حيل النساء أسبق إلى

قلوب الرجال من كثير حيل الرجال، ولأنهن يواجهن به الرجال، والشيطان يوسوس به مسارقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾<sup>(١)</sup>. وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر من أن أخاف من الشيطان، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾<sup>(٢)</sup>. وقال للنساء: «إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ».

﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء، لقربه وتفظنه للحديث ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ اكتمه ولا تحدث به ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يا راعيل ﴿إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المتعمدين الذنب. يقال: خطيء إذا أذنب متعمداً. والتذكير للتغليب. قيل: إن قطفيراً لم يكن غيوراً، سلبه الله الغيرة لطفاً منه بيوسف، حتى كفى شره. ولذلك قال ليوسف: «أعرض عن هذا» واقتصر على هذا القدر.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُنَّ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

(١) الفلق: ٤.

(٢) النساء: ٧٦.

رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ  
إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ  
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّى

حِينَ ﴿٢٥﴾

ثم ذكر سبحانه شياع هذه القصة، فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة لا جمع، من قبيل القوم والرهب للرجال. وتأتيه بهذا الاعتبار غير حقيقي، ولذلك جرد فعله عن التاء. ﴿فِي الْغَدِيَّةِ﴾ ظرف لـ«قال»، أي: أشعن الحكاية في مصر. أو صفة لـ«نسوة» أي: نسوة كاتبة في المدينة. وكنّ خمساً: زوجة الحاجب، والساقية، والخباز، والسجان، وصاحب الدواب، أي: راضها<sup>(١)</sup>.

﴿امرأة العزيز تزاول فتاها عن نفسه﴾ تطلب موقعة غلامها إياها. يقال: فتاي وفتاتي، أي: غلامي وجاريتي. والعزيز بلسان العرب الملك. وأصل فتى فتى، لقولهم: فتيان. والفتوة شاذة. ﴿فَدَشَفَهَا حَتَّى﴾ شق شغاف قلبها - وهو حجابها - حتى وصل إلى فؤادها حباً. ونصبه على التمييز، لصرف الفعل عن يوسف، ويعلم أن الحب شغفها، إذ التمييز في الأصل فاعل. ﴿إِنَّا نَنزَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشده، وبعد عن الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن. وهو قولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني. وإنما سئاه مكرراً لأنهن أخفينه، كما يخفي الماكر مكره. أو قلن ذلك لتريهن يوسف. أو لأنهن استكتمتهن سرها، فأفسيته عليها. ﴿أَزْسَلْتِ إِلَيْهِنَّ﴾

(١) الرائض: الذي يعلم الدواب السير ويدلها ويوطئها.

تدعوهم لاستضافتهم. قيل: دعت أربعين امرأة فيهنّ الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا﴾ ما يتكنن عليه من الوسائد ﴿وَأَقَتَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكنن والسكاكين بأيديهنّ، ليقطعن به الأترج<sup>(١)</sup> وغيره من الفواكه، كما هو العادة بين الناس.

وقيل: «متكناً» يعني: طعاماً أو مجلس طعام، لأنهم كانوا يتكثرون للطعام والشراب ترفاً واستراحة، كمادة الترفين، ولذلك نهى أن يأكل الرجل متكناً.

وقيل: المتكناً طعام يحزّ حزاً، كأنّ القاطع يتكوى عليه بالسكين.

﴿وَقَالَتِ الْخِرَاطُ أَخْرُجْ عَلَيْنَ فَمَا زَايِنَةٌ أُنْبِرْنَهُ﴾ عظمنه، وهبن حسنه الفائق، وجماله الرائع. وعن النبي ﷺ: «رأيت يوسف في السماء الثانية ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر». وقيل: كان يرى تلالؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس من الماء عليها. وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، فبيهتن ويشغلن عن نفوسهنّ، فتقع أيديهنّ على أيديهنّ، لزوال اقتدارهنّ، وذهاب عقولهنّ.

وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، من: أكبرت المرأة إذا حاضت، لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر. والهاء ضمير مصدر: أكبرن، أو ليوسف على حذف اللام، أي: حضن له من شدّة الشبق، كما قيل: المرأة إذا اشتدت غلمتها حاضت، أي: كلما رأين حسنه الفائق حضن لشدّة الشبق.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة ﴿وَقُلْنَ خَاشِئَاتٍ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز، وتعجباً من قدرته على خلق مثله. وأصله: حاشا، كما قرأه أبو عمرو في الدرج لافي الوقف، فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً. وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيد، فوضع موضع التنزيه. واللام للبيان، كما في قولك: سقياً لك. فمعنى حاشا لله: براءة الله وتنزيهه

(١) الأترج: واحدته الأترجة، شجر من جنس الليمون.



عن صفات العجز، والتعجب من قدرته على خلق مثله في فرط الحسن وغاية الجمال.

وقيل: «حاشا» فعل من الحشا الذي هو الناحية، وفاعله ضمير يوسف، أي: صار في ناحية بعيدة لله تعالى مما يتوهم فيه من عجزه عن خلق جميل مثله. وأما قوله: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾<sup>(١)</sup> فتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله.

﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في أعمال «ما» عمل «ليس»، لمشاركتها في نفي الحال. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة. أو لأن جماله فوق جمال البشر، ولا يفوقه فيه إلا الملك، لما هو مركز في الطباع أنه لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناهٍ في الحسن والقبح بهما.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾ أي: فهو ذلك العبد الكنعاني ﴿الَّذِي لُفِقُنِي فِيهِ﴾ في الافتتان به قبل أن تتصورنه حق تصورته، ولو تصورته بما عاينت لعذرتني. أو فهذا هو الذي لمتني فيه، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعا لمتزلة المشار إليه.

﴿وَلَقَدْ زَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع أشد امتناع، واجتهد في الاستزادة من العصمة طالبا لها. ونحوه: استمسك. أفزت لهم حين عرفت أنهم يعذرنها، كي يعاونها على إلاته عريكته. وهذا برهان قوي على أن يوسف بريء مما أضاف إليه الحشوية من هم المعصية.

﴿وَلَقَدْ لَمْ يَقْعَلْ مَا أَمُرُهُ﴾ أي: ما أمر به، فحذف الجواز. أو أمري إياه، بمعنى: موجب أمري، فيكون الضمير ليوسف ﷺ. ﴿لَيْسَ جَنَّتَنُ﴾ ليسحسن في

السجن ﴿وَلْيَكُونُوا مِنَ الصَّاعِغِينَ﴾ الأذلاء. وهو من: صغر بالكسر يصغر صغراً وصغاراً. والصغير من: صغر بالضم صغراً.

فلما رأى يوسف إصرارها على ذلك وتهديدها له اختار السجن على المعصية ﴿قَالَ رَبِّ السُّجُنُ﴾ قرأ يعقوب بفتح السين على المصدر ﴿أَخْبِ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَني إِلَيْهِ﴾ أي: أخف عليّ وأسهل من مواتاتها زناً، نظراً إلى العاقبة، وإن كان هذا ممّا تشهيه النفس، وذلك ممّا تكرهه. وإسناد الدعوة إليهنّ جميعاً لأنهنّ خوفنه من مخالفتها، وزينّ له مطاوعتها، وقلن له: أطع مولاتك، فإنها مظلومة وأنت تظلمها. أو دعونه إلى أنفسهم، لما روى أبو حمزة عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «أنّ النسوة لما خرجن من عنده أرسلت كلّ واحدة منهنّ إلى يوسف - سرّاً من صاحبتة - تسأله الزيارة».

وقيل: إنّما ابتلي بالسجن لقوله: «رَبِّ السُّجُنِ أَحِبُّ إِلَيَّ». وإنّما كان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية، ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على من كان يسأل الصبر. ﴿وَالْأَتَصْرِفُ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عنيّ ﴿كَيِّدُهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه عندي بالتثبيت على العصمة. فزع منه إلى أطاف الله وعصمته، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزموا عليه ووطنوا عليه أنفسهم. ﴿أَضْبِ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى جانبهنّ. أو إلى أنفسهنّ، بطبعي ومقتضى شهوتي. والصبوة الميل إلى الهوى. ومنه الصبا، لأنّ النفوس تستطيهها وتميل إليها. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإنّ الحكيم لا يفعل القبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم والجهال سواء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمّن قوله: «وإلاّ تصرف». لأنّ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتّى وطن نفسه على مشقّة السجن، وأثرها على اللذة المتضمّنة للعصيان ﴿إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعِ ﴿ لِدَعَاءِ الْمَلْتَجِّينِ إِلَيْهِ ﴾ الْعَلِيمِ ﴿ بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا يَصْلَحُهُمْ .  
 ﴿ فَمَّا بَدَأْنَاهُمْ ﴾ ثُمَّ ظَهَرَ لِلعَزِيزِ وَأَهْلِهِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا زَاوَا الْآيَاتِ ﴾ الشَّوَاهِدُ الدَّالَّةُ  
 عَلَى بَرَاءَةِ يَوْسُفَ ، كَشَهَادَةِ الصَّبِيِّ ، وَقَدْ القَمِيصَ ، وَقَطَعَ النِّسَاءَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَاسْتَعصَمَهُ  
 عَنْهُنَّ . وَفَاعِلٌ «بَدَأ» مُضْمَرٌ ، وَهُوَ : رَأْيِي ، يَفْسِرُهُ قَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ جُنُودُهُ حَتَّى جِيئَ ﴾ وَذَلِكَ  
 لِأَنَّ رَاعِيْلَ خَدَعَتْ زَوْجَهَا ، وَحَمَلَتْهُ عَلَى سِجْنِهِ زَمَانًا حَتَّى تَبْصُرَ مَا تَرَصَّدَتْ مِنْهُ .  
 أَوْ يَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّهُ المَجْرَمُ ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ سَبْعَ سِنِينَ .

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَيَّانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي - أَرَانِي - أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ  
 الْآخَرُ إِنِّي - أَرَانِي - أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ بَسْتَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ  
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ ٣٦ ﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ  
 يَأْتِيَكُمْ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ  
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي - إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا  
 كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ  
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿ ٣٨ ﴾ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ الرَّبَّابُ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ  
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ ٣٩ ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ  
 وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَّا  
 أَحَدُكُمَا فَيَسْتَمِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ  
 الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ  
 رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف في السجن، فقال: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: اتفق أن أدخل مع يوسف السجن حينئذٍ آخران من عبيد الملك، فإن «مع» يدل على معنى الصحبة، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له، وهما شرايبه وخبازه، للاتهام بأنهما يريدان أن يستأه. ﴿قَالَ اخْذْهُمَا﴾ يعني: الشرابي ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أي: في المنام. وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعْصِرْ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. وستأه بما يؤل إليه، كما يقال: فلان يطبخ الدبس والآجر، وإنما يطبخ العصير واللبن. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ أي: الخباز ﴿إِنِّي أَرَانِي أُخْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش<sup>(١)</sup> منه.

عن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه، فقال الشرابي: إِنِّي أَرَانِي فِي الْمَنَامِ فِي بَسْتَانٍ فَإِذَا أَنَا بِأَصْلِ حَبْلَةٍ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ عَنَاقِيدٍ مِنْ عَنَبٍ، فَقَطَفْتُهَا وَعَصَرْتُهَا فِي كَاسِ الْمَلِكِ، وَسَقَيْتَهُ إِتَاهَ. وَقَالَ الْخَبَّازُ: إِنِّي أَرَانِي فِي الْمَنَامِ فَوْقَ رَأْسِي ثَلَاثَ سَلَالٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الْأَطْعَمَةِ، فَإِذَا سَبَّحَ الطَّيْرُ تَنَهَشَ مِنْهَا.

(١) في هامش النسخة الخطية: «التنهش أول ما يأخذ الطير بمنقاره. منه».

(٢) في هامش النسخة الخطية: «الحبلة - بالتحريك - القصب من الكرم. وربما جاء بالتسكين. منه».

ثم قال ليوسف: ﴿نَبُئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتعبير ما نقص عليك وما يؤل إليه أمره ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا. أو من العالمين، يقال: أحسنه إذا علمه. وإنما قالوا ذلك لأنهما رأياه في السجن يعظ الناس ويعبر رؤياهم. أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا ضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له.

قيل: إن الغتمين قالوا له: إِنَّا لَنَحْبُكَ من حين رأيناك. فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبتي أحد قط إلا دخل علي من حبه بلاء، لقد أحببني عمتي فدخل علي من حبه بلاء، ثم أحبتي أبي فقد دخل علي من حبه بلاء، ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل علي بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما.

ولما استعبراه ابتداء بوصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، ليتيقنا صدق تعبيره ووقوع ما يعبره عليهما، وليدعوها إلى التوحيد. ويرشدهما إلى الطريق القويم، قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه، كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد. فلهذا ﴿قَالَ﴾ أولاً: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتأويل الطعام، يعني: ماهيته وكيفيته، فإنه يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أي: لا يأتيكما طعام من منزلكما إلا أخبرتكما بصفة ذلك الطعام وكيفيته قبل أن يأتيكما ذلك الطعام. وهذا مثل قول عيسى عليه السلام: ﴿وَأَنْبَأَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وقيل: معناه: لا يأتيكما طعام ترزقانه في منامكما إلا نبأتكما بتأويله وبيان عاقبته في اليقظة قبل أن يأتيكما التأويل. والأول أشهر وأصح.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالإلهام والوحي، وليس من قبيل التكهن أو التنجيم.

﴿إِنِّي تَزَحَّتْ مَلَّةٌ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِإِلَهِهِمْ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: علمني ذلك لأنني تركت ملّة الذين لا يؤمنون بالوحدانية ويوم البعث والنشور. أراد بهؤلاء القوم أهل مصر، ومن كان الفتيان على دينهم.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِزَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من أهل بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوتوق عليه. ولذلك جوّز للخامل أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه وينتفع به في الدين، ولم يكن ذلك من باب التزكية. وتكرير ضمير «هم» للدلالة على تأكيد كفرهم بالآخرة.

﴿فَمَا كَانَ لَنَا مَعِشَرِ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِإِلَهِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان، من ملك أو جنّي أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر.

﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس يعثنا لإرشادهم، وتببيتهم عليه ﴿وَلَكِنْ أَكْفَرْنَا النَّاسِ﴾ المبعوثون نحن إليهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضل، فيعرضون عنه ولا يتنبهون.

وقيل: معناه: ذلك فضل الله علينا وعليهم بنصب الأدلة وإنزال الآيات، ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها، ولا يستدلّون بها، فيلغونها، كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

﴿يَا ضَاحِييَ السُّجْنِ﴾ أي: يا ساكنيه، كقوله عزّ اسمه: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾<sup>(١)</sup>. أو يا صاحبيّ فيه، فأضافهما إليه على الاتساع، كقوله: يا سارق الليلة أهل الدار. فكما أن الليل مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره، وهو يوسف عليه السلام. ﴿عَازِبَاتٍ

مُتَفَرِّقُونَ ﴿ أَمَلَاكٍ شَتَّى مُتَعَدِّدَةً مُتَبَايِنَةً، مِنْ حَجَرٍ وَخَشَبٍ وَغَيْرِهِمَا ﴾ خَفِيزًا اللهُ  
النَّوْاجِدُ ﴿ المتوحد بالألوهية ﴾ النِّقْمَانُ ﴿ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره ١٢ ﴾  
والهمزة للإنكار. وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿ إِلَّا  
أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من حجة غالبية. أي: إلا  
أشياء باعتبار أسامي أطلقت عليها، من غير حجة تدل على تحقق مستياتها فيها،  
فكانكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة. والمعنى: أنكم سميتم ما لم يدل على  
استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها.  
﴿ إِنْ النُّحُكُ ﴾ في أمر العبادة ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ لأنه المستحق لها بالذات، من حيث  
إنه الواجب لذاته، والموجد للكل، والمالك لأمره ﴿ أَمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه ﴿ أَلَّا  
تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ الحق الثابت بالدلائل، وأنتم لا تميزون المعوج عن  
القويم.

وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، لأنه بين لهم أولاً رجحان التوحيد  
على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يستونها آلهة ويعبدونها  
لا تستحق الإلهية، فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير، وكلا القسمين منتف  
عنها، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره،  
ولا يرتضي العلم دونه.

﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لعدولهم عن النظر والاستدلال، فيخبطون في  
جهالاتهم.

ثم عبر رؤياهما فقال: ﴿ يَا صَاحِبِي السُّجْنِ أَمَا أَخَذْنَاكَ ﴾ يعني: الشرايبي  
﴿ فَيَسْقِي رَبُّهُ ﴾ أي: سيده ﴿ حَمْرًا ﴾ كما كان يسقيه قبل، ويعود إلى ما كان عليه  
﴿ وَأَمَّا الْآخِرُ ﴾ يريد به الخباز ﴿ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾.

روي أنه قال يوسف في تعبير الساقى: أما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تبقى في السجن، ثم يخرجك الملك اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للخباز: بئس ما رأيت، أما السلال الثلاث فإنها ثلاثة أيام تبقى في السجن، ثم يخرجك الملك فيصلبك فتأكل الطير من رأسك. فقال عند ذلك: ما رأيت شيئاً وكنت ألعب. فقال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤل إليه أمركما، ولذلك وحده، فإنهما وإن استفتيا في أمرين، لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ أي: علم بطريق الوحي ﴿أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾<sup>(١)</sup> أي: علمت. وقيل: المراد بالظان الناجي الذي هو الشرابي لا يوسف، فـ«ظن» باقٍ على معناه الحقيقي. ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند الملك الذي يرثيك بأنني محبوس ظلماً كي يخلصني ﴿فَأَنْشَأَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فأنسى الشرابي أن يذكره لربه. فأضاف إليه المصدر لملاسته له، فإن الرب لا يكون فاعلاً ولا مفعولاً، أو على تقدير: ذكر أخبار ربه. قيل: أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه في تلك الحال حين وكل أمره إلى غيره واستغاث بمخلوق. والأول أليق بمذهبتنا. والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محموددة في الجملة، لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء، وتركه أولى.

﴿فَلَيْتَ﴾ لأجل ذلك ﴿فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع. من البضع وهو القطع، كأنه يقطع من العشرة. وقيل: البضع ما بين الثلاث إلى الخمس. وقيل: إلى السبع. وقيل: لبث في السجن سبع سنين بعد أن كان خمساً. والأصح أن مدة مكثه في السجن سبع سنين، فإنه منقول عن علي بن الحسين وأبي عبدالله عليهما السلام. ومأثور عن ابن عباس.



روي عن النبي ﷺ أنه قال: «عجبت من أخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق».

وروي أنه ﷺ قال: «لولا كلمته ما لبث». يعني قوله: «اذكرني عند ربك». وروي عن أبي عبدالله ﷺ أنه قال: «جاء جبرئيل إلى يوسف فقال: يا يوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربي. قال: فمن حببك إلى أبيك دون إخوتك؟ قال: ربي. قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال: ربي. قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربي. قال: فمن أنقذك من الحب؟ قال: ربي. قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربي. قال: فإن ربك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني؟! البت في السجن بما قلت بضع سنين».

وعنه ﷺ في رواية أخرى قال: «فبكى يوسف عند ذلك حتى بكى لبكائه الحيطان، فتأذى ببكائه أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً، فكان في اليوم الذي يسكت أسوء حالاً».

وعلى تقدير صحة هذه الروايات، فإنما عوتب يوسف ﷺ في ترك عاداته الجميلة في الصبر والتوكل على الله سبحانه في كل أموره دون غيره، وإنما يكون قبيحاً لو ترك التوكل على الله سبحانه واقتصر على غيره. وفي هذا ترغيب في الاعتصام بالله تعالى، والاستعانة به دون غيره عند نزول الشدائد، وإن جاز أيضاً أن يستعان بغيره.

روي عن أبي عبدالله ﷺ قال: «علم جبرئيل ﷺ يوسف في محبسه فقال: قل في دبر كل صلاة فريضة: اللهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث أحسب، ومن حيث لا أحسب».

وروى شعيب العرقوفي عنه ﷺ قال: «لما انقضت المدّة وأذن له في دعاء الفرج وضع خده على الأرض، ثم قال: اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي

عندك، فإني أتوجه إليك بوجوه آبائي الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ففرج الله عنه. قال: فقلت له: جعلت فداك أندعوا نحن بهذا الدعاء؟ فقال: أدعوا بمثله: اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت عندك وجهي، فإني أتوجه إليك بوجه نبيك نبي الرحمة وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ  
 سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا  
 تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾  
 وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾  
 يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعِ  
 سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾  
 قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا  
 تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا  
 قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ  
 يُعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

ثم أخبر سبحانه عن سبب نجات يوسف وقت دنوها، فقال: ﴿وَقَالَ الْغُلَبَكُ﴾

الريان بن الوليد ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَيْفَانٍ﴾ خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات مهازيل ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي: ابتلعت المهازيل السمان ﴿وَسَبْعٌ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ﴾ وأرى في منامي سبع سنبلات قد انمقد حبها ﴿وَأَخْرَجَ يَابَسَاتٍ﴾ وسبعاً آخر يابسات قد أدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها. وإنما استغنى عن بيان حالها - وهي سبع يابسات كالخضر - بما قص من حال البقرات. وأجرى السمان على المميز دون المميز وهو «سبع»، لأن التمييز بها. ووصف السبع الثاني بالعجاف، لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف، فإن التمييز لبيان الجنس. وقياس عجاف عجب، لأنه جمع عجفاء، وأفعل فعلاء لا يجمع على فعال، لكنه حمل على سمان، لأنه تقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والتقيض على التقيض.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ أشرف قومي. وقيل: هم السحرة والكهنة. ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ عبروها ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة<sup>(١)</sup> الرؤيا. وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها، من العبور، وهو المجاوزة. و«عبرت الرؤيا عبارة» أثبت<sup>(٢)</sup> من: عبرتها تعبيراً، كما قال صاحب الكشاف<sup>(٣)</sup> من أنه لم ينقل من الأثبات<sup>(٤)</sup> التعبير والمعبر، بل العبارة والعابر، لأنه من العبور. وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها، كما يقال: عبرت النهر إذا قطعتة حتى تبلغ آخر عرضه. واللام للبيان أو لتقوية العامل، فإن الفعل لما آخر عن مفعوله ضعف فقوي باللام، كاسم الفاعل إذا قيل: هو عابر للرؤيا، لانهطاطه عن الفعل في القوة. أو لتضمن «تعبرون» معنى فعل يعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم

(١) مصدر: عَبَّرَ يَعْبُرُ عَبْرًا وَعِبَارَةً.

(٢) في هامش النسخة الخطية: «أي: أشدّ تثبتاً وحجّة منه».

(٣) الكشاف ٢: ٤٧٤.

(٤) الأثبات: ثقات القوم، جمع الثبّت، وهو الثقة.

تجيبون لعبارة الرؤيا .

﴿ قَالُوا ﴾ هي ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي: تخاليطها . جمع ضغت . وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، فاستعير للرؤيا الكاذبة ، وإنما جمعوا الأحلام للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان ، كقولهم : فلان يركب الخيل ، وإنما يركب فرداً منها . أو لتضمّن الحلم أشياء مختلفة . والإضافة بمعنى « من » أي : أضغاث من أحلام . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة ، أي : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للمنامات الصادقة . فهو كأنه مقدّمة ثانية للعدر في جهلهم بتأويله .

وعند ذلك تذكّر الساقى حديث يوسف ، فجثا بين يدي الملك وقال : أيها الملك إني قصصت أنا وصاحب الطعام على رجل في السجن منامين ، فخبّرنا بتأويلهما ، وصدق في جميع ما وصف ، فإن أذنت مضيت إليه وأتيتك من قبله بتفسير هذه الرؤيا . وذلك قوله عزّ اسمه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من صاحبي السجن ، وهو الشرابي ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكّر يوسف ﷺ بعد جماعة من الزمان مجتمعة ، أي : مدّة طويلة . والجملة اعتراض ، ومقول القول قوله : ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ فابحثوني إلى من عنده علمه ، أو إلى السجن .

فأرسل إلى يوسف فجاء ، فقال له : ﴿ يَٰ يُوسُفُ ﴾ أي : يا يوسف ﴿ أَيُّهَا الصّٰدِيقُ ﴾ البليغ في الصدق . وإنما وصفه بصيغة المبالغة ، لأنّه جرّب أحواله ، وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه . ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُفُفَاتٍ خُضْرٍ وَأَخْرَ يَابَسَاتٍ ﴾ أي : في رؤيا ذلك ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده ، أو إلى أهل البلد ، إذ روي عن ابن عبّاس أنّ السجن لم يكن فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأويلها ، أو فضلك ومكانك ، فيطلبوك

ويخلصوك من محتتك. وإنما لم يجزم الكلام فيهما، لأنه لم يكن جازماً بالرجوع،  
 فربما اخترم دونه، ولا يعلمهم، فربما لم يعلموا.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: على عادتكُم المستمرة. وانتصابه على  
 الحال، بمعنى: دائبين. أو المصدر، بإضمار فعله، أي: تدأبون دابًّا، وتكون  
 الجملة حالاً. وقرأ حفص: دَابًّا يَفْتَحُ الهِزَّة. وكلاهما مصدر: دَابُّ فِي الْعَمَلِ إِذَا  
 اعْتَادَ فِيهِ. وقيل: «تزرعون» خبر في معنى الأمر، أخرج في صورة الخبر مبالغة  
 في تحقُّق الفعل، لقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَيْهِ﴾ كيلا يأكله السوس. وهو -  
 على أنه خبر لا أمر - نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك  
 السنين.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكل أهلنَّ ما  
 ادخرتم لأجلهنَّ، وذلك متعارف، كما يقال: ادخرت الحبوب للسنين وإن كان في  
 الحقيقة لأهلها. فأسند إليهنَّ على المجاز تطبيقاً بين المعبر - وهو البقرات  
 والسنبلات - والمعبر به، وهو السنين. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخْتَبِئُونَ﴾ تحرزون وتخبون  
 لبذور الزراعة.

ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثاني يجيء مباركاً خصيباً،  
 كثير الخير، غزير النعم، فقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾  
 يمطرون، من الغيث. أو يغاثون من القحط، من الغوث. ﴿وَفِيهِ يَغصَبُونَ﴾ ما  
 يعصر، كالعنب والزيتون والسَّمْسَم، لكثرة الثمار. وقيل: يعلبون الضروع. وقرأ  
 حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول  
 البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة، والعجاف واليابسات بسنين  
 مجدبة، وابتلاع العجاف السمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين  
 المجدبة. وعلم ذلك كَلْمَهُ بالوحي. ويحتمل أن علم ذلك بأن انتهاء الجذب

بالخصب، أو بأن السنّة الإلهيّة على أن يوسع على عباده بعد ما ضيق عليهم.  
والأول موافق لمذهبنا.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ  
مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا  
خَطْبُكُمْ إِذْ رَأَوْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ  
قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾

ولمّا رجع الرسول إلى الملك، وقصّ عليه ما سمع من يوسف من التعبير،  
اشتاق لقاءه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن  
﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ سيّدك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾  
وإنما تأتي في الخروج، وقدم سؤال النسوة وفحص حالهنّ، لتظهر براءة  
ساحته وطهارة ذيله، ويعلم أنّه سجن ظلماً، فلا يقدر الحاسد أن يتوسّل به  
إلى تقيح أمره. وفيه دليل على أنّه ينبغي أن يجتهد في نفي التهم، ويتّقي  
مواقفها. وإنّما قال: «فاسأله ما بال النسوة» ولم يقل: فاسأله أن يفتش عن  
حالهنّ أو عن شأنهنّ، تهيباً له على البحث وتحقيق الحال. وإنّما لم يتعرّض  
لسيّدته مع ما صنعت به كراماً ومراعاة للأدب، فإنّها سيّدته وزوجة خليفة  
الملك.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قلن لي: أطمع مولاتك. وفيه تعظيم كيدهنّ،

والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه، وعلى أنه بريء مما قذف به، والوعيد لهنّ على كيدهنّ.

عن ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذٍ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت في نفس العزيز منه حالة، يقول: هذا الذي راود امرأتي.  
وقيل: أشفق يوسف من أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره متهم بفاحشة، فأحبّ أن يراه بعد أن يزول عن قلبه ما كان فيه.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - والله يغفر له - حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني من السجن. ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه - والله يغفر له - حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة، وبأدرتهم الباب، وما ابتغيت العذر، إنه كان لحليماً ذا أناة».

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ﴾ قال الملك لهنّ: ما شأنك. والخطب أمر يحقّ أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَاوَدَتْهُ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ خَاشِ بِلَهُ﴾ تنزيه له تعالى وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت واستقرّ، من: حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ، أو ظهر، من حصّ شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه. ﴿أَنَا زَاوِدُكَ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: «هي راودتني عن نفسي». ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبرامة والنزاهة، واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنّه لم يتعلّق بشيء مما قرفنه<sup>(١)</sup> به، لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحقّ وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال.

(١) قرف فلاناً بكذا: عابه أو اتهمه به.

ذَٰلِكَ لِيُعَلِّمَ أَنِي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

ثم قال يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من التآني في السجن، وعدم سرعة الإجابة إلى الخروج منه، ورد رسول الملك إليه في شأن النسوة ﴿لِيُعَلِّمَ﴾ العزيز ﴿أَنِي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب. وهو حال من الفاعل أو المفعول، أي: لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عني. أو ظرف، أي: بمكان الغيب، وهو الخفاء والاستتار وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا ينفذه ولا يسدده. أو لا يهدي الخائنين بكيدهم، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة.

وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها، وتوكيد لأمانته، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده.

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً، وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده. وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته، فقال: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾ ولا أنزهاها ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ أراد جنس النفس ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات، فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات. وعن ابن كثير ونافع: بالسوء، على قلب الهمزة أو أتم الإدغام. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس، فعصمه من تلك التهم.



وقيل: الاستثناء منقطع، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة.  
 وقيل: الآية حكاية قول راعيل، والمستثنى نفس يوسف وأضراجه. والمعنى:  
 ذلك الذي قلت من براءة ساحة يوسف، وإسناد المرادة إلى نفسي، ليعلم يوسف  
 أنني لم أكذب عليه في حال الغيبة، وصدقت فيما سئلت عنه. وما أبرئ نفسي من  
 الخيانة. فأنتي خنته حين قذفته وقلت: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن  
 يسجن». ثم قالت اعتذاراً مما كان منها: إن كل نفس لآتارة بالسوء إلا نفساً رحمها  
 الله بالعصمة، كنفس يوسف.

﴿إِنَّ رَبِّيَ فَتَوَّزَّرَ زَجِيمٌ﴾ يغفر همم النفوس، ويرحم من يشاء بالعصمة. وعلى  
 القول الأخير: يغفر للمستغفر لذنبه، المعترف على نفسه، ويرحمه ما استرحمه مما  
 ارتكبه. والقول الأول أشهر، والثاني أجود.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلَصْتَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ  
 لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ  
 ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُنْصِبُ  
 بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلَصْتَهُ﴾ أجعله خالصاً ﴿لِنَفْسِي﴾ وأرجع  
 إليه في تدبير مملكتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فلما أتوا به وكلمه، وشاهد منه الرشد وذكاء  
 العقل وفطانه الفهم ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أَمِينٌ﴾

مؤمن على كل شيء.

روي أنه لما خرج من السجن كتب على بابه: «هذا قبور الأحياء، وبيت الأحران، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء». ثم اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، وهو يومئذ كان ابن ثلاثين سنة، فلما رآه الملك شاباً حدث السن قال: يا غلام أنت مأول رؤيائي؟ قال: نعم، فأقعدته قدامه، وقص عليه رؤياه.

وروي: أنه لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره. ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية.

فقال: ما هذا اللسان؟

قال: لسان آبائي. وكان الملك يعرف سبعين لساناً، فكلمه بها، فأجابه بجميعها. فتعجب منه، فقال: أحب أن أسمع رؤيائي منك شفاهاً.

فقال يوسف: نعم، أيها الملك رأيت سبع بقرات سمانٍ شهب حسان، كشف لك عنهنّ النيل، فطلعن عليك من شاطئه، تشخب أخلافهنّ<sup>(١)</sup> لبناً.

فبينما تنظر إليهنّ ويصحبك حسنهنّ، إذ نضب<sup>(٢)</sup> النيل فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمته ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير، مقلصات<sup>(٣)</sup> البطون، ليس لهنّ ضروع وأخلاف، ولهنّ أنياب وأضراس. وأكفّ كأكفّ الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع. فاختلطن بالسمان، فافترسهنّ افتراس السبع، فأكلن لحومهنّ، ومزقن جلودهنّ، وحطمن عظامهنّ، وتمششن<sup>(٤)</sup> مخهنّ.

فبينما أنت تنظر وتتعجب إذا سبع سنابل خضر وآخر سود في منبت واحد،

(١) الأخلاف جمع الخلف، وهو: حَلَمَة ضرع الناقة، أي: مكان مصّ الحليب من الثدي.

(٢) نضب الماء: غار في الأرض.

(٣) أي: انكسرت بطونهنّ هزالاً.

(٤) تمشش العظم: مصّه واستخرج منه المخ.

عروقهنّ في الثرى والماء.

فينا أنت تقول في نفسك: أتى هذا وهؤلاء خضر ثمّرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهنّ في الماء؟ إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الثمرات الخضر، فاشتعلت فيهنّ النار وأحرقتهنّ، وصرن سوداً متغيّرات. فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثمّ انتهت من نومك مذعوراً.

فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا بأعجب ممّا سمعته منك، فما ترى في

رؤياي أيها الصديق؟

فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، فتجمع الحبوب بقصبها وسنبها لتأمن من السوس، ويكون القصب والسنب علفاً للدواب. ويأتيك الخلق من النواحي، فيمتارون منك بحكمك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك.

فقال الملك: ومن لي بهذا؟ ومن يجمعه ويبيعه، ويكفي الشغل فيه؟

فعد ذلك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولّني أمر أرض مصر ﴿إِنِّي خَافُ﴾ لها ممّن لا يستحقّها ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيه. وإنما قال ذلك لأنه ﷺ لما رأى أنّه يستعمله لا محالة آثر ما تعمّ فوائده وتجلّ عوائده، فيتوصل بذلك إلى إمضاء أحكام الله، وبسط العدل، ووضع الحقوق موضعها.

وفيه دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنّه مستعدّ لها، والتولّي من يد الكافر، إذا علم أنّه لا سبيل إلى إقامة الحقّ وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به.

روي: أنّ الملك أجلسه على السرير، وفوض إليه أمره. وقيل: توفّي قطفير في تلك السنين فنصبه في منصبه، وزوّج منه راعيل، فوجدها عذراء، وولدت له أفرائيم وميشا.

ودروي: أنّ الملك كان يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلّ ما رأى،

فكان في حكم التابع له والمطيع. وعن مجاهد: أن الملك أسلم على يده.

وفي تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم قال: «لَمَّا مات العزيز وذلك في سنِّي الجديبة افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت الناس. فقالوا لها: ما يضرك لو قعدت للعزيز؟ وكان يوسف يسمي العزيز. وكل ملك كان لهم سمّوه بهذا الاسم. فقالت: استحي منه. فلَمَّا كثر اضطرابها وعجزها قعدت له. فأقبل يوسف في موكبه فقامت إليه زليخا، وقالت: سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً، وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً. فقال لها يوسف: أنت تيك؟ قالت: نعم. فقال لها: هل لك في؟ قالت: دعني أتَهزأ بي؟ قال: لا. قالت: نعم. فأمر بها فحوّلت إلى منزله، وكانت هرمة. فقال لها يوسف: ألسنت فعلت بي كذا وكذا؟ قالت: يا نبي الله لا تلمني، فأني بليت بليّة لم يبتل بها أحد. قال: وما هي؟ قالت: بليت بحبك، وبليت بزواج عتّين. فقال لها يوسف: فما حاجتك؟ قالت: تسأل الله أن يرّد عليّ شبابي. فسأل الله فرّد عليها، فتزوّجها وهي بكر شابّة»<sup>(١)</sup>.

روي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رحم الله أخي يوسف لولم يقل: «اجعلني على خزائن الأرض» لولاه من ساعته. ولكنّه أخر ذلك سنة». قال ابن عباس: فأقام في بيت الملك سنة، فلَمَّا انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة، دعاه الأمير فتوّجه وختمه بخاتمه وأعطاه سيفه، وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت، ويضرب عليه كلّة<sup>(٢)</sup> من استبرق، ثمّ أمره أن يخرج متوّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه. فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، فعدل بين الناس، وأحبّه الرجال والنساء. وذلك قوله عزّ اسمه: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا على

(١) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٥٧.

(٢) الكلّة: ستر رقيق يخاط كالبيت يتوقّى به من البعوض.

يوسف ﴿مَكْنَأُ يُوسُفَ﴾ أقدرناه ما يريد ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿يَتَّبِعُوا مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ينزل من بلادها في كل مكان يهوى. لاستيلائه على جميعها. وقرأ ابن كثير: نشاء بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعبأتنا ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُخْسِرِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وآجلاً. ﴿وَلَأَجْزُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش، لعظمه ودوامه.

روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل، واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدية، وعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما، وتوجه إليه الناس، فباعها.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن علي بن بنت إلياس، قال: «سمعت الرضا عليه السلام يقول: وأقبل يوسف على جمع الطعام، فجمع في السبع سنين المخصة، فكبسه في الخزائن. فلما مضت تلك السنون وأقبلت المجدية. أقبل يوسف على بيع الطعام، فباعهم في السنة الأولى بالدرهم والدنانير، حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في مملكته.

ثم باعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق بمصر وما حولها حليّ ولا جواهر إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي، حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صارت في مملكته.

وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق بمصر عبد ولا أمة إلا صار في مملكته.

وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار، حتى لم يبق بمصر وما حولها دار

ولا عقار إلا صار في مملكته .

وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار، حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في مملكته .

وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حرز إلا صار عبد يوسف، فملك أحرارهم وعبيدهم . وقال الناس: ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتديراً .

ثم قال يوسف للملك: أيها الملك لما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر وأهلها، أشر علينا برأيك، فإني لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء لأكون بلاءً عليهم، ولكن الله تعالى أنجاهم على يدي .

قال له الملك: الرأي رأيك .

قال: أشهد الله وأشهدك أيها الملك بأنني قد أعتقت أهل مصر كلهم، ورددت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددت عليك أيها الملك خاتمك وسريرك وتاجك، على أن لا تسير إلا بسيرتي، ولا تحكم إلا بحكمي .

قال له الملك: إن ذلك لزيني وفخري، فلا أسير إلا بسيرتك، ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له، ولقد جعلت سلطاني عزيزاً لا يرام، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنتك رسوله، فأقم على ما وليتك، فإنك لدينا مكين أمين .»

وقيل إن يوسف ﷺ كان لا يمتلي شعباً من الطعام في تلك الأيام المجدية، فقيل له: تجوع ويبدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي

الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِقِيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتُونُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَبَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

وكان في السنين المجدية قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد، فجمع يعقوب بنيه غير بنيامين. وقال: بلغني أنه يباع الطعام بمصر وأن صاحبه رجل

صالح، فاذهبوا إليه. فتجهزوا وساروا حتى وردوا مصر للميرة<sup>(١)</sup>. كما قال ﷻ: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ﴾ ليمتاروا من مصر كما امتار غيرهم. وكان لا يبيع أحداً من المتتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. ﴿فَنَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: عرفهم يوسف ولم يعرفوه، لطول العهد ومفارقتهم إياه في سنّ الحداثه، ونسيانهم إياه، وتوهمهم أنه هلك، وبعد حاله التي رآه عليها من حاله حين فارقه، وقلة تأملهم في حاله، ولأنّ الملك ممّا يبذل الزيّ ويلبس صاحبه من المهابة والاستعظام ما ينكر له المعروف.

وقيل: رآوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير، جالساً على سرير، في عنقه طوق من ذهب، وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو.

وقيل: ما رآوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج. وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيّهم قريباً من زيّهم إذ ذاك، ولأنّ همته كانت مقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ والجهاز ما يعدّ من الأمتعة للنقله، كعدد السفر، وما يحمل من بلدة إلى أخرى، وما تزوّج به المرأة إلى زوجها، والمعنى: ولما أصلحهم بعدتهم، وأقر ركائبهم بما جاؤا لأجله ﴿قَالَ انقُوتِي بِأَخِ نَكْمٍ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني: بنيامين.

والباعث على صدور هذا القول منه - على ما قال عليّ بن إبراهيم في تفسيره<sup>(٢)</sup>، والزمخشري في الكشاف<sup>(٣)</sup> - أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما

(١) في هامش النسخة الخطية: «الميرة: الامتار. وهو ابتياع الفلّات. والميرة: الفلّة التي تطلب. منه».

(٢) لم نجده في تفسيره.

(٣) الكشاف ٢: ٤٨٤.



أمركم، فإني أنكركم؟

قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجتنا نمتار.

فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنتظرون عورة بلادتي؟

قالوا: معاذ الله نحن بنو أب واحد، وهو شيخ صدّيق، نبي من الأنبياء اسمه

يعقوب.

قال: كم أنتم؟

قالوا كئنا اثني عشر، فذهب أحدنا إلى البريّة فهلك.

قال: فكم أنتم هنا؟

قالوا: عشرة.

قال: فأين الحادي عشر؟

قالوا: عند آيينا يتسلّى به عن الهالك.

قال: فمن يشهد لكم؟

قالوا: لا يعرفنا ها هنا من يشهد لنا.

قال: فدعوا بمضكم عندي رهينة، وائتوني بأخيكم من أبيكم حتى

أصدقكم. فافترعوا فأصابت شمعون.

وقيل: كان يوسف يعطي لكلّ نفس حملاً، فسألوا حملاً زائداً لأخ لهم من

أبيهم، فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ثمّ رغبهم في أن يأتوا

بأخيهم، فقال: ﴿الْأَتْرُونَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفِيلَ﴾ أتمته ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُفْتَرِينَ﴾ للضيف

والمضيفين لهم. وكان ﷺ أحسن إنزالهم وضياقتهم.

ثمّ رهّبهم من حرمانهم عن الكيل إن لم يأتوا به، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ

فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ فليس لكم ﴿عِنْدِي﴾ طعام أكيله عليكم ﴿وَلَا تَفْرُبُونِ﴾ أي: لا

تفرّبوني، ولا تدخلوا ديارني. وهو إمّا نهى، أو نفى مجزوم معطوف على الجزاء،

وهو قوله: «فلا كيل لكم». كأنه قال: فإن لم تأتونني تحرموا ولا تقربوا.

﴿قَالُوا سَتَرْنَاؤُا عَنكَ آيَاتِنَا﴾ سنجته في طلبه من أبيه ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك لا

نتوانى فيه.

﴿وَقَالَ يَفْتَئِنِي﴾ لغلمانه الكياليين. جمع فتى<sup>(١)</sup>. وقرأ حمزة والكسائي

وحفص: لفتيانه على جمع الكثرة، ليوافق الرحال في قوله: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي

رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وكل بكل رحل واحداً يعبىء فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام، أي:

يجعل في رحالهم خفية كيلا يفهموا. واحدها: رحل. يقال للوعاء رحل، وللمسكن

رحل، وأصله: الشيء المعد للرحيل. وكانت البضاعة نعلاً وادماً. وإنما رد عليهم

البضاعة توسيعاً وتفضلاً عليهم، وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من

أن لا يكون عند أبيهم ما يعيشون به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ لعلمهم يعرفون حق ردّها، أو لكي يعرفوها ﴿إِنَّا انْقَلَبُوا﴾

انصرفوا ورجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ﴾ وفتحوا أو عيبتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم

ذلك الإحسان التام تدعوهم إلى الرجوع إلينا لطلب الميرة ثانياً.

قيل: معناه: أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة التي لا يستحلّون إمساكها،

فيرجعون لأجلها. ولم يعرف يوسف نفسه، مع علمه بشدّة حزن أبيه وقلقه

واحتراقه على ألم فراقه، لأنّه لم يؤذن له في التعريف، استماتاً للمحنة عليه وعلى

يعقوب، ولما علم الله من الحكمة والصلاح في تشديد البليّة، تعريضاً للمنزلة

السنيّة.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ حكم بمنه بعد هذا إن لم

نذهب بينيامين ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا﴾ بينيامين ﴿نَكْتَلُ﴾ أي: نأخذ ما نحتاج إليه من

الطعام بالكيل، ونرفع المانع منه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء، على إسناده إلى

(١) أي: على قراءة: لفتيته.

الأخ، أي: يكتل لنفسه، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا. ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ هَلْ آمَنَتْكُمْ عَلَيْهِ﴾ على بنيامين ﴿إِلَّا عَمَّا آمَنَتْكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف: «وإننا له لحافظون» ثم لم تفوا بضمانكم ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ فأتوكّل عليه، وأفوض أمري إليه. وانتصابه على التمييز. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: حافظاً. وهو يحتمل التمييز والحال، كقولهم: لله ذرّه فارساً. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحم ضعفي وكبر سني، فيحفظه ويردّه عليّ، ولا يجمع عليّ مصيبتين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ زُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ استفهاميّة، أي: ماذا نطلب؟ هل من مزيد على ذلك، أكرمنا، وأحسن مثنوانا، وباع منا، وردّ علينا متاعنا؟! أو نافية، أي: لا نطلب وراء ذلك إحساناً. أو لا نبغي في القول، ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه.

ثم استأنفوا كلاماً موضعاً لقولهم: «ما نبغي»، فقالوا: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا زُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فلا نبغي أن نخاف على أخينا ممن قد أحسن إلينا هذا الإحسان ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ونجلب إليهم الطعام، وهو مسطوف على محذوف، أي: ردّت إلينا، فنستظهر بها، ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا ﴿وَنَزِدَاكَ﴾ باستصحاب أخينا ﴿كَئِلَّ بِعِيرٍ﴾ وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا، فأبيّ شيء نطلب وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا؟! ﴿ذَلِكَ﴾ الذي جشناك به ﴿كَئِلَّ بِسَيْرٍ﴾ أي: مكيل قليل لا يكفينا. استقلّوا ما كيل لهم، فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك، ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو «ذلك» إشارة إلى «كيل بعير»، أي: ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك ولا يتعاضمه، بل يستقلّه. ويجوز أن يكون «كيل يسير» من كلام يعقوب رضي الله عنه. ومعناه: أن حمل بعير

شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

﴿قَالَ لَنْ أَسْأَلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت في يوسف ﴿حَتَّى تُوْتُونَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أوتق به من عند الله، أي: عهداً مؤكداً بذكر الله تعالى ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ جواب القسم، إذ المعنى: حتى تحلفوا بالله لتأتني به، أي: لتردونه إليّ. روي عن ابن عباس: يعني: حتى تحلفوا لي بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ألا تغدروا بأخيكم، ﴿إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تغدروا على الإتيان به، أو إلا أن تهلكوا جميعاً. وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال. والتقدير: لتأتني به على كل حال من الأحوال إلا حال الإحاطة بكم. أو من أعم العلل. على أن قوله: «لتأتني به» في تأويل النفي، أي: لا تمتنعون من الإتيان به لعلّة من العلل إلا لعلّة الإحاطة بكم، كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت، أي: ما أطلب إلا فعلك.

﴿قُلْنَا إِنَّهُمْ نَافِقُونَ﴾ ما يوتق به من اليهود والأيمان ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾

من طلب الموثق وإتيانه ﴿وَكَيْلٌ﴾ رقيب مطلع، إن أخلفتم بعدما أحلفتم.

﴿و﴾ ﴿لَمَّا تَجَهَّزُوا لِلسَّيْرِ إِلَى مِصْرَ﴾ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة، مشتهرين في مصر بالقربية والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانونا. وإنما لم يوضحهم بذلك في الكثرة الأولى، لأنهم كانوا مجهولين حينئذٍ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين.

واعلم أنه خلاف بين العلماء في تأثير العين، وجوزّه كثير من المحققين.

وروي فيه الخبر عن النبي ﷺ: «أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، وَالْعَيْنَ تَسْتَنْزِلُ الْحَالِقَ».

والحالق: المكان المرتفع من الجبل وغيره. فجعل ﷺ العين كأنها تحطّ ذرّة الجبل، من قوّة أخذها وشدة بطشها.

وروي في الخبر: أنه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام، بأن يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة.

وروي أن إبراهيم عليه السلام عوذ ابنه، وأن موسى عليه السلام عوذ ابني هارون بهذه العوذة.

وروي أن بني جعفر بن أبي طالب كانوا غلماناً بيضاً، فقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله إن العين إليهم سريعة، أفأسترقى لهم من العين؟ فقال عليه السلام: نعم.

وروي أن جبرئيل عليه السلام رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلمه الرقية. وهي: بسم الله أرقيك من كل عين حاسد، الله يشفيك.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». ثم اختلفوا في وجه الإصابة بالعين، فروي عن عمرو بن بحر الجاحظ أنه قال: لا ينكر أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة، فتصل به وتؤثر فيه، ويكون هذا المعنى خاصية في بعض الأعين، كالخواص في الأشياء. وليس ببعيد أن يحدث لله تعالى عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاءً من الله وامتحاناً لعباده. والله أعلم بحقائق الأمور.

﴿وَمَا أَغْنِي﴾ وما أَدْفَع ﴿عَنْكُمْ﴾ بما أشرت به إليكم من التفرق ﴿مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضى عليكم من المصيبة، فإن الحذر لا يمنع القدر ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوءاً، ولا ينفعكم ذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت إليه أمري ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الواو والفاء في عطف الجملة على الجملة، لتقدم الصلة، لاختصاص التوكُّل به، فكأن الواو للعطف، والفاء لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء صلى الله عليهم سبب لأن يقتدى بهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَاقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا  
 أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ  
 السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا  
 وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ  
 حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي  
 الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾  
 قَالُوا جزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾  
 فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا  
 لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ  
 مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي: من أبواب متفرقة في البلد ﴿مَا  
 كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأى يعقوب واتباعهم له في دخولهم متفرقين ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

مما قضاء عليهم، فسرقوا<sup>(١)</sup> وافترضوا بذلك. وأخذ بنيامين بوجودان الصواع في رحله. وتضاعفت المصيبة على يعقوب ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أظهرها ووصى بها. والاستثناء منقطع، أي: ولكن حاجة في نفسه، يعني: إظهار شفقتة عليهم، ودغدغته من أن يعانوا.

﴿وَأَنَّهُ لَدُوْ عِنْمِ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: حصل له العلم بتعليمنا إياه بطريق الوحي ونصب الحبيج، ولذلك قال: «وما أغني عنكم من الله من شيء»، ولم يفتر بتدبيره ﴿وَلَكِنْ أَخْتَرْنَا النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سرّ القدر، وأنه لا يغني عنه الحذر. أو لا يعلمون مرتبة يعقوب في العلم، أو ما ألهم الله أوليائه.

﴿وَلَمَّا نَخَلُوا عَلَىٰ يُوْسُفَ أَوْىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمّ إليه بنيامين على الطعام، أو في المنزل.

روي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به. فقال لهم: أحسستم وأصبتم، وستجدون أجره عندي. فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم فأجلسهم منى منى على مائدة. ولما أجلس كل اثنين على مائدة وبقي بنيامين وحيداً بكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكله. ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات عنده. وقال له: أتحتب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل. فبكى يوسف وقام إليه وعانقه. ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن. افتعال من البؤس، وهو العزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْفَلُونَ﴾ يعمل إختوتنا في حقنا، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقِيَّةَ﴾ المشربة ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: أمر حتى جعلها في متاع أخيه. وإنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لوقوعه بأمره. روي أنها

(١) في هامش النسخة الخطية: «التسريق إسناد السرقة إلى الغير. منه».

مشربة جعلت صاعاً في السنين الشداد القحاط يكال بها، فهي الصواع. وقيل: كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به. وقيل: كانت الدواب تسقى بها، ويكال بها. روي أنها كانت إناءً مستطيلاً يشبه المكوك<sup>(١)</sup>. وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، تشرب به الأعاجم، وكانت من فضة موهة بالذهب. وقيل: كانت من ذهب مرصعة بالجواهر. وروي أنهم ارتحلوا وأمهلم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بردهم فأدركوا وحسوا.

﴿فَمِ أذْنُ مُؤَدِّنٍ﴾ نادى منادٍ. يقال: أذنه إذا أعلمه، وأذن: إذا أكثر الإعلام. ومنه: المؤذن، لكثرة ذلك منه. ﴿أَيُّهَا النُّجِيُّ إِنَّكُمْ لَنَسَارِقُونَ﴾ والعيير القافلة. وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال، لأنها تعير. أي: تذهب وتجيء، فقيل لأصحاب العير، كقوله ﷺ: يا خيل الله اركبي، بمعنى: يا صاحب الخيل. وقيل: جمع عير. وأصله: قتل، كسُفِّفَ وسُفِّفَ، فعل به ما فعل ببيض. يطلق على قافلة الحمير، ثم استعير لكل قافلة.

قيل: إنما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع في رحالهم.

وقيل: إن يوسف أمر المنادي بأن ينادي به، ولم يرد به سرقة الصاع، وإنما عنى به أنكم سرقتم يوسف عن أبيه وأقيمتوه في الجب.

وقيل: إن الكلام يجوز أن يكون خارجاً مخرج الاستفهام، كأنه قال: أنتم لسارقون، فأسقط همزة الاستفهام.

ويؤيده ما روي عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال: «ما سرقوا ولا كذب».

(١) المكوك: مكيال يسع صاعاً ونصف صاع، أو نحو ذلك، أو طاس يشرب فيه. وجمعه مكاكيك.



وقيل: كان تعبئة السقاية والنداء على السرقة برضا بنيامين.  
 وكانت عبارة الكشاف هكذا: «وروي أنه قال له: أنا لا أفارقك. قال: قد علمت اغتنام والدي بي، فإذا حبستك ازداد غمّه، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل. قال: لا أبالي فافعل ما بدالك. قال: فأني أدس صاعِي في رحلك. ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته، ليتها لي ردك بعد تسريحك معهم. قال: افعل»<sup>(١)</sup>. انتهى كلامه.

أقول: ظاهر هذه الرواية غير مطابق لأصول الكلام كما لا يخفى.  
 وقال في المجمع: «ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى. وروي أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقاً إلى التمسك به»<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالُوا﴾ قال أصحاب العير ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ حال كونهم مقبلين على أصحاب يوسف ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي شيء ضاع عنكم؟ والفقد غيبة الشيء عن البصر بحيث لا يعرف مكانه.

﴿قَالُوا نَفَقَدْ ضَوَّاعَ الْمَلِكِ وَلَيْمَنْ جَاءَ بِهِ جِفْلٌ بَعِيرٍ﴾ من الطعام، جعلاً له ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجمالة وضمان الجعل قبل تمام العمل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب. والتاء بدل من الباء. مختصة بالله سبحانه. ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَعَلْنَا لِنَفْسِكَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومدخلتهم للملك مما يدل على فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم، وكعم<sup>(٣)</sup> أفواه الدواب لتلا تناول

(١) الكشاف ٢: ٤٨٩.

(٢) مجمع البيان ٥: ٢٥٢.

(٣) كعم البعير كعماً: شدّ فمه لتلا يعضّ أو يأكل.

زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل الأسواق. ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ وما كنا نوصف قط بالسرقة، فالسرقة منافية لحالنا.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ فما جزاء السارق أو السرقة أو الصواع، على حذف المضاف، أي: جزاء سرقة الصواع ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء سرقة من وجد في رحله، واسترقاقه سنة. هكذا كان شرع يعقوب عليه السلام. وقوله: «فهو جزاؤه» تقرير للحكم والزام له، أو خبر «من» والفاء لتضمنها معنى الشرط، أو جواب لكلمة «من» على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر «جزاؤه» على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير، كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما ذكرناه من الجزاء ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة، يعني: إذا سرقوا استرقوا.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ فبدأ المؤذن. وقيل: بدأ يوسف بأوعيتهم، لأنهم ردوا إلى مصر. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ بنيامين نفيًا للتهمة ﴿ثُمَّ اسْتَفْخَرْنَا﴾ أي: السقاية أو الصواع، لأنه يذكر ويؤنث ﴿مِنْ وَعَاءٍ أُخِيهِ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الأمر الخفي الذي هو في صورة الكيد والبهتان لا حقيقة، كما مر<sup>(١)</sup> في تفسير قوله: «ثم أذن مؤذن... إلخ» ﴿بَدَأَ يُوسُفُ﴾ بأن علمناه إتياءه وأوحينا به إليه ليتوصل بما يتهدى له أن يحبس أخاه، ليكون ذلك سبباً لوصول خبره إلى أبيه ﴿مَلَكَانِ يَأْخُذُ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ملك مصر، لأن دينه الضرب وتغريم ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق. وهو بيان للكيد ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا بمشيئة الله وإذنه أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك. فالاستثناء من أعم الأحوال. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي

عَلَّمَ غَلِيْمًا ﴿٧٦﴾ أَرَفَعَ دَرَجَةً مِنْهُ فِي عِلْمِهِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْعَالَمِ لِذَاتِهِ ، فَلَا يَخْتَصُّ بِمَعْلُومٍ دُونَ مَعْلُومٍ ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَعَدَاهُ .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ  
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَتِ  
الْعَزِيزِ إِنْ لَهُ أَبُو شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ  
﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا  
لظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

روي: أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياة، وأقبلوا عليه وقالوا له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسودت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ ثم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقُ﴾ بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ﴾ يعنون يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فليست سرقة بأمر بديع، فإنه اقتدى بأخيه يوسف.

قيل: ورثت عمته من أبيها منطقة<sup>(١)</sup> إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبه حباً شديداً، فلما ترعرع أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها فوجدت محزومة عليه، فصارت أحق به في شريعتهم.

(١) الْمِنْطَقَةُ: مَا يَنْتَقَطُ بِهِ، أَي: يَشُدُّ عَلَى الْوَسْطِ.

وقيل: كان لأبي أمه صنم، فسرقه وكسره وألقاه في الجيف. وقيل: كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاها السائل.

والقول الأول أشهر وأكثر، ومروي عن أنتمنا عليه السلام وابن عباس والضحاك والجبائي.

﴿ قَاتِرَهَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ فأخفى يوسف تلك الكلمة التي قالوها، أو تلك الإجابة، أو نسبة السرقة إليه ﴿ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ ﴾ ولم يظهرها لهم. وقيل: الضمير كناية بشرطة التفسير، وتفسيرها قوله: ﴿ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ﴾ فإنه بدل من «أسرها». والمعنى: قال في نفسه: أنتم شرُّ مكاناً، أي: منزلة في السرقة، لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه من ظلمكم على أخيكم وعقوق أبيكم. وتأنيت هذا القول باعتبار الكلمة أو الجملة. وفيه نظر، إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ وهو يعلم أنه ليس الأمر كما تصفون، ولم يصح لي ولأخي سرقة.

ثم رفقوا في القول واستعطفوه بذكر أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في القدر أو السن ﴿ فَخُذْ أَخَدْنَا مَكَانَهُ ﴾ بدله على وجه الاسترهان أو الاستجداء، فإن أباه تكلان على أخيه الهالك، مستأنس به ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إما متعدي، ومعناه: من المحسنين إلينا. فأستم إحسانك. أو لازم، ومعناه: من الذين عادتهم الإحسان، فلا تغيّر عادتك.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ ﴾ نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به، وحذف «من» ﴿ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ هذا كلام موجه بوجهين، ظاهره: أن أخذ غيره ظلم على فتواكم، فلو أخذنا أحدكم مكانه ﴿ إِنَّا إِذَا نَطَّالِمُونَ ﴾ في مذهبكم هذا، فلا تطلبوا مني ما تعرفون أنه ظلم. وباطنه: أن الله تعالى أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله، لمصلحته ورضاه عليه، فلو أخذت غيره كنت ظالماً عاملاً بخلاف ما أمرت به.

فَلَمَّا اسْتَيْسَاسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ  
 أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أُبْرِجَ الْأَرْضَ  
 حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ  
 أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ  
 حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا  
 لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَاسُوا مِنْهُ﴾ يسوا من يوسف وإجابته إيتاهم. وزيادة السين والتاء للمبالغة، مثل: استعصم. وعن البرزي: استأيس. بالألف وفتح الياء من الهمزة. وإذا وقف حمزة ألقى حركة الهمزة على الياء على أصله. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا عن الناس واعتزلوا بحيث لا يخالطهم سواهم ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين. وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنته، كما قيل: هم صديق. وجمعه أنجية، ك: ندي وأندية. أو كان التقدير: ذوي نجوى، أو فوجاً نجياً، أي: متناجياً. وكان تناجيهم في تدبير أمرهم، أيرجعون أم يقيمون؟ وإذا رجعوا فماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن، وهو روييل ابن خالة يوسف، وهو الذي نهى إخوته عن قتله. أو في الرأي والعلم، وهو شمعون، وكان رئيسهم. وقيل: في الشجاعة، وهو يهوذا. وعن محمد بن إسحاق وعلي بن إبراهيم بن هاشم<sup>(١)</sup> أنه

(١) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٤٩.

لاوي. ﴿أَنْتُمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مِيثَاقًا مِنَ اللَّهِ﴾ عهداً وثيقاً. وإنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه، لأنه ياذن منه وتأكيده من جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا ﴿مَا قَرَّرْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه.

و«ما» مزيدة. ويجوز أن تكون مصدرأ، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء، وخبره الظرف، وهو «من قبل». ومعناه: ووقع من قبل تفريطكم في يوسف. أو التصب عطفأ على مفعول «ألم تعلموا»، وهو «أن أباكم». ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف. كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف. وأن تكون موصولة، بمعنى: ومن قبل هذا ما قدتموه في حقه من الخيانة العظيمة. ومحلّه ما تقدّم.

﴿قُلْنَا ابْرَأْكَ الْأَرْضِ﴾ فلن أفرق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكَمْ اللَّهُ لِي﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَاجِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿ارْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِنُغَيِّبَ﴾ للأمر الخفي ﴿خَافِظِينَ﴾ فلا ندري أنه سرق، أو سرق ودس الصواع في رحله. أو وما كنا للعواقب عالمين، فلم ندر حين إعطيناك الموثق أنه سيسرق، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف.

﴿وَأَسْأَلُ النَّقْرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر. والعرب تسمي الأمصار والمدائن قرى. أو قرية بقرها لحقهم المنادي فيها لطلب السقاية. والمعنى: أرسل إلى أهلها وأسألهم عن القصة. ﴿وَالنَّجِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير التي توجهنا فيها وكنا معهم. وهم كانوا فوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل: من

أهل صنعاء. وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا أهل تهمة عند يعقوب. ﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد في محل القسم.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال أخوهم ﴿قَالَ﴾ ما عندي أن الأمر على ما تقولونه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زينت وسهلت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أردتموه فقدّرتموه، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقة لولا تعليمكم ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمرني صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يوسف وبنيامين وأخيها الذي توقف بمصر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي في الحزن والأسف، وبخالهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تديره، لم يبتلني إلا بحكمة ومصالحة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: يا أسفاً، تعال فهذا أوانك. والأسف أشد الحزن والحسرة. والألف بدل من ياء المتكلم. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه والأمر الحادث هو مصيبتها، لأن مصيبة يوسف وإن كانت قديمة، لكن كانت قاعدة المصيبات التي ترتبت عليها الرزايا في ولده. أو لأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً عنده، أخذاً بمجامع قلبه. ولأنه كان واتقاً بحياتهما دون حياته.

عن ابن عباس أنه قال: لم تعط أمة من الأمم «إنا لله وإنا إليه راجعون» عند

المصيبة إلا أمة محمد ﷺ. ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال: «يا أسفى على يوسف».

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ لكثرة بكائه ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ والغم الشديد. فكان العبرة محقت سواد العين، وقلبت إلى بياض كدر. وقيل: ضعف بصره، وكان لا يرى إلا رؤية ضعيفة. وقيل: إنه عمي ست سنين. وروى: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على الأرض أكرم على الله من يعقوب. قيل اشترى يعقوب يوماً جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت، ولأجل ذلك ابيضت عيناه من كثرة البكاء في فراق يوسف.

وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند الفجع. ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف، فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وأنا عليك يا إبراهيم لمحزونون.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، ولا يظهره. فعيل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾<sup>(١)</sup>. من: كظم السقاء إذا شده على ملئه. أو بمعنى فاعل، كقوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾<sup>(٢)</sup>. من: كظم الغيظ إذا اجترعه. وأصله: كظم البعير جرته<sup>(٣)</sup> إذا ردّها في جوفه.

وعن رسول الله ﷺ «أنه سأل جبرئيل ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين تكلى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنّه بالله ساعة قط».

(١) القلم: ٤٨.

(٢) آل عمران: ١٣٤.

(٣) الجرّة: ما يخرج البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه.



قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ  
 ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ  
 ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ  
 إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ أي: لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفجعاً عليه.  
 فحذف «لا»، كما في قول امرئ القيس<sup>(١)</sup> - حين ذهب ذات ليلة إلى قصر بنت  
 قيصر ملك الروم. فقالت: حضرت الرقباء، ولم يتيسر الوصال -:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي  
 لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القسم إذا لم تكن معه علامة الإثبات كان على  
 النفي، ولو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والتون.

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مشرفاً على الهلاك. وقيل: الحرص الذي أذابه  
 همٌ أو مرض. وهو في الأصل مصدر، ولذلك لا يؤنث ولا يجمع. والنعث بالكسر،  
 كدنف ودنف. وهو المرض الذي لا يرجى زواله. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ من  
 الميئين.

قيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يا يعقوب قد تهشمت وفنيت، وبلغت  
 من السن ما بلغ أبوك. فقال: هشمني وأفاني ما ابتلاني الله به من هم يوسف.  
 فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب خطيئة أخطأتها  
 فاغفر لي. فكان بعد ذلك إذا سئل ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ همتي الذي لا أقدر الصبر

عليه، من البتّ بمعنى النشر ﴿وَحُزْنِي﴾ وشدة غمّي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فخلّوني وشكايتي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته، وأنه لا يخيب داعيه، ولا يدع الملتجىء إليه. أو وأعلم من الله بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف.

وقيل: إنه أوحى إلى يعقوب: إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه، وإن أحبّ خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين لأرجع إليك يوسف، فصنع ذلك. ولهذا قال: «وأعلم من الله ما لا تعلمون».

وقيل: رأى ملك الموت في المنام فسأله عن يوسف، فقال: هو حيّ. وفي كتاب النبوة بالإسناد عن سدير الصيرفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن يعقوب دعا الله سبحانه في أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابته. فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرني هل مرّ بك روح يوسف في الأرواح؟ فقال: لا. فعلم أنه حيّ. وقيل: علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخّر له إخوته سجداً، ولذلك قال: ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّسُوا﴾ أي: فتجسسوا وتفحصوا ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرّفوا منهما. والتحسس تطلب الإحساس، وهو المعرفة. وكذا بالجيم. ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيه. وقيل: من رحمته. ﴿إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ بالله تعالى وصفاته، فإنّ المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال عند البلاء.

قال الجبائي: العلة في خفاء أخبار يوسف على يعقوب في المدّة الطويلة مع قرب المسافة، وعدم إخبار يوسف حاله له، أنه حمل إلى مصر فبيع من عزيز فألزمه داره، ثم لبث في السجن بضع سنين، فانقطعت أخبار الناس عنه، فلما تمكّن احتال في إيصال خبره بأبيه على الوجه الذي أمكنه، وكان لا يأمن لو بعث

رسولاً إليه أن لا يمكنه إخوته من الوصول إليه.

وقال المرتضى رحمته: «يجوز أن يكون ذلك ليوسف ممكناً، وكان عليه قادراً. لكن الله سبحانه أوحى إليه بأن يعدل عن اطلاعه على خبره تشديداً للمحنة عليه. والله سبحانه أن يصعب التكليف وأن يسهله»<sup>(١)</sup>.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ  
مُزْجَاةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

ولما قال يعقوب لبيه: «اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه» رجعوا إلى مصر رجعة ثانية ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ﴾ الهزال من شدة الجوع. شكوا إلى يوسف ما نالهم من القحط وهلاك المواشي. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ رديئة أو قليلة، تردّ وتدفع رغبة عنها، من: أزعجته إذا دفعته، ومنه تزجية الزمان. قيل: كانت دراهم زيوفاً<sup>(٢)</sup> لا تتفق في ثمن الطعام. وقيل: صوفاً وسمناً. وقيل: الصنوبر والحنطة الخضراء. وقيل: الأقط<sup>(٣)</sup> وسويق المقل.

﴿فَأَوْفٍ﴾ فاتم ﴿لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالمسامحة وقبول المزجاة، والإغماض عن رداءته، أو بالزيادة على ما يساويها. وقيل: بردّ أخينا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء. والتصدق التفضل مطلقاً. ومنه قوله عليه في القصر<sup>(٤)</sup>: «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»، لكنه اختص عرفاً

(١) تنزيه الأنبياء: ٥٧.

(٢) الزُيُوف جمع الزائف، وهو: الدرهم الرديء، المرود الذي دخله غش.

(٣) الأقط: الجبن.

(٤) أي: في قصر الصلاة في السفر.

بعطيته يبتغى بها ثواب من الله. وتسميتهم ما هو فضل وزيادة صدقة. لا يلزمها صدقة حقيقة، لأن الصدقات محظورة على الأنبياء. وقيل: كانت تحل لغير نبينا ﷺ.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا  
إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى  
وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَاكَ اللَّهُ  
عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ  
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

ولما رأى يوسف من عجزهم وتمسكنهم لم يتمالك إلا أن عرفهم نفسه  
و ﴿قال﴾ لهم استفهاماً عن وجه التبيح ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف﴾ من إذلاله  
وإبعاده عن أبيه، وإلقائه في البئر، والاجتماع على قتله، وبيعته بثمان بخس  
﴿وأخيه﴾ من إفراده عن يوسف، والتفريق بينهما، حتى صار ذليلاً فيما بينكم، لا  
يستطيع أن يكلمكم إلا بجزء وذلة ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ تبحه، فلذلك أقدمتم عليه،  
أو عاقبته. وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لا  
معاقبة وتثريباً. وإنما جهلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ  
صبياناً مشرفين العلم طياشين<sup>(١)</sup>.

(١) الطياش: من لا يقصد وجهاً واحداً لخفة عقله.

وقيل: أعطوه كتاب يعقوب مضمونه: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء. أما جذي، فشئت يده ورجلاه ورمي به في النار ليحرق، فنجاه الله، وجعلت النار عليه برداً وسلاماً. وأما أبي، فوضع السكين على قفاه ليقتل، ففداه الله. فأما أنا، فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ وقرة عيني وثمره فؤادي، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائي عليه. ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وإنك حبسته عني وفجعتني به. وقد اشتد لفراقه حزني، حتى تقوس لذلك ظهري. وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وزال صبره، ووضع على عينيه، وانتحب حتى بلت دموعه القميص الذي عليه. ثم أقبل عليهم فقال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟

﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حَقَّقَ «إِنَّ» ودخول اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب<sup>(١)</sup>. قيل: عرفوه بزيت وشمائله حين كلمهم به وقيل: تبسم فعرفوه بنشايه، فإنها كانت كالؤلؤ المنظوم. وقيل: رفع التاج عن رأسه، فأرأوا علامة بناصيته تشبه الشامة<sup>(٢)</sup> البيضاء، وكانت لسارة ويعقوب مثلها.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي. ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالسلامة والكرامة. والاجتماع بعد طول الفرقة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَقِقْ﴾ يخف الله ﴿وَيُضَيِّرْ﴾ على البليات، أو على الطاعات

(١) أي: إنك، بدون همزة الاستفهام.

(٢) الشامة: الخال، أي: بثرة سوداء في البدن حولها شعر.

وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع «المحسنيين» موضع الضمير للتنبية على أنّ المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بالحلم والعقل والعلم والملك، وحسن الصورة وكمال السيرة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ﴾ والحال إنّ شأننا أنّا كنا مذنبين عمداً بما فعلنا معك، فلا جرم أنّ الله أعزك وأذلنا.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تعير عليكم. تفعليل من الثرب، وهو الشحم الذي يغشي الكرش. ومعناه: إزالة الثرب، فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه. ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بالثريب، أو بالمقدّر للجواز الواقع خبراً لـ«لا تثريب». والمعنى: لا أثريبكم اليوم الذي هو مظنة الثريب، فما ظنكم بسائر الأيام؟! أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنّه صفح عن جريمتهم حين اعترفوا بها.

روي: أنّ رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش: ما تروني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظنّ خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت. فقال: أقول ما قال أخي يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم».

﴿وَهُوَ أَزْكَمُ الرَّاجِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضّل على الثائب. ومن جملة كرم يوسف أنّهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك. فقال: إنّ أهل مصر كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى، ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنّكم إخوتي، وأنّي من حفدة إبراهيم عليه السلام.

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْتَوُّهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَفْتَدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ  
 الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا  
 تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ  
 سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

وروي أنه ﷺ لما عرفهم نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟  
 قالوا: ذهبت عيناه. فقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وهو القميص الذي كان عليه.  
 قيل: القميص المتوارث من إبراهيم الذي كان في التعويذ. وهو الأصح. وهذا كان  
 معجزاً منه، إذ لا يعرف أنه يعود بصيراً بالقاء القميص على وجهه إلا بالوحي، كما  
 قال مجاهد: إن جبرئيل أمره أن أرسل إليه قميصك، فإن فيه ريح الجنة، لا يقع  
 على مبتلى ولا سقيم إلا صح وعوفي.

﴿فَالْقَوَّةُ غَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَاتُ بِبَصِيرًا﴾ يرجع ذا بصر، أو يأت أبي وهو بصير  
 ﴿وَأَتُونِي﴾ أنتم وأبي ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنسائكم وذرائكم ومواليكم.  
 قيل: يهودا هو حامل القميص، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطخاً بالدم  
 إليه، فأفرجه كما أحزنته.

وقيل: حملة وهو حافٍ حاسر من مصر إلى كنعان، وبينهما مسيرة ثمانين  
 فرسخاً، وكان معه سبعة أرغفة، فلم يستوف الأربعة في الطريق.

﴿وَلَمَّا فَضَلَتْ الْعَجِيزُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها. يقال: فصل من البلد  
 فصولاً، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره من حفده ﴿إِنِّي  
 لَأَجْدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ روي عن أبي عبدالله ﷺ قال: «وجد يعقوب ريح يوسف حين

فصلت العير من مصر وهو بفلسطين، من مسيرة عشرة ليالٍ». وعن ابن عباس: مسيرة ثمان ليالٍ. وعنه أيضاً أنّ ريحاً هاجت فحملت ريح يوسف من قميصه. وذكر أنّ الصبا استأذنت ربّها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها، فأتته بها، ولذلك يترّوح كلّ محزون بريح الصبا.

فلما وصلت الريح إلى يعقوب قال: إني لأجد ريح يوسف ﴿لَوْلَا أَنْ تَفْتُنُونِي﴾ لولا أن تنسبوني إلى الفند. وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال: عجوز مفنّدة، لأنّ نقصان عقلها ذاتي. وجواب «لولا» محذوف، تقديره: لصدّتموني، أو لقلت: إنّه قريب.

﴿قَالُوا﴾ أي: الحاضرون ﴿ثَانِهِ إِنَّكَ لِنِي ضَلَالِكَ النَّقِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً، بإفراط محبتك ليوسف، وإكثار ذكره، وتوقّعك للقائه، وكان عندهم أنّه قد مات.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَيْتِيُّزُ﴾ يهوذا ﴿انْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازِنَدُ بِصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوّة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ نِي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾ من حياة يوسف وإنزال الفرج. وقيل: «إني أعلم» كلام مبتدأ، والمقول «لا تيأسوا من روح الله». أو «إني لأجد ريح يوسف».

روي: أنّه سأل البشير كيف يوسف؟ قال: هو ملك مصر. قال: ما أصنع بالملك؟! على أيّ دين تركته؟ قال: على دين الاسلام. قال: الآن تمّت النعمة.

ولما اجتمع الإخوة عند أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِبِينَ﴾ ومن حقّ المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأل له المغفرة.

﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخره إلى السحر، أو إلى صلاة الليل، أو إلى ليلة الجمعة، تحريماً لوقت الإجابة، أو ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، أو إلى أن يستحلّ لهم يوسف، أو يعلم أنّه عفا عنهم، فإنّ



عفو المظلوم شرط المغفرة .

وقيل : قام إلى الصلاة في وقت السحر ، فلما فرغ رفع يديه فقال : اللهم اغفر لي جزعي على يوسف ، وقلّة صبري عنه ، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم . فأوحى إليه : أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين .

وروي : أنهم قالوا ليعقوب وقد علتهم الكآبة : إن لم يوح إليك بالعضو عنّا فلا قرّت لنا عين أبداً . فاستقبل القبلة قائماً يدعو . وقام يوسف خلفه يؤمّن ، وقام إخوته خلفهما . أذلة خاشعين عشرين سنة . حتى بلغ جهدهم ، وظنوا أنّ الهلكة وقعت عليهم . فنزل جبرئيل عليه السلام : قد أجاب دعوتك في ولدك .

وروي : أن يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه ، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند ، والعظماء وأهل مصر بأجمعهم ، فلحقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الغيل والناس ، فقال يا يهوذا : أهذا فرعون مصر ؟ قال : لا هذا ولدك .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ  
اللَّهُ آمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا  
تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ  
السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ  
رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ فلما لقيه يعقوب وأهله في موضع خارج من

مصر أو في بيت هناك، قال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله، فلما رآه همّ أن يترجّل له، ثمّ نظر إلى ما هو فيه من الملك فلم يفعل. فلما سلّم على يعقوب نزل عليه جبرئيل. فقال له: يا يوسف إنّ الله جلّ وعلا يقول: منعك أن تنزل إلى عبدي الصالح ما أنت فيه، أبسط يدك، فبسطها فخرج من بين أصابعه نور، فقال: ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا إنّ لا يخرج من صلبك نبيّ أبداً، عقوبة بما صنعت بيعقوب، إذ لم تنزل إليه».

وعلى تقدير صحّة هذه الرواية فالعتاب على يوسف لأجل ترك ندب وأدب صدر منه، لا ترك واجب، لمكان العصمة فيه.

قيل: إنّ يوسف قال له لما التقيا: يا أبت بكيت عليّ حتّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى، ولكن خشيت أن يسلب دينك، فيحال بيني وبينك.

وقيل: إنّ يعقوب وولده وسائر أهله دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وستين رجلاً، سوى الذرّيّة والهرمي، وكانت الذرّيّة ألف ومائتي ألف.

وحين دخلوا على يوسف ﴿أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ﴾ ضمّ إليه أباه وخالته واعتقهما. نزلها الله تعالى منزلة الأمّ تنزيل العمّ منزلة الأب في قوله: ﴿وَالَهُ آبَاؤُكَ إِنِّزَاهِيْمٌ وَإِسْمَاعِيْلٌ وَإِسْحَاقُ﴾<sup>(١)</sup>. أو لأنّ يعقوب تزوّجها بعد أمّه، والرابة تدعى أمّاً. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره. وحذف

الجزء لدلالة الكلام عليه. والمشينة متملّقة بالدخول المكثّف بالأمن.

ولما دخلوا مصر عظّمهم وكرّمهم ﴿وَزَفَعِ ابْنُوهُ عَلَيَّ الْعِزَّةَ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ تحية وتكرمة له، فإنّ السجود كان عندهم يجري مجراها، وقيل: معناه: خرّوا لأجله سجداً لله شكراً. وقيل: الضمير لله تعالى، والواو لأبويه وإخوته. وهذا مروى عن أبي عبد الله عليه السلام.

وقال عليّ بن إبراهيم: «حدّثني محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين أنّ يحيى بن أكرم سأل موسى بن محمّد بن عليّ بن موسى مسائل، فعرضها عليّ أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام، فكان إحداها أن قال: أخبرني أسجد يعقوب وولده ليوسف؟ فأجاب أبو الحسن عليه السلام: أما سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف، وإنّما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية ليوسف، كما أنّ السجود من الملائكة لآدم كان منهم طاعة لله وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم»<sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ رأيتها أيام الصبا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ يقال: أحسن بي وإليّ، وأساء بي وإليّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر الحبّ لئلا يكون تريباً عليهم ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية، لأنّهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أفسد بيننا وحرش، من: نزغ الرائض<sup>(٢)</sup> الدابة، إذا نخسها وحملها على الجري.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطيف في تدبير عباده، إذ ما من صعب إلّا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهّل دونها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح في تدابير العباد ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كلّ شيء في وقته، وعلى وجه تقتضي الحكمة. روي: أنّ يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن

(١) تفسير عليّ بن إبراهيم ١: ٣٥٦.

(٢) الرائض: الذي يعلم الدوابّ السير ويدلّها ويطوّعها.

الورق والذهب وخزائن الحلّي وخزائن الثياب وخزائن السلاح، وغير ذلك. فلما أدخله خزنة القراطيس قال: يا بني ما أعفك! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبرئيل. قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط منّي إليه فاسأله. فقال جبرئيل: الله أمرني بذلك، لقولك: «وأخاف أن يأكله الذئب». قال: فهلاً خفتني.

وفي كتاب النبوة بالإسناد عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قلت له: كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال: عاش حولين. قلت: فمن كان الحجّة لله في الأرض، يعقوب أم يوسف؟ قال: كان يعقوب الحجّة، وكان الملك ليوسف، فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدفنه في بيت المقدس، وكان يوسف بعد يعقوب الحجّة. قلت: وكان يوسف رسولاً نبياً؟ قال: نعم. أما تسمع قوله عليه السلام: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾؟».

وفي رواية أخرى: أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات. وأوصى أن يدفنه في الشام إلى جنب أبيه إسحاق. فمضى بنفسه ودفنه، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة.

وبالإسناد عن أبي خالد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «دخل يوسف السجن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ومكث فيها ثماني عشرة سنة، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة، فذلك مائة وعشر سنين».

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

ولما جمع الله سبحانه له شمله، وأقرّ له عينه، وأنتم له رؤياه، ووشع عليه في

ملك الدنيا ونعيمها. علم أنّ ذلك لا يبقى له ولا يدوم. فطلب من الله سبحانه نعيماً لا يفنى. وتاقت نفسه إلى الجنة. فتمنى الموت ودعا به. ولم يتمن ذلك من قبله ولا بعده أحد من الأنبياء. فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض ملك الدنيا. وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمَنِي مِمَّنْ تَأْوِيلِ الْأَخْيَارِ﴾ الكتب أو الرؤيا. و«من» أيضاً للتبويض. لأنه لم يؤت كل التأويل.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما. وانتصابه على أنه صفة المنادى. أو منادى برأسه. ﴿أَنْتَ وَيَسَّى﴾ ناصري. أو متولّي أمري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني عند انقضاء أجلي ﴿مُسْلِماً وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي. أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة.

روي أنّ يوسف لما توفاه الله طيباً طاهراً تخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هتموا بالقتال. فأرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء. ثم يصل إلى مصر. ليكونوا شرعاً فيه. ثم نقله موسى ﷺ إلى مدفن آبائه. وقد ولد له من راعيل ميسا وأفرايم. وهو جدّ يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب ﷺ.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ  
وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف. والخطاب للرسول ﷺ. وهو مبتدأ. وقوله: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كالدليل على هذين الخبرين. والمعنى: أنّ هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بوحي. لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هتموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب. وهم يمكرون به وبأبيه

ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذِّبِك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فعلمته منه. وإنما حذف هذا الشق استغناءً بذكره في غير هذه القصة، كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾<sup>(١)</sup>. وهذا تهكم بقريش وبمن كذبوه.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَنِّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

ولما تقدّم ذكر الآيات والمعجزات التي لو تفكروا فيها عرفوا الحقّ من جهتها فلم يتفكروا، بين عقبيها أنّ التقصير من جهتهم حيث رضوا بالجهل، وليس من جهته سبحانه، لأنّه نصب الأدلّة والبيّنات، ولا من جهتك، لأنك دعوتهم، فقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يريد العموم، وعن ابن عباس: أراد أهل مكة. ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات عليهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم، وتصميمهم على الكفر. والشرطيّة معترضة.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الأنبياء، أو القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل، كما يعطى حملة الأخبار، فيصدّهم ذلك عن الإيمان، فأعذارهم منقطعة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْرٌ﴾ عظة

من الله ﴿بِلْعَالَمِينَ﴾ عامة.

﴿وَعَايِنِ مِنْ آيَةٍ﴾ وكم من علامة ودلالة من الدلائل على وجود الصانع وحكمته. وكمال قدرته وتوحيده ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الشمس والقمر، والسحاب والنجوم والجبال، والشجر وألوان النبات، وأحوال المتقدمين، وآثار الأمم السالفة في الأرض ﴿يَمْزُورُونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالفته ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره، أو باتخاذ الأحرار أرباباً، أو نسبة التنبؤ إليه، أو القول بالنور والظلمة، أو النظر إلى الأسباب كأهل التنجيم، أو الذين يشبهون الله بخلقه. وقيل: هم مشركوا مكة. وقيل: المنافقون. وقيل: أهل الكتاب.

وعن الباقر عليه السلام: «أنه شرك الطاعة لا شرك العبادة، أطاعوا الشيطان في ارتكاب المعاصي».

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام: «في شأن رجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لضاع عيالي، جعل لله شريكاً في ملكه تعالى، يرزقه ويدفع عنه». وروي محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: «إنه شرك لا يبلغ به الكفر».

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها، غير مستعدين لها.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي

إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ  
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿قُلْ هَذِهِ﴾ يعني: الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد ﴿سَبِيلِي﴾ ثم فسر  
السبيل بقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى توحيده وعدله. قيل: هو حال من الياء. ﴿عَلَى  
بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحنة واضحة غير عمياء ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في «أدعو» أو  
«على بصيرة». أو مبتدأ خبره «على بصيرة». ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه  
﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وأنزله الله من الشركاء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزله تنزيهاً من  
الشركاء.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً﴾ (١).  
وقيل: معناه نفي استنباء النساء. ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما يوحى إليك، ويميزون بذلك  
عن غيرهم. وقرأ حفص: نوحى، في كل القرآن. ووافقه حمزة والكسائي في سورة  
الأنبياء (٢). ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من البدو. وأهل البوادي من  
أهل الجفاء والقسوة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من  
المكذبين بالرسول والآيات، فيحذروا تكذيبك. أو من المشغوفين بالدنيا المتهاكين  
عليها، فيقلعوا عن حبها ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ودار الحال، أو الساعة، أو الحياة الآخرة  
﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا  
أنها خير.

(١) فصلت: ١٤.

(٢) الأنبياء: ٧.



روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «شيء يسير من الجنة خير من الدنيا وما فيها».

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء. حملاً على قوله: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي». أي: قل لهم: أفلا تعقلون.

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ  
مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ  
عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ  
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

تم أخبر سبحانه عن حال الرسل مع أممهم تسلياً للرسول ﷺ. فقال:  
﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ غاية محذوف دل عليه الكلام، أي: لا يفرهم تمادي  
أيامهم، فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو عن  
إيمانهم، لانهما كهم في الكفر، مترقهن متمادين فيه من غير مانع. أو التقدير: وما  
أرسلنا قبلك إلا رجالاً قد تأخر نصرنا إياهم، كما أخرناه عن هذه الأمة. حتى إذا  
استيسس الرسل.

﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون. أو  
كذبهم القوم بوعد الإيمان. وقيل: الضمير للمرسل إليهم، أي: وظن المرسل إليهم أن  
الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل: الأول للمرسل إليهم، والثاني للمرسل،  
أي: وظنوا أن الرسل قد كذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر، وخلط الأمر  
عليهم.

وما روي عن ابن عباس: أن الرسل ظنوا أنهم أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، إن صحَّ فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر، فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وأنه متعالٍ عن خلف الميعاد، منزّه عن كل قبيح؟! وقرأ غير الكوفيين بالتشديد، أي: وظنَّ الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدوهم.

﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءِ﴾ النبي والمؤمنين. وإنما لم يعتهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم، لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: فَنُجِّيَ<sup>(١)</sup>، على لفظ الماضي المبني للمفعول. ﴿وَلَا يُؤْذُ بِأَسْفَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأممهم، أو في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ وبصيرة وموعظة ﴿لِلَّذِينَ الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول السبرأة عن الشوائب، والركون إلى الحسِّ وسائر الأغراض، فإن من تفكَّر بالعقل الخالص أن نبينا ﷺ لم يقرأ كتاباً، ولا سمع حديثاً، ولا خالط أهله، ثم حدّثهم به في حسن نظمه ومعانيه بحيث لم يقدر أحد من إنيان مثل ذلك، لعلم أنه أوضح برهان على صحة نبوته.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ما كان القرآن حديثاً مفترى ﴿وَلَعِنَ لَصُدُوقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية ﴿وَتَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين. إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن، فإنه القانون الذي يستند إليه السنّة والإجماع والقياس المنصوص العلة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَوَحْفَةً﴾ ينال بها خير الدارين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقونه. إنما خصّهم بذلك لأنهم المنتفعون به دون غيرهم.

(١) وفي قراءة أخرى: فَنُجِّيَ، على لفظ المضارع.



## سورة الرعد

مَكِّيَّةٌ ، وهي ثلاث وأربعون آية . أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال : « من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلِّ سحاب مضى وكلِّ سحاب يكون إلى يوم القيامة ، وكان يوم القيامة من الموفين بمهد الله تعالى » .  
 وقال أبو عبدالله ﷺ : « من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبداً ، وإن كان مؤمناً أدخل الجنة بغير حساب ، وشفع في جميع من يعرف من أهل بيته وإخوانه » .

ولما ختم الله سبحانه سورة يوسف ﷻ بذكر قصص الأنبياء ﷺ ، افتتح هذه السورة بأن جميع ذلك آيات الكتاب ، وأن الذي أنزله هو الحق ، فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْعَمْرُ ﴾ قد فسرناه في أوّل سورة البقرة ، وبيّنا ما

قيل فيه. روي أن معناه: أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني بالكتاب السورة. و«تلك» إشارة إلى آياتها، أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة، أو القرآن.

﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ لِنَبِيِّكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن. ومحله الجرّ بالعطف على الكتاب. عطف العام على الخاص، أو عطف إحدى الصفتين على الأخرى. أو الرفع بالابتداء، وخبره ﴿الْحَقُّ﴾. والجملة كالحجّة على الجملة الأولى. وعلى الأول خبر مبتدأ محذوف، أي: الآيات الجامعة للوصفين هي الحقّ. وتعريف الخبر وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقاً، فهو أعمّ من المنزل صريحاً أو ضمناً. كالمثبت بالقياس المنصوص العلة والإجماع، وغير ذلك ممّا نطق المنزل بحسن اتباعه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالهم بالتأمل والنظر فيه.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ  
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ  
 لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ  
 وَأَنْهَارًا وَمِنَ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي  
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِّنْ  
 أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَنُحُلٌ غَيْرُ صُنُوفٍ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْتَقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقِضَ بَعْضُهَا  
 عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

ولمَّا ذكر سبحانه أَنهم لا يؤمنون، بيَّن الدليل الَّذي يوجب التصديق بالخالق، فقال: ﴿الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر. ويجوز أن يكون الموصول صفة، والخبر «يُدبِر الأمر»، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أساطين<sup>(١)</sup>. جمع عماد، كإهاب وأهب. أو جمع عمود، كأديم وأدم. ﴿تَرْوُنَهَا﴾ صفة لـ«عمد». أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السماوات كذلك.

وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية، واختصاصها بما يقتضي ذلك، لا بد وأن يكون بمخصَّص ليس بجسم ولا جسماني، يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته. وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات الآتية.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بالحفظ والتدبير. وقد مضى<sup>(٢)</sup> تفسير استوائه على العرش غير مرّة.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلَّهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرة على حدٍّ معيَّن من السرعة تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمُدّة معيَّنة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضرورية ينقطع دونها سيره. وهي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿يُدبِرُ الْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته وأمر خلقه، من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، وغير ذلك، على الوجه الَّذي توجبه الحكمة ﴿يُفَضِّلُ الْآيَاتِ﴾ يبيِّنها مفصلة في كتبه المنزلة، أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تتفكروا فيها، وتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أن من قدر على خلق

(١) في هامش النسخة الخطية: «أساطين جمع أسطون، معرّب ستون. منه».

(٢) راجع ج ٢ ص ٥٣١.

(٣) التكوير: ١ - ٢.

هذه الأشياء وتدبيرها قدر على الإعادة والجزاء، وأن هذا المدبر والمفضل لا بد لكم من الرجوع إليه.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام، ويتقَلَّب عليها الحيوان ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا زَوَاسِي ﴾ جبلاً ثوابت، من: رسا الشيء إذا ثبت، جمع راسية. والتاء للتأنيث، على أنها صفة أجبل. أو للمبالغة. ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ ضمها إلى الجبال، لأن الجبال أسباب لتولدها.

﴿ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوَاجِينَ اثْنَيْنِ ﴾ أي: وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين، كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والرطب واليابس، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة. وذكر «اثنين» للتأكيد.

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ الظُّلْمَ ﴾ يلبس ظلمة الليل ضياء النهار، فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: يغشي بالتشديد. ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ ﴾ فيها، فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود الصانع الحكيم الذي دبر أمرها وهياً أسبابها.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَاتٌ ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متقاربة، بعضها طيبة، وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع.

﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَجِيلٍ ﴾ أي: وبساتين فيها أنواع الأشجار والزرع. وتوحيد الزرع لأنه مصدر في أصله. ﴿ صِبْغَانٍ ﴾ نخلات أصلها واحد،

فإنها جمع صنو<sup>(١)</sup>، وهي النخلة التي لها رأسان وأصلهما واحد ﴿وَعِزُّ صِنْوَانٍ﴾ ومتفرقات مختلفات الأصول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص: زرعٌ ونخيلٌ وصنوانٌ وعِزٌّ صنوانٌ بالرفع عطفاً على «جنات». وقرأ حفص: صنوان بالضم. وهو لغة تميم، كقنوان<sup>(٢)</sup> جمع قنوا.

﴿يُسْقَى﴾ ما ذكر من الأعناب والزروع والنخيل المختلفة ﴿بِمَاءٍ وَّاجِدٍ وَنَقْضُ لُبِّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ في الثمر شكلاً وقدرًا ورائحةً وطعمًا. وذلك أيضاً من أوضح الدلالات على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتِّحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: يسقى بالتذكير، على تأويل: ما ذكر. وقرأ حمزة والكسائي: يفضّل بالياء، ليطابق قوله: «يدبّر الأمر».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ دلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكير فيها، ويستدلون بها.

روي عن جابر قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لعلي عليه السلام: الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة. وقرأ: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب﴾ الآية».

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لِمَنِ خَلَقْنَا جَدِيدِ أَوْلِيكَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

(١) الصنو: إذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد فكل واحد منها صنو، وجمعها: صنوان.

(٢) القنوا: العذيق، وهو من النخل كالعنقود من العنب، وجمعه: قنوان.



فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ ﴿٧﴾

ولما تقدّم ذكر الأدلّة على أنّه سبحانه قادر على الإنشاء والإعادة، عقّبهُ بالتعجب من تكذيبهم بالبعث والنشور، فقال: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ﴾ يا محمّد من قول هؤلاء الكفّار في إنكارهم البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق ﴿فَعَجَبْتَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: حقيق بأن يتعجب منه، فإنّ من قدر على إنشاء ما قصّ عليك من الصنائع العجيبة والقطرة البديعة، ولم يعي بخلقهنّ، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، والآيات المعدودة كما هي دالّة على وجود المبدأ، فهي دالّة على إمكان الإعادة، من حيث إنّها تدلّ على كمال علمه وقدرته، وقبول الموادّ لأنواع تصرّفاته.

وقوله: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من «قولهم»، أو مفعول له، والفاعل في «إذا» محذوف دلّ عليه «إِنآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». ومعناه: أنبعث ونعاد بعدما صرنا تراباً؟! هذا ممّا لا يمكن. وهذا القول منهم نهاية في الأعجوبة، فإنّ الماء إذا حصل في الرحم استحال علقته ثمّ مضغه ثمّ لحماً، فإذا مات ودفن استحال تراباً. فإذا جاز أن يتعلّق الإنشاء بالاستحالة الأولى، فلم يتمّ لا يجوز تعلّقه بالاستحالة الثانية؟!

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك المتمادون في كفرهم الكاملون فيه، لأنّهم كفروا بقدرته على البعث مع وجود هذه الدلالات الواضحة على صحّته

﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيّدون بالضلال تخلية وخذلاناً، لا يرجى خلاصهم. أو يغفلون يوم القيامة. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكّون عنها. وتوسط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

﴿وَيَسْتَفْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك أنّهم استمجلوا ما هدّوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿وَقَدْ خَلَّتْ﴾ مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾ العقوبات لأمثالهم من المكذّبين، فما لهم لم يعتبروا بها، ولم يجوّزوا حلول مثلها عليهم؟! والمثلة - بفتح التاء وضمتها، كالصدقة والصدقة - : العقوبة، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾<sup>(١)</sup>. ومنه المثال للقصاص. يقال: أمثلت الرجل من صاحبه، إذا اقتصصته منه.

﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: ظلمهم أنفسهم بالذنوب. ومحلّه النصب على الحال، بمعنى: ظالمين لأنفسهم، والعامل فيه المغفرة. والتقيد به دليل على جواز العفو قبل التوبة، فإنّ التائب ليس على ظلمه، كما قال المرتضى رحمته: في هذا دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنّه سبحانه دلنا على أنّه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، لأنّ قوله: «على ظلمهم» إشارة إلى الحال التي يكونون فيها ظالمين. ومن منع ذلك خصّ الظلم بالصغائر المكفّرة لمجتنب الكبائر، أو أوّل المغفرة بالستر والإمهال.

﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للكفار، أو لمن يشاء قبل التوبة.

وعن سعيد بن المسيّب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنا أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكمل كل أحد».

وتلا مطرف يوماً هذه الآية فقال: لو يعلم الناس قدر رحمة الله ومغفرة الله وعفو الله وتجاوز الله لقرّت أعينهم. ولو يعلم الناس قدر عذاب الله وبأس الله ونكال

الله ونقمة الله ما رقاً<sup>(١)</sup> لهم دمع، ولا قرّت أعينهم بشيء.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا انزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات

المنزلة عليه، واقتراحهم لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، من نحو تفجير العيون، وإحياء الموتى، وجعل الصفا ذهباً، وغير ذلك.

ولا يخفى على من له أدنى مسكة أنّ الآيات متساوية في حصول صحّة الدعوى بها، فلذا خاطبه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ مرسل للإنذار من سوء العاقبة كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يصحّ به أنك رسول منذر، من جنس المعجزات، لا بما يقترح عليك.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ عطف على «منذر» أي: إنّما أنت لكلّ قوم هادٍ. لأنك

مبعوث إلى الناس جميعاً إلى يوم القيامة. أو يكون «هادٍ» مبتدأ و«لكلّ قوم» خبره. ومعناه: لكلّ أمة من الأمم نبيّ مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم، يهديهم إلى الحقّ، ويدعوهم إلى الصواب، ولم يجعل الله الأنبياء شرعاً سواء في الآيات والمعجزات. أو قادر على هدايتهم، وهو الله.

وقرأ ابن كثير: هادٍ، ووال<sup>(٢)</sup>، وواقي<sup>(٣)</sup>، ﴿وَمَا عَجَدُ إِلَهَ بَاقٍ﴾<sup>(٤)</sup> بالتنوين في

الوصل، وإذا وقف وقف بالياء في هذه الأربعة الأحرف حيث وقعت لا غير. والباقون يصلون بالتنوين، ويقفون بغير ياء.

عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله: «أنا المنذر، وعليّ

الهادي من بعدي، يا عليّ بك يهتدي المهتدون».

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بالإسناد عن

(١) رَقّاً الدمعُ: جفّ وانقطع.

(٢) (٣، ٢) الرعد: ١١ و ٣٤.

(٤) النحل: ٩٦.

ابي ابراهيم بن الحكم بن ظهير، عن ابيه، عن حكيم بن جبير، عن ابي بردة الأسلمي، قال: «دعا رسول الله ﷺ بالطهور وعنده علي بن ابي طالب رضي الله عنه. فأخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد ما تطهر فألقها بصدرة. ثم قال: إنما أنت منذر. ثم ردها إلى صدر علي. ثم قال: لكل قوم هادٍ. ثم قال: إنك منارة الأنام. وغاية الهدى، وأمير القراء، وأشهد على ذلك أنك كذلك يا علي»<sup>(١)</sup>.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَّالٍ ﴿١١﴾

ثم أردف الله سبحانه ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم ينزل لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم جبراً وقسراً، وإنما لم يهدم لعلمه بمنافاة الجبر للتكليف الذي مناطه الاختيار، فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ «ما» مصدرية أو موصولة، أي: يعلم حملها، أو ما تحمله على أي حال،

ذكورة وأنوثة. وتاماً وخداجاً<sup>(١)</sup>، وحسناً وقبحاً، وطولاً وقصراً، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمرتقبة.

﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾ نقصها وازديادها. أو ما تنقصه وما تزداده في الجنة، والمدة، وأقصى مدة الحمل وأقلها، وعدد الولد، فإن الرحم يشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأكثر. وقال الشافعي: أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً، في كل بطن خمسة. وقيل: المراد نقصان دم الحيض وازدياده.

و«غاض» جاء متعدياً ولزماً. يقال: غاض الماء وغضته أنا. ومنه: ﴿وَمَغِيضُ الْمَاءِ﴾<sup>(٢)</sup>. وكذا: ازداد. يقال: زدته فزاد بنفسه، وازداد، وازدودت منه كذا. ومنه: قوله تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا تَشْعاً﴾<sup>(٣)</sup>. فإن جعلتهما لازمين تعين أن تكون «ما» مصدرية. وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز. من قبيل تسمية الشيء بما يجاوره، أو تسمية المحاط بما يحيط به.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه. كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾<sup>(٤)</sup>. فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معين، وهياً له أسباباً مسوقة إليه، تقتضي ذلك على ما توجبه الحكمة.

﴿غَالِبُ الْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاضر له ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن، الذي لا يخرج عن علمه شيء ﴿الْمُقْتَلُ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته. أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

(١) خدجت الدابة: ألفت ولدها ناقص الخلق أو قبل تمام الأيام. فهي خادج، وولدها خدرج، وجمعه خداج.

(٢) هود: ٤٤.

(٣) الكهف: ٢٥.

(٤) القمر: ٤٩.

ثُمَّ قَرَّرَ كَمَالَ عِلْمِهِ وَشَمُولِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مختبأ بالليل ومظلمة ﴿وَسَارِبٍ﴾ وذاهب في سره بالفتح، أي: في طريقه. يقال: سرب في الأرض سروراً، إذا برز في ذهابه، أي: بارز في الذهاب ﴿بِالنَّهَارِ﴾ بحيث يراه كل أحد. فهو عطف على «مَنْ» أو «مستخفٍ»، على أن «مَنْ» في معنى الاثنين، كأنه قال: سواء منكم اثنان مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار.

﴿لَهُ﴾ لمن أسرأ أو جهر أو استخفى أو سرب ﴿مُعَقَّبَاتٍ﴾ ملائكة تعقب في حفظه. جمع معقبة، من: عقبه مبالغة: عقبه. إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله، فيكتبونها ويحفظونها. أو من: اعتقب، فأدغمت التاء في القاف. والتاء للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات.

﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من جوانبه، أو من الأعمال ما قدم وأخر ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ من بأسه ونقمته متى أذنب باستمهالهم، أي: مسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينيب. أو استغفارهم له. أو يحفظونه من المضار. قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذّبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، لتخطفنكم الجن. أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى.

وعن الحسن: هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر. وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾<sup>(١)</sup>. وقد روي ذلك أيضاً عن أئمتنا عليهم السلام.

وعن ابن جبير وقتادة ومجاهد: أنها الملائكة يتعاقبون، تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل، وهم الحفظة، يحفظون على العبد عمله.

وقيل: إنهم الأمراء والملوك في الدنيا، الذين يمنعون الناس عن المظالم.

ويكون لهم الأحراس والشُرط يحفظونهم. وهذا مروى عن عكرمة، ومروى عن ابن عباس أيضاً. وتقديره: ومن هو سارب بالنهار، له أحراس وأعوان يحرسونه. وقيل: «من» بمعنى الباء. وقيل: «من أمر الله» صفة ثانية لـ«معقبات».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة إلى الأحوال القبيحة.

عن ابن عباس: إذا أنعم الله على قوم فشكروها زادهم، وإذا كفروا سلبهم. وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إذا أقبلت عليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر».

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا راد له. والعامل في «إذا» ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾  
 وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا  
 مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ  
 وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَتَيْهِ إِلَى  
 الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾  
 وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ  
 وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

ثُمَّ أَخْبَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ مِنْ أَذَاهِ ﴿وَوَطْمَعًا﴾ فِي الْغَيْثِ. وَاتْتَصَاهُمَا عَلَى الْعَلَّةِ بِتَقْدِيرِ الْمِضَافِ، أَي: إِرَادَةَ خَوْفٍ وَطَمَعٍ، أَوْ بِنَاءِ وَيْلُهُمَا بِالْإِخَافَةِ وَالْإِطْمَاعِ. أَوْ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْبَرْقِ، كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ خَوْفٌ وَطَمَعٌ، أَوْ الْمَخَاطِبِينَ عَلَى إِضْمَارِ «ذُو»، أَوْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَوْ الْفَاعِلِ لِلْمُبَالَغَةِ. وَقِيلَ: يَخَافُ الْمَطَرُ مِنْ يَضْرَهُ، وَيَطْمَعُ فِيهِ مِنْ يَنْفَعُهُ.

﴿وَيُنْثَبِئُ السَّحَابَ﴾ الْغَيْمِ الْمُنْحَبِ فِي الْهَوَاءِ ﴿الْفَقَالَ﴾ بِالْمَاءِ. وَهُوَ جَمْعُ ثَقِيلَةٍ. يُقَالُ: سَحَابَةٌ ثَقِيلَةٌ وَسَحَابٌ ثِقَالٌ، كَمَا يُقَالُ: امْرَأَةٌ كَرِيمَةٌ وَنِسَاءٌ كَرَامٌ. وَإِنَّمَا وَصَفَ بِهِ السَّحَابَ، لِأَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ فِي مَعْنَى الْجَمْعِ.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ وَيَسْبِغُ سَامِعُوهُ ﴿بِحَفْوِهِ﴾ مُلْتَبِسِينَ بِهِ، فَيَضَجُّونَ بِ«سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ». وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ مَنْ يَسْبِغُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ». وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ إِذَا اشْتَدَّ الرَّعْدُ». أَوْ يَدُلُّ الرَّعْدُ بِنَفْسِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، مُلْتَبِسًا بِالذَّلَالَةِ عَلَى فَضْلِهِ وَنَزُولِ رَحْمَتِهِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «مَلِكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقٌ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ». وَالْمَخَارِيقُ: مَخْرَاقٌ، وَهُوَ الْخَشَبُ، أَوْ الْخَرْقَةُ الْمَلْفُوفَةُ الَّتِي يَلْعَبُ بِهَا الصَّبِيَّانَ. وَالْمُرَادُ هُنَا آلَةٌ يَزْجُرُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ لِيَسُوقَهُ.

وَقَالَتِ الْمُتَصَوِّفَةُ: الرَّعْدُ صَعَقَاتُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْبَرْقُ زَفَرَاتُ أَفْتَدَتِهِمْ، وَالْمَطَرُ بِكَأْوِهِمْ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِجْلَالِهِ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلرَّعْدِ. ﴿وَيُنْزِلُ السُّؤَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فَيَهْلِكُهُ ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حَيْثُ يَكْذِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَصِفُهُ بِهِ مِنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَالتَّفَرُّدِ



بالألوهية، وإعادة الناس ومجازاتهم.

والجدال التشدد في الخصومة، من الجدل<sup>(١)</sup>، وهو القتل. والواو إما لعطف الجملة على الجملة، أو للحال، فإنه روي: «أنَّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربعة أخوا لبيد وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له الرسول ﷺ فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت. فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بغدّة فمات في بيت سلولية. وكان يقول: غدّة كغدّة البعير، وموت في بيت سلولية. فنزلت هذه الآية». والغدّة طاعون الإبل، قلماً سلم منه. وسلولية امرأة من قبيلة بني سلول، وهم موصوفون بالذلل.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْعِجَالِ﴾ شديد الماحلة والمماكرة والمكائنة لأعدائه، من: محل بقلان، إذا كايدته وعرضه للهلاك. ومنه: تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة. ولعل أصله المحل. بمعنى القحط. والمعنى: أنه شديد المكر بأعدائه، يأتبهم بالهلاك من حيث لا يحتسبون.

وقيل: فعال من المحل بمعنى القوة.

وقيل: مفعل من الحول أو الحيلة، أعل على غير قياس.

ويجوز أن يكون بمعنى شديد الفقر، فيكون مثلاً في القوة والقدرة، كقولهم: فساعد الله أشدّ، وموساه<sup>(٢)</sup> أحدّ.

وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام معناه: شديد الأخذ، وعن قتادة: شديد القوة، يقوي القولين الأخيرين.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الدعاء الحقّ، فإنه الذي يحقّ أن يعبد، أو يدعى إلى

(١) جَدَلَ الحبلَ: قتله، أي: لواه.

(٢) المُوسَى: آله من فولاذ يخلق بها.

عبادته دون غيره. أوله الدعوة المجابة. فإن من دعاه أجابه. ويؤيده ما بعده. والحق على الوجهين ما يناقض الباطل. وإضافة الدعوة إليه لكونها مختصة به. وبينهما ملايسة. وهو بمعزل عن الباطل. أو على تأويل دعوة المدعو الحق الذي يسمع ويجيب.

وعن الحسن: الحق هو الله، وكل دعاء إليه دعوة الحق. وعن ابن عباس: أن دعوة الحق هي كلمة التوحيد.

والمراد بالجملتين إن كانت الآية عامة، وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم، وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول عليهم. أو المراد بيان ضلالهم وفساد رأيهم. وإن كانت في عامر وأريد، فالمراد أن إهلاكهما من حيث لم يشعرا به محال من الله، وإجابة لدعوة رسوله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يدعوهم المشركون، فحذف الراجع. أو والمشركون الذين يدعون الأصنام، فحذف المفعول، لدلالة «من دونه» عليه. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من الطلبات ﴿إِلَّا كَيَسِيطِ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: إلا استجابة كاستجابة الماء من بسط كفيه إليه ﴿لِيَتَلَقَّ فَاؤَهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه، ولا يبسط كفيه، ولا يعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه. وكذلك ما يدعونه من جماد، فإنه جماد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم.

وقيل: شبهوا في قلّة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه، فبسط كفيه ليشربه ناشراً أصابعه، فلم تلق كفاؤه منه شيئاً، ولم يبلغ طلبته من شربه.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ إلا في ضياع وخسار وباطل.  
﴿وَلَهُ يَسْجُدْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ طائعين وكرهين. أو

لطوعهم ولكراهتهم. ويحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتي الشدة والرخاء. والكفرة كرهاً حال الشدة والضرورة، فإنهم لا يمكنهم أن يمتنعوا من الخضوع لله تعالى، لما يحل بهم من الآلام والأسقام.

﴿وَفَلَّاحُهُمْ﴾ ويسجد له ظلال من فيهما بالعرض. وأن يراد بالسجود انقيادهم لإحداث ما أَرَادَهُ مِنْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِ، شَاؤُوا أَوْ كَرَهُوا، وانقياد ظلالهم لتصرفه إياها بالمد والتقليص على وفق مشيئته.

وقوله: ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ ظرف لـ «يسجد». والمراد بهما الدوام. أو حال من الظلال. وتخصيص الوقتين لأن الامتداد والنقلص أظهر فيهما. والغدو جمع غداة، كقني جمع قناة. والأصال جمع اصيل. وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل: الغدو مصدر.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لما بين سبحانه في الآية الأولى أنه المستحق للعبادة، وأن له من في السماوات والأرض، عقبه بما يجري مجرى العجبة على ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقتها ومدبرهما ومتولي

أمرهما، فإذا استعجم<sup>(١)</sup> عليهم الجواب، ولم يمكنهم أن يقولوا: الأصنام ﴿قُلِ اللهُ﴾  
أحب عندهم بأن ربهما الله، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البين الذي لا مرأه فيه. أو  
لأنهم الجواب به.

﴿قُلِ افْتَأْذَنُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ألزمهم بأن اتّخاذهم منكر بعيد عن  
مقتضى العقل، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ﴾ لا يقدرّون أن يجلبوا إليها ﴿نَفْعًا وَلَا  
ضَرًّا﴾ ولا يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضرر عنه، وقد  
آثرتموه على الخالق الرازق المشيب المعاقب؟ فما أبين ضلالتكم! وهو دليل ثانٍ  
على ضلالهم وفساد رأيهم في اتّخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم.

ثم ضرب سبحانه لهم مثلاً بعد إزّام الحجّة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْقَوِي الْأَعْمَى﴾  
أي: المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها. وقيل: المعبود العاقل عنكم.  
﴿وَالْبَصِيرُ﴾ والموحد العالم بذلك، أو المعبود المطلع على أحوالكم.  
ثم زاد في الإيضاح بقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْقَوِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الشرك  
والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ الهمة للإنكار، أي: بل أجعلوا ﴿بِئْسَ شُرَكَاءَ﴾؟ وقوله: ﴿خَلَقُوا  
خَلْقَهُ﴾ صفة لـ«شركاء» داخله في حكم الإنكار ﴿فَتَشَابَهُ الْخَلْقِ عَلَيْهِمْ﴾ خلق الله  
وخلقهم.

والمعنى: أنهم ما اتّخذوا الله شركاء خالقين مثله حتّى يتشابه عليهم الخلق،  
فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، حتّى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر  
الله عليه. فاستحقّوا العبادة كما استحقّها. ولكنهم اتّخذوا شركاء عاجزين لا يقدرّون  
على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عمّا يقدر عليه الخالق.

﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا خالق غيره فيشاركه في العبادة. جعل الخلق

(١) أي: صعب واستعجم، أو عجزوا عن الجواب.

موجب العبادة ولازم استحقاقها. ثم نفاه عمّن سواه. ليدلّ على قوله: ﴿وَفُوْ  
الْوَالِدِ﴾ المتوحد بالالوهية والربوبية ﴿النَّقَّازُ﴾ الغالب على كل شيء. وما عداه  
مربوب مقهور.

استدلّت المجترة بقوله: «الله خالق كل شيء» على أنّ أفعال العباد مخلوقة  
لله. لأنّ ظاهر العموم يقتضي دخول أفعال العباد فيه. ويقول: «أم جعلوا لله شركاء  
خلقوا كخلقه». قالوا: لأنّه أنكر أن يكون خالق خلق كخلقه.

وأجيبوا عن ذلك: بأنّ الآية وردت حجة على الكفار، ولو كان المراد ما  
قالوا لكان فيها حجة لهم على الله، لاله عليهم، لأنّه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام  
هو الله، فلا يتوجّه التوبيخ إلى الكفار، ولا يلحقهم اللوم بذلك، بل يكون لهم أن  
يقولوا: إنك خلقت فينا ذلك، فلم توبخنا على فعل فعلته فينا؟ فيبطل حينئذ فائدة  
الآية. وأيضاً عند الأكثر معنى الخلق الاختراع، ولا يقدر العباد عليه، وما أسند إلى  
العباد هو الفعل والإحداث.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا  
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ  
الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي  
الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ آمَنُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى  
وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ  
أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

ثم ضرب سبحانه مثلين للحق وأهله والباطل وأهله، فقال: ﴿أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، أو من جانب السماء، أو من السماء نفسها، فَإِنَّ الْمَبَادِيءَ مِنْهَا ﴿مَاءٌ﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار. جمع وادٍ. وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فانتسح فيه واستعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها لَأَنَّ الْمَطَرَ يَأْتِي عَلَى تَنَابُؤِ بَيْنِ الْبِقَاعِ، فيسيل بعض الأودية دون بعض.

﴿بِقَدْرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضارٍّ، أو بمقدارها في الصغر والكبر، أي: الصغير على قدره والكبير على قدره، فسأل كلَّ نهر بقدره ﴿فَأَخْتَمَلُ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رفعه، والزبد وضراً<sup>(١)</sup> الغليان ﴿زَابِيًا﴾ أي: منتفخاً مرتفعاً. فشبه سبحانه الحقَّ والإسلام بالماء الصافي النافع، والباطل بالزبد الذاهب غير النافع.

ثم ذكر المثل الآخر بقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ عبارة جامعة لأنواع الفلزات، كالذهب والفضة والحديد والنحاس، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به، كما هو هَجِير<sup>(٢)</sup> الملوك ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ طلب حليٍّ ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحراث، والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي: ومما يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء، وهو خبثه، و«من» للابتداء أو للتبويض، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء، على أَنَّ الضمير للناس. وإضماره للعلم به.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مثل الحق والباطل، فإنه مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض، بأن يثبت بعضه في

(١) الوضر: خبث الغليان، ووسخ الدم.

(٢) الهَجِيرُ: العادة والدأب.

مناقعه<sup>(١)</sup>، ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقبني والآبار. وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلبي، واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة. ومثل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدهما.

وبين ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفاً به، أي: يرمي به السيل أو الفلز المذاب. وانتصابه على الحال. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء الصافي وخالصة الفلز ﴿فَيَفِيحُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلها ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لإيضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَى﴾ أي: الاستجابة الحسنى ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفرة. واللام متعلقة بـ«يضرب»، على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد. شبه نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية والأنهار. فمن استقصى في تدبره وتفكر في معانيه أخذ حظاً عظيماً منه، كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير. ومن رضي بما أذاه إلى التصديق بالحق على الجملة. كان أقل حظاً منه، كالنهر الصغير. فهذا مثل واحد.

ثم شبه الخطرات ووساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء، وذلك من خبث التربة لاعين الماء. وكذلك ما يقع في النفس من الشكوك فمن ذاتها لا من ذات الحق. فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفوة الماء، كذلك يذهب مخائل الشك هباءً باطلاً ويبقى الحق. فهذا مثل ثانٍ.

والمثل الثالث قوله: «ومما يوقدون عليه في النار» إلى آخره. فالكفر مثل هذا الخبث الذي لا ينتفع به، والإيمان مثل الماء الصافي الذي ينتفع به.

(١) المنافع جمع المنفع، وهو الموضع يستنفع - أي: يجتمع - فيه الماء.

وتمّ الكلام عند قوله: «يضرب الله الأمثال»، ثمّ اسأنف بقوله: «للذين استجابوا».

وقيل: «والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا» مبتدأ خبره ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾. وهو على الأول كلام مبتدأ لبيان مآل غير المستجيبين.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشة فيه، بأن يحاسب الرجل بذنبه، لا يغفر منه شيء، كما في الحديث: «من نوقش في الحساب عذب». وعن النخعي أيضاً: أن سوء الحساب هو أن يحاسب الرجل بذنبه كلّهُ، لا يغفر منه شيء. وعن الصادق عليه السلام: «سوء الحساب أن لا يقبل لهم حسنة، ولا يغفر لهم سيئة» لسوء عقيدة صاحبه.

﴿وَمَا وَاهُمْ﴾ ومرجعهم ﴿جَهَنَّمَ وَيَفْسُ الْمِهَادِ﴾ المستقرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف. وأصل المهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه.

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ  
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾  
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ  
﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾  
جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ



يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى

الدَّارِ ﴿٢٤﴾

ثم بين سبحانه الفرق بين المؤمن والكافر بقوله: ﴿أَقْنَمَ يَعْقَلُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فيستجيب ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عمى القلب، لا يستبصر فيستجيب. والهمزة لإنكار أن تقع شبهة في تشابهها بعد ما ضرب من المثل. يعني: لا شبهة في أن حال من علم أن ما أنزل إليك من ربك فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث غير النافع وخلاصة الفلزة التي ينتفع بها.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول البرآة عن مشايعة الأهواء ومعارضة الأوهام، فإن أرباب العقول الصافية يتفكرون ويستبصرون، فيعلمون قضايا عقولهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ما عقده على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا «بلى». أو ما عهد الله عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ما وثقوه من الموائيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد. وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الرحم، وموالاته المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء. ومنه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وهم أهل بيته المعصومون عليهم السلام وذريتهم، والإحسان إليهم، والذب عنهم، ونصرتهم، والنصيحة لهم، وعبادة مرضاهم، وحضور جنازتهم.

روى محمد بن الفضيل عن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في هذه الآية قال: هي صلة آل محمد معلقة بالعرش تقول: اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني». ويندرج فيه أيضاً مراعاة صلة الرحم وجميع حقوق الناس.

روى أصحابنا أنّ أبا عبدالله عليه السلام لما حضرته الوفاة قال: «أعطوا الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين - وهو الأفطس - سبعين ديناراً. فقالت له أمّ ولد له: تعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة! فقال: ويحك أما تقرئين قول الله تعالى: «والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»؟!».

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعبيده كلّه عموماً ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْجِسَابِ﴾ خصوصاً. فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى، من أوامر الله وسائر مشاقّ التكليف، والمصائب في النفوس والأموال، وعن المعاصي ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه، لا لغرض آخر من الأغراض الدنيويّة. كسمعة وطمع عوض وغيرهما.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه من الحلال، لأنّ الحرام لا يكون رزقاً ﴿سِرّاً﴾ لمن لم يعرف بالمال ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عرف به، دفعاً للتهمة.

﴿وَيَذَرُونَ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها، فيجازون الإساءة بالإحسان. عن ابن عباس: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم. وعن الحسن إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. أو يتبعون السيئة الحسنة، فتمحوها، كما في الحديث: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». وأيضاً قال عليه السلام لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها».

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدار وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة. لأنّها التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. الجملة خبر الموصولات إن رفعت بالابتداء. وإن جعلت صفات لـ «أولي الأبواب» فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ﴾ بدل من «عقبى الدار». أو مبتدأ خيره ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾. والعدن الإقامة، أي: جنّات يقيمون فيها. وقيل: هو بطنان الجنة، أي: وسطها. وعن ابن عباس: هي الدرجة العليا، وسكانها الشهداء والصديقون. وقيل: قصر من ذهب، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حاكم عدل.

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في «يدخلون». وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر. أو مفعول معه. والآباء جمع أبوي كلّ واحد منهم، فكأنه قال: من آبائهم وأمهاتهم. والمعنى: أنّه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، كما قال: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وهو دليل على أنّ الدرجة تعلق بالشفاعة. أو أنّ الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض - لما بينهم من القرابة والوصلة - في دخول الجنة زيادة في أنسهم. وفي التقييد بالصلاح دلالة على أنّ مجرد الأنساب لا تنفع.

﴿وَالْعَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِنَّ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على الطاعة، وعن المعاصي. وهو متعلق بـ«عليكم». أو بمحذوف، أي: هذا بما صبرتم لا بسلام، فإنّ الخبر فاصل. والباء للسببية، أو للسببية. ﴿فَبِعَمِّ عَقْبَى الدَّارِ﴾ الأصل: نعيم، فسكن العين بنقل كسرتها إلى الغاء بعد حذف الفتحة.

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي  
 الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ  
 اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ  
 بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

ولما ذكر سبحانه الذين يوفون بهد الله، ووصفهم بالصفات التي يستحقون  
 بها الجنة، عقبه بذكر الذين حالهم على خلاف حالهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ  
 اللَّهِ﴾ يعني: مقابلي الأولين ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوتقوه به من الإقرار  
 والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بظلم العباد،  
 وتهيج الفتن بينهم، وإضلالهم عن الحق ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ عذاب  
 جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه وفق المصلحة، دون  
 غيره ﴿وَفَرِحُوا﴾ أهل مكة ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ  
 الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ متعة لا تدوم، كعجالة<sup>(١)</sup> الراكب  
 وزاد الراعي. والمعنى: أنهم أشروا<sup>(٢)</sup> بما نالوا من الدنيا، ولم يصرفوه فيما  
 يستوجبون به نعيم الآخرة، واغترزوا بما هو في جنب نعيم الآخرة حقير قليل النفع

(١) عَجَالَةُ الرَّكَّابِ: مَا يَتَمَجَّلُهُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ.

(٢) أَي: فَرِحُوا فَرَحَ بَطْرِ وَأَشْرَ وَتَكَبَّرَ.

سريع الزوال.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ اقترحناها ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ لما جحدوا آياته الكثيرة التي لم يؤتها نبيّ قبله. ومن أعظمها القرآن الذي يعجزون عن الإتيان بمثله مع أنهم أبلغ بلغاء زمانهم، ولم يعتدوا بها عناداً وإنكاراً ولجاجاً، فجعلوها كأنها لم تنزل عليه قط، وقالوا ذلك تعجباً واستنكاراً.

﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ خذلاناً وتخليه. باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ أقبل إلى الحقّ ورجع عن العناد. وهذا جواب يجري مجرى التعجب من قولهم، كأنه قال: قل لهم ما أعظم عنادكم! إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مَنْ كَانَ عَلَى صَفْتِكُمْ، فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به من الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من «من»، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين آمنوا ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أنساً به. واعتماداً عليه، ورجاءً منه. أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، كقوله: ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>. أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته. أو بكلامه، يعني: القرآن الذي هو أقوى المعجزات ﴿إِلَّا يَذْكُرِ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه.

وهذا حثٌ للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب، والطمأنينة إليه، فإنّ وعده سبحانه صادق، ولا شيء تطمئنّ النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بدل من «الذين آمنوا ونطمئنّ قلوبهم بذكر الله». أو مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ هو فعلى من الطيب، قلبت ياءه واواً، لضمة ما قبلها. مصدر لـ«طاب»، كبشرى وزلفى. ومعنى «طوبى لك»: أصبت خيراً وطيباً.

واللام للبيان، مثلها في: سقياً لك. ومعناه: لهم عيش طيب وقوة عين. ويجوز فيه النصب.

وقيل: إن طوبى شجرة في الجنة، أصلها في دار النبي ﷺ، وفي دار كل مؤمن منها غصن. وهو قول عبيد بن عمير، ووهب، وأبي هريرة، وشهر بن حوشب. ورواه أبو سعيد الخدري. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. قال: لو كان راكب مجدّ سار في ظلّها مائة عام ما خرج منها. ولو أنّ غرباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتّى يبيضَ هرماءً. ألا في هذا فارغبوا، إنّ المؤمن نفسه منه في شغل والناس منه في راحة.

وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن عليّ بن رثاب، عن أبي عبيدة الحدّاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر تقبيل فاطمة عليها السلام، فأنكرت عليه بعض نسائه ذلك. فقال عليه السلام: «إنّه لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة. فأداني جبرئيل عليه السلام من شجرة طوبى، وناولني منها تفّاحة. فأكلتها، فحوّل الله ذلك في ظهري ماءً، فهبطت إلى الأرض وواقمت خديجة، فحملت بفاطمة عليها السلام، فكلّما اشتقت إلى الجنة قبلتها، وما قبلتها إلا وجدت رائحة شجرة طوبى منها، فهي حوراء إنسيّة».

وروى الثعلبي بإسناده عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: طوبى شجرة أصلها في دار عليّ عليه السلام في الجنة، وفي دار كل مؤمن منها غصن. ورواه أبو بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام.

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه، قال: «سئل رسول الله ﷺ عن طوبى. قال: شجرة أصلها في داري، وفرعها على أهل الجنة. ثمّ سئل عنها مرّة أخرى. فقال: هي في دار

عليّ ﷺ. فقيل له في ذلك. فقال: إن داري ودار عليّ ﷺ في الجنة بمكان واحد» (١).  
﴿وَحُسْنُ مَا بٍ﴾ ولهم حسن مرجع.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَسَلُوا عَلَيْهُمُ الَّذِي  
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾

ولما ذكر سبحانه النعمة على من تقدم ذكره بالثواب وحسن المآب. عقبه  
بذكر النعمة على من أرسل إليه النبي ﷺ، فقال: ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل  
قبلك ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا﴾ أي: في أمة قد تقدمتها ﴿أُمَمٌ﴾ كثيرة  
أرسلوا إليهم. فليس يبدع إرسالك إليها، وهي آخر الأمم، وأنت خاتم الأنبياء ﷺ  
﴿لَتَقُولُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحيناه إليك  
﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالله الواسع الرحمة السليغ  
الإحسان، الذي أحاطت بهم نعمته. ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه،  
وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن المعجز الذي هو مناط  
المنافع الدينية والدنيوية عليهم.

قيل: نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، فقالوا:  
وما الرحمن؟

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي: الرحمن خالقي ومتولي أمري ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا  
مستحق للعبادة سواه، متعالياً عن الشركاء والأنداد ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي

عليكم ﴿وَأَنفِيهِ مَثَابٌ﴾ مرجعي ومرجعكم، فيثيني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى  
بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا  
وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ  
حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

ولما تقدّم كفرهم بالرحمن عظم شأن القرآن، وبالغ في رسوخهم في الكفر،  
وتوغلهم في العناد، وتصميمهم على الإنكار، مع وضوح حقيقة القرآن، فقال:  
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه، أي: ولو أن كتاباً زلزلت  
وزعزعت به الجبال عن مقارها.

﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله تعالى عند قراءته، أو شققت  
فجعلت أنهاراً وعيوناً.

﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فتقرؤه به، أو فتسمع، وتجيّب عند قراءته، لكان هذا  
القرآن، لأنّه الغاية في الإعجاز، والنهاية في التذكير والإنذار، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا  
هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، أو لما آمنوا به،  
كقوله: ﴿وَلَوْ أَنفَأْنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾<sup>(٢)</sup> الآية. وتذكير «كَلِمٌ» خاصة لاشتمال  
الموتى على المذكر الحقيقي.

وقيل: إنَّ أبا جهل وطائفة من قريش قالوا: يا محمد: إن سرك أن نبتعك  
فسير بقرآنك الجبال عن مكّة، حتّى تتسع لنا فتنخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخر

(١) الحشر: ٢١.

(٢) الأنعام: ١١١.



لنا به الريح لتركبها ونشجر إلى الشام، أو ابعت لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلّمونا في صدقك، فنزلت. وعلى هذا فتقطع الأرض قطعها بالسير.

وقيل: الجواب مقدّم، وهو قوله: «وهم يكفرون بالرحمن»، وما بينهما اعتراض.

ثم أضرِبَ عمّا تضمّنته «لو» من معنى النفي، فقال: ﴿بَلْ يَلَهُ الْآمَنُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء، فإنه قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكنّ الإرادة لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنّه لا تلين له شكيتهم، ولا يزول رسوخ عنادهم وشدة كفرهم. أو قادر على أن يلجئهم إلى الإيمان، ولكن بناء أمر التكليف على الاختيار، فلم يلجئهم. ولذلك قال: ﴿أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أفلم يقنطوا عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم.

وذهب أكثرهم إلى أنّ معناه: أفلم يعلم؟ لما روي أنّ عليّاً عليه السلام وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا: أفلم يتبين. وهو تفسيره وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لأنّه مسبّب عن العلم، فإنّ اليأس عن الشيء عالم بأنّه لا يكون، كما استعمل الرجاء بمعنى الخوف لذلك.

وعلى هذا قوله: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ متعلّق بـ«يأس»، أي: أفلم يعلم المؤمنون أن لو يشاء الله مشيئة جبر وفسر لهداهم؟ وعلى الأول متعلّق بمحذوف تقديره: أفلم ييأس الذين آمنوا عن إيمانهم، علماً منهم أن لو يشاء الله مشيئة جبر لهداهم جميعاً. ويجوز أن يكون المعنى: لو أراد أن يهدي الخلق كلهم إلى جنته لهداهم، لكنّه كلّفهم ليتألوا الثواب بطاعاتهم على وجه الاستحقاق. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال ﴿فَارِغَةٌ﴾ داهية تفرعهم وتقلقلهم، من صنوف المصائب في نفوسهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾، فيفزعون منها، ويتطايروا إليها شررها.

وقيل: الآية في كفار مكة، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه كان لا يزال يبعث سرايا فينزلون حوالهم. ويختطفون مواشيهم.

وعلى هذا يجوز أن يكون «تحل» خطاباً لرسول الله ﷺ، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَغَدَاةٍ﴾ الموت، أو القيامة، أو فتح مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ  
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٢﴾

ثم قال تسلية لرسوله ﷺ، وتوعداً للمشركين المقترحين عليه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإملاء أن يترك شيء ملاوة - أي: مقداراً - من الزمان في دعة وأمن، كالبهيمة تملأ في المرعى ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي إيتاهم.

أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل  
سَعَوْهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَل زَيْنٌ لِّلَّذِينَ  
كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾  
لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن  
وَاقٍ ﴿٢٤﴾

ثم احتج على المشركين في إشراكهم بالله، فقال: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾ أي:

رقيب ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شرّ، بحيث لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم. والخبر محذوف تقديره: كمن ليس كذلك. ﴿وَجَعَلُوا بِهِ شُرَكَاءَ﴾ استئناف، أو عطف على «كسبت» إن جعلت «ما» مصدرية. أو تقدير الخبر: لم يوحّدوه، «وجعلوا» عطف عليه. ويكون الظاهر فيه موضع المضرر للتنبيه على أنه المستحقّ للعبادة.

ثم نبّه على أنّ هؤلاء الشركاء لا يستحقّون العبادة. فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بالأسماء التي هي صفاتهم. أي: صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقّون به العبادة ويستأهلون الشركة؟ ﴿أَمْ تَعْبُدُونَهُ﴾ بل أتنبّونه ﴿بِإِذَا﴾ بشركاء له يستحقّون العبادة. أو بصفات لهم يستحقّونها لأجلها ﴿لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ لا يعلمهم فيها، وهو العالم بكلّ شيء، فإذا لم يعلمهم فإنهم ليسوا بشيء يتعلّق بهم العلم. والمراد نفي أن يكون له شركاء، ونحوه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أم تستمّونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى، كتسمية الزنجي كافوراً، كقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا﴾<sup>(٣)</sup>.

وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي بلسان فصيح أنه ليس من كلام البشر، بل محض الإعجاز.

﴿بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ تمويههم، فتخيّلوا أباطيل ثم خالوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق. وقرأ نافع وأبو عمرو

(١) يونس: ١٨.

(٢) التوبة: ٣٠.

(٣) يوسف: ٤٠.

وابن عامر: وصدّوا بالفتح، أي: وصدّوا الناس عن الإيمان.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ﴾ يخذله في الضلالة ويخلّه فيها، لفرط عناده ورسوخ كفره  
﴿فَمَا لَهُ مِنْ حَافٍ﴾ يوقفه للهدى، أو يقدر على هدايته.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب ﴿فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أغلظ وأبلغ، لشدّته ودوامه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ﴾ عذاب  
﴿اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ حافظ يدفع عنهم عذابه.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ  
وَوَظَلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

ولما ذكر ما أعدّ للكفار عقبه بذكر ما أعدّ للمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي  
وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها التي هي مثل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند  
سبويه، أي: فيما قصصنا عليكم مثل الجنة، وعند غيره خبره ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ﴾ على طريقة قولك: صفة زيد أسمر، وعن الزجاج الموصوف محذوف،  
أي: مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل، وهو على قول  
سبويه حال من العائد المحذوف، أو من الصلة.

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها، كقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾<sup>(١)</sup>  
﴿وَوَظَلُّهَا﴾ أي: وظلّها كذلك، لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

﴿تِلْكَ﴾ أي: الجنة الموصوفة ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ مألهم ومنتهى أمرهم  
﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ لا غير، وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقنات  
للكافرين.

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ  
بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مآبٍ ﴿٣٦﴾  
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا وَلَنْ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا  
لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

ولما تقدّم ذكر الوعد والوعيد أخبر سبحانه عن حال المتّقين والكافرين في الدنيا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: المسلمين من أهل الكتاب، كابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى، وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثان وثلاثون بالعبشة. أو عامتهم، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: كفرتهم الذين تحزّبوا على عداوة رسول الله، ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياهما ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم، أو ما يوافق لما حرّفوه منها، فإن الأفاضل والأحكام التي هي ثابتة في كتبهم لا ينكرونها.

﴿قُلْ﴾ في جواب المنكرين ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ فيما أنزل إليّ ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ بأن أعبد الله وأوحدّه. وهو العمدة في الدين، ولا سبيل لكم إلى إنكاره. وأمّا ما تنكرونها لما يخالف شرائعكم، فليس بيدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ لا إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ مآبٍ﴾ وإليه مرجعي للجزاء، لا إلى غيره. وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأمّا ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف

بالأعصار والأمم. فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه.

﴿وَتَحَذِّرُكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. أو كما أنزل الكتب إلى من تقدّم من الأنبياء بلسانهم ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة ﴿عَزِيزًا﴾ مترجماً بلسان العرب، ليسهل لهم فهمه وحفظه. وانتصابه على الحال.

﴿وَلَيِّنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها، كترير دينهم. والصلاة إلى قبلتهم حين حولت عنها ﴿بِعَدَمِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك ﴿مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَبِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك. وهو حسم لأطماعهم، وتهيج للمؤمنين على التصلب في دينهم، والتثبت فيه من الرثة عند الشبهة بعد الاستمسك بالحجة. وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان عظيم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

روي أنهم كانوا يعيبون رسول الله ﷺ بكثرة تزوج النساء. كما كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾<sup>(١)</sup>. وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ. فقال الله سبحانه رداً عليهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساءً وأولاداً. كما هي لك.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما صح له ولم يكن في وسعه ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تقترح عليه، وبحكم يلتمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه المقدر لا غيره.  
 ثم رد إنكار النسخ بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يكتب على العباد، على ما يقتضيه استصلاحهم.  
 ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضيه حكمته.

وقيل: يمحو سيئات التائب، ويثبت الحسنات مكانها، كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾<sup>(١)</sup>.  
 وقيل: يمحو من كتاب الحفظ ما لا يتعلق به جزاء، ويترك غيره مثبتاً، فإنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل.  
 أو يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمنين فضلاً، فيسقط عقابها، ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً.  
 عن ابن مسعود: أنه عام في كل شيء، فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويثبت، ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما. أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه.

وقيل: يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.  
 وقيل: يمحو الغاسدات، ويثبت الكائنات.  
 وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: ويثبت بالتشديد.  
 ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

(١) الفرقان: ٧٠.

(٢) المؤمنون: ٣٦.

روى أبو قلابة عن ابن مسعود أنه كان يقول: اللهم إن كنت كتبتني في الأشقياء، فامحني من الأشقياء. واثبتني في السعداء. فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. وعندك أم الكتاب. وروى مثل ذلك عن أنسنا رضي الله عنه في دعواتهم المأثورة.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: لله كتابان: كتاب سوى أم الكتاب. يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب لا يغير منه شيء. ورواه عمران بن حصين عن النبي ﷺ.

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر رضي الله عنه قال: «سألته عن ليلة القدر. فقال: ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من أمر السنة، وما يصيب العباد. وأمر ما عنده موقوف له فيه المشيئة، فيقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء. ويمحو ويثبت. وعنده أم الكتاب».

وروى الفضيل قال: «سمعت أبا جعفر رضي الله عنه يقول: العلم علمان: علم علمه ملائكته ورسله وأنبياءه. وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه أحد. يحدث فيه ما يشاء».

وروى زرارة عن حمران، عن أبي عبدالله رضي الله عنه قال: «هما أمران: موقوف ومحتوم. فما كان من محتوم أمضاه. وما كان من موقوف فله فيه المشيئة. يقضي فيه ما يشاء».

وقيل: المراد من الآية أن الله يغير الأرزاق والمعن والمصائب، ويثبت في الكتاب، ثم يزيله بالدعاء والصدقة. ففيه حث على الانقطاع إليه سبحانه.

﴿وَأَنْ تَرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَّقِينَكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم. أو توقيناك قبله ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ﴾ لا غير ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك. فلا تحزن - أي: بإعراضهم - ولا تستعجل بعذابهم، فإننا فاعلون له إما عاجلاً وإما آجلاً.

وفي هذه دلالة على أن الاسلام سيظهر على سائر الأديان، ويبطل الشرك



في أيامه ويعد وفاته. وقد وقع المخبر به على وفق الخبر.

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

تم ذكر سبحانه ما يكون للكفار كاليئة على الاعتبار. فقال: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفار ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقص دار الحرب. ونزيد في دار الاسلام بما نفتحه على المسلمين منها. والمعنى: عليك البلاغ. ولا يهتلك ما وراء ذلك. فنحن نكفيك. ونتم ما وعدناك من الظفر وإعلاء كلمة الاسلام. فلا يضجرك تأخره. فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها.

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يفصل الأمر ﴿لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا ناقض لحكمه. ولا راد لقضائه. وحقيقته الذي يعقب الشيء ويكرز عليه ليطله. ومنه قيل لصاحب الحق: معقب. لأنه يقفو غريمه بالاقضاء. والمعنى: أنه حكم للاسلام بالإقبال. وعلى الكفر بالإدبار. وذلك كائن لا يمكن تغييره. ومحل «لا» مع المنفي النصب على الحال. أي: يحكم نافذاً حكمه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة. بعدما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَلَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

ثُمَّ يَتَّبِعُ سَبْحَانَهُ أَنْ مَكْرَهُمْ يَضْمَحَلُّ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ﴿فَلَيْلَهُ الْفَكْرُ جَمِيعًا﴾ إِذْ لَا يُؤَيِّدُ بِمَكْرِهِمْ دُونَ مَكْرِهِ، فَإِنَّهُ يَرِدُ مَكْرَهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَكْتَسِبُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، فَيُعَذِّبُ جَزَاءَهَا.

وقيل: يعلم ما يمكرونها في أمر رسول الله ﷺ، فيبطل أمرهم، ويظهر أمره ودينه.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْغَفَّارُ لِمَنْ عَقَّبَى الدَّارِ﴾ مِنَ الْحَزِينِ حَيْثُ مَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمَعْدَّةِ لَهُمْ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ. وَهَذَا كَالْتَفْسِيرِ لِمَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، لِأَنَّ مِنْ عِلْمِ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَأَعَدَّ لَهَا جَزَاءَهَا فَهُوَ الْمَكْرُ كُلُّهُ، لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ مِمَّا يَرَادُ بِهِمْ. وَاللَّامُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَقْبَى الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ، مَعَ مَا فِي الْإِضَافَةِ إِلَى الدَّارِ كَمَا عَرَفْتُ.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: الكافر على إرادة الجنس.

وفي الآية تهديد لهم بأنهم سوف يعلمون من تكون عاقبته الجنة، حين يدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار.

وقيل: معناه: سيعلمون لمن العاقبة المحمودة. لكم أم لهم، إذا أظهر الله دينه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْنَا مُؤْمِنِينَ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ رُؤَسَاءُ الْيَهُودِ ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فَإِنَّهُ أَظْهَرَ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى رِسَالَتِي مَا يَغْنِي عَنْ شَاهِدٍ يَشْهَدُ عَلَيْهَا ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عِلْمُ الْقُرْآنِ وَمَا أُلْفَ عَلَيْهِ مِنَ النِّظْمِ الْمَعْجَزِ. أَوْ عِلْمُ التَّوْرَةِ، وَهُوَ ابْنُ سَلَامٍ وَأَضْرَابِهِ. أَوْ عِلْمُ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى. وَالْمَعْنَى: كَفَى بِالَّذِي يَسْتَحَقُّ الْعِبَادَةَ، وَبِالَّذِي لَا يَعْلَمُ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَّا هُوَ، شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَيُخْزِي الْكَاذِبَ مِمَّا. وَارْتِفَاعِ عِلْمِ الْكِتَابِ بِالظَّرْفِ، فَإِنَّهُ مَعْتَمِدٌ

على الموصول .

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام : «أنَّ المراد بمن عنده علم الكتاب عليّ بن أبي طالب وأئمة الهدى عليهم السلام» .

روى بريد بن معاوية عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال : «إيانا عنى . وعلي أولنا . وأفضلنا . وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم» .

وروى عنه عبدالله بن كثير : «أنه وضع يده على صدره ثم قال : عندنا والله علم الكتاب كلاً» .

ويؤيد ذلك ما روي عن الشعبي أنه قال : ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبي من عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي عبدالرحمن السلمي قال : ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب للقرآن .

## سورة إبراهيم

مكية، وهي اثنتان وخمسون آية. أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم ﷻ أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من عبد الأصنام، وبعدد من لم يعيدها».

وروى عيسى بن مصعب عن أبي عبد الله ﷺ قال: «من قرأ سورة إبراهيم في ركعتين جميعاً في كل جمعة، لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ  
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ وَيُوَلِّئُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

ولما ختم الله سورة الرعد بإثبات الرسالة وإنزال الكتاب. افتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ﴾ أنا الله أعلم وأرى. وباقى الوجوه فيه مزبور في أول سورة البقرة.

﴿كِتَابٌ﴾ أي: هو كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنته ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله. متعار من الإذن الذي هو تسهيل العجائب. والمراد ما يمنحهم من التوفيق والأطاف. وهذا صلة «لتخرج»، أو حال من فاعله أو مفعوله.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل. أو استئناف على أنه جواب لمن يسأل عنه. وإضافة الصراط إلى الله تعالى، إما لأنه مقصده، أو المظهر له. وتخصيص الوصفين للتببيه على أنه لا يبدل سالكه، ولا يخيب سابله.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بالرفع، على أنه مبتدأ والموصول خبره، أو خبر مبتدأ محذوف والموصول صفته، أي: هو الله الذي. وقرأ الباقون بالجزء، على أنه عطف بيان للعزيز. لأنه كالعلم - كما غلب النجم في الثريا - لاختصاصه بالمعبود على الحق.

ثم أورد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الويل تقيض الوأل، وهو النجاة. وأصله النصب، لأنه مصدر، إلا أنه لم يشتق منه فعل، لكنه رفع لإفادة الثبات، كما يقال: سلام عليك. والمعنى: أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضجون منه فيقولون: يا ويلاه، كقوله: ﴿دَعُوا هُنَالِكَ نُتُورًا﴾<sup>(١)</sup>.

﴿الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونها عليها، فإن المختار

للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره ﴿وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويغنون لها زيفاً ونكوباً عن الحق ليقدحوا فيه. فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير. والموصول بصلته يحتمل الجرّ صفة للكافرين. والنصب على الذمّ، والرفع عليه، أو على أنه مبتدأ خبره ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلّوا عن الحقّ، ووقفوا دونه بمراحل. والبعد في الحقيقة للضلال، لأنّه متباعد عن الطريق، فوصف به فعله للمبالغة. كما تقول: جدّ جدّه. ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو للأمر الذي به الضلال، فوصف به للملابسة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إلا بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أمروا به، فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوه ويترجموه لغيرهم. فإنّهم أولى الناس إليه بأن يدعوه، وأحقّ بأن ينذرهم، ولذلك أمر

النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً. ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز، ولكن أدى إلى اختلاف الكلمة، وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة منها، وما في إتباع القرائح وكذ النفوس من القرب المقتضية لجزيل الثواب.

وقيل: الضمير في «قومه» لمحمد ﷺ، وأنه تعالى أنزل الكتب كلها بالعريية، ثم ترجمها جبرئيل عليه السلام أو كل نبي بلغه المنزل عليهم.

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ فيخلى في الضلال خذلاناً، بمنح الألفاظ وأسباب التوفيق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من هو راسخ في الكفر ومصم على العناد ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ويوفق للهداية من هو طالب الرشاد والصواب، مثل قوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلفظ إلا بأهل اللطف.

ثم ذكر سبحانه إرسال موسى عليه السلام تخصيصاً بعد التعميم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني: اليد والعصا وسائر معجزاته ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ «أن» مفسرة، فمعناه: أي أخرج، لأن الإرسال فيه معنى القول، فكأنه قال: أرسلناه وقلنا له: أن أخرج ﴿قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى نور الإسلام. ويجوز أن تكون مصدرية. أي: بأن أخرج، فإن صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر، فيصح أن توصل بها «أن» الناصبة.

﴿وَدَخَرَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة، ومنه أيام العرب، أي: حروبها وملاحمها. وعن ابن عباس: هي نعمائهم وبلاؤهم. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَلَّ صَبَّارٌ﴾ يصبر على بلائه ﴿شَكُورٌ﴾ يشكر على نعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه

من الصبر والشكر .

وقيل: المراد لكل مؤمن، وإنما عبّر عنهم بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن ومن سجاياه، فإن التكليف لا يخلو من الصبر والشكر .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه إياكم. ويجوز أن ينتصب به «عليكم» إن جعلت مستقرة غير صلة للنعمة، لأنه إذا كان صلة لم يعمل فيه، أي: اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت إنجائكم، وذلك إذا أريدت بها العطية دون الإنعام. ويجوز أن يكون بدلاً من «نعمة الله» بدل الاشتمال، أي: اذكروا وقت إنجائكم.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبُّونَ إِبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أحوال من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين. والمراد بالعذاب هاهنا غير المراد به في سورة البقرة<sup>(١)</sup> والأعراف<sup>(٢)</sup>، لأنه ثم مفسر بالتذبيح والقتل، ومعطوف عليه التذبيح هنا. وهو إما جنس العذاب، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة.

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ من حيث استعبادهم بإقدار الله تعالى إياهم، وتمكينهم وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٍ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٍ﴾ ابتلاء منه. ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء. والمراد بالبلاء النعمة.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ  
﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

(١) البقرة: ٤٩.

(٢) الأعراف: ١٤١.



حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ  
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ  
وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

ولما تقدّم ذكر النعم أتبعه سبحانه بذكر ما يلزم عليها من الشكر، فقال: ﴿وَإِذْ  
تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ هو أيضاً من كلام موسى ﷺ. و«تأذّن» بمعنى: آذن، ك: توعد  
وأوعد، غير أنه أبلغ، لما في التفعّل من معنى التكلف والمبالغة، ولا بدّ في «تفعل»  
من زيادة معنى ليس في «أفعل». كأنه قال: وإذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده  
الشكوك.

﴿لَيْفِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم ﴿تَزِيدُنْكُمْ﴾ نعمة إلى  
نعمة ﴿وَلَيْفِنْ كَفَرْتُمْ﴾ جحدتم نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ بمعنى: أعدبكم على  
الكفران عذاباً شديداً. ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرّح بالوعد ويعرّض بالوعيد.  
والجملة مقول قول مقدر، أو مفعول «تأذّن»، على أنه جارٍ مجرى «قال»، لأنه  
ضرب منه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الثقلين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ  
لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم. وأنتم معاويج إليه ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحقّ للحمد في ذاته، محمود  
تحمده الملائكة، وتنطق بنعمته ذرّات المخلوقات، فما ضررتكم بكفرانكم إلا  
أنفسكم، حيث حرّمتوها مزيد الإنبام، وعرّضتموها للعذاب الشديد.

قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام في هذه الآية: «أيما عبد أنعمت عليه نعمة فأقرّ  
بها بقلبه، وحمد الله تعالى عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتّى يأمر الله له بالزيادة».

﴿الَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَشِمُودَ﴾ من كلام موسى، أو كلام مبتدأ من الله خطاباً لأمة نبينا ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة وقعت اعتراضاً. أو «الذين من بعدهم» في محل الجر عطفاً على قوم نوح، و«لا يعلمهم» اعتراض. والمعنى: أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى. ولذلك قال ابن مسعود حين قرأ هذه الآية: كذب النسابون.

وقيل: إن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أباً لا يعرفون. وقيل: إن النبي ﷺ كان لا يجاوز في انتسابه معد بن عدنان.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعصوا على أصابع أيديهم من شدة الغيظ والضجر مما جاءت به الرسل. كقوله: ﴿عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْغَيْظِ﴾<sup>(١)</sup>. أو وضعوها عليها تعجباً منه، أو استهزاءً عليه، كمن غلبه الضحك، أو إسكاتاً للأنبياء وأمرأ لهم بإطباق الأفواه، أي: اسكتوا عما تدعوننا إليه. أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به، من قولهم: إنا كفرنا، تنبيهاً على أن لا جواب لهم سواه، أو ردوها في أفواه الأنبياء ﷺ يمتنعونهم من التكلم.

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، أي: ردوا أيادي الأنبياء التي هي أجلّ النعم، وهي مواظهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى أفواههم، ورجعوها إلى حيث جاءت منه، على طريق المثل.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم ﴿وَأَنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان ﴿مُرِيبٌ﴾ موقع في الريبة، أو ذي ريبة، وهي قلق النفس بحيث لا تطمئن إلى شيء.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ  
لَكُمْ مَن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَتَيْنَا بِبَشْرٍ مِّثْلِنَا تَرِيدُونَ  
أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأنَّ الكلام في المشكوك فيه وأنه لا يحتمل الشك، لا في الشك، أي: إنما يدعوكم إلى الله، وهو لا يتطرق إليه الشك، لكثرة الأدلة، وظهور دلالتها عليه. وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفة أو بدل. و«شكٌّ» مرتفع بالظرف.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بعبه إيانا ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أو يدعوكم إلى المغفرة، كقولك: دعوته لينصرتني، على إقامة المفعول له مقام المفعول به ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما بينكم وبينه، فإنَّ الإسلام يجبه دون المظالم. وقيل: جيء بـ«من» في خطاب الكفار دون المؤمنين في جميع القرآن، تفرقة بين الخطابين. ويحتمل أن يكون المعنى فيه: أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي، فتناول الخروج عن المظالم.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سمّاه الله تعالى، وجعله آخر أعماركم.

وفي هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يريد الكفر والشرك، وإنما يريد الخير والإيمان. وأنه إنما بعث الرسل إلى الكفار رحمة وفضلاً، وإنعاماً عليهم ليؤمنوا. فإنه قال: «يدعوكم ليغفر لكم» إلى آخرها.

﴿قَالُوا إِنْ أَتَيْنَا بِبَشْرٍ مِّثْلِنَا﴾ لا فضل لكم علينا، فلم تخصصون بالنبوة دوننا؟

ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل، وهم الملائكة ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بهذه الدعوى ﴿فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه العزية، أو على صحة ادعائكم النبوة. وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج لكن لم يعتبروها عناداً، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤَكَّلُونَ ﴿١٢﴾

تم حكي جواب الرسل للكفار، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ سلّموا مشاركتهم إياهم في البشرية، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى ومنه عليهم، ولم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، فاقصروا على قولهم: «ولكن الله يمين على من يشاء» ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ليس إلينا الإتيان بالآيات، ولا يستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحموه، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، فيخص كل نبي بنوع من الآيات.

﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ عتموا الأمر بالتوكل للإشعار بما يوجب

التوكل . وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً ، وأمرها به ، كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ، ولهذا قالوا بعد ذلك : ﴿ وَقَالْنَا اللَّهُ نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : أي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا إلى السبيل الذي يجب عليه سلوكه في الدين . وقرأ أبو عمرو بالتخفيف هاهنا وفي العنكبوت (١) .

﴿ وَلَفَضِبْرُنْ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا ﴾ جواب قسم محذوف ، أكدوا توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم . فالمراد بالتوكل الأول استحدثاته ، وبالتالي التوكل عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَقْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مَنْ وَرَّأَتْهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَاءِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا

على أنه لابدّ من أحد الأمرين: إمّا إخراجهم للرسل من بلادهم، أو عودهم إلى ملتهم. والعود هاهنا بمعنى الصيرورة، لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط. ويجوز أن يكون الخطاب لكلّ رسول ولمن آمن معه، فقلّبوا الجماعة على الواحد.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ إلى رسلهم ﴿رَبُّهُمْ لَنُنهِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجراه، لأنه نوع منه.

﴿وَلَنُنشِئَنَّكُمْ الْآرِضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أرضهم وديارهم، كقوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْفُقُومَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾<sup>(١)</sup>. وفي الحديث: «من أذى جاره ورّنه الله داره».

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿بِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي، وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة. أو قيامي عليه، وحفظي لأعماله. وقيل: المقام مقوم.

﴿وَخَافَ وَعَبِيدِ﴾ أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم، من الفتاحة، كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾<sup>(٢)</sup>. وهو معطوف على «فأوحى». والضمير للأنبياء. وقيل: للكفرة، ظلماً منهم بأنهم على الحق والرسول على الباطل. وقيل: للفرقيين، فإنّ كلّهم سألوه أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ غَنِيٍّ﴾ أي: ففتح لهم فأفلق المؤمنون، وخاب كلّ جبّار عات متكبّر على الله ﷻ معاند للحقّ فلم يفلح.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: من بين يدي هذا الجبّار، فإنّه مرصد بها، واقف على

(١) الأعراف: ١٣٧.

(٢) الأعراف: ٨٩.

شفيها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ﴾ عطف على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى، ويسقى من ماء ﴿صَدِيدٍ﴾ عطف بيان لـ «ماء». وهو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم.

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «هو الدم والقيح من فروج الزواني في النار». وهذا قول أكثر المفسرين.

روى أبو امامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «ويسقى من ماء صديد». قال: «يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة<sup>(١)</sup> رأسه، وإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. ويقول: ﴿وَإِنْ يَسْتَفْعِفُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾<sup>(٣)</sup>».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن مات وفي بطنه شيء من ذلك كان حقاً على الله عز وجل أن يسقيه من طينة خبال، وهي صديد أهل النار، وما يخرج من فروج الزناة، يجمع ذلك في قدور جهنم، فيشربه أهل النار، فيصهر به ما في بطونهم والجلود». رواه شعيب بن واقد، عن الحسين بن زيد، عن الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عنه عليه السلام.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه. وهو صفة لـ «ماء»، أو حال من الضمير في «يسقى». ﴿وَلَا يَخَافُ يُسِغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيفه فكيف يسيفه؟ كقوله: ﴿ثُمَّ يَكْتَدُ مِنْهَا﴾<sup>(٤)</sup> أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ بل يفصّ به فيطول عذابه.

(١) الفروة: جلدة الرأس بشعرها.

(٢) محمد: ١٥.

(٣) الكهف: ٢٩.

(٤) النور: ٤٠.

والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس .

﴿وَيَأْتِيهِ الْفُوتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: أسبابه من الشدائد، فتحيط به من جميع الجهات، وقيل: من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره وإبهام رجله، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت عذاباً أشد وأغلظ مما هو عليه. عن ابن عباس: هو الخلود في النار. وعن الفضيل: هو حبس الأنفاس.

وقيل: الآية منقطعة عن قصة الرسل، نازلة في أهل مكة، طلبوا الفتح الذي هو المطر في سني القحط التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله، فخيّب رجاءهم فلم يسقهم، ووعد لهم أن يسقيهم صديد أهل النار في جهنم بدل سقياهم في الدنيا.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴿١٨﴾

ثم أخبر سبحانه عما ينال الكفار من الحسرة فيما تكلفوه من الأعمال، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة، وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة لبيان مثلهم، على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. وقيل: أعمالهم بدل من المثل، والخبر «كرماد».

﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به. وقرأ نافع: الرياح. ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح. وصف به زمانه للمبالغة، كقولهم: يوم ماطر. ونهاره صائم، وليله قائم. شبه صنائعهم - من الصدقة وصله الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم، في حبوطها، لبنائها على غير أساس من



معرفة الله والتوجه بها إليه - أو أعمالهم للأصنام، برماد طيرته الريح العاصف، فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرق والارتفاع به، فكذلك هؤلاء الكفار ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِثًا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لعبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب، وهو فذلّة التمثيل. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسابهم أنهم محسنون ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبرة، لأنه أضاف العمل إليهم، ولو كان مخلوقاً له سبحانه لما صح إضافته إليهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَسْأُ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِصٍ ﴿٢١﴾

ثم بين سبحانه أنه إنما خلق الخلق ليعبده وليؤمنوا به، لا ليكفروا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته، وقيل: لكل واحد من الكفرة على التلويح. ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة، وقرأ حمزة والكسائي: خالق السماوات.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويخلق مكانكم خلقاً آخر. رَبَّ ذَلِكَ عَلَى كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه، فَإِنَّ مَنْ خَلَقَ أَصُولَهُمْ وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَخْلِيْقَهُمْ، ثُمَّ كَوَّنَهُمْ بِتَبْدِيلِ الصُّورِ وَتَغْيِيرِ الطَّبَائِعِ، قَدْرَ أَنْ يَبْدِلَهُمْ بِخَلْقٍ آخَرَ، وَلَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر، بل هو يسير، فَإِنَّهُ قَادِرٌ لذَاتِهِ، لَا اخْتِصَاصَ لَهُ بِمَقْدُورٍ دُونَ مَقْدُورٍ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ كَانَ حَقِيقًا بِأَنْ يَعْبُدَ وَيُؤْمِنَ بِهِ، رَجَاءً لثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ يَوْمَ الْجَزَاءِ.

﴿وَيَبْرَزُوا بِهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون من قبورهم ويخرجون منها يوم القيامة لأمر الله ومحاسبته. أَوْ اللَّهُ عَلَى ظَنِّهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَخْفُونَ ارْتِكَابَ الْفَوَاحِشِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ انْكَشَفُوا لِلَّهِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّجْمِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾<sup>(١)</sup>، وَنَظَائِرَهُ، وَالْمَعْنَى: وَيَبْرَزُهُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ لَا يَتَوَارَى عَنْهُ شَيْءٌ حَتَّى يَبْرَزَ لَهُ كَمَا ظَنُّوا.

﴿فَقَالَ الضُّعْفُؤَانُ﴾ أي: الأتباع، جمع ضعيف. يريد به ضعاف الرأي، وَإِنَّمَا كَتَبَتْ بِالْوَاوِ عَلَى لَفْظٍ مِنْ يَفْضُخُ الْأَلْفَ قَبْلَ الْهَمْزَةِ فَيَمِيلُهَا إِلَى الْوَاوِ، ﴿يَلْدِينِ اسْتَعْتَبُوا﴾ لِرُؤْسَانِهِمُ الَّذِينَ اسْتَبَعُوهُمْ وَاسْتَفَوْوَهُمْ، وَصَدَّوَهُمْ عَنِ الِاسْتِمَاعِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ نَصَائِحِهِمْ، وَهُوَ جَمْعُ تَابِعٍ، كَغَائِبٍ وَغَيْبٍ، أَوْ مُصَدَّرٍ، نَحْوُ خَادِمٍ وَخَدَمٍ، نَعْتٌ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ، أَوْ عَلَى إِضْمَارٍ مُضَافٍ، أَي: ذَوِي تَبَعٍ.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْنَا﴾ دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «من» الأولى للبيان واقعة موقع الحال، والثانية للتبويض واقعة موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن تكونا للتبويض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله. والإعراب ما سبق. ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدرأ، أي: فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء.

﴿قَالُوا﴾ أي: الذين استكبروا جواباً عن معاتبه الأتباع، واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾<sup>(١)</sup>. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(٢)</sup>. يقولون ذلك في الآخرة، كما كانوا يقولون ذلك في الدنيا. أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم، وسلطنا بكم طريق النجاة، وانقطعت حيلتنا ويئسنا من النجاة، ولكن سدّ دوننا طريق النجاة.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ ضَعِيفَتْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. فالهزمة و«أم» للتسوية. ونحوه ﴿فَاضْبِرُوا أَوْ لَا تَضِبِرُوا﴾<sup>(٣)</sup>. ﴿مَاتْنَا مِنْ فَجْئٍ﴾ أي: منجى ومهرب من العذاب. من الحيص، وهو العدول على جهة الفرار. وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالبييت والمضيف، ومصدرأ كالمغيب والمشيب. ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ من كلام الفريقين. ويؤيده ما روي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون: سواء علينا.

(١) الأتعام: ١٤٨.

(٢) النحل: ٣٥.

(٣) الطور: ١٦.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

ولمّا تقدّم وعيد الكفّار ووصف يوم الحشر، وما يجري فيه من الجدل بين الأتباع والمتبعين، عقب ذلك سبحانه بكلام الشيطان في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ وهو إبليس باتفاق المفسرين ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أحكم وفرغ منه، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، خطيباً في الأشقياء من الثقلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز، أو وعداً أنجزه، وهو الوعد بالبعث والجزاء ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، وإن كانا فالأصنام تشفع لكم ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ لم أوف بما وعدتكم. جعل تبيين خلف وعده كالإخلاف منه.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط، فأقصركم على الكفر والمعاصي. وألجسكم إليها ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وترزني. وليس الدعاء من جنس السلطان والقهر والفسر، ولكنه على طريقة قولهم: تحيته بينهم ضرب وجميع. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أسرعتم إجابتي.

﴿فَلَا تَلْمُزُونِي﴾ بوسوستي، فإن من صرح العداوة لا يلام بأمنال ذلك ﴿وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث أظعتموني، إذ دعوتكم من غير دليل وبرهان، ولم تطيعوا

رَبِّكُمْ لَمَا دَعَاكُمْ بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ وَالْحَجِجِ الْبَاهِرَةِ.

وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة، ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين. ولو كان الأمر كما تزعم المجبّرة لقال: فلا تلوّموني ولا أنفسم. فإنّ الله قد قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

لا يقال: هذا قول الشيطان. فلا يجوز التمسك به في بطلان قول المجبّرة. لأنّنا نقول: لو كان صدور هذا القول من الشيطان باطلاً لبيّن الله بطلانه. وأظهر إنكاره، فتقريره دالّ على صحته.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيبكم من العذاب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ بمغيبني. وقرأ حمزة بكسر الياء، على الأصل في التقاء الساكنين. وهو أصل مرفوض في مثله، لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات. مع أنّ حركة ياء الإضافة هي الفتح، فإذا لم تكسر وقبلها ألف - نحو: عصاي ورحاي - فبالحرّي أن لا تكسر وقبلها ياء.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ «ما» إمّا مصدرية، و«من» متعلّقة به «أشركتموني»، أي: كفرت اليوم بإشراككم إيتاي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، بمعنى: تبرأت منه واستنكرته، كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. أو موصولة، بمعنى «من»، نحو «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، و«من» متعلّقة به «كفرت»، أي: كفرت بالذي أشركتموني به - وهو الله تعالى - بطاعتكم إيتاي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم، حين رددت أمره بالسجود لآدم. و«أشركت» منقول من: شركت زيدا للتعدية إلى مفعول ثانٍ. فتقول: شركت زيدا، ثم تقول: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمّة كلامه، أو ابتداء كلام من الله تعالى. وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين، وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم، ويستدبروا عواقبهم.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

ولما تقدّم وعيد الكافرين، عقبه سبحانه بالوعد للمؤمنين، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله وأمره. والمدخلون هم الملائكة. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحييتهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ  
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ قُوتِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ  
اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ  
الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا  
يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

تمّ ضرب سبحانه مثلاً يقرب من أفهام السامعين، ترغيباً للخلق في اتباع

الحق. فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمده ووضعه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ منصوبة بفعل مضمر. أي: جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ زاكية نامية. وهو تفسير لقوله: «ضرب الله مثلاً». كما تقول: أكرم الأمير زيدا. كساه حلّة. وحمله على فرس. ويجوز أن تكون «كلمة» بدلاً من «مثلاً» و«كشجرة» صفتها. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هي كشجرة. وأن تكون أول مفعولي «ضرب». إجراء لها مجرى «جعل».

﴿اضْلُفْهَا ذَابِتٌ﴾ في الأرض. ضارب بعروقه فيها. راسخة أصولها فيها ﴿وَفَرَعُهَا﴾ وأعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في جهة العلوّ والصعود. أراد به المبالغة في الرفة. ويجوز أن يريد: وفروعها. أي: أفنانها<sup>(١)</sup>. على الاكتفاء بلفظ الجنس. لاكتسابه الاستغراق من الإضافة.

﴿تَوْتِي أَكْلُهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ جَيْبٍ﴾ وقتّه الله لإثمارها. وعن سعيد بن جبير: أراد بذلك أنه يؤكل ثمرها في الصيف، وطلعها في الشتاء. وما بين صرام<sup>(٢)</sup> النخلة إلى حملها ستة أشهر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها وتكوينه.

وقيل: معناه في جميع الأوقات. لأنّ ثمر النخل يكون أولاً طلعاً، ثم يصير بلحاً. ثم بسرائاً، ثم رطباً، ثم تمرأ. فيكون ثمره موجوداً في الأوقات كلّها.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير. فإنّه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحس.

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد. كما نقل عن ابن عباس أنّها شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: كلّ كلمة حسنة. كالنسيحة والتحميد والتوبة والاستغفار والدعوة. وسائر ما أمر الله تعالى به. وإنّما سمّاها طيبة. لأنّها زاكية بالخيرات. نامية

(١) الأفنان جمع الفنن، وهو الفصن المستقيم.

(٢) أي: قطع تمرها.

بالبركات في الدنيا والآخرة.

وأما الشجرة فكل شجرة مشمرة طيبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان، وغير ذلك. وعن ابن عباس: شجرة في الجنة.

وروى ابن عقدة عن الباقر عليه السلام: «أَنَّ الشجرة رسول الله ﷺ، وفرعها علي عليه السلام، وعنصر الشجرة فاطمة عليها السلام، وثمرتها أولادها، وأغصانها وأوراقها شيعتنا». ثم قال: «إِنَّ الرجل من شيعتنا لموت فتسقط من الشجرة ورقة، وَإِنَّ المولود من شيعتنا ليولد فيورق مكان تلك الورقة ورقة».

وروي عن ابن عباس قال: قال جبرئيل عليه السلام للنبي ﷺ: أنت الشجرة. وعلي غصنها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين عليهما السلام تمارها، وشيعتكم أوراقها. وقيل: إنه سبحانه شبه الإيمان بالنخلة، لثبات الإيمان في قلب المؤمن كنبات النخلة في منبتها. وشبه علو مرتبة الإيمان عند الله بارتفاع فروع النخلة. وشبه ما يكسبه المؤمنون من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت وحين، بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها، من الرطب والتمر.

وقيل: إن معنى قوله: «تَوْبِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» ما يفتي به الأئمة من آل محمد عليهم السلام وشيعتهم في الحلال والحرام.

«وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ» استوصلت وأخذت جسماً بالكلية «مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ» لأن عروقها قريبة منه «فَأَلَّهَا مِنْ فَرْزٍ» استقرار. يقال: قر الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً، في مقابلة قوله: «أصلها ثابت». شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت. وهذه الكلمة كلمة الشرك. والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحق، أو كل كلمة مضلّة على العموم. وفسّرت الشجرة بالحنظلة والكشوث<sup>(١)</sup>. وعن الباقر عليه السلام: أنها بنو أمية.

(١) الكشوث: نبات طفيلي، لا جذر له ولا ورق، يلتف بأغصان الشجر.



﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: الذي ثبت بالحجة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، فاعتقدوه، واطمأنت إليه أنفسهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزولون إذا فتنوا في دينهم، كزكريّا ويحيى وجرجيس وشمعون، والذين فتنهم أصحاب الأخدود ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ فلا يتلعمون إذا سلّوا عن معتقدهم في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة.

وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر، وهذا قول أكثر المفسرين، منقول عن ابن عباس وابن مسعود، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

وعن سويد بن غفلة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: قال: «إن المؤمن الصالح إذا كان في آخر يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، أتاه عمله الصالح أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً، وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان وجنة نعيم، ومقدمك خير مقدم».

فيقول له: من أنت؟

فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنة، وإنه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يعجله.

فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما، ويخدان الأرض بأنيابهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فيقول: الله ربّي، وديني الاسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيقولان: ثبّتك الله فيما تحبّ وترضى، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. ثمّ يفسحان له في القبر قدّ بصره، ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنة، ثمّ يقولان له: تمّ قرير العين نوم الشاب الناعم، فإنّ الله سبحانه يقول: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «تمَّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره، ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. فينادي مناذٍ من السماء أن صدق عبدي. فذلك قوله: «يثبت الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ». ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْاِقْتِصَارِ عَلَى تَقْلِيدِ شيوخهم وكبارهم وآبائهم، فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾<sup>(١)</sup>. وإضلالهم الله في الدنيا أَنَّهُمْ لَا يَثْبُتُونَ فِي مَوَاقِفِ الْفِتَنِ، تَخْلِيَةً وَخِذْلَانًا. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ وَلَا يَشَاءُ إِلَّا مَا تَوَجَّهَ الْحِكْمَةُ، مِنْ تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَأْيِيدِهِمْ، وَعَصْمَتِهِمْ عِنْدَ ثَبَاتِهِمْ وَعِزْمِهِمْ، وَمِنْ إِضْلَالِ الظَّالِمِينَ، أَي: خِذْلَانِهِمْ وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَأْنِهِمْ عِنْدَ زَلَلِهِمْ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾  
 جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْفِرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ  
 قُلْ تَسْعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا  
 الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا  
 خِلَالَ ﴿٣١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أَي: شَكَرَ نِعْمَتَهُ كُفْرَانًا، بَأَنْ وَضَعُوا  
 مَكَانَهُ كُفْرًا، فَكَأَنَّهُمْ غَيَّرُوا الشُّكْرَ إِلَى الْكُفْرِ، وَبَدَّلُوهُ تَبْدِيلًا. وَنَحْوَهُ: ﴿وَتَسْجَعُونَ

رَزَقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ»<sup>(١)</sup>، أي: شكر رزقكم، حيث وضعتم التكذيب موضعه.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك: أنهم كفّار قريش، كذبوا نبيهم، ونصبوا له الحرب والعداوة.

فالمعنى: أن الله سبحانه خلق كفّار مكة وأسكنهم حرمه، وجعلهم قوام بيته، ووسّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم بمحمد عليه السلام، فبدّلوا نفس النعمة كفراً، فسلبت منهم، ففحطوا سبع سنين، وأسرّوا وقتلوا يوم بدر، وصاروا أذلاء، فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، حاصلًا لهم الكفر بدلها.

وأيضاً عن علي عليه السلام: «هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفّرتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا حتى حين».

﴿وَاحْطُوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعهم في الكفر ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دار الهلاك، بحملهم على الكفر.

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها، أو من القوم، أي: داخلين فيها مقاسين لحرّها، أو مفسّر لفعل مقدّر ناصب لـ«جهنّم».

﴿وَيَبْسُ الْقُرْآنُ﴾ أي: وبس المقرّ جهنّم.

وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز من دار البوار». لذكره علي بن إبراهيم<sup>(٢)</sup> في تفسيره..

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بفتح الياء. وليس الضلال والإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد، لكن لما كان نتيجته جعل كالعرض على طريق التشبيه.

﴿قُلْ تَمَتُّعُوا﴾ بشهواتكم أو بعبادة الأوثان، فإنها من قبيل الشهوات التي

(١) الواقعة: ٨٢.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٧١.

يتمتع بها. وفي التهديد بصيغة الأمر إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع لا يعرفون غيره ولا يريدونه، فكأنهم مأمورون به، قد أمرهم أمر مطاع، وأن المهتد عليه - أي: التمتع - كالمطلوب، لإفضائه إلى المهتد به، وهو النار، وأنهما متلازمان، ولذلك علته بقوله: ﴿فَإِنْ مَصِيزَكُمْ﴾ مرجعكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ إلى نار جهنم.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً لهم، وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. ومفعول «قل» محذوف يدل عليه جوابه، أي: قل لعبادي الذين آمنوا اقيموا الصلاة وأنفقوا. ﴿يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فيكون إيداناً بأنهم لفرط مطاوعتهم للرسول بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره. وأنه كالسبب الموجب له.

وقيل: لام الأمر مقدر فيهما، أي: ليقموا ولينفقوا، ليصح تعلق القول بهما. وإنما جاز حذف اللام، لأن الأمر الذي هو «قل» عوض منه. ولو قيل ابتداءً: ليقموا الصلاة وينفقوا، لم يجز.

وقيل: هما جوابا «أقيموا» و«أنفقوا» يقامان مقامهما، وهو ضعيف، لأنه لا يد من مخالفه ما بين الشرط وجوابه، ولأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منتصبان على المصدر، أي: إنفاق سرّ وعلانية. أو على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرّين ومعلنين. أو على الظرف، أي: وقتي سرّ وعلانية. والأفضل إعلان الواجب إذا كان صاحبه متهماً، وإلا إخفاؤه أفضل. وفي المتطوع به الأفضل الإخفاء مطلقاً.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره، أو يفدي به نفسه ﴿وَلَا خَلَالٌ﴾ ولا مخالّة فيشفع له خليل. أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالّة، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما، على النفي العام.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
 مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ  
 الْأَنْهَارَ ﴿٢٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ  
 ﴿٢٣﴾ وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ  
 الْإِنْسَانَ لَظَلُومًا كَفَّارًا ﴿٢٤﴾

ثم بين سبحانه أنه المستحق للإلهية، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبر. وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما وغيرهما من المكونات في  
 ضمنهما. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ تعيشون به. وهو  
 يشمل المطعوم والملبوس. وهذا مفعول لـ«أخرج»، و«من الشجرات» بيان له وحال  
 منه. ويحتمل عكس ذلك. ويجوز أن يراد به المصدر، فينتصب بالعلّة أو المصدر.  
 لأنّ «أخرج» في معنى: رزق.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم  
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل: تسخير هذه  
 الأشياء تعليم كيفية اتخاذها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما. وإصلاح  
 ما يصلحانه من المكونات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان لسباتكم  
 ومعاشكم.

﴿وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: بعض جميع ما سألتموه. نظراً في

مصالحكم. أو بعضاً من كل من الأصناف سألتموه. فإن الموجود من كل صنف بعض ما في قدرة الله تعالى. ويحتمل أن يكون المراد بـ«ما سألتموه» ما كان حقيقاً بأن يسأل، لاحتياج الناس إليه سئل أو لم يسأل. ويحتمل أن تكون «ما» موصولة وموصوفة ومصدرية، ويكون المصدر بمعنى المفعول.

﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصَوْهَا﴾ أي: لا تقدروا على إحصائها وحصرها، ولا تطبقوا عد أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفَلٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها. أو يظلم نفسه. بأن يعرضها للحرمان ﴿تَخْفَازُ﴾ شديد الكفران لنعم ربه. وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ  
الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ  
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ  
ذِي زُرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي  
إِلَيْهِمْ وَاَرْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّجَرَاتِ لَهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي  
وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾  
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ

الدُّعَاءُ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلِ دُعَاءِ  
 ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

ولما نهى الله سبحانه عن عبادة الأصنام، وأمر بعبادة الله وحده، عقبه بما كان عليه إبراهيم عليه السلام من التشدد في إنكار عبادة الأصنام، والدعاء بما دعا به، فقال عطفاً على الجمل السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴿٤٠﴾ بَلَدَةً مَكَّةَ ﴿٤١﴾﴾ آمناً، أن المسؤل في الأول جعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني إخراجها من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً. فاستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام، حتى كان الانسان يرى قاتل أبيه فيها فلا يتعرض له، وتدنو الوحوش فيها من الناس فتأمن منهم.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴿٤٢﴾ بِعَدْنِي وَإِيَّاهُمْ ﴿٤٣﴾ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: ثبتني وبنيتي على اجتناب عبادة الأوثان، والمعنى: الطف لي ولبني لطفاً تتجنب به عن عبادة الأصنام إلى آخر العمر. وأراد بنيه من صلبه، كما هو المتبادر، فلا يتناول أحفاده وجميع ذريته. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم.

وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، محتجباً به، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها، ويسمونها الدوار - بتخفيف الواو - وتشديدها - ويقولون: البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلته.

قيل: إن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت دعا بهذا الدعاء ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ فلذلك استعذت بك من إضلالهن. وإسناد الإضلال إلى الله عز وجل، كقوله: ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>، بمعنى: اغتروا بها وبسببها.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على ديني ﴿فَأِنَّهُ مِنِّي﴾ هو بعضي، لفرط اختصاصه بي وملاسته لي. ومثل ذلك قولهم: «من غشنا فليس منا»، أي: ليس بعض المؤمنين. لأنَّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم. والمعنى: فإنه لا ينفك عني في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ﴾ تستر على العباد معاصيهم ﴿رَجِيمٌ﴾ بهم في جميع أحوالهم، ومنعم عليهم، وقيل: ومن عصاني فيما دون الشرك.

﴿رَبِّنَا إِنِّي اسْتَكْنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذرّيتي، أو ذرّيّة من ذرّيتي، فحذف المفعول، وهم إسماعيل ومن ولد منه، فإنَّ إسكانه متضمّن لإسكانهم. وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: «نحن بقية تلك العترة». وقال عليه السلام: «كانت دعوة إبراهيم عليه السلام لنا خاصة».

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط. كقوله: ﴿قُرْآنًا غَرْبِيًّا غَيْرِ ذِي عَوْجٍ﴾<sup>(٢)</sup>، بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة. يعني: وادي مكة، فإنها حجرية لا تنبت.

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرّمت التعرّض له والتهاون به، بحيث لا يحل انتهاكه أصلاً، وما حوله محرّم بحرّمته. أو لم يزل محترماً معظماً ممنعاً تهابه الجبابة. أو منع منه الطوفان، فلم يستول عليه، ولذلك سمّي عتيقاً، أي: أعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أوّل ما قدم، فتسميته بالبيت باعتبار ما كان، أو ما سيؤل إليه. وإنّما أضاف البيت إليه سبحانه، لأنّه مالكة لا يملكه أحد سواه، وماعدها من البيوت قد ملكه غيره من العباد.

وروي أنّ هاجر كانت لسارة، فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فولدت منه إسماعيل.

(١) الأنعام: ٧٠.

(٢) الزمر: ٢٨.



فعرضت لها الغيرة، فناشدته أن يخرجهما من عندها. فأخرجهما إلى أرض مكة. فأظهر الله عين زمزم. ثم إن جرهم رأو تم طيوراً فقالوا: لا طير إلا على الماء. فقصده فرأوهما وعندهما عين، فقالوا: أشركينا في مائك نشرك في ألباننا، ففعلت. وتفصيل هذه القصة مرّت قبل<sup>(١)</sup>.

﴿زَيْنًا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام «كي» متعلّقة بـ«أسكنت» أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كلّ مرتفق ومرتق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم. وتكرير النداء وتوسيطه للإشعار بأنّها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمّة، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها.

وقيل: لام الأمر. والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة، كأنه طلب منهم الإقامة، وسأل من الله أن يوفّقهم لها.

﴿فَأَجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أفئدة من أفئدة الناس. و«من» للتبويض. ويدلّ عليه ما روي عن مجاهد: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليهم فارس والروم. وعن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس، لحجّت اليهود والنصارى والمجوس. أو للابتداء، كقولك: القلب مني سقيم، أي: أفئدة ناس. ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً.

﴿وَأَرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مع سكانهم وادياً لا نبات فيه. بأن تجلب إليه من البلاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ في أن يرزقوا أنواع الثمرات، حاضرة في وادٍ ليس فيه زرع ولا شجر ولا ماء. فأجاب الله دعوته، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كلّ شيء، حتّى يوجد فيه الفواكه الربعيّة والصفيّة والخريفيّة في يوم واحد.

﴿زَيْنًا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ﴾ تعلم سرّنا كما تعلم علننا. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا ممّا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنّا

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٢ ذيل الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل مواهبك، وولهاً إلى رحمتك، كما يمتلق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على الوجه الحسن.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: هو علم الغيوب في كل مكان من الأرض والسما، لأنه العالم بعلم ذاتي يستوي إلى كل معلوم. و«من» للاستغراق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي: مع الكبر، كقول الشاعر: إني على ما ترين من كبري... وهو في موضع الحال، أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قيد الهبة بحال الكبر استعظماً للنعمة، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس، من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، وإظهاراً لما فيها من آلائه. روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لمجيبه، من قولك: سمع الملك كلامي، إذا اعتد به. وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل، أضيف إلى مفعوله. ويجوز أن يكون من قبيل إضافة الفعل إلى فاعله، فيجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد سماع الله الدعاء. وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد حال اليأس، فأجابه ووهب له سؤله حينما وقع اليأس منه.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ هذا سؤال من إبراهيم من الله بأن يُلطف له اللطف الذي عنده يقيم الصلاة، معدلاً لها مواظباً عليها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على المنصوب في «اجعلني»، والتبويض لعلمه بإعلام الله أنه يكون في ذريته كقار، وذلك قوله: ﴿لَا يَخَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿زَيْنًا وَتَقْبَلُ دُعَاءِي﴾ أي: واستجب دعائي، أو وتقبل عبادتي، فإن قبول

الدعاء إنما هو الاجابة، وقبول الطاعة الإجابة.

﴿زَيْنًا اغْفِرْ لِي وَيَا وَالدِّي﴾ في هذا دلالة على أن أبويه لم يكونا كافرين،

وإنما كان آزر عمه أو جدّه لأُمّه على الخلاف، لأنه سأل المغفرة لهما يوم القيامة.

فلو كانا كافرين لما سأل ذلك، لأنه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾<sup>(١)</sup>.

ومن قال: إنما دعا لأبيه لأنه كان وعده أن يسلم، فلما مات على الكفر تبرأ منه،

على ما روي عن الحسن، فقول فاسد، لأن إبراهيم عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء بعد

الكبر، وبعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق، وقد تبين له في هذا الوقت عداوة أبيه

الكافر لله، فلا يجوز أن يقصده بدعائه.

﴿وَالْيَوْمَئِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت. مستعار من قيام القائم على

الرجل، كقولهم: قامت الحرب على ساقتها، أو يقوم إليه أهله، فحذف المضاف، أو

أسند إليه قيامهم مجازاً.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ

هُوَآءُ ﴿٤٣﴾

ولما ذكر سبحانه يوم الحساب بين أنه لا يمهل الظالمين عن غفلة من أفعالهم

القيحة، لكن لتأكيد الحجّة، فقال وعيداً للظالم وتسليّة للمظلوم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطاب للرسول ﷺ، والمراد به تشييته على ما هو

عليه، من أنه مطلع على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية، ووعيدهم بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. أو خطاب لكل من توهم غفلته، جهلاً بصفاته، واغتراراً بأمهاله.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم. وعن أبي عمرو بالنون. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: تشخص فيه أبصارهم، فلا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى في ذلك اليوم.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين في المحشر إلى الداعي. وقيل: الإهطاع أن تقبل بيسرك على ما ترى، تديم النظر إليه لا تطرف. فالمعنى: مقبلين بأبصارهم لا يطفون هيبة وخوفاً، فإن أصل الكلمة هو الإقبال على الشيء.

﴿مُغْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ﴾ لا ترجع إليهم أعينهم، فلا يغمضونها ولا يطبقونها، بل بقيت عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم.

﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ خلاء. أي: خالية عن الفهم، كفؤاد ذي الحيرة والدهشة، ومنه يقال للأحمق وللجبان: قلبه هواء. أي: لا رأي فيه ولا قوة. وقيل: خالية عن الخير. خاوية عن الحق.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ  
 أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَبِعِ الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ  
 مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ  
 فَضَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: يوم القيامة، أو يوم الموت، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، فإنه أول أيام عذابهم. وهو مفعول ثانٍ لـ «أنذر».

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ نفوسهم بالشرك والتكذيب ﴿زَيْنًا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ﴾ آخر العذاب عتاً. أو ردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى حدّ من الزمان قريب. أو آخر أجالنا، وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك ﴿وَنُحِيبٌ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ جواب للأمر. ونظيره: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

فيقول الله تعالى مخاطباً لهم، أو يقول الملائكة بأمره: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ من انتقال إلى دار أخرى. وهو على إرادة القول، و«ما لكم» جواب القسم، جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية. ولو حكى لفظ المقسمين لقليل: ما لنا من زوال. والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا، لا تزالون بالموت. ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً، لما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، أو دلّ عليه حالهم. حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً.

وقيل: أقسموا أنهم لا ينتقلون إلى دار أخرى، يعني: أنهم كفروا بالبعث، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ من السكون، أو السكنى ﴿فِي مَسَاجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وتمود. وأصل «سكن» أن يعدى «في» كقرّ وغني وأقام. وقد يستعمل بمعنى التبوؤ، فيجري مجراه، كقولك: سكنت الدار. والمعنى:

(١) المنافقون: ١٠.

(٢) النور: ٥٣.

(٣) النحل: ٣٨.

اطمأنتم فيها طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلكم في الظلم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار المتواترة عندكم أو بالمشاهدة ﴿خَفِيفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ كيف أهلكناهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ من أحوالهم. أي: يبتنا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب، أو في صفات ما فعلوا وفعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ  
الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو  
اِتِّقَامٍ ﴿٤٧﴾

ثم أبان سبحانه عن مكر الكفار ودفعه ذلك عن رسله، تسلياً لسيئاتنا بالتسوية فقال: ﴿وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ يمكن أن يكون مضافاً إلى الفاعل، على معنى: ومكتوب عنده مكرهم، فهو مجازيهم عليه. أو مضافاً إلى المفعول، يعني: وعنده ما يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يأتيهم به من حيث لا يحتسبون، جزاءً لمكرهم وإبطالاً له. ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بالأنبياء قبلك في العظم والشدة ﴿لَيَقْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ مسوياً لإزالة الجبال.

وقيل: «إن» نافية، واللام مؤكدة لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، أي: وما كان مكرهم لتزول منه ما هو مثل

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) البقرة: ١٤٣.

الجبال الراسية - من دلائل النبيّ وشرائعه - في الثبات والتعمّن . يعني : لا تزول منه الجبال ، فكيف يزول منه الدين الذي هو أثبت من الجبال؟!

وقيل : مخففة من الثقيلة ، أي : وإِنَّه كان مكرهم ليزيلوا به ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً . من آيات الله وشرائعه . يعني : أَنْ مكرهم وإن بلغ كل مبلغ فلا يزيل دين الله ، ولا يضرّ ذلك أنبياءه ، ولا يزيل أمرهم ، ولا سيّما أمر محمد ﷺ ، فإنّه أثبت من الجبال .

وقرأ الكسائي بالفتح والرفع ، على أنّها المخففة ، واللام هي الفاصلة . ومعناه : تعظيم مكرهم .

قيل : إن المراد به نمرود بن كوش بن كنعان ، حين أخذ التابوت ، وأخذ أربعة من النسور فأجاعها أياماً ، وعلّق فوقها لحماً ، وربط التابوت إليها ، وطارت النسور بالتابوت وهو ووزيره فيه ، إلى أن بلغت حيث شاء الله تعالى ، وظنّ أنّه بلغ السماء ، ففتح باب التابوت من أعلاه فرأى بعد السماء منه كبعدها حين كان في الأرض ، وفتح باباً من أسفل التابوت فرأى الأرض قد غابت عنه ، فهاله الأمر ، فصوّب النسور ، وسقط التابوت ، وكانت له وجبة . وهذا القول مروى عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة .

﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ مثل قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾<sup>(٢)</sup> ، وأصله : مخلف رسله وعده ، فقدّم المفعول الثاني إيذاناً بأنّه لا يخلف وعده أصلاً ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وإذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته؟!

(١) غافر : ٥١ .

(٢) المجادلة : ٢١ .

(٣) آل عمران : ٩ .

﴿إِنَّ اللَّهَ غَزِيْرٌ﴾ غالب لا يماكر، قادر لا يدافع ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ  
 ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ  
 قَطْرَانٍ تَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ  
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ  
 وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ﴾ أي: الأرض التي تعرفونها ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرضاً  
 أخرى غيرها. وهو يدل من «يوم يأتيهم»، أو ظرف للانتقام، أو مقدر به؛ اذكر، أو:  
 لا يخلف وعده. ولا يجوز أن ينتصب بـ«مخلف»، لأن ما قبل «أن» لا يعمل فيما  
 بعده.

﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ عطف على «الأرض». وتقديره: والسموات غير السموات.  
 والتبديل يكون في الذات، كقولك: بدلت الدراهم دنائير. وعليه قوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ  
 جُلُودًا غَيْرَهَا﴾<sup>(١)</sup>. ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾<sup>(٢)</sup>. وفي الصفة، كقولك: بدلت  
 الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل. وعليه قوله:

(١) النساء: ٥٦.

(٢) سبأ: ١٦.



﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾<sup>(١)</sup>. والآية تحتملها.

وعن عليّ عليه السلام: «تبدّل أرضاً من فضّة، وسماوات من ذهب».

وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء، لم يخطيء عليها أحد خطيئة.

وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام بالإسناد عن زرارة ومحمد بن مسلم وحمران بن أعين، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «تبدّل الأرض خبزة نقيّة، يأكل الناس منها حتّى يفرغ من الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾<sup>(٢)</sup>. وهو قول سعيد بن جبیر ومحمد بن كعب.

وروي عن ابن مسعود أنّه قال: تبدّل الأرض بنار، فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً، والجنّة من ورائها، يرى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، ولم يبلغ الحساب بعد.

وقال كعب: تصير السماوات جناناً، ويصير مكان البحر النار، وتبدّل الأرض غيرها. ويؤيده قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَفِي عَلَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: أتى النبيّ صلى الله عليه وآله خبر من اليهود فقال: رأيت إذ يقول الله في كتابه: «يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات» فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه.

وقيل: تبدّل الأرض لقوم بأرض الجنّة، ولقوم بأرض النار.

وعن ابن عبّاس: هي تلك الأرض، وإنّما تغيّر صفاتها، ويدلّ عليه ما روى

(١) الفرقان: ٧٠.

(٢) الأنبياء: ٨.

(٣) (٤) المطففين: ١٨ و ٧.

أبو هريرة أنه رضي الله عنه قال: «تبدّل الأرض غير الأرض، فتبسّط وتمدّد مدد الأديم»<sup>(١)</sup> العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً». وأما تبدّل السماء صفة فيكون بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً.

﴿وَيَبْرُؤُوا بِهِ﴾ من قبورهم ﴿النَّوَاجِدِ الْقَهَّارِ﴾ لمحاسبته ومجازاته. وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أنّ الأمر في غاية الصعوبة، كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> فَإِنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ لِوَاحِدٍ غَلَّابٌ لَا يَغَالِبُ. فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد الزائغة والأعمال السيئة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾<sup>(٣)</sup> أو بأن يقرن كلّ كافر مع شيطان كان يضله. وهو المنقول عن ابن عباس. أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلّق بـ«مقرنين»، أو حال من ضيره. والصفد القيد. وقيل: الغلّ. وأصله الشدّ.

﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصانهم ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ وقطران وقطران أيضاً - بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء - لفتان، وإن لم يقرأهما أحد من القراء العشرة. وهو ما يتعلّب من شجر يسمى الأبهل، فيطبخ فتطلى به الإبل الجربي<sup>(٤)</sup>، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته. وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به. وهو أسود اللون، منتن الريح، لزج. فتطلى به جلود أهل النار، حتّى

(١) الأديم: الجلد المدبوغ. والعكاظي منسوب إلى سوق عكاظ بمكة في الجاهليّة.

(٢) غافر: ١٦.

(٣) التكوير: ٧.

(٤) الجربي جمع الأجرّب، وهو الإبل أصابه الجرب. وهو داء يحدث في الجلد بثوراً صفراً لها حكة شديدة.

يكون طلاؤه لهم كالسراويل، ليجتمع عليهم أربع: لذع القطران وحرقتة، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وتتن الرياح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. وكل ما وعد الله أو أوعده الله في الآخرة، فبينه وبين ما يشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، فكأنه ما عندنا إلا الأسمي والمسميات ثمة.

وعن يعقوب: قطر آن. والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، والآني: المتناهي حره. والجملة حال ثانية من مفعول «تري»، أو حال من الضمير في «مقرنين».

﴿وَتَفَشَّنِيْ وَجُوْهُهُمُ النَّارُ﴾ لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله، كما تطلع على أفئدتهم، لأنها فارغة عن المعرفة، مملوءة بالجهالات. ونظيره قوله: ﴿أَفَمَنْ يَسْتَقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوْهِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أو كل نفس مجرمة أو مطيعة، لأنه إذا بين أن المجرمين يعاقبون لأجرامهم، دل على أن المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إن علق اللام بـ«برزوا». ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، أو السورة، أو ما فيه من العظة والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ كفاية لهم في الموعدة ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ عطف على محذوف، أي: لينصحووا ولينذروا بما في هذا البلاغ من الوعيد. فتكون اللام متعلقة بالبلاغ. ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: ولينذروا به أنزل أو تلي.

(١) الزمر: ٢٤.

(٢) القمر: ٤٨.

(٣) إبراهيم: ٤٢.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ بالنظر والتأمل في الأدلة المؤدية إلى التوحيد، المثبتة في القرآن من الآيات الدالة عليه. ﴿وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول والنهى، فيرتدعوا عما يرددهم، وينتدعوا بما يحظيهم.

واعلم إنها الطالب للرشاد ذخراً ليوم المعاد، أن في هذه الآية دلالة على أن القرآن كافٍ في جميع ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين، لأن جميعها - جملها وتفصيلها - يعلم بالقرآن، إما بنفسه، وإما بواسطة. فيجب على المؤمن المجتهد المهتم بأمور الدين أن يشتر عن ساق الجد في طلب علوم القرآن، ليوفق بمعرفة ما فيه من بدائع الحكمة ومواضع البيان، ويكتفي به عما سواه، لينال السعادة في دنياه وعقباه.

وفي قوله: «وليعلموا أنما هو إله واحد» دلالة على أنه سبحانه أراد من الناس علم التوحيد، خلافاً لأهل الجبر في قولهم إنه سبحانه أراد من النصارى إثبات التثليث، ومن الزنادقة القول بالثنوية. تعالى الله عن ذلك.

وفي قوله: «وليدكر أولوا الأبواب» دلالة على أنه أراد من الجميع التدبر والتذكر. وعلى أن العقل حجة، لأن غير ذوي العقول لا يمكنهم الفكر والاعتبار.

واعلم أيضاً أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية في إنزال الكتب: تكميل الرسل للناس. واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد. واستصلاح القوة العملية، الذي هو التدرع بلباس التقوى. اللهم اجعلنا من الموقنين لهما. بحق نبيك النبي، ووليك الوليه، وآلهما المعصومين أجمعين.



## سورة الحجر

مَكِّيَّةٌ، وهي تسع وتسعون آية بالإجماع. أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيَبْلُغُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾

ولما ختم سبحانه سورة إبراهيم ﷺ بذكر القرآن، وأنه بلاغ وكفاية لأهل الإسلام، افتتح هذه السورة بذكر القرآن، وأنه مبين للأحكام، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب

هو السورة. وكذا القرآن. أو المراد بهما الكتاب والسورة جميعاً. وتكثيره للتفخيم. أي: آيات المنزل الجامع بين كونه كتاباً كاملاً وقرآناً يبين الرشد من الغي، كاملاً في البيان.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما يتمنى الكفار الاسلام حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر، أو عند حلول الموت، أو في القبر، أو يوم القيامة.

روى مجاهد عن ابن عباس قال: ما يزال الله يدخل الجنة ويرحم ويشفع حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وروي مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم منا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ﷻ ما قالوه، فأمر من كان في النار من أهل الاسلام فأخرجوا منها. فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين».

وقال الصادق عليه السلام: «ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق: أنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، فتم يودُّ سائر الخلق أنهم كانوا مسلمين».

وقرأ نافع وعاصم: ربما بالتخفيف. و«ما» كافة تكفئه عن الجمر، فيجوز دخوله على الفعل. وحقه أن يدخل على الماضي، لكن لما كان المترقب في أخبار الله تعالى كالماضي في تحققه، أمجري المضارع مجرى الماضي.

وقيل: «ما» نكرة موصوفة، كقوله:

رُبَمَا<sup>(١)</sup> تَكَرَّهَ النَّفْسُ مِنَّ الْأَمْرِ      لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ

(١) أي: رب شيء تكرهه النفس.

ومعنى التقليل فيه: الإيذان بأنهم لو كانوا يودّون الاسلام مرّة فبالحرى أن يسارعوا إليه. فكيف وهم يودّونه كلّ ساعة!  
وقيل: تدهشهم أهوال القيامة. فإن حانت منهم إفاقة في بعض الآتات من سكرتهم تمّنوا ذلك.

وقوله: «لو كانوا مسلمين» حكاية ودادهم. وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلن. ولوقيل: لو كنّا مسلمين، وحلف بالله لأفعلن، لكان حسناً، لكن إيثار الحكاية هو الأحسن، لأنّا يلتبس بقول المستكلم الحاكي.

﴿ذَرَهُمْ﴾ أي: اقطع طمعك منهم، ودعهم عن النهي عمّا هم عليه، والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلصهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَقْتَتِلُوا﴾ بدياهم وتنفيذ شهواتهم ﴿وَيُنْهَهُمُ الْأَقْلُ﴾ ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد ﴿فَسَوْفَ يَغْلَبُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناظ الرسول من أرعوائهم، وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان، فلا ينفعهم الوعظ، ولا ينجع فيهم النصيح، فنصحهم بعدّ اشتغال بما لا طائل تحته.

وفيه إزام للحجّة، وتحذير عن إيثار التنعّم وما يؤدّي إليه طول الأمل، ومبالغة في الإنذار منه، وتنبيه على أنّ الانسان يجب أن يكون مقصور الهمة على أمور الآخرة، مستعدّاً للموت، مسارعاً إلى التوبة، ولا يأمل الآمال المؤدّية إلى الصدّ عنها.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، فإنّ اتباع الهوى يصدّ عن الحقّ، وطول الأمل ينسي الآخرة». وعن بعض العلماء: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ مكتوب مقدّر معيّن، وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ. والمستثنى جملة واقعة صفة «قرية». والأصل أن



لا تدخلها الواو، كما في قوله: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ (١) لكن لما شابهت صورتها صورة الحال أدخلت عليها تأكيداً، للصوقها بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد وعليه ثوب.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ موضع كتابها، أي: لم تكن أمة فيما مضى تسبق أجلها الذي قدر لها، فهلك قبل ذلك ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه، بل إذا استوفت أجلها أهلكها الله لا محالة. وتذكير ضمير «أمة» فيه للحمل على المعنى، فإنها بمعنى القوم.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا  
بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا  
إِذَا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا  
مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ  
وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ  
يَعْرَجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ نادوا النبي ﷺ على التهكم. ألا ترى إلى ما نادوه له، وهو قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. ونظير ذلك قول فرعون: ﴿إِن

رَسُولُكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِنَّا لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا<sup>(١)</sup>. والتعكس في كلامهم للاستهزاء والتسكيم مذهب واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّهِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>. وقد يوجد في كلام المعجم. والمعنى: أنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله نزل عليك الذكر، أي: القرآن.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركبت «لو» مع «ما» كما ركبت مع «لا» لمعنيين: لامتناع الشيء لوجود غيره، والتحضيض. والمراد هاهنا الثاني، أي: هلاً تأتينا. ﴿بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ليصدقوك ويعضدوك على الدعوة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>. أو للعقاب على تكذيبنا لك، كما أتت الأمم المكذبة قبل. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء مسند إلى ضمير اسم الله. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وعاصم: نزل بالنون. وأبو بكر: نزل الملائكة، بالتاء والبناء للمفعول ورفع الملائكة. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي: بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن يأتيكم بصور تشهدونها، فإنه لا يزيدكم إلا لبساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة، فإن علمنا يتعلق بأن منكم ومن ذراريكم من سيؤمن، وقيل: الحق الوحي، أو العذاب.

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ مهلين مؤخرين. «إذا» جواب لهم وجزاء الشرط مقدر، أي: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين، بل عذبوا بلامهلة. ثم زاد سبحانه في البيان، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُنزِّلُ الْذُكْرَ﴾ رد لإنكارهم

(١) الشعراء: ٢٧.

(٢) آل عمران: ٢١.

(٣) هود: ٨٧.

(٤) الفرقان: ٧.

واستهزأهم، ولذلك أكده من وجوه، وهي: إيراد حرف التحقيق. وتأکید الضمير، والإسناد إلى نفسه. وصيغة المبالغة، وتقريره بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَكَاْفِقُونَ﴾ أي: من كل زيادة ونقصان، وتغيير وتحريف، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتولَّ حفظها، وإنما يستحفظها الربانيون والأخبار. ولم يكل القرآن إلى غير حفظه، ليكون إلى آخر الدهر معجزاً مبيناً لكلام البشر، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان، فتنقله الأمة عسراً بعد عصر على ما هو عليه، فيكون حجة على الخلق.

وقيل: الضمير في «له» للنبي ﷺ، لقوله: ﴿وَإِنَّهُ يَغْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد رسلاً. حذف المفعول لدلالة الإرسال عليه. ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ في فرقهم، جمع شيعه، وهي الفرقة المتفقه على طريق ومذهب، من: شاعه، إذا تبعه. والمعنى: تبأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعل هؤلاء. وهو تسليه للنبي ﷺ. و«ما» للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى، أو ماضياً قريباً منه. وهذا على حكاية الحال الماضية.

﴿عَذَابِكَ نَسْلُكُهُ﴾ ندخل الذكر ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حال من مفعول «نسلكه». والمعنى: مثل ذلك السلك نسلك الذكر ونلقيه في قلوب المجرمين مكذباً غير مؤمن به، كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجبك إليها فقلت: كذلك أنزلها بالثام، يعني: مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية. أو يكون قوله: «لا يؤمنون» بياناً للجمله المتضمنة للضمير.

وقال بعض الأشرعيّة: إنّ المعنى نسلك الاستهزاء في قلوبهم. وهذا غير صحيح، لأنّه لو كان الله قد سلك الاستهزاء في قلوبهم لسقط عنهم الذمّ والعقاب، لأنّ ذلك ليس من فعلهم، بل من فعل الله سبحانه فيهم، فلمهم أن يقولوا محتجّين عليه: عتبتنا وذممتنا، وعدّبتنا بشيء أنت تخلقه فينا. وليس لنا فيه اختيار، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثمّ قال تهديداً لهم على تكذيبهم: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسولهم وبالذكر المنزل عليهم. وهو وعيد لأهل مكّة على تكذيبهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ﴾ على هؤلاء المعاندين المقترحين ﴿بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم. وتخصيص ذلك بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقيل: الضمير للملائكة، أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً.

﴿لَقَالُوا﴾ من غلّوهم في العناد وتشكيكهم في الحقّ ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ سذت عن الإبصار بالسحر، فإنّ اشتقاقه من السكر بمعنى السدّ. ويدلّ عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف، أو حيرت من السكر. أي: حارت كما يحار السكران. والمعنى: أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلّوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسرّ لهم معراج يصعدون فيه إليها، وشاهدوا ملكوت السماء، أو رأوا صعود الملائكة في السماء من العيان، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ بل قالوا: قد سحرنا محمّد بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات. وإنّما قال: «إنّما» ليدلّ على أنّهم يقطعون بأنّ ذلك ليس إلّا تسكيراً لأبصارهم.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا  
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ  
 مُبِينٌ ﴿١٨﴾

ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد ردًا عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ  
 بُرُوجًا﴾ اثني عشر تسير الشمس والقمر فيها، مختلفة الهيئات والخواص  
 ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالأشكال الحسنة والهيئات البهية من الكواكب المنيرة ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾  
 الاعتبارين المستدلّين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ وحفظنا السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ مرجوم مرمي  
 بالشهب، أو ملعون مشؤوم، فلا يقدر أن يصعد إليها، ويوسوس أهلها، ويتصرف  
 في أمرها، ويطلع على أحوالها، وحفظ الشيء جعله على ما يتفي عنه الضياع. فمن  
 ذلك حفظ القرآن بدرسه حتى لا ينسى، وحفظ المال إحرازه حتى لا يضيع، وحفظ  
 السماء من الشيطان بالمنع حتى لا يدخلها، ولا يبلغ إلى موضع يتمكن فيه من  
 استراق السمع، لما أعد له من الشهاب، كما قال جلّ وعزّ: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾  
 بدل «من كل شيطان».

واستراق السمع اختلاسه سرًا، شبه به خطفتهم اليسيرة من قطآن السماوات،  
 لما بينهم من المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها  
 ليخبروا بها الكهنة.

وعن ابن عباس: أنه كان في الجاهلية كهنة، ومع كل واحد شيطان، فكان  
 يقعد من السماء مقاعد للسمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الأرض، فينزل  
 ويخبر به الكاهن، فيفشيهِ الكاهن إلى الناس، فلمّا ولد عيسى ﷺ منعوا من ثلاث

سماوات، ولما ولد محمد ﷺ منعوا من السماوات كلها بالشهب. فالشهاب من معجزات نبينا ﷺ، لأنه لم ير قبل زمانه.

وقيل: الاستثناء منقطع، أي: ولكن من استترق السمع ﴿فَأَنْبِقَهُ﴾ فتبعه ولحقه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين. والشهاب شعلة نار ساطعة. وقد يطلق للكواكب والسنان، لما فيهما من البريق.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾

ولما تقدم ذكر السماء وما فيها من الأدلة والنعم، أتبعه بذكر الأرض، فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها طولاً وعرضاً ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض، أو فيها وفي الجبال ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ﴾ مقدر بمقدار معين وزن بميزان الحكمة، أو مستحسن مناسب، من قولهم: كلام موزون. أو ما يوزن ويقدر في العادة، كالفضة والذهب. أو له وزن في أبواب النعم والمنفعة. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ عطف على معاش، أو على محل «لكم». كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معاش وجعلنا من لستم له برازقين، ولا يجوز عطفه على ضمير «لكم»، لأنه لا

يعطف على الضمير المجرور. والمراد به العيال والخدم والماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظناً كاذباً، فإن الله يرزقهم وإياهم.

وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين - مختلفة الأجزاء في الوضع، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقه وطبيعته، مع جواز أن لا تكون كذلك - على كمال قدرته، وتناهي حكمته، والتفرد في الألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك، ليوحدوه ويعبدوه.

ثم بالغ في ذلك وقال: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه. فضرب الخزانين مثلاً لاقتداره على كل مقدوراته، أو شبهه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد.

وقيل: المراد به الماء الذي منه النبات، وهو مخزون عنده تعالى إلى أن ينزله، ونبات الأرض وثمارها إنما ينبت بماء السماء.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ وما نوجده وما نعطيه. أو ما ننزل المطر في بقاع الأرض ﴿إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ نعلم أنه مصلحة. فحده الحكمة، وتلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات، مشتملاً على بعض الصفات والحالات، لا بد له من مخصص حكيم.

ويؤيد التفسير الثاني قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ حوامل. شبه الريح التي جاءت بخير - من إنشاء سحب ماطر - بالعامل. كما شبه ما لا يكون كذلك بالعميم. أو ملحقات للشجر أو السحاب. ونظيره الطوائح، بمعنى المطيحات، في قوله: ومختبط مما تطيح الطوائح.

﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْسَقْنَا كُؤُودَهُ﴾ فجعلنا لكم سقياً ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ قادرين متمكّنين من إخراجهم. نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله: «وإن

من شيء، إلا عندنا خزائنه». أو حافظين في الغدران والعيون والآبار. ثم نخرجه منها بقدر الحاجة، ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج إليه من الماء في موضع. وذلك أيضاً يدل على المدبر الحكيم، كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس. فإن طبيعة الماء تقتضي الغور، فوقوفه دون حد لا بد له من سبب مخصص.

﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون إذا هلك الخلق كله. وهو استعارة من وارث الميت. لأنه يبقى بعد فناء الموروث منه، ومنه قوله ﷺ: «واجعله الوارث منا». أو المراد: نحن الوارثون جميع الأشياء كلها إذا مات الخلائق، فتصير جميع الأشياء كلها راجعة إلينا نفرد بالنصرف فيها.

وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسَآخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

ثم بين كمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسَآخِرِينَ﴾ من استقدم ولادة وموتاً ومن استأخر من الأولين والآخرين. أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدم في الاسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة أو تأخر. لا يخفى علينا شيء من أحوالكم.

وقيل: رغب رسول الله ﷺ في الصف الأول، وقال: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها». وقال ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم». فازدحم الناس، وكانت دور بني



عذرة بعيدة عن المسجد، فقالوا: لنيعن دورنا، ولنشترين دوراً قريبة من المسجد، حتى ندرك الصفَّ المقدم. فنزلت هذه الآية. فعلى هذا يكون المعنى: أنا نجازي الناس على تياتهم.

وقيل: إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها، وتأخر بعض ليصرها، فنزلت الآية المذكورة. فقال: ﴿وَأَنْ زَيْدٌ هُوَ يُخَشِنُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء.

وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم، والعالم بحصرهم - مع كثرتهم وتباعد أطراف عددهم - لا غير.

وتصدير الجملة بـ«إِنَّ» لتحقيق الوعد، والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدلُّ على صحَّة الحكم. كما صرح به بقوله: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ﴾ باهر الحكمة، متقن في أفعاله ﴿غَلِيمٌ﴾ وسع علمه كلَّ شيء.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ

حَبَابٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ  
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ  
الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ  
لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ  
﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ  
سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ  
﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

ولما ذكر سبحانه الإحياء والإماتة والنشأة الثانية، عقبه ببيان النشأة الأولى،  
فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ طين يابس يصلصل - أي: يصوت إذا نقر  
- وهو غير مطبوخ، فإذا طبخ فهو فخار. وقيل: هو من: صلصل إذا اتنن، تضيف:  
صل، فإنه يقال: صل اللحم وأصل إذا اتنن.  
﴿مِنْ حَفَاٍ﴾ طين تغير واسود من طول مجاورة الماء. وهو صفة صلصال،  
أي: كائن من حماٍ ﴿مَسْنُونٍ﴾ مصور، من: سنن الوجه، أي: صورته. أو مصبوب  
مفرغ لبيس، كالجواهر المذابة تصب في القوالب، من السن وهو الصب، كأنه أفرغ  
الحماٍ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فبيس حتى إذا نقر صلصل، ثم غير ذلك  
طوراً بعد طور، حتى سواه ونفخ فيه من روحه. أو منتن، من: سننت الحجر على  
الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون منتناً، ويسمى السنين.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن. وقيل: إبليس. ويجوز أن يراد به الجنس، كما هو الظاهر من الانسان. لأنَّ تشعب الجنس لما كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة. كان الجنس بأسره مخلوقاً منها. وانتصابه بفعل يفسره قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ من قبل خلق الانسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام. وقيل: هي نار لا دخان لها، والصواعق يكون منها. ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة، كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي. وقوله: «من نار» باعتبار الغالب، كقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾<sup>(١)</sup>.  
 قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجن.

ومساق الآية كما يدل على كمال قدرته وبيان بدء خلق الثقلين، فهو كالتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر. وهو قبول المواد للجمع والإحياء.

واعلم أن أصل آدم ﷺ كان من تراب، وذلك قوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>. ثم جعل التراب طيناً، وذلك قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(٣)</sup>. ثم ترك ذلك الطين حتى تغير واسترخى. وذلك قوله: «من حمأ مسنون» ثم ترك حتى جف، وذلك قوله: «من صلصال». فهذه الأقوال لا تناقض فيها، إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿بَلْمَلَأْنِيهِ خَالِقُ بَشَرًا﴾ يعني: آدم. وسمي بشراً لأنه ظاهر الجلد، لا يواريه شعر ولا صوف. ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

(١) الروم: ٢٠.

(٢) آل عمران: ٥٩.

(٣) الأنعام: ٢.

مَسْفُونٌ ﴿١﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ﴾ عدلت خلقته وكملته. وهياتة لنفخ الروح فيه ﴿وَوَفَّخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي.

قال في الكشاف: «معناه: وأحييته، وليس ثم نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه»<sup>(١)</sup>.

وقال في الأنوار: «أصل النفخ إجراء الريح في تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية، فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً، وإضافة الروح إلى نفسه للتشريف»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَقَعُوا﴾ فاسقطوا ﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أمر من: وقع يقع.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم، ومنع توهم احتمال التخصيص.

وقيل: أكد بالكل للإحاطة، وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة. وفيه بحث، إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إن جعل منقطعاً اتصل به قوله: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: ولكن إبليس امتنع أن يسجد معهم واستكبر. وإن جعل متصلاً كان استثناءً، على أنه جواب سائل قال: هلا سجد؟ فقيل: أبى أن يكون من الساجدين.

واستثنى إبليس من الملائكة، لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب، كقولك: رأيتهم إلا هذا. وقد سبق<sup>(٣)</sup> القول في

(١) الكشاف ٢: ٥٧٧.

(٢) أنوار التنزيل ٣: ١٦٨.

(٣) راجع ج ١ ص ١٢٣ ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة.

أَنْ يَلِيسَ هَلْ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْلَمْ يَكُنْ؟ باختلاف العلماء فيه، وما لكل واحد من الفريقين من الحجج في سورة البقرة، فلا معنى للإعادة هاهنا.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ حرف الجرّ محذوف، أي: أيّ غرض لك في

أَنْ لَا تَكُونَ ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم؟!!

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي، أي: لا يصحّ منّي وينافي حالي أَنْ

أَسْجُدَ ﴿لِيَبْشُرَ﴾ جسمانيّ كثيف وأنا جسم لطيف ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخسّ العناصر، وخلقته من نار وهي اشرفها. استنقص آدم ﷺ باعتبار النوع والأصل. وقد سبق<sup>(١)</sup> الجواب عنه في سورة الأعراف.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء، أو الجنة، أو زمر الملائكة. وقيل: من

الرئاسة. ﴿فَبَأْتِكَ زُجُجٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة، مبعّد من الرحمة، فإنّ من يطرد يرحم بالمجر. أو شيطان يرحم بالشهب. وهو وعيد يتضمّن الجواب عن شبهته.

﴿وَأَنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ﴾ هذا الطرد والإبعاد ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ضرب يوم الدين

حدّاً للجنة، إمّا لأنّه أبعد غاية يضرها الناس - كقوله: ﴿مَا ذَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾<sup>(٢)</sup> - في التأييد. وإمّا أن يراد: أنّك مذموم مدعوّ عليك باللجنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعدّب، فإذا جاء ذلك اليوم عدّبت بما ينسى اللعن معه. أو لأنّ اللعنة إلى يوم الدين يناسب أيّام التكليف. وما في قوله: ﴿فَأَذَنْ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> بمعنى آخر، وهو العذاب الأليم والعقاب العظيم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فأخّرني. والفاء متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «فأخرج

(١) راجع ج ٢ ص ٤٩٨ ذيل الآية (١٢) من سورة الأعراف.

(٢) هود: ١٠٧.

(٣) الأعراف: ٤٤.

منها فإنك رجيم». ﴿إِنِّي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لكلاً يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد، فلم يجب إلى ذلك الوقت، بل ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِنِّي يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله، أو انقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى.

ويجوز أن يكون المراد بالأيام الثلاثة يوم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات. فعبّر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرفته، وثانياً بيوم البعث، إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التضليل، وثالثاً بالمعلوم، لوقوعه في الكلامين. ولا يلزم من ذلك أن لا يموت. ويمكن أن يموت أول اليوم ويبعث مع الخلائق في تضاعيفه. وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدل على منصب إبليس، لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم، و«ما» مصدرية، وجوابه ﴿لَأَزِيدَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. والمعنى: أقسم بإغوائك إني لأزيدن لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور، ومعنى إغوائه إيّاه تسيبه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم، فأفضى ذلك إلى غيّه. وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيّه ومن إرادته والرضا به، كما هو رأي الأشعرية. تعالى عن ذلك علواً كبيراً. ونحو ذلك قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾<sup>(١)</sup> في أنه إقسام، إلا أن أحدهما إقسام بصفته، والآخر إقسام بفعله.

ويجوز أن لا تكون الباء للقسم، بل للسببية، ويقدر قسم محذوف، والمعنى: بسبب تسيبك لإغوائي أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بي من التسيب لإغوائهم، بأن أزيدن لهم المعاصي.

﴿وَأَغْوَيْنَهُمْ اجْمَعِينَ﴾ ولأحملتهم أجمعين على الغواية، وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم في الدنيا التي هي دار الغرور، كقوله: ﴿أَخْلَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾<sup>(١)</sup>، أو أراد: أنني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر، أو أراد: لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض، ولأوقعن تزييني فيها، أي: لأزيئنها في أعينهم، ولأحدثنهم بأن الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة، ويطمئنوا إليها دونها.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مَبْتَلِينَ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ حق علي أن أراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف عنه. وهذا إشارة إلى ما تضمنه الاستثناء، وهو تخليص المخلصين من إغوائه، أو إلى الإخلاص، على معنى أنه طريق علي يؤدي إلى الوصول إلي من غير اعوجاج وضلال.

﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ نصديق لإبليس فيما استثناءه، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين، ولأن المقصود بيان عصمتهم، وانقطاع مخالف الشيطان عنهم، أو تكذيب له فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده، فإن منتهى تزيينه التحريض والتدليس، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكَ فَاسْتَجَبْتُ لِي﴾<sup>(٢)</sup>، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، وعلى الأول يدفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي، لإقضائه إلى تناقض الاستثناءين، لأنه استثنى الغاوين من العباد تارة، وعكس

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) إبراهيم: ٢٢.

أخرى، فيكون كلٌّ من الفريقين أقلَّ من الآخر وأكثر.

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَعَوْدُهُمْ﴾ لموعد الغاوين أو المتبعين ﴿اجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير، أو حال. والعامل فيها الموعود إن جعلته مصدراً على تقدير مضاف، ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان، فإنه لا يعمل.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم. أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَةُ طَبَقَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى فَقَالَ: هَكَذَا، وَإِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْجَنَانَ عَلَى الْعَرْضِ، وَوَضَعَ النَّبْرَانَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَأَسْفَلُهَا جَهَنَّمَ، وَفَوْقَهَا لُظَى، وَفَوْقَهَا الْحَطْمَةُ، وَفَوْقَهَا سَقْرٌ، وَفَوْقَهَا الْجَحِيمُ، وَفَوْقَهَا السَّعِيرُ، وَفَوْقَهَا الْهَآوِيَةُ». وفي رواية الكلبي: أسفلها الهاوية، وأعلىها جهنم.

وعن ابن عباس: أَنَّ الْبَابَ الْأَوَّلَ جَهَنَّمَ، وَالثَّانِي سَعِيرٌ، وَالثَّلَاثُ سَقْرٌ، وَالرَّابِعُ جَحِيمٌ، وَالخَامِسُ لُظَى، وَالسَّادِسُ الْحَطْمَةُ، وَالسَّابِعُ الْهَآوِيَةُ.

ولمَّا تَخَصَّصَ الْعِدَدُ لِانْحِصَارِ مَجَامِعِ الْمَهْلَكَاتِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْمَحْسُوسَاتِ، وَتَبَاعَةِ الْقُوَّةِ الشَّهْوِيَّةِ وَالغَضَبِيَّةِ، أَوْ لِأَنَّ أَهْلَهَا سَبْعَ فِرَقٍ.

﴿يَكُلُّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الأنواع في الدنيا ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ نصيب أفرز له، فأعلىها للموحدين العصاة، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين.

وعن ابن عباس: أَنَّ جَهَنَّمَ لِمَنْ ادَّعَى الرِّبَوِيَّةَ، وَلُظَى لِعِبَادَةِ النَّارِ، وَالْحَطْمَةُ لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَسَقْرٌ لِلْيَهُودِ، وَالسَّعِيرُ لِلنَّصَارَى، وَالْجَحِيمُ لِلصَّابِئِينَ، وَالْهَآوِيَةُ لِلْمُوحِدِينَ.

وقرأ أبو بكر: جُزْءٌ بَضْمَتَيْنِ. و«منهم» حال منه، أو من المستكن في الظرف لا في «مقسوم»، لأنَّ الصِّفَةَ لَا تَعْمَلُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَوْصُوفَهَا.



إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ اَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾  
 وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا  
 يَسْمُهُمْ فِيهَا نَجَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

ولما ذكر سبحانه عبادة المخلصين عقبه بذكر حالهم في الآخرة. فقال: ﴿إِنَّ  
 الْمُتَّقِينَ﴾ من أتباعه في الكفر والفواحش، فإن غيرهما مكفرة بالصلوات وغيرها  
 ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعين. أو لكل عدة منهما. كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَ  
 خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾<sup>(١)</sup> تم قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ  
 الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية<sup>(٣)</sup>.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام: وعُيون، حيث وقع بضم العين،  
 والباقون بكسر العين.

﴿اَدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول ﴿بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ سالمين. أو مسلماً عليكم،  
 يسلم عليكم الملائكة. أو آمنين من الإخراج.

﴿وَتَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما ألفنا بين قلوبهم، أو في الجنة بتطبيب نفوسهم ﴿مَا  
 فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ من حقد كان في الدنيا. والمعنى: وأزلنا ما كان في قلوبهم  
 من أسباب العداوة في الدنيا. أو طهرنا قلوبهم من أن يتحاسدوا على درجات الجنة  
 ومراتب القرب.

﴿إِخْوَانًا﴾ حال من الضمير في «جَنَّتَاتٍ»، أو فاعل «ادخلوها»، أو الضمير

(١) الرحمن: ٤٦ و ٦٢.

(٢) محمد: ١٥.

في «آمنين»، أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة. وكذا قوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ كائنين على مجالس السرر متواجهين، ينظر بعضهم إلى وجه بعض. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرة حيشا داروا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين. ويجوز أن يكونا صفتين لـ «إخواناً»، أو حالين من ضميره، لأنه في معنى: متصافين. وأن يكون «متقابلين» حالاً من المستتر في «على سرر». ﴿لَا يَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب وعناء. استئناف، أو حال بعد حال، أو حال من الضمير في «متقابلين». ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

نَبِيٌّ عَبْدِي أَيَّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ  
الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَبَشَّرْنَا عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا  
سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ  
﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا  
بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ  
إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

ثم قرر ما ذكره من الوعد والوعيد، ومكّنه في نفوسهم بقوله: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيَّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقى الذنوب بأسرها، كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالفقران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده. وعن ابن عباس: غفور لمن

تاب، وعذابه لمن لم يتب.

وعطف قوله: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ على «نبيء عبادي» ليأخذوا ما أحلّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها، ويعلموا أنّ رحمة الله على المتقين، وسخط الله وانتقامه من المجرمين، فيتحقّقوا عنده أنّه هو الغفور الرحيم، وأنّ عذابه هو العذاب الأليم. وضيف إبراهيم كانوا أحد عشر ملكاً في صورة أمارد.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلاماً، أو سلّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون. وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. أو لأنهم امتنعوا من الأكل. والوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل. أرادوا: أنك بمثابة الآمن المبشّر، فلا توجل. فإنّ المبشّر لا يخاف منه. وقرأ حمزة: نبشرك. من البشر. ﴿بِغَلَامٍ﴾ هو إسحاق، لقوله: ﴿وَبَشِّرْنَاَهُ بِإِسْحَاقَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ.

﴿قَالَ أَبَشِّرْهُنِّي﴾ بالمولود ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّيَ الْكَبِيرُ﴾ تعجب من أن يولد له مع مسّ الكبر إيّاه. أو إنكار لأن يبشّر به في مثل هذه الحالة. وكذلك قوله: ﴿فَبِمَ نُبَشِّرُونَ﴾ «ما» استفهاميّة دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأيّ أعجوبة تبشرون؟! أو أراد: أنكم تبشرونني بما هو غير متصوّر في العادة، فبأيّ شيء تبشرونني؟! فإنّ البشارة بما لا يتصوّر وقوعه عادة بشارة بغير شيء.

وقرأ ابن كثير بكسر النون مشدّدة في كلّ القرآن، على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها.

﴿قَالُوا بِشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لبس فيه، أو بطريقة هي حقّ، وهو قول الله وأمره ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الآيسين من ذلك.

فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخٍ فإن وعجوز عاقر؟!

وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة، ولذا ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، أي: لا يقنط ألبتة منها ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته، كما قال: ﴿لَا يَنبَأُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. فكأنه قال: لم استنكر ذلك قنوطاً من رحمته، ولكن استبعاداً للعادة التي أجراها الله في الخلق. وقرأ أبو عمرو والكسائي: يَقْنِطُ بِالْكَسْرِ.

قَالَ فَمَا خَطْبِكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبِكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة؟ لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه في تضايف الحال لإزالة الوجع، ولو كانت تمام المقصود لا تندوا بها.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يعني: قوم لوط ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناء من «قوم» كان منقطعاً، إذ القوم موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان. وإن كان استثناء من الضمير في «مجرمين» كان متصلاً، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين وآل لوط المؤمنين به. وكأنهم قالوا: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ أَجْرَم

كلهم إلا آل لوط منهم، لنهلك المجرمين، ومنتجبي آل لوط منهم.  
ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مما يعذب به القوم. وهو استئناف  
إذا اتصل الاستثناء، كأن إبراهيم قال لهم: فما حال آل لوط؟ قالوا: إننا لمنجّوهم.  
ومتعلق بـ«آل لوط» جار مجرى خبر «الكن» إذا انقطع، لأنّ المعنى: لكن آل لوط  
منجّون.

وعلى هذا جاز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء من آل لوط أو من  
ضميرهم. وعلى الأوّل لا يكون إلا من ضميرهم، لاختلاف الحكمين، لأنّ آل لوط  
متعلق بـ«أرسلنا» أو بـ«مجرمين»، و«إلا امرأته» متعلق بـ«منجّوهم»، فأنسى يكون  
استثناء من استثناء؟ فإنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه.  
بأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت  
طالق ثلاثاً إلا نتين إلا واحدة، وفي قول المقرّر: لفلان عليّ عشرة دراهم إلا ثلاثة  
إلا درهماً. اللهم إلا أن يجعل «إننا لمنجّوهم» اعتراضاً. وقرأ حمزة والكسائي:  
لَمُنَجُّوهُمْ مَخْفَأً.

﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَايِبِينَ﴾ الباقيين مع الكفرة لتهلك معهم. وقرأ أبو بكر عن  
عاصم: قَدَرْنَا، هنا وفي النمل<sup>(١)</sup> بالتخفيف، وإنما علّق فعل التقدير، والتعليق من  
خواصّ أفعال القلوب، لتضمّنه معنى العلم، ولذلك فسّر العلماء تقدير الله أعمال  
العباد بالعلم.

وفي المدارك: «لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح «إِنَّ»، لأنّ «إِنَّ» مع  
اسمه وخبره مفعول ﴿قَدَرْنَا﴾<sup>(٢)</sup>.

ويجوز أن يكون «قَدَرْنَا» أجري مجرى «قلنا» لأنّ التقدير بمعنى القضاء،  
وهو بمعنى القول. وأصله جعل الشيء على مقدار غيره.

(١) النمل: ٥٧.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي المطبوع بهامش تفسير الخازن ٣: ٩٩.

وإسناد الملائكة التقدير إلى أنفسهم وهو فعل الله، لما لهم من القرب والاختصاص به، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والأمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُونَ ﴿٦٢﴾  
 قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتُرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَقِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ  
 وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ  
 مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُونَ﴾ غير معروفين، تنكركم نفسي وتنفر عنكم، مخافة أن تطرقوني بشر.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ماجئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرك ويشفي لك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به، فيمترون فيه، أي: يشكون.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَأِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من نزول العذاب عليهم.

﴿فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهب بهم في الليل. وقرأ الحجازيان بوصل الهمزة، من السرى. وهما بمعنى. ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل بعد ما يمضي أكثره ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ اقتب آثارهم، وكن وراءهم تسرع بهم، وتطلع على حالهم. لئلا يتخلف أحد منهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لا ينظر ما وراءه، فبرى من الهول ما لا يطيقه، أو فيصيه ما أصابهم، أو ولا ينصرف أحدكم ولا يتخلف، فيصيه العذاب، وقيل: نهوا عن الالتفات ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة، ولا يشتغل بمن خلفهم قلوبهم، ولا يتحسروا على مفارقة أوطانهم ومن به.

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ اذهبوا إلى الموضع الذي أمرتم بالذهاب إليه، وهو الشام أو مصر. وعدّي «امضوا» إلى «حيث» كما يعدي إلى الظرف المبهم، لأن «حيث» مبهم في الأمكنة. وكذلك الضمير<sup>(١)</sup> في «تؤمرون».

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أوحينا إليه مقضياً مستوتاً، ولذلك عدّي به «إلى» ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ مبهم يفسره ﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحله النصب على البدل منه. وفي ذلك تفخيم للأمر وتعظيم له، ودابر الشيء آخره. والمعنى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد. ﴿مُضْبِجِينَ﴾ داخلين في الصبح. وهو حال من «هؤلاء»، أو من الضمير في «مقطوع». وجمعه للحمل على المعنى، فإن دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِئْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِمَهْوُونٍ ﴿٧٢﴾

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ وهي قرية سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشرون بعضهم بعضاً

(١) أي: الضمير المحذوف في: تؤمرونه.

بنزول من هو في صورة أضياف لوط، طمعاً فيهم.

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ بفضيحة ضيفي، فَإِنَّ مِنْ أَسِيءِ إِلَى

ضيفه فقد أسيء إليه.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في ركوب الفاحشة ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تذلوني بإذلال ضيفي،

من الخزي وهو الهوان، أو لا تخجلوني فيهم، من الخزية وهو الحياء.

﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ عن أن تجبر منهم أحداً، أو تضيفه، أو تمنع

بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه، أو

عن ضيافة الناس وإنزالهم.

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ فانكحوهن، فلا تعرضوا لهن، يعني: نساء القوم، فَإِنَّ

نَبِيَّ كُلِّ أُمَّةٍ بِمَنْزِلَةِ أَبِيهِمْ. وفيه وجوه ذكرت في سورة هود<sup>(١)</sup>. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

قضاء الوطر، أو ما أقول لكم، فهذا شك في قبولهم لقوله.

﴿ لَعَنَّاكَ ﴾ قسم بحياة المخاطب، وهو النبي ﷺ. قال ابن عباس: ما خلق

الله ﷻ ولا ذراً ولا براً نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة

أحد إلا بحياته، فقال: لعمرك. وقيل: قسم بحياة لوط، قالت الملائكة له ذلك.

والأصح الأول. والتقدير: بحياتك ومدّة بقائك قسمي. والعمر والقمر واحد، إلا أنهم

خصّوا القسم بالمفتوح، لإيثار الأخت فيه، لأنّه كثير الدوران على ألسنتهم، ولذلك

حذفوا الخبر، وهو قسمي.

﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ لفِي غوايتهم، أو شدّة غلتمهم<sup>(٢)</sup> التي أزال عقولهم

وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه، وبين الصواب الذي يشار به إليهم، من ترك

البنين إلى البنات ﴿ يَغْفَهُونَ ﴾ يتحيرون، فكيف يسمعون نصحك؟! وقيل: الضمير

لقريش، والجملة معترضة.

(١) راجع ص ٣٠٠ ذيل الآية ٧٨ من سورة هود.

(٢) الغلّة: اشتداد الشهوة واحتياجها.



فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا غَالِبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّتَمِّمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقِنَا مِنْهُمُ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا أَمِينٍ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

ثم أخبر سبحانه عن كيفية عذاب قوم لوط بقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ الصوت الهائل المهلك. وهي صيحة جبرئيل. ﴿مُنْبَرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا غَالِبَهَا﴾ عالي مدينتهم، أو عالي قريتهم ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارت منقلبة بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر، أو طين عليه كتاب من السجل، بدليل قوله تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُّسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾<sup>(١)</sup> أي: معلّمة بكتاب. وقد سبق<sup>(٢)</sup> مزيد بيان لهذه القصة في سورة هود.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما سبق ذكره من إهلاك قوم لوط ﴿لآيَاتٍ لِّمُنْتَوِسِّمِينَ﴾ للمتوسمين المتأملين. وحقيقة المتوسمين النظّار المشبّون في نظرهم حتى يعرفوا

(١) الذاريات: ٣٣ - ٣٤.

(٢) راجع ص ٣٠٣ ذيل الآية ٨٢ من سورة هود.

حقيقة الشيء بسمته. يقال: توسمت في فلان كذا، أي: عرفت وسمه فيه. وعن النبي ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله. وقال: إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم، ثم قرأ هذه الآية.

﴿وَأَنَّهَا﴾ وإن المدينة أو القرى ﴿لَبَسِيْلٍ مُّقِيْمٍ﴾ ثابت يسلكه الناس، ويرون آثارها. وهو تنبيه لقريش، كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُّضِيْجِيْنَ﴾<sup>(١)</sup>.

ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره أنه روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «نحن المتوسمون، والسبيل فينا مقيم، والسبيل طريق الجنة»<sup>(٢)</sup>.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ بالله ورسله. خصهم بالذكر، لأنهم هم المستفعون بها.

﴿وَإِنْ كَانَ﴾ وإته كان ﴿أَصْحَابُ الْآيَةِ لَمُفْلِحِيْنَ﴾ هم قوم شعيب كانوا يسكنون الفيضة، فبعثه الله إليهم فكذبوه فأهلكوا بالظلمة. والآية الشجرة المتكاثفة.

﴿فَانْتَقَفْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاك. روي: أنهم أهلكوا بالظلمة التي احترقوا بناها. ﴿وَأَنَّهَا﴾ يعني: سدوم والآيكة. وقيل: الآيكة ومدين، فإنه كان مبعوثاً إليهما، فكان ذكر إحداهما منبهاً على الأخرى. ﴿لَبِإِفْئَامٍ مُّبِيْنٍ﴾ لبطريق واضح يؤتم ويتبع ويهتدى به باعتباره. والامام اسم ما يؤتم به، فسُمي به اللوح الذي يكتب فيه ومطر البناء - وهو جبل يقدر به البناء - لأنه مما يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّجْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ يعني: تمود كذبوا صالحاً، ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع. ويجوز أن يراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين. والحجر وإد بين المدينة والشام يسكنونه.

﴿وَأَتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِيْنَ﴾ يعني: آيات الكتاب المنزل على

(١) الصافات: ١٣٧.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم ١: ٣٧٧.

نبيهم . أو معجزاته ، كالناقة وسقياها<sup>(١)</sup> وشربها ودرّها . أو ما نصب لهم من الأدلة .  
 ﴿وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدام ، لاستحكامها جداً .  
 أو من نقب اللصوص وتخريب الأعداء ، لو ثاقبتها . أو من العذاب ، لفرط غفلتهم ، أو  
 حسبانهم أنّ الجبال تحميهم منه .

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصُّيْحَةُ مُضِجِينَ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ فما دفع عنهم العذاب ﴿مَا  
 كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة ، واستكثار الأموال والعدد .

عن جابر قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا : « لا تدخلوا  
 مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب  
 هؤلاء » . ثم زجر رسول الله ﷺ راحلته فأسرع حتى خلفها .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ  
 فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

تم بين سبحانه أنّ إهلاك هؤلاء الأمم لأجل أنهم خالفوا الحق ، فقال : ﴿وَمَا  
 خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ خلقاً ملتبساً بالحق لا يلاثم استمرار  
 الفساد ودوام الشرور ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء ، وإزاحة فسادهم  
 من الأرض .

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذّبك من أعدائك ، ويجازيك  
 وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا  
 لذلك ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً ، فلا تعجل بالانتقام  
 منهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم . وقيل : هو منسوخ بآية السيف<sup>(٢)</sup> . ويجوز

(١) السُّقْيُ : ولد الناقة ساعة يولد .

(٢) التوبة : ٥ و ٢٩ .

أن يكون المراد به المخالفة<sup>(١)</sup>، فلا يكون منسوخاً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم، ويده أمرك وأمرهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، فهو حقيق بأن تكل ذلك إليه ليحكم بينكم. أو هو الذي خلقكم وعلم الأصلح لكم، وقد علم أن الصبح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح.

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمَدَّنْ  
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ  
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ  
﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ  
﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ  
﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ  
فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾  
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ  
الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

ثم ذكر سبحانه ما خص به نبيه ﷺ من النعم، لتطيب نفسه في احتمال

(١) أي: المعاشرة بخلق حسن.

المشاق والمتعاب في التبليغ، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ سبع آيات، وهي الفاتحة. وهو قول عليّ عليه السلام، وابن عباس، والحسن، وأبي العالية، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، ومجاهد، وقتادة. وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

وقال ابن مسعود والضحاك وابن عمر: هي سبع سور، وهي الطوال. واختلف في سابعتها، فقيل: الأنفال والتوبة، فإنهما في حكم سورة، ولذلك لم يفصل بينهما بالنسبة. وقيل التوبة. وقيل: يونس، أو الحواميم السبع. وقيل: سبع صحائف، وهي الأسباع.

﴿مِنَ الْمُعْتَابِي﴾ بيان للسبع. والمعاني جمع المثناة أو المثنية، من التثنية أو الثناء، فإن كل ذلك مثنى، تكرر قراءته أو ألفاظه أو فصره ومواعظه، أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مثنى على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى. ويجوز أن يراد بالمعاني القرآن أو كتب الله كلها، فتكون «من» للتبويض.

﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض. وإن أريد به الأسباع فمن عطف أحد الوصفين على الآخر. يعني: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المعاني والقرآن العظيم، أي: الجامع لهذين التعتين، وهو التثنية أو الثناء والعظم. ووجه عظمه أنه يتضمّن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين، بأوجز لفظ، وأحسن نظم، وأتم معنى.

ولما علمت أن القرآن أعظم النعم، وما دونه بالنسبة إليه حقير جداً، من النعم الدنيّة الغانية الدنياويّة، فعليك أن تستغني به و﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار من أنواع النعم، فإنه مستحقّ جداً بالإضافة إلى ما أوتيته، فإنه كمال مقصود بالذات، مفضي إلى دوام اللذات. وفي الحديث: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل

مما أوتي، فقد صغر عظيماً، وعظم صغيراً».

قيل وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البرز<sup>(١)</sup> والطيب والجوهر وسائر الأمتعة. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله. فقال لهم الله سبحانه: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع. والمعنى: لا تتمن أموالهم. ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا، فيتقوى بمكانهم الاسلام. ويتنعم بهم المؤمنون.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم لم يؤمنوا. وقيل: إنهم المتمتعون به. ﴿وَأَضْفُضْ جَنَّاخَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وارفق بهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْفَعِيلُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: عذاباً مثل العذاب الذي أنزلنا عليهم. فهو وصف لمفعول «الندير» أقيم مقامه.

والمقتسمون هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة، فمعدوا في كل مدخل متفرقين أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول، يقول بعضهم: لا تفتنوا بالخارج منا، فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر. أو الرهط الذين اقتسموا، أي: تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام، أي: يقتلوه ليلاً.

وقيل: هو صفة مصدر محذوف، يدل عليه قوله: «ولقد آتيناك» فإنه بمعنى: أنزلنا إليك. والمعنى: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب المقتسمين.

(١) البرز: السلاح، والنياب من الكتان أو القطن.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: جرّوه أجزاء حيث قالوا بعنادهم وشدة عداوتهم وحسدكم: بعضه موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقسموه إلى حقّ وباطل. وواحد عضين عضة، بمعنى الجزء. وأصلها عضوة، من: عضى الشاة، إذا جعلها أعضاء. وقيل: أسحاراً، من: عضته إذا بهته<sup>(١)</sup>. وفي الحديث: «لئن رسول الله العاضة<sup>(٢)</sup> والمستعضة». وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه.

وقيل: كانوا يستهزؤون، فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آل عمران لي.

ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض.

وهذه تسلية لرسول الله عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم: إنّه سحر وشعر وأساطير الأولين، بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

والموصول يصلته صفة ل«المقتسمين»، أو مبتدأ خبره ﴿فَوَرَيْكَ لِنَسْأَلُنَّهُمْ أَجْفَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيم. فنجازيهم عليه. وقيل: هو عامّ في كلّ ما فعلوا من الكفر والمعاصي. عن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين: عمّا كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وأضاف الله سبحانه نفسه إلى نبيّنا ﷺ تشريفاً له، وتنبهاً للمخلوق على عظم منزلته عنده. وهذا سؤال تفرّيع وتوبيخ، بأن يقول لهم: لم عصيتكم؟ وما حجّتكم في ذلك؟ فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم.

(١) أي: أنهته.

(٢) العاضة: الساحر بلغة قريش.

﴿فَاصْذُغْ بِمَا تَوَمَّرُ﴾ فأظهر، من: صدع بالحبة إذا تكلم بها جهاراً. أو فافرق به بين الحق والباطل. وأصله الإبانة والتمييز. و«ما» مصدرية، أي: بأمرك، مصدر من المني للمفعول. أو موصولة، والراجع محذوف، أي: بما توامر به من الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْفُشْرِكِيِّنَ﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون.

﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بقمعهم وإهلاكهم. روي: أنهم كانوا خمسة نفر ذوا أسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يعقوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن قيس - وقيل: سته. سادسهم الحارث بن الطلائعة - يبالغون في إيذاء النبي والاستهزاء به. فقال جبرئيل لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأوماً إلى ساق الوليد فرمّ بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف تعظماً لأخذه، أي: منعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات. وأوماً إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة، فقال: لدغنت لدغنت، وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات. وأشار إلى أنف الحارث بن الطلائعة فامتخط<sup>(١)</sup> قبحاً فمات. وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي. وإلى الأسود بن عبد يعقوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. وقيل: إن الحارث بن قيس أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش، فما زال يشرب حتى نفخ بطنه فمات. وعن ابن عباس: ماتوا كلهم قبل وقعة بدر.

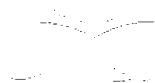
﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.  
﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشرك، والطنن في القرآن، والاستهزاء بك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الله فيما نابك بالتسييح والتحميد يكفك المهّم. ويكشف الغمّ عنك. أو فنزّهه عما يقولون. حامداً له على أن هداك

(١) أي: أخرج القبح، وهو ما يسيل من الجراحة والقرح.



لِلْحَقِّ. ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَكَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ <sup>(١)</sup> أَمْرٌ فَزَعَّ إِلَى الصَّلَاةِ.

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أَي: الْمَوْتَ. فَإِنَّهُ مَتَيْقَنٌ لِحَاقِهِ كُلِّ حَيٍّ مَخْلُوقٍ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ: حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ بِالْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا. الَّذِي يَزُولُ مَعَهُ التَّكْلِيفُ. وَالْمَعْنَى: فَاعْبُدْهُ مَا دَمْتَ حَيًّا، وَلَا تَخَلَّ بِالْعِبَادَةِ لِحِظَةٍ.



(١) أي: أصابه غمٌ وأمرٌ شديد، ومنه: الحزيب، أي: الأمر الشديد.

## سورة النحل

مَكِّيَّةٌ غير ثلاث آيات نزلت في انصراف النبي ﷺ من أحد، وهي: «وإن عاقبتهم فمأقبوا» إلى آخر السورة. نزلت بين مكة والمدينة. وهي مائة وثمان وعشرون آية بلا خلاف.

أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأها لم يحاسبه الله بالنعم التي أنعمها عليه في دار الدنيا. وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية».

وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة النحل في كل شهر كفي المغرم في الدنيا، وسبعين نوعاً من أنواع البلاء. أهونه الجنون والجذام والبرص. وكان مسكنه في جنة عدن، وهي وسط الجنان».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى سَأْمُرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَنْزِلُ  
الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

ولمّا ختم الله سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بوعيدهم أيضاً. وروي أنّ كفّار مكّة كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ، من قيام الساعة أو إهلاك الله إياهم - كما فعل يوم بدر - استهزاءً وتكديباً، ويقولون: إن صح ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه، فنزلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الأمر الموعود من الله بمنزلة الآتي المتحقّق، من حيث إنّه واجب الوقوع. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ أمر الله آتٍ، وكلّ ما هو آتٍ قريب دانٍ». ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فلا تستعجلوا وقوعه، فإنّه لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه.

وقيل: لمّا نزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾<sup>(١)</sup> قال الكفار فيما بينهم: إنّ هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتّى ننظر ما هو كائن. فلمّا تأخّرت قالوا: ما نرى شيئاً. فنزلت: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. فأشفقوا وانتظروا قربها. فلمّا امتدّت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً ممّا تخوفنا به. فنزلت: «أتى أمر الله». فوثب رسول الله، ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: «فلا تستعجلوه» فاطمأنّوا.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تيراً وجلّ عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم، فتكون «ما» موصولة. أو عن إشراكهم، فتكون مصدرية. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله: «فلا تستعجلوه». والباقون بالياء على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين، أو لهم ولغيرهم.

﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآن، فإنّه يحيي به القلوب الميتة بالجهل. أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد. وذكره عقيب ذلك إشارة إلى

(١) القمر: ١.

(٢) الأنبياء: ١.

الطريق الذي به علم الرسول ما تحقق موعدهم به وذنوبه.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: يُنزلُ، من: أنزل. وعن يعقوب مثله. وعنه: تَنزَّلُ.

بمعنى: تنزل. وقرأ أبو بكر: تُنزلُ، على المضارع المبني للمفعول، من التنزيل.

﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ من أجله، أو بأمره. ونظيره قوله: ﴿ يَخْفَلُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾<sup>(١)</sup>

أي: بأمره. ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ممن يصلح للنبوة ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ بأن أنذروا.

أي: أعلموا. من: نذرت بكذا، إذا علمته ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ أي: خوفوا أهل

الكفر والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا. وقوله: «فاتقون» رجوع إلى مخاطبتهم بما هو

المقصود. و«أن» مفسرة، لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول. أو مصدرية في

موضع الجزر بدلاً من الروح، أو النصب بنزع الخافض. أو مخففة من الثقيلة، أي: أن

الشأن لا إله إلا أنا.

والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة، وأن الغرض منه التنبيه

على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى

كمال القوة العملية.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ

﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ثم دلّ على وحدانيته بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السماوات والأرض، وخلق الانسان وما يصلحه، وما لا بدّله منه من خلق البهائم. فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة، قدرها وخصصها بحكمته ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما، أو مما يفتر في وجوده أو بقائه إليهما، ممّا لا يقدر على خلقهما.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ جماد لاحس بها ولا حراك، سيّالة لا تحفظ الوضع والشكل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ منطبق، مجادل، مكافح للخصوم ﴿مُبِينٌ﴾ للحجة بعد ما كان نطفة من مني. جماداً لا حسّ به ولا حركة. أو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: ﴿مَنْ يُخَيِّبِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل، والتماذي في كفران النعمة.

وقيل: نزلت في أبي بن خلف، أتى النبي ﷺ بعظم رميم وقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رم<sup>(٢)</sup>؟

﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ الإبل والبقر والغنم. وانتصابها بمضمر يفسره ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾. أو بالعطف على الانسان. و«خلقها لكم» بيان ما خلقت لأجله، وما بعده تفصيل له. وهو قوله: ﴿فِيهَا بَفَاءٌ﴾ ما يدفأ به من لباس معمول من الصوف والشعر - ك: ملء، اسم ما يملأ به - فيقي البرد.

(١) يس: ٧٨.

(٢) رمّ العظم: يلقى.

﴿ وَمِنَافِقٍ ﴾ تسلبها ودرّها وظهورها. وإنما عبّر عنها بالمنافع ليتناول عوضها.  
 ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان.  
 وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأنّ الأكل منها هو المعتاد المعتمد  
 عليه في المعاش، وأما الأكل من سائر الحيوانات المأكولة - كالصيود البريّة  
 والبحريّة، كالذجاج والبطّ - فعلى سبيل التداوي أو التفكّه<sup>(١)</sup>.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراعيها  
 بالعشيّ ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداه إلى المراعي، فإنّ الأفتية تتزيّن بها  
 في الوقتين، ويجلّ أهلها في أعين الناظرين إليها، ويفرح أربابها. ونحوه:  
 ﴿ لَبَزَكُنَّوْهَا وَزِينَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ يُؤَارِي سَوْءَكُمْ وَرِيثًا ﴾<sup>(٣)</sup>. وتقديم الإراحة لأنّ الجمال  
 فيها أظهر، فإنّها تقبل ملأى البطون حافلة<sup>(٤)</sup> الضروع، ثمّ تأوي إلى الحظائر  
 حاضرة لأهلها.

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أحمالكم ﴿ إِنِّي بَدَدْتُمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ ﴾ إن لم تكن الأنعام  
 ولم تخلق، فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه. فلاجل هذه الإفادة لم يقل: لم  
 تكونوا حاملها إليه، ليطابق قوله: «وتحمل أثقالكم». ﴿ الْإِبْشِقُ الْإِنْفِيسِ ﴾ إلا بكلفة  
 ومشقة. وأصله: النصف، كأنه ذهب نصف قوته بالتعب.

﴿ إِنْ زَبَكُمْ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث رحمكم بخلقها لاتفَاعكم، وتيسير الأمر  
 عليكم.

﴿ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ عطف على الأنعام ﴿ لَبَزَكُنَّوْهَا وَزِينَةٌ ﴾ أي:

(١) أي: التلذذ والتمتع.

(٢) النحل: ٨.

(٣) الأعراف: ٢٦.

(٤) أي: ممتلئة ضروعها لبناً.

ولتتزيّنوا بها زينة. وقيل: هي معطوفة على محلّ «لتركبوها». وتغيير النظم لأنّ الزينة بفعل الخالق، والركوب ليس بفعله. ولأنّ المقصود من خلقها الركوب، وأمّا التزيّن بها فحاصل بالعرض، وليس فيه ما يدلّ على تحريم أكل لحومها، كما استدلّ به بعض العامّة. إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً. وقد روى البخاري في الصحيح<sup>(١)</sup> مرفوعاً إلى أسماء بنت أبي بكر قالت: أكلنا لحم الفرس على عهد رسول الله ﷺ.

ولمّا فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالباً - احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري - أجمل غيرها، فقال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ويجوز أن يكون إخباراً بأنّ له من الخلاق ما لا علم لنا به، من الحشرات في المفاوز والبحار. وأن يراد به ما خلق في الجنّة والنار ممّا لم يخطر على قلب بشر، ليزيد دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنّا علمه، لحكمة ما في طيّه.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحقّ. فالقصد مصدر بمعنى الفاعل، وهو القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد، أي: مستقيم. كأنه يقصد الوجه الذي يؤتمه السالك لا يعدل عنه. أو المعنى: إقامة السبيل وتعديلها، أو عليه قصد السبيل، يصل إليه من يسلكه لا محالة، أي: واجب عليه هداية الطريق الموصل إلى الحقّ، كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾<sup>(٢)</sup>. والمعنى: واجب على الله في عدله بيان الطريق المستقيم، وبيان الهدى من الضلالة، والحلال من

(١) صحيح البخاري ٧: ١٢٣.

(٢) الليل: ١٢.

الحرام، لينتفع المكلف بالهدى والحلال، ويتجنب عن الضلالة والحرام.  
والمراد بالسبيل الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾  
مائل عن القصد، أو عن الله. وغير الأسلوب ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيل  
وما لا يجوز. ولو كان الأمر كما تزعم المجترة لقليل؛ وعلى الله قصد السبيل وعليه  
جائرها، أو وعليه الجائر. أو ليعلم أن المقصود بيان سبيله، وتقسيم السبيل إلى  
القصد والجائر إنما جاء بالعرض.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْفَعِينَ﴾ أي: ولو شاء هدايتكم أجمعين مشيئة جبر  
وفر لهداكم قسراً إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء. ولكن القسر  
والإلجاء ضد التكليف الذي هو مدار أعمال العباد، كما بين غير مرة.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ  
تَسْمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ  
الشَّمْرَاتِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ  
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ  
يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ  
يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

ثم عد سبحانه نعمة أخرى دالة على كمال قدرته ووحدانيته، فقال: ﴿هُوَ  
الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب، أو من جانب السماء ﴿مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿لَكُمْ



مِفَةٌ شَرَابٌ ﴿ ما تشربونه . و«لكم» صلة «أنزل» . أو خير «شراب» . و«من» نعتية متعلقة به . وتقديمها يوهم حصر المشروب فيه . ولا بأس به . لأن مياه العيون والآبار منه . لقوله : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله : ﴿ فَاسْكَنْهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ وَمِفَةٌ شَجَرٌ ﴾ ومنه يكون شجر . قيل : معناه : لكم من ذلك الماء شراب . ومنه شرب شجر أو سقي شجر . فحذف المضاف . أو لكم من سقيه شجر . فحذف المضاف إلى الهاء في «منه» . والمراد بالشجر الذي ترعاه المواشي . وقيل : كل ما نبت على الأرض شجر .

﴿ فِيهِ قَسِيْمُونَ ﴾ ترعون أنعامكم من غير كلفة والتزام مؤونة لعلها . من : سامت الماشية إذا رعت . وأسامها صاحبها . وأصله : السومة . وهي العلامة . لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض .

﴿ يَنْبُتُ لَكُمْ بِهِ ﴾ بذلك المطر ﴿ الزَّعْجُ ﴾ وقرأ أبو بكر بالنون على التثخيم ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وبعض كلها . إذ لم ينبت في الأرض كل ما يمكن من الثمار . بل كل الثمار في الجنة . ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه . لأنه سيصير غذاءً حيويتاً هو أشرف الأغذية . ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها .

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ على وجود الصانع وكمال حكمته وقدرته . فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض . وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها . ويخرج منه ساق الشجرة . وينشق أسفلها فيخرج منه عروقتها . ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار . ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع . مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل . علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعه الأضداد

(١) الزمر : ٢٦ .

(٢) المؤمنون : ١٨ .

والأنثاد، جلّت قدرته وحكمته.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ﴾ بأن هيأها لمنافعكم  
 ﴿ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ حال من الجميع، أي: نفعكم بها حال كونها مسخّرات لله،  
 خلقها ودبرها كيف شاء، أو مسخّرات لما خلقن له بأمره بإيجاده وتقديره، أو  
 لحكمه. ويجوز أن يكون نصب «مسخّرات» بالمصدرية، وجمع لاختلاف النوع.  
 أي: سخّرها أنواعاً من التسخير. وقرأ حفص: والنجوم مسخّرات، على الابتداء  
 والخبر، فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه. ورفع ابن عامر الشمس والقمر أيضاً.  
 ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جمع الآية وذكر العقل، لأنّ الأثار العلوية  
 أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ولآتها تدلّ أنواعاً  
 من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة، غير محوجة إلى استيفاء فكر. كأحوال  
 النباتات.

﴿ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ عطف على الليل، أي: وسخّر لكم ما خلق لكم  
 فيها من حيوان ونبات ومعادن ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أصنافه، فإنها تتخالف باللون غالباً  
 ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التسخير ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أنّ اختلافها في الطباع والهيئات  
 والمناظر لبس إلا بصنع صانع حكيم.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً  
 تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَيَسْتَعْمِلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ ١٤ ﴾  
 وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ  
 ﴿ ١٥ ﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ ١٦ ﴾

ثم عدّد سبحانه نوعاً آخر من أنواع نعمه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص ﴿بِمَتَّكُلُوا مِنْهُ﴾ بالاصطياد ﴿نَحْماً طَرِيّاً﴾ هو السمك. ووصفه بالطراوة. لأنه أرتب اللحوم. يسرع إليه الفساد. فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. ولإظهار قدرته في خلقه عذياً طرياً في ماء زعاق<sup>(١)</sup>.

وتمسك به مالك والثوري على أنّ من حلف أن لا يأكل لحماً حنت بأكل السمك.

وأجيب عنه بأن مبنى الأيمان على العرف، وهو لا يفهم منه عند الإطلاق. ألا ترى إذا قال الرجل لعلامة: اشتر بهذه الدراهم لحماً. فجاء بالسمك كان حقيقاً بالإنكار. ونظيره أنّ الله سمى الكافر دابة في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الذِّبْنَ كَفَرُوا﴾<sup>(٢)</sup>. ولا يحنت الحالف على أن لا يركب دابة بركوب الكافر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنْهُ جَنَّةً مِّنْ جَنَّتَيْهِمْ﴾ كاللؤلؤ والمرجان. أي: تلبسها نساؤكم. فأسند إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزين بها لأجلهم.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فَوَاجِزَ فِيهِ﴾ شواقي في البحر. وقواطع لمائه. يعني: في حالة الجريان تشقّ البحر بحيزومها<sup>(٣)</sup>. من المنخر. وهو شقّ الماء. وعن الفراء: هو صوت جري الفلك بالرياح.

﴿وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿وَلِيَعْلَمَ مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تعرفون نعم الله فتقومون بحققها. ولعلّ تخصيصه بتعقيب الشكر. لأنه أقوى نعمة من نعم المتعم. من حيث إنه جعل مظانّ الهلاك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

(١) الرُّعَاقُ: الماء المرّ لا يطاق شربه.

(٢) الأنفال: ٥٥.

(٣) في هامش النسخة الخطيّة: «هو وسط الصدر. منه».

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً عالية ثابتة. واحدها راسية. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم، أو لئلا تميل بكم وتضطرب. وذلك لأن الأرض قبل خلق الجبال فيها كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع، وكان من شأن الكرويات أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك، وأن تتحرك بأدنى سبب للتعريك، فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها، وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة.

وروي: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمُورًا<sup>(١)</sup>. فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت.

﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، لأن «ألقى» فيه معنى: جعل ﴿وَسُبُلًا﴾ وطرقاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى حيث شئتم من البلاد لمقاصدكم، أو إلى معرفة الله. ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ ومعالم الطرق، وكلّ ما يستدلّ به السابلة من جبل ومنهل ونحو ذلك ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار. والمراد بالنجم الجنس، كما يقال: كثر الدرهم في أيدي الناس. ويدلّ عليه القراءة الشاذة: وبالنجم، بضمتين، وضّمّ وسكون، على الجمع. وعن السدي: هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي.

وعن ابن عباس: سألت رسول الله عنه فقال: الجدي علامة قبلكم، وبه تهتدون في برّكم وبحركم.

ولعلّ الضمير لقريش، لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء في مسائرهم بالنجوم. وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير للتخصيص، كأنه قيل: إن للناس - خصوصاً لقريش - اهتداء

(١) أي: تضطرب وتتحرّك كثيراً وبسرعة من جهة إلى أخرى.

بالنجوم في أسفارهم . فكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم . فكان الشكر عليه أكرم لهم . وأوجب عليهم .

وعن الصادق عليه السلام : «نحن العلامات ، والنجم رسول الله» . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إن الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء ، وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض» .

### أَفْمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

وبعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته ، والتفرد بخلق ما عدّد من مبدعانه . أنكر عبادة المشركين الأصنام . فقال : ﴿أَفْمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ يعني : كيف يساوي ويستحقّ مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك . بل على إيجاد شيء ما .

والمراد بـ«من لا يخلق» كلّ ما عبد من دون الله . سواء كان من أولي العلم أم لا . فتعلّب أولو العلم على غيرهم لشرافتهم .

أو المراد به الأصنام ، فجيء بـ«من» الذي لأولي العلم . إمّا لأنهم سمّوها آلهة وعبدوها ، فأجروها مجرى أولي العلم . ألا ترى إلى قوله على أثره : «والأذنب يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون» . وإمّا للمشاكلة بينه وبين «من يخلق» . وإمّا للتنبية على أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم ، فكيف بما لا علم عنده؟!

وكان حقّ الكلام : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ لأنّه إلزام للذين عبدوا الأوثان ، وسمّوها آلهة تشبيهاً بالله . فجعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حقّ الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، لكنّه عكس تشبيهاً على أنّهم حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له ، وسوّوا بينه وبينه ، فقد جعلوا

الله من جنس المخلوقات، شبيهاً بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: «أفمن يخلق كمن لا يخلق»، أي: أ جعلتموه من جنس المخلوقات العجزة وشبهتموه بها؟  
 ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون أيها المشركون، فتعرفوا فساد ذلك؟! فإني لجلانه كالذي حصل عند العقل بأدنى نذكر والتفات.

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

ولما عدّد النعم وألزم الحجّة على تفردّه باستحقاق العبادة، تبه العباد على أن ما وراء ما عدّد نعماً لا تنحصر، فحقّ عبادته غير مقدور، فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ وإن أردتم تعداد نعم الله عليكم ومعرفة تفاصيلها ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها، ولم يمكنكم إحصاؤها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً أن تطبقوا القيام بشكرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكرها ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يقطعها لفريطكم فيه، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

ولما قدّم سبحانه الدعاء إلى عبادته بذكر نعمه وكمال قدرته، عقبه ببيان علمه بسريرة كلّ أحد وعلايته، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، فيجازيكم على حسبهما، إذ لا يخفى عليه الجلي والخفي من أحوالكم، وهذا وعيد للكافر الكفور، وتزييف للشرك باعتبار العلم.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾

أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

ولمّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق، بين أنّهم لا يخلقون شيئاً، ننتج أنّهم لا يشاركونه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: والآلهة الذين يعبدونهم من دونه. وقرأ عاصم ويعقوب بالياء. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ فكيف يجوز أن يكونوا شركاء لله في الألوهية؟!

ثمّ أكّد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهية، فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾ لأنّها ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود.

﴿أَفْوَاتٌ﴾ هم أموات لا تعترهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً ﴿غَيْرُ أَخْيَارٍ﴾ بالذات لسناول كلّ معبود، والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتره الممات ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يعلمون وقت بعث عبادتهم، وفيه تهكم بالمشركين. وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟! والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، مقدراً للشواب والعقاب، وفيه تنبيه على أنّ البعث من توابع التكليف، فإنّه لا بدّ للتكليف من الجزاء، وهو بعد البعث.

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

ولمّا أقام الله سبحانه الحجج على بطلان الشرك والشركاء، ذكر المدعى وهو الوحدانية، فقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

ثم بين ما اقتضى إصرارهم على الشرك بعد وضوح الحق، من عدم إيمانهم بالآخرة، فقال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْجَرَةٌ﴾ جاحدة للحق، مستعبدة لما يرد عليها من المواعظ ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الانقياد للحق، دافعون له من غير حجة، فإن المؤمن بالآخرة يكون طالباً للدلائل، متأملاً فيما يسمع، فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس، يعني: أنكرت قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان، اتباعاً للأسلاف، وركوناً إلى المألوف، فإنه ينافي النظر، واستكبرت عن اتباع الرسول وتصديقه، والاتفات إلى قوله، والأول هو العمدة في هذا السبب، ولذلك رتب عليه الآخرين.

﴿لَا حِزْمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم، وهو في موضع الرفع بـ«جرم»، لأنه فعل أو مصدر، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع رسوله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا  
 أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا  
 يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهَ بُيُوتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ  
 عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ  
 أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ



الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ  
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى  
الْمُكْبِرِينَ ﴿٢٩﴾

ثم أبان سبحانه عن أحوال المشركين وأقوالهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا  
أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ القائل بعضهم على التهكم، أو الوافدون عليهم، أو المسلمون. و«ماذا»  
إما منصوب بـ«أنزل» بمعنى: أي شيء أنزل ربكم؟ أو مرفوع بالابتداء، بمعنى: أي  
شيء أنزله ربكم؟ فإذا نصبت فمضى قوله: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ما تدعون  
نزوله أساطير الأولين. وإذا رفعتها فالمعنى: المنزل أساطير الأولين، وإنما سمّوه  
منزلاً على التهكم، أو على فرض أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه.  
والقائلون قيل: هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينقرون عن رسول الله،  
إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم.  
﴿لِيُخَمِّلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللام للعاقبة. والمعنى: كان عاقبة  
أمرهم إذا فعلوا ذلك أن حملوا أوزار ضلالهم تامّة، فإنّ إضلالهم نتيجة رسوخهم  
في الضلال.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ وبعض أوزار ضلال من يضلّونهم، وهو حصّة  
التسبب. يعني: حملوا أوزار إضلالهم وإغوائهم، ولم يحملوا أوزار ضلالهم.  
﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يعلم أنّهم ضلال. وإنما  
وصف بالضلال من لا يعلم، لأنّه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميّز بين  
المحقّ والمنمطل.

﴿الْإِنْسَاءُ مَا يَئِزُّونَ﴾ بسّ شيئاً يزرونه فعلهم. عن النبي ﷺ: «أَيُّمَا دَاعٍ

دعا إلى الهدى فاتبع، فله مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبع عليه، فإن عليه مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: جعلوا وسائل ليمكروا بها رسل الله ﴿ فَأَتَىٰ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ فاتاها أمره من جهة اساطين البناء التي بنوا عليها، بأن ضعفت ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ وصار سبب هلاكهم ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ خِيفٍ لَا يَتَّعِزُونَ ﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون. وهو على سبيل التمثيل لاستئصالهم. والمعنى: أنهم سووا منصوبات ليمكروا رسل الله بها، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين، بأن ضعفت فسقط عليهم السقف وهلكوا.

وعن ابن عباس: المراد به نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل، سمكه خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه، أو ليرصد أمر السماء، فأهب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. وقيل: ألفت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي، والأول أليق، وأفيد للعموم، وأليق بكلام العرب. كما قالوا: أتني فلان من مأمنه، أي: أتاه الهلاك من جهة مأمنه. وذكر الفوق مع حصول العلم بأن السقف لا يكون إلا من فوق للتأكيد، كما يقال: مشيت برجلي، وتكلمت بلساني.

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ ﴾ ثم يذلمهم أو يعذبهم بالنار، كقوله: ﴿ وَبُنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿ وَيَقُولُ ﴾ على سبيل التوبيخ لهم والتنهجين ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ ﴾ تشركونهم معي في العبادة. فأضاف إلى نفسه استهزاءً، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم. وقرأ البرزي بخلاف عنه: أين شركائي بغير

همزة. والباقون بالهمز. ﴿تَشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ تعادون المؤمنين في شأنهم. وقرأ نافع بكسر النون، بمعنى: تشاققوني، فإنَّ مشاققة المؤمنين كمشاققة الله.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الأنبياء أو العلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاققونهم وينكرون عليهم، أو الملائكة ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ الذلَّة والعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم، وزيادة الإهانة وحكايته لأن يكون لطفاً لمن سمعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء. وموضع الموصول يحتمل الأوجه الثلاثة. ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بأن عرضوها للعذاب المخلد ﴿فَالْقَوْمَ الْمُسْلِمَ﴾ فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت. وأصل الإلقاء في الأجسام، فاستعمل في إظهارهم الانقياد، إشعاراً بغاية خضوعهم واستكانتهم، وأنها كالشيء الملقى بين يدي الغالب القاهر، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كفر وعدوان. فجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر. ويعجز أن يكون تفسيراً للسلم. على أن المراد به القول الدال على الاستسلام.

﴿بَلَى﴾ أي: فتجيبهم الملائكة بلى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، فهو يجازيكم عليه.

وقيل: قوله: «فألقوا السلم... إلخ» استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة. وعلى هذا أول من لم يجوز الكذب يومئذ «ما كنا نعمل من سوء» بأننا لم نكن في زعمنا واعتقادنا فاعلين سوءً. واحتمل أن يكون الراذ عليهم هو الله أو أولوا العلم. وهذا أيضاً من الشماتة. وكذلك ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كلَّ صنف بابها المعد له. وفيل: أبواب جهنم طبقات جهنم ودركانها المتضمنة أصناف عذابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلْيَنْسَ﴾ جهنم ﴿مَنْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ المتعظمين عن قبول الحق. واللام للتأكيد.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ  
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ  
يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ  
الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا  
الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

ولما قدم سبحانه ذكر أقوال الكافرين فيما أنزل على نبيه ﷺ، عقبه بذكر  
أقوال المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: المؤمنين ﴿مَاذَا أَنْزَلَ  
رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي: أنزل خيراً. وفي نضبه دليل على أنهم لم يتعلموا<sup>(١)</sup> في  
الجواب، وأطبقوه على السؤال، معترفين بالإنزال، على خلاف الكفرة، فضلاً بين  
جواب المقرّ وجواب الجاحد. فهؤلاء أطبقوا الجواب على السؤال فقالوا:  
خيراً، أي: أنزل خيراً. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير  
الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

روي أن أحياء العرب كانوا يعيشون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ،  
فإذا جاء الوافد المقتسمين قالوا له ما قالوا، وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك،  
فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً.  
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مكافأة في الدنيا ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ

(١) أي: لم يتوقفوا ولم يتأثروا. يقال: نلعمت في الأمر، أي: توقفت فيه وتأنى.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: ولثوابهم في الآخرة خير منها. وهو وعد للذين اتقوا على قولهم خيراً. ويجوز أن يكون «للذين أحسنوا» وما بعده حكاية لقولهم، بدلاً وتفسيراً لـ «خيراً»، على أنه منتصب بـ «قالوا». ﴿وَلَنَبْغَنَّ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة. فحذفت لتقدم ذكرها.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف. ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتبهات. وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الانسان لا يجد جميع ما يريد إلا في الجنة.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل هذا الجزاء ﴿يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم. وقيل: فرحين ببيشارة الملائكة إيتاهم بالجنة. أو طيبين بقبض أرواحهم، لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس.

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يحيقكم بعد مكروه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنما يقولون ذلك لهم عند خروجهم من قبورهم. وقيل: إذا أشراف العبد على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرئك السلام ويشرك بالجنة.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

ثم أشار إلى توعيد الكفار، فقال: ﴿هَذَا يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفار المار ذكرهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ النَّفْلُ الْبَاطِلُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاء سيئات أعمالهم. على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها، كما قال: ﴿وَجَزَاوُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَخَاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَفْهِرُونَ﴾ وأحاط بهم جزاءه. والحق لا يستعمل إلا في الشر.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

ثم عاد إلى حكاية قول المشركين، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله إلهاً آخر ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الذين اقتدينا بهم ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل شاء منا، وأراد فعلنا. وهذا القول من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث، واستهزائهم به، وتكذيبهم الرسول.

وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق . يعني : أنهم أشركوا بالله ، وحرّموا ما أحلّ الله من البحيرة والسائبة وغيرهما ، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا : لو شاء لم نفعل . وهذا مذهب المجرّة بعينه .

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله . وحرّموا حلّه ، وردّوا

رساله .

ثم أنكر سبحانه هذا القول عليهم ، فقال : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلا أن يبلغوا الحق بالبرهان والبيان ، ويطلعوهم على بطلان الشرك وقبحه ، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي منهم ، وعلى براءة الله من أفعال العباد ، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، والله باعثهم على جميلها ، وموقفهم وزاجرهم عن قبيحها ، وموعدهم عليه .

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ  
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾

ثم بين أن بعثة الرسل أمر جرت به السنّة الإلهيّة في الأمم كلّها ، سبباً لهداية من استرشد واستهدى ، وزيادة لضلّالة من عاند واستهوى ، كالغذاء الصالح ، فإنّه ينفع المزاج السويّ ويقوّيه ، ويضرّ المنحرف ويفنيه . فقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ في كلّ جماعة وقرن ﴿رَسُولاً﴾ كما بعثناك على أمّتك ﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ليقول لهم : اعبدوا الله ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي : عبادة الشيطان وكلّ داع يدعو إلى الضلّالة .

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وقَّعهم للإيمان بإرشادهم، لاسترشادهم. أو هداهم الله إلى طريق الجنة. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: من أعرض عمداً دعا إليه الرسول عناداً وانهماكاً في الجحود. مع وضوح الحق عليه، فخذله وخلاه. فثبتت عليه الضلالة ولزمته. أو حَقَّتْ عليه عقوبة الضلالة. فسَمَّى الله العقاب ضلالاً، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿فَسَبِّرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أرض المكذِّبين يا معشر قريش إن لم تصدقوني ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم، لعلكم تعتبرون كيف حَقَّتْ عليهم العقوبة وحلَّتْ بهم، حتَّى لا يبقى لكم شبهة في أنني لا أقدر الشرَّ ولا الإساءة حيث أفعل بالأشْرار.

إِنْ تَحَرَّصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله على إيمانهم، فقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾ على أن يؤمنوا بك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ ولا يُلطف بمن يخذل، أي: يريد ضلاله ويخليه، لانهماكه في الكفر وتصميمه على العناد، لأن اللطف في حقه عبث، والله متعالٍ عن العبث، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرأ غير الكوفيين: لا يُهْدَى، على البناء للمفعول. وهو أبلغ.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم. وهذا دليل على أن المراد بالضلال الخذلان الذي هو نقيض النصرة.



وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

روي: أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، فوقع في كلامه: والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا. فقال المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فنزلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم، والمعنى: بلغوا في القسم كل مبلغ. ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ لا يحيي ﴿مَنْ يَمُوتُ﴾ عطف ذلك على «وقال الذين أشركوا» إيداناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه، زيادة في البت على فساده. فردَّ الله عليهم أبلغ ردّ، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ يعنيهم ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي: وعدكم البعث والجزاء وعداً واجباً ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه، لامتناع الخلف في وعده، أو لأنّ البعث مقتضى حكمته ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد، أي: وعداً ثابتاً عند الله ﴿وَلَنْ يُخَذَّرَ النَّاسُ أَنْ يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ أي: يعلمهم بأنهم من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف، فيتوهّمون امتناعه.

ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: يبعثهم ليبين لهم ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فيما كانوا يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له من

حيث الحكمة. وهو المميّز بين الحقّ والباطل، والمحقّ والمبطل، بالثواب والعقاب.

ثمّ قال بياناً لإمكانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي: إذا أردنا وجوده، فليس إلّا ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: احدث فيحدث ذلك بلا توقّف. وهذا مثل في أنّ مراد الله لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته مثل وجود الأمور به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على الأمور المطيع المتمتّل، ولا قول هناك، والمعنى: أنّ إيجاد كلّ مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شقّ المقدورات!؟

وتقرير البيان أنّ تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقّف له على سبق الموادّ والمدد وإلّا لزم التسلسل، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداءً بلا سبق مادة ومثال، أمكن له تكوينها إعادة بعده.

ونصب ابن عامر والكسائي «فَيَكُونُ» هاهنا وفي يس<sup>(١)</sup>، عطفاً على «نَقُولَ»، أو جواباً للأمر.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً  
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ والذين فارقوا أوطانهم وديارهم وأهلهم فراراً بدينهم واتباعاً لنبيّهم ﴿فِي اللَّهِ﴾ في حقّه ولوجهه خالصاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ ما ظلمهم

المشركون وعذبوهم بمكة. وهم رسول الله وأصحابه المهاجرون، ظلمهم قريش ففرّوا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة.

وقيل: هم الذين كانوا منحبوسين معذبين بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ، وكلّما خرجوا تبعوهم فردّوهم، منهم بلال وصهيب وخباب وعمّار وعابس وأبو جندل وسهيل.

وقوله: ﴿لَنُذَوِّقَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي: تبوئة حسنة. وقيل: مباءة حسنة. وهي المدينة، حيث آواهم أهلها ونصروهم. وقيل: لننزلتهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب.

﴿وَلَأَجْزُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ما يجعل لهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لو افقوهم. أو للمهاجرين، أي: لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ منصوب المحلّ أو مرفوعه على المدح، تقديره: أعني الذين، أو هم الذين صبروا على الشدائد، كأذى الكفرة، ومفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كلّ قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم؟! وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله. ﴿وَعَلَىٰ زُبُهِمْ قِتْوَةٌ لِّئَلَّا يَمُوتُوا﴾ منقطعين إلى الله، مفوضين إليه الأمر كلّه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ  
بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي  
تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ  
رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

روي أن قريش قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أو لا يرسل الله  
إلينا بشراً مثلنا، فنزلت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: جرت  
السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحى إليه على السنة الملائكة،  
والحكمة في ذلك مذكورة في سورة الأنعام<sup>(١)</sup>، فإن شككتهم فيه ﴿فَمَا سَأَلُوا أَهْلَ  
الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب أو علماء الأحرار ليعلموكم ﴿إِنْ كَفْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الآية دلالة على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة، وأما  
قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾<sup>(٢)</sup> معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء. وقيل: لم  
يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. وردّ بما روي أنه ﷺ رأى  
جبرئيل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء  
فيما لا يعلم.

﴿سَائِبِيَّاتٍ وَالزُّبَيْرِ﴾ أي: أرسلناهم بالبيئات والزبير، أي: المعجزات  
والكتب. كأنه جواب قائل قال: بم أرسلوا؟ ويجوز أن يتعلق بـ«ما أرسلنا» داخلاً  
في الاستثناء مع «رجالاً». أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبيئات، كقولك: ما ضربت

(١) راجع ج ٢ ص ٣٦٣.

(٢) فاطر: ١.

إلا زيداً بالسوط. لأن أصله: ضربت زيداً بالسوط. أو صفة لهم: أي: رجالاً ملتبسين بالبيئات. أو بـ«نوحى» على المفعولية، أو الحال من القائم مقام فاعله. وعلى هذه الوجوه قوله: «فاسألوا أهل الذكر» اعتراض. أو بـ«لا تعلمون» على أن الشرط للإلزام والتبكيك.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذُّكْرَ﴾ أي: القرآن. وإنما سمي ذكراً لأنه موعظة وتنبيه للغافلين. ﴿بِقَبْضِ يَدِنَا﴾ ما نزل إليهم في الذكر بتوسط إنزاله إليك مما أمروا به ونهوا عنه. أو مما يتشابه عليهم. والتبيين أعم من أن ينص بالمقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه، كالقياس المنصوص العلة ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فينتهوا للحقائق. وفي هذا دلالة على أن الله تعالى أراد من جميعهم التفكر والنظر المؤدى إلى المعرفة، بخلاف ما يقوله أهل الجبر.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المكرات السيئات. وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء. أو الذين مكروا رسول الله، ودبروا التدابير في إطفاء نور الإسلام وإيذاء المؤمنين، وراموا صد أصحابه عن الإيمان. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتة من جانب السماء، كما فعل بقوم لوط. قال ابن عباس: يعني يوم بدر، وذلك أنهم أهلكوا يوم بدر، وما كانوا يقدرون ذلك ولا يتوقعونه.

﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: منقلبين في مسائرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم. وهو خلاف قوله: «من حيث لا يشعرون». ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون ومتوقعون. أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا. من: تخوفته إذا تنقصته. روي أن عمر قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا. فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لفتنا، التخوف:

التنقّص، فقال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوّف الرجل منها تامكاً قرداً      كما تخوّف عودَ النّبعة<sup>(١)</sup> السّفنُ  
فقال: عليكم بديوانكم لا تضلّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهليّة، فإنّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّقِيَاَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ  
سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ  
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿فَإِنْ رَبُّكُمْ لَزُءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ حيث لا يعاجلكم بالقوية مع استحقاقكم، ثم بين دلائل قدرته، فقال: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أو لم ينظر هؤلاء الكفّار الذين جحدوا وحدانيته وكذبوا نبيّه، والهمزة للإنكار، أي: قد رأوا أمثال هذه الصنائع، فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه؟! و«ما» موصولة مبهمة ببيانها.

﴿مِنْ شَيْءٍ يَتَّقِيَاَ ظِلَالَهُ﴾ أي: أولم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال

(١) في هامش النسخة الخطيّة: «النبعة: الشجرة التي تتخذ منها أخشاب القوس، منه». والتامك: سنام البعير المرتفع، والقرد: الذي أكله القراد من كثرة أسفارها، والسفن: المبرد الحديد الذي ينحت به الخشب، والمعنى: تنقّص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر، كما تنقّص المبرد عود النبعة.

متفتحة؟! وقرأ حمزة والكسائي: تروا بالتاء، وأبو عمرو: تفتتوا بالتاء. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ عن أيمنها وشمالها، أي: عن جانبي كل واحد منها وشقيبه. استعارة من يمين الانسان وشماله. ولعلّ توحيد اليمين وجمع الشمال باعتبار اللفظ والمعنى. فإن «من شيء» في معنى: ما خلق الله من كل شيء، فيكون جمعاً معنئاً. كتحديد الضمير في «ظلاله» وجمعه في قوله: ﴿سُجِّدُوا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في «ظلاله».

والمراد من السجود الاستسلام، سواء كان بالطبع أو الاختيار. يقال: سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب.

ويحتمل أن يكون «سجداً» حالاً من الظلال، و«هم ذاكرون» حالاً من الضمير في «ظلاله»، لأنه بمعنى الجمع كما عرفت آنفاً. والمعنى: يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها، بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب، منقادة لما قدر لها من التفتت، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد، والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة، أي: صاغرة منقادة لأفعال الله فيها. وجمع «ذاكرون» بالواو لأنّ من جملتها من يعقل فقلّب، أو لأنّ الدخور من أوصاف العقلاء.

وقيل: المراد باليمين والشمال يمين الفلك، وهو جانبه الشرقي، لأنّ الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع، وشماله وهو الجانب الغربي المقابل له، فإنّ الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض، جلّت قدرته وعظمته.

وعن الكلبي: معنى تفتتوا الظلال يميناً وشمالاً: أنّ الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة كان الظلّ قدأمك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك

كان خلفك . وإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك . فهذا تفيؤه عن اليمين والشمال .

وقد تبه الله تعالى بهذه الآية على أن جميع الأشياء تخضع له . بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى خالقها ومدبرها ، بما لولاه لبطلت ولم يكن لها قوام طرفه عين ، فهي في ذلك كالساجد من العباد بفعله الخاضع الذليل ، ولهذا قال : ﴿ وَبِهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : ينقاد انقياداً بعمّ الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً ، والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ، ليصح إسناده إلى عامّة أهل السماوات والأرض .

وقوله : ﴿ مِنْ ذَابِقَةٍ ﴾ بيان لما في السماوات والأرض جميعاً ، لأنّ الديب هو الحركة الجسمانية ، سواء كان في أرض أو سماء . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ عطف على المبيّن به عطف جبرئيل على الملائكة للتعظيم ، أو عطف المجردات على الجسمانيات . وبه احتجّ من قال : إنّ الملائكة أرواح مجردة .

أو بيان<sup>(١)</sup> ل«ما في الأرض» . ويراد بما في السماوات الملائكة الساكنة فيها . وحيث إنّ «الملائكة» تكرير لما في السماوات ، وتعيين له إجلالاً وتعظيماً ، فإنهم أعبد الخلائق . أو المراد بها ملائكتها من الحفظة وغيرهم . «وما» لما استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم ، كان استعماله حيث اجتمع القليلان أولى من إطلاق «من» تليقاً للعقلاء . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم . وتخصيص هذه الجهة أن أكثر العقاب المهلك إنّما يأتي من فوق . أو يخافونه وهو فوقهم ، أي : قاهراً غالباً عالياً عليهم . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

(١) عطف على قوله : بيان لما في السماوات والأرض ، قبل أربعة أسطر .

(٢) الأنعام : ١٨ .



قَاهِرُونَ»<sup>(١)</sup>. وعلى الأول يتعلق بـ«يخافون». وعلى الثاني حال من «رَبِّهِمْ». والجملة الفعلية حال من الضمير في «لا يستكبرون»، أو بيان لنفي الاستكبار وتقرير له، لأنَّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من الطاعة والتدبير. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ سَجُوداً مَذْخَلَهُمُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، لَا يَقْطُرُ مِنْ دُمُوعِهِمْ قَطْرَةٌ إِلَّا صَارَ مَلَكاً، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَالُوا: مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ». وفيه دليل على أنَّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخوف والرجاء، كسائر المكلفين.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلِهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾  
 وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابَا أَفْغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾  
 وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴿٥٣﴾  
 ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾  
 لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه دلائل قدرته وألوهيته، عقبه بالتنبيه على وحدانيته، فقال:  
 ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلِهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع المعدود لم يجر في الاثنين

والواحد، وإنما يجري فيما عداهما، كقولك: رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأنّ المعدود فيما عداهما عارٍ عن الدلالة على العدد الخاصّ، بخلاف رجل ورجلان، فإنّهما يدلّان على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، لكن ذكر هاهنا ليدلّ دلالة صريحة على أنّ المقصود نهي الاثنينيّة لا ذات المعدود.

أو إيماء بأنّ الاثنينيّة تنافي الألوهيّة، كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أنّ المقصود إثبات الوحديّة دون الإلهيّة. ألا ترى أنّك لو قلت: إنّما هو إله، ولم تؤكّده بواحد، خيّل أنّك تثبت الإلهيّة لا الوحديّة التي قصدتها، فكذا إذا قلت: لا تتخذوا إلهين بدون ذكر العدد، لخيّل أنّك قصدت المعدود لا العدد، ولما شفّعتهما بذكر الاثنين دلّ دلالة صريحة على أنّ مقصودك نفي الاثنينيّة لا الجنسيّة، أو للتنبية على أنّ الوحدة من لوازم الإلهيّة.

﴿فَإِنِّي فَازِهِبُونَ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في التهيب، وتصريحاً بالمقصود، فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإنّي فازهبون لا غير.

عن بعض الحكماء: أنّه قال: نهاك ربك أن تتخذ إلهين فاتخذت آلهة. عبدت نفسك وهواك وديناك وطبعك ومرادك، وعبدت الخلق، فأنتى تكون موحداً؟!!

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي: الطاعة ﴿وَإِصْبَاءً﴾ ثابتاً لازماً، لما تقرّر من أنّه الإله وحده، وأنّه الحقيق بأن يهرب منه. وقيل: واصبأ من الوصب، أي: وله الدين ذا كلفة. وقيل: الدين الجزاء، أي: وله الجزاء دائماً، لا يتقطع ثوابه لمن آمن، وعقابه لمن كفر. وعلى التقادير، هو حال عمل فيه الظرف.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضارّ حقيقة سواه، كما لا نافع غيره، كما قال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وأي شيء اتّصل بكم من نعمة فهو من الله. و«ما» شرطية، أو موصولة متضمّنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإنّ استقرار النعمة

لهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ من المرض وسائر الشدائد ﴿ فَأَلَيْهِ تَجَنُّوْنَ ﴾ فما تتضرعون إلا إليه . والجوار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة .

﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهم كفاركم .

﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ بعبادة غيره . هذا إذا كان الخطاب في قوله : « وما بكم من نعمة فمن الله ... إلخ » عاماً . فإن كان خاصاً بالمشركين كان « من » للبيان . كأنه قال : وإذا فريق منهم وهم أنتم . ويحتمل أن يكون للتبويض . على أن يعتبر بعضهم الذي كان أشد عناداً منهم ، كقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ (١) .

﴿ بِمَا آفَيْنَاهُمْ ﴾ من نعمة الكشف عنهم . كأنهم قصدوا بكفرهم كفران النعمة أو إنكار كونها من الله . واللام للعلّة . أي : جعلوا غرضهم من الشرك كفران النعمة . ويجوز أن يكون للأمر تخلية وخذلاناً . كقوله : ﴿ فَتَقْتُلُوا ﴾ فإنه أمر تهديد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يحل بكم في العاقبة من العقاب وأليم العذاب . حذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وهذا أغلظ وعيد .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيحًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ نَالِهِ لِنُسْأَلَنَ عَمَّا كُتِمَ  
تَقَرُّونَ ﴿ ٥٦ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشَهُونَ ﴿ ٥٧ ﴾ وَإِذَا  
بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ ٥٨ ﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ  
مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُرُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

ثم ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين دالاً على جهلهم، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَغْنَمُونَ﴾ أي: لآلهتهم التي لا علم لها، لأنّها جماد، فيكون الضمير «ما». أو التي لا يعلمونها، فيعتقدون فيها جهالات، مثل أنّها تنفعهم وتشفع لهم عند الله. وليس كذلك، فإنّ حقيقتها أنّها جماد لا يضرّ ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها، على أنّ العائد إلى «ما» محذوف، أو لجهلهم، على أنّ «ما» مصدرية، والمجول له محذوف للعلم به. ﴿فَصَبِيحاً بِمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من زروعهم وأنعامهم، وهي لا تشعر بذلك.

ثم أوعدهم الله بذلك، فقال تأكيداً للوعيد: ﴿تَاللَّهِ لَنَسْأَلَنَّ﴾ في الآخرة ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون في الدنيا من أنّها آلهة حقيقة بالتقرب إليها. ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلْبَنَاتِ﴾ الضمير لخزاعة وكنانة، فإنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له من قولهم أو تمجّب منه ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: البنين، ويجوز في «ما يشتهون» الرفع بالابتداء، أو النصب بالعطف على البنات، على أنّ الجعل بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد، لكنّه لا يبعد تجويزه في المعطوف.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى﴾ أخبر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ﴾ صار، أو دام النهار كله ﴿مُسْوِداً﴾ من الكآبة والحزن والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عن شدّة الاغتمام. ﴿وَهُوَ كَذَلِيمٌ﴾ مملوء غيظاً على المرأة. ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾ من سوء

المبشر به عرفاً، ومن أجل تعبيرهم ﴿أَيْفِسِكُهُ﴾ محدثاً نفسه. متفكراً في أن يتركه ﴿عَلَى هُونٍ﴾ هوان وذلل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يخفيه فيه ويئسده. وتذكير الضمير للفظ «ما». ﴿الْإِسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محلّه عندهم، ويجعلون لأنفسهم من هو على العكس، وهذا غاية الجهل.

﴿بَلِّدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ الشُّؤْمِ﴾ صفة السوء، وهي الحاجة إلى الولد المتنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم، وكراهة الإناث وأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشحّ البالغ، أو صفة النقص من الجهل والمعجز.

﴿وَبِهِ الثَّقَلُ الْأَعْلَى﴾ الصفة العليا، وهي الوجوب الذاتي، والغنى المطلق، والوجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنِنَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَّ وَوَيْهَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، ويعاجلهم بالعقوبة

﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض. وإنما أضمرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي: ممن يستحق العقوبة من الظالمين. ويؤيده ما روي عن ابن عباس: أن معناه من مشرك يدب عليها. أو من دابة ظالمة. أو لأهلك الدواب كلها بشؤم ظلم الظالمين. وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء.

وقيل: معنى الآية: لو يؤاخذهم بذنوبهم لحبس المطر عنهم حتى يهلك كل دابة. وعلى هذا العذاب للظالم عقوبة، ولغير الظالم عبرة ومحنة، فيكون كالأمراض النازلة بالأولياء وغير المكلفين، فيموضون عنها.

وقيل: إنه إذا هلك الظلمة ولم يبق مكلف لا يبقى غيرهم من الحيوانات، لأنها إنما خلقت للمكلفين. فلا فائدة في بقائها بعدهم.

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ساء لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حيث لا محالة. ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم السلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي: ما يكرهونه لأنفسهم، من البنات. والشركاء في الرئاسة، والاستخفاف برسلمهم، والتهاون برسالتهم، وجعلهم له أرذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها.

﴿ وَتَصِيفُ الْيَسْتَقْبِلُونَهُ الْكَذِبِ ﴾ مع ذلك. وهو ﴿ أَنْ لَهُمُ الْخُسْنَى ﴾ أي: عند الله، كقوله: ﴿ وَلَبِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْنَى ﴾<sup>(١)</sup>. هذا بدل من «الكذب». إذ هو قولهم: لنا البنون والله البنات.

﴿ لَا ﴾ أي: ليس الأمر على ما وصفوه ﴿ جَزَمَ ﴾ ثبت وحقاً ﴿ أَنْ لَهُمُ النَّارَ ﴾

ردّ لكلامهم. وإثبات لصدّه ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ مقدّمون إلى النار، من: أفرطته في طلب الماء إذا قدّمته. وقرأ نافع بكسر الراء. على أنه من الإفراط في المعاصي.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها. وكفروا بالمرسلين ﴿فَهُوَ وَيُعِيَهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم وناصرهم في الدنيا. عبّر باليوم عن زمانها. أو فهو وليّهم حين كان يزنيّ لهم. أو يوم القيامة. على أنه حكاية حال ماضية، كأن يزنيّ لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو حال آتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي: فهو ناصرهم اليوم ولا ناصر لهم غيره، فيكون نفيّاً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ويجوز أن يكون الضمير لقريش، أي: زبنيّ الشيطان للكفرة المتقدّمين أعمالهم، فهو وليّ هؤلاء اليوم، فيقرّهم ويغويهم، وأن يقدر مضاف، أي: فهو وليّ أعمالهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى  
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ  
مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنه قد أقام الحجّة وأزاح العلة وأوضح الحقّ، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد، وأحوال المعاد، وأحكام الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ ودلالة على الحقّ ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وهما معطوفان على محلّ «لتبيّن»، إلا أنّهما انتصبا على أنّهما مفعول لهما، لأنّهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على «لتبيّن» لأنّه فعل المخاطب. وإنّما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعمل.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ غيثاً ﴿فَأَخْيَأَ بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وإنصاف، لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه أصم لا يسمع أصلاً.

وَلَئِنْ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نُسَيْتِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

ثم عطف سبحانه على ما تقدم من دلائل التوحيد وعجائب الصنعة وبدائع الحكمة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم ﴿نُسَيْتِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ استئناف لبيان العبرة. وإنما ذكر الضمير ووحدته هاهنا للفظ، وأنه في سورة المؤمنين<sup>(١)</sup> للمعنى، فإن الأنعام اسم جمع، ولذلك عدّه سيويه في المفردات المبنية على أفعال، كأخلاق وأكباش<sup>(٢)</sup>. ومن قال: إنه جمع «نعم» جعل الضمير للبعض، فإن اللبن لبعضها دون جميعها، أو لواحدة، أو له على المعنى، فإن المراد به الجنس.

وقرأ نافع وابن عامر وأبوبكر ويعقوب: نَسَيْتِكُمْ بالفتح، هاهنا وفي المؤمنين.

(١) المؤمنون: ٢١.

(٢) في هامش النسخة الخطية: «ضرب من النبات غزل مرتين. وقيل: ضرب من برود اليمن.



﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا ﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث. وهي الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش.

وعن ابن عباس: «أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها. كان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً» الحديث. فالكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها، فتجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، وتبقى الفرث في الكرش. فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته، لمن تفكر وتأمل.

قال صاحب الأنوار بعد ذكر هذا الحديث: «إن صحَّ هذا النقل فلعلَّ المراد أن أوسطه يكون مادة اللبن. وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن. لأنهما لا يتكوّنان في الكرش، بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى ثقله وهو الفرث، ثم يمسكها ريشاً يهضمها هضماً ثانياً، فيحدث أخلاطاً أربعة معها مائتة، تتميز القوة المميّزة تلك المائتة بما زاد على قدر الحاجة من المرّتين، وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها، فيجري إلى كلّ حقّه على ما يليق به، بتقدير العليم الحكيم.

ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها، لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين، فإذا انفصل انصبَّ ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فيبيض بمجاورة لحومها الغدديّة البيض، فيصير لبناً. ومن تدبّر صنع الله في إحداث الأخلاط والألبان، وإعداد مقارّها ومجاربها. والأسباب المولدة لها، والقوى المتصرفّة فيها كلّ وقت على ما يليق به، اضطرَّ إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته»<sup>(١)</sup>.

واعلم أنّ «من» الأولى تبعيضية. لأنّ اللبن بعض ما في بطونها. كقولك:

أخذت من مال زيد ثوباً. والثانية ابتدائية، كقولك: سقيت من الحوض. لأنَّ بين الفرث والدم المحلَّ الذي يبتدأ منه الإسقاء. وهي متعلّقة بـ«نسيكم». أو حال من «لبناً». قدّم عليه لتكثيره. وللتبيه على أنه موضع العبرة.

سئل شقيق عن الإخلاص. فقال: تمييز العمل من العيوب. كتمييز اللبن من بين فرث ودم.

﴿خَالِصاً﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث. أو مصفى عمّا يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. ﴿سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم.

بيّن سبحانه في هذه الآية لمن ينكر البعث أنّ من قدر على إخراج لبن أبيض سائغ من بين الفرث والدم من غير أن يختلط بهما، قادر على إخراج الموتى من الأرض من غير أن يختلط شيء من أبدانهم بأبدان غيرهم.

ثمّ قال تعداداً لنعمة أخرى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلّق بمحذوف، أي: ونسيكم من ثمرات النخيل والأعناب. أي: من عصيرهما. وحذف لدلالة «نسيكم» قبله عليه.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾ استئناف لبيان الإسقاء. أو يتعلّق بـ«تتخذون». و«منه» تكرير للطرف تأكيداً، كقولك: زيد في الدار فيها، أو خبر لمحذوف صفته «تتخذون» أي: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه. وتذكير الضمير على الوجهين الأوّلين. لأنّه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأنّ الثمرات بمعنى الثمر. والسكر مصدر: سَكِرَ يَسْكُرُ سَكْرًا وَسُكْرًا، سمي به الخمر. ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل. والآية جامعة بين العتاب والمنّة.

روى الحاكم في صحيحه بالإسناد عن ابن عباس أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «السكر ما حرّم من ثمرها، والرزق الحسن ما أحلّ من ثمرها». وهذا القول

أيضاً مروى عن ابن مسعود وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم .  
وقال قتادة : نزلت الآية قبل تحريم الخمر ، ونزل تحريمها بعد ذلك في سورة  
المائدة<sup>(١)</sup> .

وقال أبو مسلم : لا حاجة إلى ذلك ، سواء كان حراماً أو حلالاً ، لأنه تعالى  
خاطب المشركين وعدّد إنعامه عليهم بهذه الثمرات ، والخمر من أشربتهم ، فكانت  
نعمة عليهم .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في  
الآيات . بين سبحانه بذلك أنكم تستخرجون من الثمرات عصيراً يخرج من قشر قد  
اختلط به ، فكذلك يستخلص الله سبحانه ما تبدّد من الميت مما هو مختلط به من  
التراب .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ  
وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا  
يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

ثم ذكر نعمة أخرى من نعمه التي تتضمن كمال قدرته . فقال : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ  
إِلَى النَّخْلِ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها ، وعلمها على وجه لا سبيل إلى الوقوف عليه .  
وأصل الوحي عند العرب أن يلقي الانسان إلى صاحبه شيئاً بالاستتار والإخفاء .

﴿أَنْ اتَّخِذِي﴾ بأن اتخذي. ويجوز أن تكون «أن» مفسرة. لأن في الإيحاء معنى القول. وتأنيت الضمير على المعنى. فإن النحل مذكر.

﴿بِئْنَ الْجِبَالِ يَبُوتَا﴾ تتعسل فيها ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: من الكرم، لأنه الذي يعرش ويتخذ منه العريش. أو ما يرفعون من سقوف البيوت. فإن العرش سقف البيت. والمعنى: ما يبني الناس للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تتعسل فيها، ولولا إلهام الله إياها ما كانت تأوي إلى ما بني لها من بيوتها.

وإنما أتى بلفظ الأمر وإن كانت النحل لا تعقل الأمر ولا تكون مأمورة، لأنه لما أتى بلفظ الوحي أجرى عليه لفظ الأمر اتساعاً. وذكر بحرف التبعيض، لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من كرم أو سقف، ولا في كل مكان منها.

وإنما سمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الانسان، لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة، التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بالآلات وأنظار دقيقة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر: يعرشون بضم الراء.

﴿ثُمَّ كَلِي مِنْ كُلِّ الْفُعْرَاتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينها، فإذا أكلتها ﴿فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ﴾ أي: الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك، فاسلكي راجعة إلى بيوتك التي هي سبيل ربك، لا تضلين فيها. أو فاسلكي ما أكلت في مسالك ربك، التي يحيل فيها بقدرته الثور<sup>(١)</sup> المرّ عسلاً من أجوافك.

﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول. وهي حال من السبل، أي: مذلة ذلها الله وسهلها لك.

أو من الضمير في «اسلكي» أي: وأنت ذلل منقاداً لما أمرت به .  
**﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾** كأنه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس ، لأنه محلّ الإنعام عليهم ، والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم **﴿شرباً﴾** يعني: العسل ، لأنه مما يشرب . واحتج به من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرية ، فتستحيل في بطنها عسلاً ، ثم تقيء ادخاراً للشتاء . وفسر البطون بالأفواه من زعم أنها تلتقط بأفواها أجزاء طليّة<sup>(١)</sup> حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار . وتضعها في بيوتها ادخاراً ، فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل .

**﴿مُخْتَلِفٌ لِنَوَائِهِ﴾** أبيض وأصفر وأحمر وأسود ، بسبب اختلاف سنّ النحل والفصل **﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلدَّاسِ﴾** إمّا بنفسه كما في الأمراض البلغميّة ، أو مع غيره كما في سائر الأمراض ، إذ قلماً يكون معجون إلّا والعسل جزء منه . وليس الغرض أنه بنفسه شفاء لكلّ مرض ، كما أن كلّ دواء كذلك . والدليل عليه أن التنكير مشعر بالتبويض . ويجوز أن يكون للتعظيم ، فإنه سبب لدفع معظم الأمراض .  
 وعن ابن بابويه في كتاب الاعتقادات : «اعتقادنا في العسل أنه شفاء للأمراض البلغميّة» .

وعن قتادة: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن أخي يشتكي بطنه . فقال: اسقه العسل . فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع . فقال: اذهب واسقه عسلاً ، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك . فسقاه فبرئ . فكأنما أنشط من عقال» .  
 وعن عبدالله بن مسعود أنه قال : عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل .  
 وقيل : الضمير للقرآن ، أو لما بين الله من أحوال النحل .  
**﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** فإن من تدبّر اختصاص النحل بتلك العلوم

الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علم قطعاً أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

قال صاحب المجمع: «ومن جملة عجائبه خروج العسل من فيه. ومنها: جعل الشفاء في موضع السم، فإن النحل يلسع. ومنها: ما ركب الله من البدائع والمعائب فيه وفي طباعه. ومن أعجبها أن جعل الله سبحانه لكل فئة يعسوباً هو أميرها، يقدمها ويحامي عنها، ويدبر أمرها ويسوسها، وهي تتبعه وتتفتي أثره، ومتى فقدته انحلت نظامها، وزال قوامها، وتفرقت شذر مذر. وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «أنا يعسوب المؤمنين»<sup>(١)</sup>.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ  
بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

ثم بين سبحانه نعمته علينا في خلقنا وإخراجنا من العدم إلى الوجود، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بأجال مختلفة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ﴾ يعاد ﴿إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ أخسه وأوضعه، يعني: الهرم الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة. وقيل: خمس وسبعون. وهذا مروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام. ﴿بِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ يبيت الشاب النشيط، ويبقى الهرم القاني. وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبنيتهم، وعدل أمرجتهم على قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي

رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

ثم عدّد سبحانه نعمة منه أخرى، فقال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فمنكم غنيّ ومنكم فقير، ومنكم موالٍ يتولون رزقهم ورزق غيرهم، ومنهم ممالك حالهم على خلاف ذلك، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ، فَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَطْعَمُونَ، فَمَا رَوَى عَبْدَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا وَرِدَاؤُهُ رِدَاؤُهُ، وَإِزَارُهُ إِزَارُهُ مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ».

﴿فَمَا الَّذِينَ فَضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ﴾ بمعطي رزقهم ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

على ممالكهم، فإن ما يردّون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فالموالي والممالك سواء في أن الله رزقهم، فلا يحسبن الموالي أنهم يردّون على ممالكهم من عندهم شيئاً من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجره إليهم على أيديهم. وهذه الجملة لازمة للجملة المنفيّة أو مقرّرة لها.

قيل: هذا مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء، فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبديكم فيما أنعمت عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبدي لي شركاء؟

﴿أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أفبهذه النعم التي عدّتها واقتصصتها يجحد هؤلاء

الكفار، حيث يتخذون له شركاء؟ فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله. أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعدما أنعم الله عليهم بإباحتها. والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر: تجحدون بالياء، لقوله: «خلقكم» و«فضل بعضكم».

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ  
 وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ  
 ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا  
 تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

ثم عدد سبحانه نعمة أخرى، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم لتأنسوا بها، ولتكون أولادكم مثلكم. وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ تسرون بهم وتزنيون بهم ﴿وَحَفَدَةً﴾ وأولاد أولاد أو بنات. فإن الحافد هو الذي يحفد، أي: يسرع في الطاعة وفي الخدمة، والبنات يخدمن في البيوت أتم خدمة. وقيل: هم الأختان<sup>(١)</sup> على البنات. وهو مروى عن أبي عبدالله عليه السلام. وعن ابن مسعود. وقيل: الرباتب. ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم. والعطف لتغاير الوصفين، كقوله: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾<sup>(٢)</sup>. فكأنه قيل: وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون، أي: جامعون بين الأمرين.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ التي قد أباحها لكم. و«من» للتبعيض.

(١) الأختان جمع الختن، وهو الصهر، أي: زوج الابنة.

(٢) النحل: ٦٧.



لأنَّ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ فِي الْجَنَّةِ، وَمَا طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنْمُودَجٍ مِنْهَا. ﴿أَقْبَابُ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما يعتقدون من منقعة الأصنام وبركتها وشفاعتها. وأنَّ من الطَّيِّبَاتِ ما يحرم عليهم، كالبحائر والسواحب ﴿وَبِسِنْعَةِ اللَّهِ﴾ المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز أنها من الله ﴿هُمُ يَكْفُرُونَ﴾ وينكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقل.

وقيل: الباطل ما يسؤل لهم الشيطان من تحريم البحائر والسواحب وغيرهما، ونعمة الله ما أحلَّ لهم في السماوات والأرض، فأضافوا نعمه إلى الأصنام، أو حرّموا ما أحلَّ الله لهم.

وتقديم الصلة على الفعل إمّا للاهتمام، أو لإيهام التخصيص مبالغة، أو للمحافظة على الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ من مطر ونبات. و«رزقاً» إن جعلته مصدراً «شيئاً» منصوب به. وإن أردت المرزوق كان «شيئاً» بدلاً منه، بمعنى: قليلاً منه. و«من السماوات والأرض» صلة للرزق إن كان مصدراً، بمعنى: لا يرزق من السماوات مطراً، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسماً لما يرزق.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ليس فيه تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً، لأنهم موات. أو يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة التوكيد. أو يراد: أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم. وعلى التقادير، لا يكون معنى قوله: «لا يملك» و«ولا يستطيعون» شيئاً واحداً ليلزم التكرار، وجمع الضمير في «لا يستطيعون» وتوحيده في «لا يملك»، لأن «ما» مفرد في معنى الآلهة. ويجوز أن يعود إلى الكفار، أي: ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون -

شيئاً من ذلك، فكيف بالجماد؟! ا

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به أو تقيسونه عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تعولون عليه من القياس، على أن عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ولو علمتموه لما جرّأتم عليه، أو أن الله يعلم كنه ما تفعلون وعظمه، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم، لأن العقاب على مقدار الإثم، وأنتم لا تعلمون كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرّأكم عليه، فهو تعليل للنهي، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم دون نصّه، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا  
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

ثم علمهم كيف يضرب مثلاً لنفسه ولمن عبد دونه، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بين الله تبييناً فيه بيان المقصود، تقريباً للخطاب إلى أفهامهم. ثم أبدل من المثل قوله: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ﴾ من أمره ﴿عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ وحرراً رزقناه وملئناه مالا ونعمة ﴿مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ لا يخاف من أحد ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ لم يقل: يستويان، لأنه أراد بقوله: «ومن رزقناه» وقوله: «عبدًا مملوكًا» الشيوخ في الجنس لا التخصيص، فإن المعنى: هل يستوي

## الأحرار والعبيد؟!

وتقييد العبد بالمملوك للتمييز بينه وبين الحر، فإنه أيضاً عبداً لله. وسلب القدرة عنه للتمييز عن المكاتب والمأذون. وجعله قيماً للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك. و«من» موصوفة، كأنه قيل: وحرّاً، ليطابق: عبداً. ولا يمتنع أن تكون موصولة.

مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً، فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء. واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما، مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية، على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات، وبين الله الغني القادر على الإطلاق.

وتوضح المعنى: أن الاثنين المتساويين في الخلق، إذا كان أحدهما مالكا قادراً على الإنفاق، والآخر مملوكاً لا يمكن أن يكون مالكا لشيء ما، لا يستويان. فكيف يستوي بين العجارة التي لا تعقل بل لا تتحرك، وبين الله القادر على كل شيء، الخالق الرازق لجميع خلقه؟!

وقيل: إن هذا المثل للكافر والمؤمن، فإن الكافر لا خير عنده، والمؤمن يكسب الخير. تبه سبحانه بذلك على اختلاف حالهما، فدعا إلى حال المؤمن، وصرف عن حال الكافر.

ولما ذكر هذا المثال، وكان مثلاً مطابقاً للغرض، كاشفاً عن المقصود، قال: ﴿أَخْفِذْ بَلَدَهُ﴾ الذي دلنا على توحيدهِ ومعرفته، وهدانا إلى شكر نعمته، وأوضح لنا السبيل إلى جنته. أو كل الحمد له، لا يستحقه غيره. فضلاً عن العبادة، لأنه مولى النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نعمه إلى غيره، ويبعدونه لأجلها.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُؤَجِّهَةٌ لَأَيَاتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

ثم ضرب سبحانه مثلاً آخر، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ ولد أخرس لا يفهم ولا يفهم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير، لنقصان عقله ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أَيْمَانًا يُؤَجِّهَةٌ﴾ حيثما يرسله مولاة في طلب حاجة ومهم ﴿لَأَيَاتٍ بِخَيْرٍ﴾ بنجح وكفاية مهم.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ هذا الأبكم الموصوف بهذه الصفة ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن هو فهم منطوق ذو كفاية ورشد، ينفع الناس بحتمهم على العدل الشامل لمجماع الفضائل ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سبي، وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين، لأنهما كمال ما يقابلهما.

وهذا تمثيل ثانٍ ضربه الله لذاته المفيض رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع، لا يبطال المشاركة بينه وبينها، أو للمؤمن والكافر.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ

أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

ثم وصف سبحانه نفسه مؤكداً لما قدّم ذكره من أوصاف الكمال. فقال:  
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي  
عليهم. وقيل: يوم القيامة، فإنّ علمه غائب عن أهل السماوات والأرض، ولم يطلع  
عليه أحد منهم.

﴿وَمَا أَمَرَ السَّاعَةَ﴾ وما أمر قيام القيامة في سرعته وسهولته ﴿إِلَّا تَخْفِجِ  
النَّبْضَ﴾ إلا كرجع الطرف من أعلى العدقة إلى أسفلها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أمرها  
أقرب منه، بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدىء فيه،  
فإنّه تعالى يحيي الخلائق دفعة، وما يوجد دفعة كان في آن. و«أو» للتخيير، أو  
بمعنى: بل.

وقيل: معناه: أنّ قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون  
فيه: هو كلمح البصر أو هو أقرب، مبالغة في استقراره.

ووجه اتّصاله بما قبله: أنّ أمر القيامة من الأمور الغائبة. ومن أعظمها  
وأهمّها، لما فيه من الثواب والعقاب، والانصاف والانتصاف.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على أن يقيم الساعة، وأن يحيي الخلائق  
دفعة، كما قدر أن أحييهم متدرّجاً.

ثم دلّ على قدرته، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي  
بكسر الهمزة على أنّه لفة، أو إبتاع لما قبلها، وحمزة بكسرها وكسر الميم. والهاء  
مزيدة، مثل: أراق وأهراق. والأصل: أمات. ﴿لَا تَخْلِفُونَ شَيْئًا﴾ في موضع الحال،  
أي: غير عالمين شيئاً من حقّ المنعم الذي خلقكم في البطون، وسواكم وصوركم،

ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، مستصحبين جهل الجمادية. ويجوز أن يكون «شيئاً» مصدرأ، أي: لا تعلمون علماً.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وركب فيكم هذه الآلات والأدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به، من معرفة المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم، فإنكم أولاً تحسّون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها، ثم تنتبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها، بتكرّر الإحساس حتى تتحصّل لكم العلوم البديهيّة. وتتمكّنوا من تحصيل المعالم الكسبيّة بالنظر فيها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم طوراً بعد طور فنشكروه. والأفئدة جمع الفؤاد، كالأغربة في غراب، وهي من جموع القلّة التي جرت مجرى جموع الكثرة.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

ثم عطف سبحانه على ما تقدّم من الدلائل بدلالة أخرى، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ويتفكّروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء، على أنّه خطاب للعامة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذلّلات للطيران صاعدة ومنحدرة، ذاهبة وجائية، بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فإنّ ثقل جسدها يقتضي سقوطها، ولا علاقة فوقها، ولا دعامة تحتها تمسكها.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ في تسخير الطير للطيران، بأنّ خلقها خلقة يمكن معها الطيران، وخلق الجوّ بحيث يمكن الطيران فيه، وإمساكها في الهواء على خلاف

طبعها ﴿لآيَاتٍ﴾ على وحدانيته وكمال قدرته ﴿بِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المتفكرون بها.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَحْرَ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَمُنُّ نِعْمَةٌ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

ثم عدّد سبحانه نعماً آخر، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، مما يتخذ من الحجر والمدر، فقل بمعنى مفعول، وذلك بأن خلق سبحانه الخشب والمدر، والآلة التي يمكن بها تسقيف البيوت وبنائها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القباب والأبنية المتخذة من الأدم والأطع، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر، فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة، يخف عليكم حملها ونقضها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت ترحالكم من بلد إلى آخر ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت الحضر، أو النزول. واليوم بمعنى الوقت، يعني: يخف عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً. وقرأ الحجازيان والبصريان: يَوْمَ ظَعْنِكُمْ

بالفتح. وهو لغة.

﴿وَمِنْ أَضْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للمعز. وإضافتها إلى ضمير الأتعام لأنها من جملتها. ﴿أَثَانًا﴾ ما يلبس ويفرش ﴿وَمَتَاعًا﴾ ما يتجر به ﴿إِلَى جِبِينٍ﴾ إلى وقت أن يبلى ويفنى، أو إلى حين مماتكم، أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ﴿فَلِئَلَّا﴾ تتفون بها من حرّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تسكنون بها، من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها. جمع كنّ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ قمصاناً وثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ خصّه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدين، أو لأنّ وقاية الحرّ كانت أهمّ عندهم، وقلّما يهتمهم البرد، لأنهم أهل حرّ في بلادهم، محتاجون إلى ما يقي الحرّ أكثر ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروع والجواشن<sup>(١)</sup>. والسربال يعتم كلّ ما يلبس من حديد وغيره.

﴿مَخْدَلِكُ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدّمت ﴿يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ يريد نعمة الدنيا، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تنظرون في نعمه فتؤمنون به، وتنقادون لحكمه. وقال ابن عباس: معناه: لعلكم يا أهل مكّة تعلمون أنّه لا يقدر على هذا غيره، فتوحدوه وتصدّقوا رسوله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان، ولم يقبلوه منك ﴿فَلِئِنَّمَا عَلَيْنَكَ الْبُلْغُ الْمُبِينُ﴾ تبليغ ما أرسلت به، وقد بلغت. فذكر سبب العذر - وهو البلاغ - ليدلّ على المسبّب، فهو من إقامة السبب مقام المسبّب. وهذا تسلية للنبي ﷺ.

(١) الجواشن: الصدر والدروع، وجمعه: جواشن.



يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ  
 مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا  
 رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

ثم أخبر عن حال الكفرة. فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: يعرف المشركون  
 نعمته التي عددها عليهم وغيرها، حيث يعترفون بها ويأتونها من الله ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾  
 بعبادتهم غير المنعم بها، وفولهم: هي من الله ولكنها بشفاعه آلهتنا، أو بسبب قولهم:  
 ورتناها من آبائنا، أو قولهم: لولا فلان ما أصبت كذا، أو بإعراضهم عن أداء  
 حقوقها. وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ، عرفوها بالمعجزات، ثم أنكروها عناداً.  
 ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق، لتقصان العقل،  
 أو التفريط في النظر، أو لم تقم عليه الحجّة، لأنه لم يبلغ حدّ التكليف. وإما لأنه  
 يقام مقام الكلّ، كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي هذه الآية دلالة على فساد قول المجبرة: أنه ليس لله سبحانه على  
 الكافر نعمة، وأنّ جميع ما فعله بهم إنّما هو خذلان ونقمة، لأنه سبحانه نصّ في  
 هذه الآية على خلاف قولهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها، يشهد لهم وعليهم بالإيمان  
 والتصديق، والكفر والتكذيب. والمعنى: لا حجة لهم ولا عذر. وكذا العدول من كلّ  
 عصر يشهدون على الناس بأعمالهم. وقال الصادق عليه السلام: «لكلّ زمان وأمة إمام،  
 تبعث كلّ أمة مع إمامها».

وفائدة بعث الشهداء مع علم الله سبحانه بذلك: أنّ ذلك أهول في النفس، وأشدّ في الفضيحة. إذا قامت الشهادة بحضرة الملائكة، مع جلالة الشهود وعدالتهم عند الله تعالى، لأنهم إذا علموا أنّ العدول عند الله يشهدون عليهم بين يدي الخلائق، فإنّ ذلك يكون زجراً لهم عن المعاصي.

﴿ثُمَّ لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، إذ لا عذر لهم صحيح. وقيل: في الرجوع إلى الدنيا. و«ثمّ» لزيادة ما يحيق بهم من شدّة المنع عن الاعتذار، لما فيه من الإقناط الكلّي على ما يمتنون<sup>(١)</sup> به من شهادة الأنبياء ﷺ، والمعنى: لا حجة لهم، فدلّ بترك الإذن على أنّ لا حجة لهم ولا عذر. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، من العتبي، وهي الرضا، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم، لأنّ الآخرة ليست بدار عمل.

وانتصاب «يوم» بمحذوف تقديره: اذكر. أو خوفهم، أو يحيق بهم ما يحيق. وكذا قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يمهلون.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

ثمّ أبان سبحانه عن حال المشركين يوم القيامة، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ

(١) أي: يبتلون ويختبرون، يقال: مناه الله بكذا، أي: ابتلاه.

أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴿ أوتانهم التي دعوها شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه ﴿ قَالُوا رَبُّنَا هُوَ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَدْ كَانُوا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا ﴿ في أنهم شركاء لله ﴿ مِنْ دُونِكَ ﴿ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس لأن يشطر عذابهم.

﴿ قَالِقُوا إِلَيْنِهِمُ الْقَوْلُ ﴾ إلقاء المعنى إلى النفس إظهاره لها حتى تدركه متميزاً عن غيره، أي: فقالت الأصنام وسائر ما كانوا يعبدون من دون الله، بإنطاق الله إياهم لهؤلاء ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ يعني: أجابوهم بالكذب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم، كقوله: ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾<sup>(١)</sup>. أو في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إياه، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَالنِّقْوَا ﴾ وألقى الذين ظلموا ﴿ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السُّلْطَمُ ﴾ الاستسلام لأمره وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وَضَلُّ عَنْهُمْ ﴾ وضاع عنهم وبطل ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن الله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ومنعوا الناس عن الاسلام، وحملوهم على الكفر ﴿ زَيْنَاهُمْ عَذَابًا ﴾ أي: عذبناهم على صدهم عن دين الله ﴿ فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ المستحق بكفرهم، أي: زيادة على عذاب الكفرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴾ بكونهم مفسدين الناس بصددهم عن سبيل الله.

عن سعيد بن جبیر: زيادة عذابهم حيات أمثال البخت والفيلة، وعقارب

(١) مريم: ٨٢.

(٢) إبراهيم: ٢٢.

أمثال البغال الدلم<sup>(١)</sup>، تلسع إحداهنّ اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خربقاً.  
وعن ابن مسعود: زيادة عذابهم الأفاعي والعقارب في النار، لها أنياب  
كالنخل الطوال.

وعن ابن عباس: هي أنهار من صفر مذاب كالنار يعذبون بها، وقيل:  
يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا  
عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى  
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيهم الذي أرسل  
إليهم، أو الحجّة الذي هو إمام عصرهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَيَّ  
هَؤُلَاءِ﴾ على أمّتك. وإنما أفردته بالذكر تشريفاً له.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ استئناف أو حال بإضمار «قد». ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بيانا بليغاً  
﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال، فإنه ما من شيء إلا وقد  
بين في القرآن، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، من بيان النبي  
والحجج القائمين مقامه، أو إجماع الأمة، أو القياس المنصوص العلة، فحكم  
الجميع مستفاد من القرآن.

﴿وَهُدًى﴾ ودلالة إلى الرشد ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة للجميع، لما فيه من الشرائع  
والأحكام، وإنما حرمان المحروم من تفریطه ﴿وَبُشْرَى﴾ وبشارة بالثواب الدائم

(١) أي: السود، جمع الأدلم، وهو الطويل الأسود.

والنعيم المقيم ﴿لِلْمُنْتَلِبِينَ﴾ خاصة .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوسط في الأمور اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، وعملاً كالتعبّد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير.

﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إحسان الطاعات. وهو إما بحسب الكميّة كالتطوّع بالنوافل، أو بحسب الكيفيّة. كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وقيل: العدل أن تتصف وتنتصف، والإحسان أن تتصف ولا تنتصف. وقيل: العدل في الأفعال، والإحسان في الأقوال. فلا يفعل إلا ما هو عدل. ولا يقول إلا ما هو حسن. وعن ابن عباس: العدل التوحيد، والإحسان أداء الفرائض.

﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه. وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة. وقيل: المراد بذّي القربى قرابة النبي ﷺ الذين أرادهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَمْسَةٌ وَلِلرُّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾<sup>(١)</sup>. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. فإنه قال: نحن هم.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوّة الشهويّة كالزنا، فإنه أقبح أحوال الإنسان وأسنعها ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوّة الغضبيّة ﴿وَالْبَغْيِ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس، وطلب التطاول بالظلم والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوّة الوهميّة. ولا يوجد من الانسان

شراً إلا وهو مندرج في هذه الأقسام، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث. ولذلك قال ابن مسعود: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعل إيرادها عقيب قوله: «ونزلنا عليك الكتاب» للتبنيه عليه.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي، والتمييز بين الخير والشر، وسائر ما تضمنت هذه الآية من مكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

قال في الكشف: «حين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغيأ، ضاعف الله لمن سنّها غضباً ونكالاً وخزياً، إجابة لدعوة نبيه ﷺ: «وعاد من عاداه، واخذل من خذله»<sup>(١)</sup>.

وجاءت الرواية أن عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياءً من رسول الله ﷺ، لكثرة ما كان يعرض علي الإسلام ولم يقر في قلبي. وكنت ذات يوم عنده فشخص بصره نحو السماء، كأنه يستفهم شيئاً، فلما سرى عنه سأله عن حاله. فقال: نعم، بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرئيل في الهواء فأتاني بهذه الآية: «إن الله يأمر بالعدل والاحسان»، وقرأها علي إلى آخرها.

فقر الإسلام في قلبي، وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش اتبعوا محمداً ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق.

وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية، فقال: إن كان محمد قاله فنعمة ما قال، وإن قاله ربه فنعمة ما قال. قال: فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأُخَذَ كَثِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>. يعني: قوله: فنعمة ما قال. ومعنى قوله: «وأكدى» أنه لم يقم علي ما قاله وقطعه.

(١) الكشف ٢: ٦٢٩.

(٢) النجم: ٣٣ - ٣٤.

وعن عكرمة قال: إن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة. فقال: يا ابن أخي أعد. فأعاد. فقال: إن له لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإن أعلاه لمثمر. وإن أسفله لمغدق. وما هو قول البشر.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَيُبَيِّنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

ولما تقدّم الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن المنكر والمدران، عقبه سبحانه بالأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ يعني: البيعة لرسول الله على الإسلام، لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾<sup>(١)</sup>

وقيل: العهد كل أمر يجب الوفاء به. وهو الذي يحسن فعله، وعاهد الله ليفعله. فإنه يصير واجباً عليكم، كالنذر وشبهه.

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

توثيقها بذكر الله. ومنه: أكد، بقلب الواو همزة. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾  
شاهداً بتلك البيعة. فإن الكفيل مراد لحال المكفول به، رقيب عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا  
تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والمهود والوفاء.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقض الأيمان ﴿كَأَلَّتِي نَقَضْتَ غَزْلَهَا﴾ ما غزلته. مصدر  
بمعنى المفعول ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بـ«نقضت» أي: نقضت غزلها من بعد إتمام  
وإحكام ﴿أَنْكَاثًا﴾ طاقات نُكِثَ قتلها، جمع نُكْث. وانتصابه على الحال من  
«غزلها»، أو المفعول الثاني لـ«نقضت»، فإنه بمعنى: صيرت، والمراد به تشبيه  
الناقض بمن هذا شأنه، وهو من ينكث قتلها.

قيل: هي ربيعة بنت سعد بن تيم القرشيّة، فإنها كانت حسماء خرقاء<sup>(١)</sup>،  
اتّخذت مغزلاً قدر ذراع، وصنارة<sup>(٢)</sup> مثل أصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت  
تنزل مع جواربها إلى انتصاف النهار، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ نَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير في «ولا تكونوا»، أو من  
الجزء الواقع موقع الخبر، أي: ولا تكونوا متشبهين بامرأة هذا شأنها، متخذة  
أيمانكم دخلاً، أي: مفسدة وخيانة وغدراً بينكم. وأصل الدخّل ما يدخل الشيء  
ولم يكن منه.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ لأجل أن تكونوا، أو بسبب أن تكونوا جماعة ﴿هِيَ أَرْبَابِي﴾  
أي: أزيد عدداً وأوفر مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من جماعة حلفتم له، والمعنى: لا تغدروا  
بقوم لكثرتكم وقتلتهم، أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة  
في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم، وحالفوا أعداءهم.

﴿إِنَّمَا يَبْطُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير لـ«أن تكون أمة» لأنه بمعنى المصدر، أي:

(١) مؤنث الأخرق، وهو الأحمق الذي لم يحسن عمله.

(٢) الصنارة: الحديدة المعقّفة في رأس المغزل. ومنها الصنارة التي تستعملها النساء لحياسة



يختبركم بكونهم أربى لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تفترون بكثرة قريش وشوكتهم. وقلة المؤمنين وضعفهم؟ وقيل: الضمير لـ«أربى». وقيل: للأمر بالوفاء. وتحقيقه أنه يعاملكم معاملة المختبر ليمتد المحق من المبطل ليقع الجزاء بحسب العمل.

ولما كان بناء الإثابة والتعذيب على التكليف الذي مداره الاختيار لا الإيجاب، قال بعد ذلك: ﴿وَلْيُفَيْدَنَّ﴾ ويظهرن ﴿لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام قسراً وجبراً ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ يخذله في الضلالة ويخلبه فيها، لعلمه بفرط كفره، وانهماكه في عناده، وتوغله في إنكاره، مع وضوح طريق الحق لديه ﴿وَيُهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يوفقه طريق الهدى، لعلمه باسترشاده واستصوابه، فإنه بنى الأمر على الاختيار، وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإيجاب، وحقق ذلك بقوله: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤال تبييت ومجازاة.

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

ثم صرّح بالنهي عن نقض العهد بعد التضمين، تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي. فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ تَخَلًّا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خيانه وخديعة كما مرّ. ﴿فَقَزَلْ قَدَمٌ﴾ عن محجة الاسلام ﴿بِنَعْدِ نُيُوتِهَا﴾ عليها. والمراد أقدامهم. وإنما وحّد ونكّر للدلالة على أنّ زلل قدم واحدة عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟! ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿بِمَا صُنَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بسبب صدودكم عن الوفاء، فإنّ من نقض البيعة وارتدّ جعل ذلك سنّة لغيره ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

روي عن سلمان الفارسي أنّه قال: تهلك هذه الأمة بنقض موثيقها. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «نزلت هذه الآيات في ولاية عليّ عليه السلام، وما كان من قول رسول الله ﷺ: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين».

﴿وَلَا تَسْتَقْرِئُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﴿فَمَعَا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً من الدنيا، وهو ما كانت قريش يعدون لضعفاء المسلمين ويمتنونهم ويشترطون لهم على الارتداد ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النصر والتغيم في الدنيا، والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ممّا يعدونكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنْقُذُ﴾ ينقضي ويفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بِاقٍ﴾ لا ينفد. وهو تعليل للحكم السابق، ودليل على أنّ نعيم أهل الجنة باقٍ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَفَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ على الفاقة وأذى المشركين، أو على مشاقّ التكليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجع فعله من أعمالهم، كالواجبات والمندوبات. أو بجزء أحسن من أعمالهم.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْسى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

روي عن ابن عباس: أنّ رجلاً من حضرموت يقال له عبدان الأشرع قال: يا

رسول الله إن امرء القيس الكندي جاورني في أرضي فاقطع من أرضي ، فذهب بها مني . والقوم يعلمون أنني لصادق ، ولكنه أكرم عليهم مني .

فسأل رسول الله ﷺ امرء القيس عنه . فقال : لا أدري ما يقول . فأمره أن يحلف .

فقال عیدان : إنه فاجر لا يبالي أن يحلف .

فقال : إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه .

فلما قام ليحلف أنظره . فانصرفا ، فنزل قوله : «ولا تشتروا بعهد الله الآياتن .

فلما قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس : أمأ ما عندي فينفد ، وهو صادق فيما يقول ، لقد اقطعت أرضه ، ولم أدركم هي ، فليأخذ من أرضي ما شاء ، ومثلها معها بما أكلت من ثمرها .

فنزل فيه : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ﴾ بيته بالنوعين دفعا للتخصيص ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيباً ، فإنه إن كان موسراً فظاهر . وإن كان معسراً يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة ، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة ، بخلاف الكافر ، فإنه إن كان معسراً فظاهر . وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه .

وعن ابن عباس : الحياة الطيبة الرزق الحلال . وعن قتادة : يعني بها في الآخرة . وقيل : هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه .

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة ، كقوله : ﴿فَاتَاهُمُ اللهُ فَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسُنَ فَوَابِ الآخِرَةِ﴾<sup>(١)</sup> .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ  
لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى  
الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

ولما كان الشيطان يوسوس العباد في ترك الطاعة والإقدام على المعصية،  
وكلما كانت العبادة أعظم كان الشيطان في وسوسته أجهد، ومعظم العبادة تلاوة  
القرآن، كما قال النبي ﷺ: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن». عقب ذكر العمل  
الصالح بالاستعاذة من الشيطان عند تلاوته، ليأمن من وسوسته في طاعته، فقال:  
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: إذا أردت قراءته. والتعبير عن إرادة الفعل بلفظ الفعل من  
قبيل تسمية السبب باسم المسبب، فإن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل  
وعلى حسبه، فكان منه بسبب قوي وملابسة ظاهرة، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى  
الصَّلَاةِ﴾<sup>(١)</sup>

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فاسأل الله أن يعيدك من وساوسه، لتلا  
يوسوسك في القراءة، والاستعاذة استدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع.  
وهي عند التلاوة مستحبة غير واجبة بلا خلاف، في الصلاة وخارج الصلاة.  
وعن ابن مسعود: «قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم  
من الشيطان الرجيم. فقال: قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني  
جبرئيل ﷺ عن القلم عن اللوح المحفوظ».

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ أي: على أولياء الله المؤمنين به والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامره، ولا يقبلون وساوسه، إلا فيما يحتقرون على ندور وعقلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة، فذكر نفي السلطنة بعد الأمر بالاستعاذة، لئلا يتوهم أن له سلطاناً.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ يحبونه ويطيعونه في إغوانه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ ﴾ بالله، أو بسبب الشيطان ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾.

وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾

ثم قال مخبراً عن إسناد الكفار الافتراء إلى رسول الله ﷺ بالنسبة إلى القرآن، فقال: ﴿ وَإِذَا بَدُلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ بالنسخ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ من المصالح، فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه الله، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيشبهه مكانه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ينزل بالتخفيف.

وهذا اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم، والتنبيه على فساد سندهم، واقع بين الشرط وبين جوابه، وهو قوله: ﴿ قَالُوا ﴾ أي: الكفرة ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه.

وروي عن ابن عباس: أنهم كانوا يقولون إن محمداً يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون. ولقد افتروا، فقد كان

ينسخ الأَشَقَّ بِالْأَهونِ، وَالْأَهونِ بِالْأَشَقَّ، وَالْأَهونِ بِالْأَهونِ. وَالْأَشَقَّ بِالْأَشَقَّ، لِأَنَّ الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الأحكام، ولا يميزون الخطأ من الصواب.  
 ﴿قُلْ﴾ رداً لقولهم: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: جبرئيل. وإضافة الروح إلى القدس - وهو الطهر - كقولهم: حاتم الجود وزيد الخير. والمراد الروح المقدس، أي: المطهر من المآثم. وقرأ ابن كثير: رُوحُ الْقُدُسِ بالتخفيف. وفي «يسزل» و«نزله» تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح إنما يقتضي التبديل. ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة.

﴿يُعَيِّنَتِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإيمان بأنه كلامه، فإنتهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم. ومعنى تنبيته: استدعاؤه لهم بالطفاه ومعونته إلى الثبات على الإيمان.

﴿وَهُدًى وَيُضَيِّقُ لِلْمُنْصَلِبِينَ﴾ المنقادين لحكمه. وهما معطوفان على محل «ليثبتت» أي: تثبيتاً وهداية وبشارة. وفيه تعريض بحصول أضرار ذلك لغيرهم.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون جبر الرومي غلام عامر بن الحضرمي. وقيل: عبدان: جبر ويسار. كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقران التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمرّ عليهما ويسمع ما يقرآنه. وقيل: عائشاً أو يعيش غلام حويطب بن عبد العزى، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكان صاحب كتب. وقيل: سلمان الفارسي، قالوا: يتعلم القصص منه. وعن ابن عباس: قالت قريش: إنما يعلمه بلعام، وكان قيناً<sup>(١)</sup> بمكة رومياً نصرانياً.

ثم ألزمهم الله تعالى الحجّة وأكذبهم بأن قال: ﴿بِإِنْسَانٍ الَّذِي﴾ أي: لفة الرجل الذي ﴿يُلْجِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ﴿أَعْجَبِي﴾ أعجميّة عبريّة ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿بِإِنْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ذو بيان وفصاحة.

وقرأ حمزة والكسائي: يَلْحَدُونَ بفتح الياء والحاء. يقال: ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحد، إذا أمال حفرة عن الاستقامة، فحفر في شق منه. ثم استير لكل إمالة عن استقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله. وألحد في دينه. ومنه الملحد. لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين.

والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم. وتقريره من وجهين:  
أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون ما تلقفه منه؟!  
وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه، لكن لم يتلقف منه اللفظ،

لأن ذلك أعجمي، وهذا عربي، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى، فهو معجز من حيث اللفظ. مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقي، سمع منه بعض أوقات مروره عليه كليبات أعجمية، لعلهما لم يعرفا معناها؟! وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة الواهية دليل على غاية عجزهم. كذا قال صاحب الأنوار<sup>(١)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾  
إِنَّمَا يَقْتَرِي الكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾  
مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ  
بِالكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

ثم أتبع سبحانه هذه الآية بذكر الوعيد للكفار على ما قالوه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون ﴿بآيات الله﴾ بأنها من عند الله ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، أي: لا يلفظ بهم، بل يخذلهم، لأنهم أهل التخلية والخذلان، لفرط عنادهم ومكابرتهم، مع أن حقيّة القرآن واضح لديهم. وقيل: إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

ولما أطمأنت شبهتهم، وردّ طعنهم، قلب الأمر عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا، أو إلى قريش ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب، لأنّ تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب، أو الذين عادتهم الكذب، ولا يبالون به في كل شيء، ولا يصرفهم عنه دين ولا مروءة، أو الكاذبون في قولهم: «إنما أنت مفتري» «إنما يعلمه بشر».

﴿مَنْ كَفَرَ بِإِسْمِهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدل من «الذين لا يؤمنون» وما بينهما اعتراض، والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه، واستثنى منهم المكره، أو من «أولئك» أو من «هم الكاذبون»، أو مبتدأ خبره محذوف، دلّ عليه قوله: «فعلهم غضب»، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره... إلخ. ويجوز أن ينتصب بالذم، وأن تكون «من» شرطية محذوفة الجواب.

﴿إِلَّا مَنْ أَحْرَبَهُ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر، استثناء متصل، لأنّ الكفر لفة يعمّ القول والعقد، كالإيمان ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تتغير عقيدته.

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده وطاب به نفساً ﴿فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبًا مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا شيء أعظم من جرمه.

روي: أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمّار،



وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم، عذبوا. فأما سمية فقد ربطوها بين بعيرين ووجيء<sup>(١)</sup> بحربة في قبلها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال. فقتلت. وقتلوا ياسراً. وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فقد أعطاهم بلسانه ما أرادوا مكرهاً. فقيل: يا رسول الله إن عماراً كفر. فقال: كلاً، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه. فأتى عمار رسول الله وهو يبكي. فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه. وقال: مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت.

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر للإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إغزازاً للدين. كما فعله أبواه، لما روي: أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ فقال: أنت أيضاً. فخلّاه. وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم. فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله. وأما الثاني فقد صدع بالحق، فهنيئاً له.

ذَكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ  
وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ  
﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

(١) وَجَاءَ فَلَانًا بِالسَّكِينِ أَوْ بِيَدِهِ: ضربه في أي موضع كان.

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الايمان، أو الوعيد ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَخْبِؤُوا الْخِيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وبسبب استحقاقهم نخلتهم وخذلانهم، لأجل انهاكهم في الكفر والعناد. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَوْ نَشَاءُ﴾ برفع التوفيق واللفظ عنهم، فيخلهم لفرط عنادهم ولجاجهم، فأبت قلوبهم وحواشهم عن الاعتراف بالحق ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة، فلا أغفل منهم. لأنهم غفلوا عن تدبر عاقبة حالهم في الآخرة، وذلك غاية الغفلة ومنهاها.

﴿لَا جَزْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ أي: عذبوا، كعثار وأصحابه. و«ثم» لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك. يعني: إن ربك لهم لا عليهم. بمعنى: أنه وليهم وناصرهم، لا عدوهم وخاذلهم. وقرأ ابن عامر: قُتِلُوا بالفتح، أي: بعد ما عذبوا المؤمنين، كالحضرمي أكره مولاة جبراً حتى ارتدت ثم أسلما وهاجرا، كما قال: ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَضَبَرُوا﴾ على الجهاد وما اصابهم من المشاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب ب«رحيم» أو ب: أذكر. والمراد يوم القيامة. ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ عن ذاتها، وتسعى في خلاصها، لا يهتمها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي. ومعنى المجادلة: الاحتجاج عنها والاعتذار لها، كقولهم: ﴿هُؤُلَاءِ﴾

اضلونا»<sup>(١)</sup> ونحو ذلك. «وَتَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ» جزاء ما عملت «وَهُمْ لَا يَخْلِفُونَ» لا يتقصون أجورهم.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

ثم أئذر المشركين بقوله: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً» أي: جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته. أو لأهل مكة. «كَانَتْ آمِنَةً» ذات أمن، أي: يأمن أهلها من أن يغار عليهم «مُطْمَئِنَّةً» قارة ساكنة بأهلها، لا يترزعجون خوف العدو، فإن الطمأنينة مع الأمن، والآنزعاج والقلق مع الخوف.

«يَأْتِيهَا رِزْقُهَا» أقواتها «رَغَدًا» واسماً «مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» من نواحيها وجوانبها، كما قال: «يُجِبُّنِي إِلَيْهِ فَمَرَاتٍ كُلَّ شَيْءٍ»<sup>(٢)</sup>.

«فَكَفَرَتْ» فكفر أهل تلك القرية «بِأَنْعَمِ اللَّهِ» بنعمه. جمع نعمة، على ترك الاعتداد بالثناء، كيدع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس. وفي الحديث: «نادى مناد النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا».

«فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ» استعمار الذوق لإدراك أثر الضرر،

(١) الأعراف: ٣٨.

(٢) القصص: ٥٧.

واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له، وهو ماغشيهم.

قال صاحب الكشاف: «أما الإذاقة فقد جبرت عندهم مجرى الحقيقة، لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها، فيقولون؛ ذاق فلان البؤس والضرَّ وأذاقه العذاب، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرِّ والبشع. وأما اللباس، فقد شبه به لاشتماله على اللباس ما غشي الانسان والتبس به من بعض الحوادث. وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف»<sup>(١)</sup>.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ. والضمير لأهل مكة، عاد إلى ذكرهم بعد ما ذكر مثلهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجذب الشديد سبع سنين، حتى أكلوا القَدَّ<sup>(٢)</sup> والعلهز، وهو الوبر يخلط بالدم ويؤكل، ومع ذلك كانوا خائفين من النبي ﷺ وأصحابه، وذلك حين دعا عليهم فقال: اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر، واجعل عليهم سنين كسني يوسف. أو وقعة بدر.

فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

تَقْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

(١) الكشاف ٢: ٦٣٩.

(٢) القَدُّ: جلد السخلة.

ولمَّا زجرهم عن الكفر، وأوعدهم بما ذكر من التمثيل، صدأ لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة، أمرهم بأكل ما أحلَّ الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم. فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ إنعامه بذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صَحَّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة، لأنَّها شفعاؤكم عنده.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

ولمَّا أمرهم بتناول ما أحلَّ لهم، عدَّد عليهم ما حرَّم عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بـ«إنما» حصر المحرَّمات في الأجناس الأربعة، إلا ما ضمَّ إليه دليل كالسباع. وهذه الآية والتي قبلها مفسرتان في سورة البقرة، فليطالع ثمة<sup>(١)</sup>.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

(١) راجع ج ١ ص ٢٨٥ ذيل الآية ١٧٢ - ١٧٣ من سورة البقرة.

ثم أكد ذلك بالنهاي عن التحريم والتحليل بأهوانهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا  
 نَصَبْنَا لِكُفْرَانِكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ  
 خَالِصَةٌ يَذْكُرُونَنَا﴾<sup>(١)</sup> الآية. وانتصاب الكذب بـ«لا تقولوا». و«هذا حلال وهذا  
 حرام» بدل منه. أو متعلق بـ«تصف» على إرادة القول. أي: ولا تقولوا الكذب لما  
 تصفه ألسنتكم فتقولوا: هذا حلال وهذا حرام. أو مفعول «لا تقولوا»، والكذب  
 منصوب بـ«تصف»، و«ما» مصدرية. أي: ولا تقولوا: هذا حلال وهذا حرام لوصف  
 ألسنتكم الكذب. والمعنى: لا تحللوا ولا تحرموا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من  
 غير دليل.

ووصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، كأن حقيقة  
 الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عدّ من فصيح  
 الكلام، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر.  
 ﴿يَنْفَقُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ اللام للعاقبة، لأنّ الافتراء ما كان غرضاً، كقوله:  
 ﴿عَذْوًا وَحَرْمًا﴾<sup>(٢)</sup> ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من  
 عذاب الله، ولا ينالون خيراً.

ولما كان المفتري يفترى لتحصيل مطالبه الدنيوية نفى عنهم الفلاح، وبينه  
 بقوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن  
 قريب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: في سورة الأنعام في  
 قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا كُلِّ ذِي ظُفْرِ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ«قصصنا» أو

(١) الأنعام: ١٣٩.

(٢) القصص: ٨.

(٣) الأنعام: ١٤٦.

«حَرَمْنَا» ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَكِنْ خَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة. واتصل قوله: «وعلى الذين هادوا» الآية بما تقدم ذكره من التحريم والتحليل، ليبيّن أن ما كانوا يحرمونه ويحلّونه بزعمهم ليس في التوراة، كما أنه ليس ذلك في القرآن.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا  
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

ثم ذكر سبحانه التائبين بعد تقدم الوعد والوعيد، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ بسببها، أو ملتبسين بها، ليعمّ الجهل بالله ويعقابه، وعدم التدبّر في العواقب لغلبة الشهوة. والسوء يعمّ الافتراء على الله وغيره. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد سوء الفعل ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ تبتاهم وأفعالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك سوء ﴿رَحِيمٌ﴾ يشب على الإنابة.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾  
شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا  
حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ  
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

وبعد ذمّ المشركين وأهل الكتاب، وتهديدهم بعقائدهم الزائفة وصفاتهم

السَّيِّئَةِ، بَيْنَ خِلالِ إِبراهيمَ الخليلِ ونعمته الجليلِ ليقْتدوا به، فقال: ﴿إِنْ إِبراهيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: كان وحده أُمَّةً من الأممِ، لِكَمالِهِ في جميعِ صفاتِ الخَيْرِ، واستجماعِهِ فضائلٍ لا تكادُ تُوجدُ إلا مُفَرَّقةً في أشخاصٍ كثيرةٍ، كقولِهِ:

ليس من الله بمستنكر  
أن يجمع العالم في واحد

وهو رئيس الموحدين، وقدوة المحققين، الذي جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة. ولذلك عقب أحوال المشركين بذكره تزييفاً لمذاهبهم الزائفة، من الشرك، والطعن في النبوة، وتحريم ما أحلّه. أو لأنّه كان وحده مؤمناً، وكان سائر الناس كفّاراً.

وقيل: هي فعلة بمعنى مفعول، كالرحلة بمعنى ما يرتحل إليه، والنخبة بمعنى ما ينتخب به، من: أمّه إذا قصده أو اقتدى به، فإنّ الناس كانوا يؤمّونه للاستفادة، ويقتدون بسيرته، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾<sup>(١)</sup>. قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أُمَّة، لأنّه قدوة معلّم الخير.

﴿فَإِنَّمَا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له، قائماً بأوامره دائماً ﴿حَبِيبًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الإسلام، مستقيماً على الطاعة وطريق الحقّ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا، فإنّ قريشاً كانوا يزعمون أنّهم على ملّة إبراهيم.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ معترفاً بها. ذكر بلفظ القلّة للتنبية على أنّه كان لا يخلّ بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟! روي أنّه كان لا يتغذّى إلاّ مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخّر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام، فخيّلوا له أنّ بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم شكراً لله على أنّه عافاني وابتلاككم.

﴿اجْتِنَابًا﴾ واصطفاه للنبوة ﴿وَهَذَاهُ إِنِّي صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ في الدعوة إلى الله.



﴿وَأَتِفَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حَبَّبه إلى الناس، حَتَّىٰ إِنْ أَرَبَابَ الملل جميعاً يتولونه ويشنون عليه، وورقه أولاداً طَيِّبَةً، وعمراً طويلاً في السعة والطاعة. وقيل: هي قول المصلِّي منّا: كما صلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم.

﴿وَأَنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لمن أهل الجنة، كما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>. وناهيك بهذا ترغيباً في الصلاح. ولم يقل: لفي أعلى منازل الصالحين، مع اقتضاء حاله ذلك، ترغيباً في الصلاح، فإنه عزَّ اسمه بَعَنَ أَنَّهُ ﷺ من جملة الصالحين، مع علوِّ رتبته وشرف منزلته، تشریفاً لهم وتوبهاً بذكر من هو منهم.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمَّد. وذكر «ثم» إمَّا لتعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محلّه، والإيدان بأنَّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أولي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملته، فإنها دلَّت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أتى الله عليه بها، أو لتراخي أيامه.

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، وإيراد الدلائل مرّة بعد أخرى، والمجادلة مع كلِّ أحد على حسب فهمه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُفْشِرِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين.

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

ولما أمر سبحانه باتباع الحق، حذّر من الاختلاف فيه، بما ذكر من أحوال المختلفين في السبت، كيف شدّد عليهم فرضه، وضيق عليهم أمره، فقال: ﴿إِنَّمَا

جُعِلَ السَّبْتُ أَي: تعظيم السبت، أو التخلي فيه للعبادة ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في نبيهم. وهم اليهود، أمرهم موسى ﷺ أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا عن ذلك وقالوا: نريد يوم السبت، لأنه فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض، فألزمهم الله السبت، وشدد الأمر عليهم، إلا شذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فأذن الله لهم الصيد في السبت، وابتلى المسببتين بتحريم الصيد فيه.

وقيل: معناه: إنما جعل وبال السبت - وهو المسخ - على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه أخرى، واحتالوا له الحيل، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة. بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. وعلى هذا، المعنى في ذكر ذلك نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت<sup>(١)</sup> بأنعم الله مثلاً لمزيد تهديد المشركين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيُخَوِّمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق من الآيين والمعظمين بما يستحقه.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

ثم أمر سبحانه نبيه بالدعاء إلى الحق، فقال: ﴿ادْعُ﴾ من بعث إليهم ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى دين ربك، وهو الإسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة. وهو الدليل الموضح للحق، المزيج للشبهة. ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة. فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم.

وقيل: الحكمة هي القرآن. وسُمِّيَ حكمةً لأنه يتضمَّن الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح. وأصل الحكمة المنع، ومنه حكمة اللجام. والموعظة الحسنة: هي الصرف عن القبيح، على وجه الترغيب في تركه، والترهيد في فعله. وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع.

﴿وَجَادِلْهُمْ﴾ وجادل معانديهم ﴿بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين من غير فظاظة وتعنيف، وإيثار الوجه الأيسر فالأيسر، والمقدمات التي هي أشهر، فإن ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتليين شغبهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، فكأنك تضرب منه في حديد بارد. وإنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي لهم.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾

ولما بين أمره بالدعوة وعلمه طرقها، أشار إليه وإلى من يتابعه بمراعاة العدل مع من يناصبهم، فإن الدعوة لا تنفك عنه. من حيث إنها تتضمن رفض العادات وترك الشهوات، والقدح في دين الأسلاف، والحكم عليهم بالكفر والضلال. فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أي: أردتم معاقبة غيركم على وجه المجازاة ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ولا تزيدوا عليه.

وقيل: كان المشركون مثلوا بقتلى أحد، وبقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم.

وقتل حمزة وقد مثل به، وأخذت هند كبده، فجعلت تلوكه، وجدعوا أنفه وأذنه، فقال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات، فنزلت. وفيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني، وليس له أن يجاوزه. وحث على العفو تعريضاً بقوله: «وإن عاقبتم»، وتصريحاً بقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي: الصبر ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمنتقمين.

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

ثم صرح بالأمر به لرسوله، لأنه أولى الناس به، لزيادة علمه بالله، ووثوقه عليه، فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوفيقه وتثبيتته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين في إعراضهم عنك، أو على قتلى بدر، أو على المؤمنين وما فعل بهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضيق صدر من مكرهم بك وبأصحابك، فإن الله يرد كيدهم في نحورهم، ويحفظكم من شرورهم.

وقرأ ابن كثير: في ضيقي، هنا وفي النمل<sup>(١)</sup>. وهما لغتان، كالقول والقيل. ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضيق.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والكبائر بالنصرة والحفظ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل. أو مع الذين اتقوا بتعظيم أمره، والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. والله أعلم بالصواب.



## فهرس الموضوعات

### سورة الأنفال (٨)

الصفحة	الموضوع
٥	الآية : ١
٨	الآية : ٢ - ٦
١٤	الآية : ٧ - ١٤
١٩	الآية : ١٥ - ١٨
٢٢	الآية : ١٩ - ٢٣
٢٥	الآية : ٢٤ - ٢٥
٢٨	الآية : ٢٦
٢٩	الآية : ٢٧ - ٢٨
٣٢	الآية : ٢٩ - ٣٠
٣٤	الآية : ٣١ - ٣٢
٣٥	الآية : ٣٣ - ٣٤
٣٧	الآية : ٣٥
٣٨	الآية : ٣٦ - ٣٧
٣٩	الآية : ٣٨ - ٤٠
٤١	الآية : ٤١ - ٤٤
٤٩	الآية : ٤٥ - ٤٥
٥٤	الآية : ٥٥ - ٥٦
٥٥	الآية : ٥٧ - ٥٨
٥٧	الآية : ٥٩ - ٦٣

٦٢٦ ..... زبدة التفسير - ج ٣

٦٠ ..... الآية: ٦٤ - ٦٩

٦٥ ..... الآية: ٧٠ - ٧١

٦٧ ..... الآية: ٧٢ - ٧٣

٦٨ ..... الآية: ٧٤ - ٧٥

### سورة التوبة (٩)

٧١ ..... الآية: ١ - ٢

٧٦ ..... الآية: ٣ - ٤

٧٨ ..... الآية: ٥ - ٦

٨٠ ..... الآية: ٧ - ١٢

٨٤ ..... الآية: ١٣

٨٥ ..... الآية: ١٤ - ١٦

٨٦ ..... الآية: ١٧ - ١٨

٨٩ ..... الآية: ١٩ - ٢٢

٩١ ..... الآية: ٢٣ - ٢٤

٩٣ ..... الآية: ٢٥ - ٢٧

٩٧ ..... الآية: ٢٨

٩٩ ..... الآية: ٢٩

١٠١ ..... الآية: ٣٠ - ٣٥

١٠٨ ..... الآية: ٣٦

١١٠ ..... الآية: ٣٧

١١٢ ..... الآية: ٣٨ - ٤٠

١١٥ ..... الآية: ٤١ - ٤٢

١١٦ ..... الآية: ٤٣

١١٧ ..... الآية: ٤٤ - ٤٥

٦٢٧	.....	فهرس الموضوعات
١١٨	.....	الآية : ٤٦
١١٩	.....	الآية : ٤٧ - ٥٢
١٢٢	.....	الآية : ٥٣ - ٥٧
١٢٤	.....	الآية : ٥٨ - ٥٩
١٢٦	.....	الآية : ٦٠
١٢٨	.....	الآية : ٦١
١٣٠	.....	الآية : ٦٢
١٣١	.....	الآية : ٦٣ - ٦٤
١٣٢	.....	الآية : ٦٥ - ٦٩
١٣٦	.....	الآية : ٧٠
١٣٧	.....	الآية : ٧١ - ٧٢
١٣٩	.....	الآية : ٧٣ - ٧٤
١٤١	.....	الآية : ٧٥ - ٧٨
١٤٢	.....	الآية : ٧٩
١٤٣	.....	الآية : ٨٠
١٤٥	.....	الآية : ٨١ - ٨٣
١٤٧	.....	الآية : ٨٤ - ٨٥
١٤٨	.....	الآية : ٨٦ - ٨٩
١٤٩	.....	الآية : ٩٠
١٥٠	.....	الآية : ٩١ - ٩٣
١٥٢	.....	الآية : ٩٤ - ٩٦
١٥٤	.....	الآية : ٩٧ - ٩٩
١٥٦	.....	الآية : ١٠٠
١٥٩	.....	الآية : ١٠١
١٦٠	.....	الآية : ١٠٢



٦٢٨	.....	زبدة التفاسير - ج ٣
١٦١	.....	الآية: ١٠٣ - ١٠٥
١٦٤	.....	الآية: ١٠٦
١٦٥	.....	الآية: ١٠٧ - ١١٠
١٧٠	.....	الآية: ١١١ - ١١٢
١٧٢	.....	الآية: ١١٣ - ١١٤
١٧٤	.....	الآية: ١١٥ - ١١٦
١٧٥	.....	الآية: ١١٧ - ١١٨
١٧٧	.....	الآية: ١١٩
١٧٨	.....	الآية: ١٢٠ - ١٢١
١٨٠	.....	الآية: ١٢٢
١٨١	.....	الآية: ١٢٣ - ١٢٥
١٨٣	.....	الآية: ١٢٦ - ١٢٧
١٨٤	.....	الآية: ١٢٨ - ١٢٩

### سورة يونس (١٠)

١٨٥	.....	الآية: ١ - ٢
١٨٨	.....	الآية: ٣ - ٦
١٩٠	.....	الآية: ٧ - ٨
١٩١	.....	الآية: ٩ - ١٠
١٩٢	.....	الآية: ١١
١٩٣	.....	الآية: ١٢
١٩٤	.....	الآية: ١٣ - ١٤
١٩٥	.....	الآية: ١٥ - ١٧
١٩٧	.....	الآية: ١٨ - ٢١
٢٠٠	.....	الآية: ٢٢ - ٢٣

٦٢٩ .....	فهرس الموضوعات
٢٠٢ .....	الآية : ٢٤
٢٠٣ .....	الآية : ٢٥ - ٢٧
٢٠٦ .....	الآية : ٢٨ - ٣٠
٢٠٧ .....	الآية : ٣١ - ٣٣
٢٠٨ .....	الآية : ٣٤ - ٣٦
٢١٠ .....	الآية : ٣٧ - ٣٩
٢١٢ .....	الآية : ٤٠ - ٤٧
٢١٦ .....	الآية : ٤٨ - ٥٦
٢١٩ .....	الآية : ٥٧ - ٥٨
٢٢١ .....	الآية : ٥٩ - ٦٠
٢٢٢ .....	الآية : ٦١
٢٢٣ .....	الآية : ٦٢ - ٦٥
٢٢٥ .....	الآية : ٦٦
٢٢٦ .....	الآية : ٦٧ - ٧٠
٢٢٨ .....	الآية : ٧١ - ٧٤
٢٣١ .....	الآية : ٧٥ - ٨٦
٢٣٥ .....	الآية : ٨٧ - ٨٩
٢٣٧ .....	الآية : ٩٠ - ٩٢
٢٤٠ .....	الآية : ٩٣
٢٤١ .....	الآية : ٩٤ - ٩٧
٢٤٢ .....	الآية : ٩٨
٢٤٥ .....	الآية : ٩٩ - ١٠٠
٢٤٦ .....	الآية : ١٠١ - ١٠٣
٢٤٨ .....	الآية : ١٠٤ - ١٠٦
٢٤٩ .....	الآية : ١٠٧
٢٥٠ .....	الآية : ١٠٨ - ١٠٩

سورة هود (١١)

٢٥٢.....	الآية: ١ - ٤
٢٥٤.....	الآية: ٥
٢٥٥.....	الآية: ٦
٢٥٦.....	الآية: ٧ - ٨
٢٥٨.....	الآية: ٩ - ١١
٢٥٩.....	الآية: ١٢ - ١٤
٢٦١.....	الآية: ١٥ - ١٦
٢٦٢.....	الآية: ١٧
٢٦٤.....	الآية: ١٨ - ٢٢
٢٦٦.....	الآية: ٢٣ - ٢٤
٢٦٧.....	الآية: ٢٥ - ٢٨
٢٦٩.....	الآية: ٢٩ - ٣١
٢٧٠.....	الآية: ٣٢ - ٣٥
٢٧٢.....	الآية: ٣٦ - ٤٣
٢٧٩.....	الآية: ٤٤
٢٨١.....	الآية: ٤٥ - ٤٧
٢٨٣.....	الآية: ٤٨ - ٤٩
٢٨٥.....	الآية: ٥٠ - ٦٠
٢٩٠.....	الآية: ٦١ - ٦٨
٢٩٤.....	الآية: ٦٩ - ٧٦
٢٩٨.....	الآية: ٧٧ - ٨٣
٣٠٤.....	الآية: ٨٤ - ٨٨
٣٠٩.....	الآية: ٨٩ - ٩٥
٣١٢.....	الآية: ٩٦ - ٩٩

٢٣١	..... فهرس الموضوعات
٣١٥	..... الآية: ١٠٠ - ١٠٨
٣٢٠	..... الآية: ١٠٩
٣٢١	..... الآية: ١١٠ - ١١١
٣٢٢	..... الآية: ١١٢
٣٢٣	..... الآية: ١١٣ - ١١٥
٣٢٨	..... الآية: ١١٦ - ١١٧
٣٣٠	..... الآية: ١١٨ - ١٢٣

### سورة يوسف (١٢)

٣٣٥	..... الآية: ١ - ٣
٣٣٧	..... الآية: ٤ - ٦
٣٤٢	..... الآية: ٧ - ٩
٣٤٤	..... الآية: ١٠
٣٤٥	..... الآية: ١١ - ١٨
٣٥٠	..... الآية: ١٩ - ٢٢
٣٥٤	..... الآية: ٢٣ - ٢٥
٣٥٩	..... الآية: ٢٦ - ٢٩
٣٦٢	..... الآية: ٣٠ - ٣٥
٣٦٧	..... الآية: ٣٦ - ٤٢
٣٧٣	..... الآية: ٤٣ - ٤٩
٣٧٧	..... الآية: ٥٠ - ٥١
٣٧٩	..... الآية: ٥٢ - ٥٣
٣٨٠	..... الآية: ٥٤ - ٥٧
٣٨٦	..... الآية: ٥٨ - ٦٧

٦٣٢	.....	زبدة الضاسير - ج ٢
٣٩٣	.....	الآية : ٧٦ - ٦٨
٣٩٨	.....	الآية : ٧٧ - ٧٩
٤٠٠	.....	الآية : ٨٠ - ٨٢
٤٠٢	.....	الآية : ٨٣ - ٨٤
٤٠٤	.....	الآية : ٨٥ - ٨٧
٤٠٦	.....	الآية : ٨٨
٤٠٧	.....	الآية : ٨٩ - ٩٢
٤١٠	.....	الآية : ٩٣ - ٩٨
٤١٢	.....	الآية : ٩٩ - ١٠٠
٤١٥	.....	الآية : ١٠١
٤١٦	.....	الآية : ١٠٢
٤١٧	.....	الآية : ١٠٣ - ١٠٧
٤١٨	.....	الآية : ١٠٨ - ١٠٩
٤٢٠	.....	الآية : ١١٠ - ١١١

### سورة الرعد (١٣)

٤٢٣	.....	الآية : ١
٤٢٤	.....	الآية : ٢ - ٤
٤٢٨	.....	الآية : ٥ - ٧
٤٣١	.....	الآية : ٨ - ١١
٤٣٤	.....	الآية : ١٢ - ١٥
٤٣٨	.....	الآية : ١٦
٤٤٠	.....	الآية : ١٧ - ١٨
٤٤٤	.....	الآية : ١٩ - ٢٤

٦٣٣ .....	فهرس الموضوعات
٤٤٧ .....	الآية: ٢٥ - ٢٩
٤٥٠ .....	الآية: ٣٠
٤٥١ .....	الآية: ٣١
٤٥٣ .....	الآية: ٣٢ - ٣٤
٤٥٥ .....	الآية: ٣٥
٤٥٦ .....	الآية: ٣٦ - ٣٧
٤٥٧ .....	الآية: ٣٨ - ٤٠
٤٦٠ .....	الآية: ٤١ - ٤٣

### سورة إبراهيم (١٤)

٤٦٣ .....	الآية: ١ - ٣
٤٦٥ .....	الآية: ٤ - ٦
٤٦٨ .....	الآية: ٧ - ٩
٤٧٠ .....	الآية: ١٠
٤٧١ .....	الآية: ١١ - ١٢
٤٧٢ .....	الآية: ١٣ - ١٧
٤٧٥ .....	الآية: ١٨
٤٧٦ .....	الآية: ١٩ - ٢١
٤٧٩ .....	الآية: ٢٢
٤٨١ .....	الآية: ٢٣ - ٢٧
٤٨٥ .....	الآية: ٢٨ - ٣١
٤٨٨ .....	الآية: ٣٢ - ٣٤
٤٩٠ .....	الآية: ٣٥ - ٤١
٤٩٤ .....	الآية: ٤٢ - ٤٣

٦٣٤ ..... زبدة التفاسير - ج ٣

٤٩٥	..... الآية: ٤٤ - ٤٥
٤٩٧	..... الآية: ٤٦ - ٤٧
٤٩٩	..... الآية: ٤٨ - ٥٢

### سورة الحجر (١٥)

٥٠٥	..... الآية: ١ - ٥
٥٠٨	..... الآية: ٦ - ١٥
٥١٢	..... الآية: ١٦ - ١٨
٥١٣	..... الآية: ١٩ - ٢٣
٥١٥	..... الآية: ٢٤ - ٢٥
٥١٧	..... الآية: ٢٦ - ٣٤
٥٢٤	..... الآية: ٤٥ - ٤٨
٥٢٥	..... الآية: ٤٩ - ٦٥
٥٢٧	..... الآية: ٥٧ - ٦٠
٥٢٩	..... الآية: ٦١ - ٦٦
٥٣٠	..... الآية: ٦٧ - ٧٢
٥٣٢	..... الآية: ٧٣ - ٨٤
٥٣٤	..... الآية: ٨٥ - ٨٦
٥٣٥	..... الآية: ٨٧ - ٩٩

### سورة النحل (١٦)

٥٤١	..... الآية: ١ - ٢
٥٤٤	..... الآية: ٣ - ٨
٥٤٦	..... الآية: ٩

٦٣٥ .....	فهرس الموضوعات
٥٤٧ .....	الآية: ١٠ - ١٣
٥٤٩ .....	الآية: ١٤ - ١٦
٥٥٢ .....	الآية: ١٧
٥٥٣ .....	الآية: ١٨ - ٢١
٥٥٤ .....	الآية: ٢٢ - ٢٣
٥٥٦ .....	الآية: ٢٤ - ٢٩
٥٥٩ .....	الآية: ٣٠ - ٣٢
٥٦٠ .....	الآية: ٣٣ - ٣٤
٥٦١ .....	الآية: ٣٥
٥٦٢ .....	الآية: ٣٦
٥٦٣ .....	الآية: ٣٧
٥٦٤ .....	الآية: ٣٨ - ٤٠
٥٦٥ .....	الآية: ٤١ - ٤٢
٥٦٧ .....	الآية: ٤٣ - ٤٧
٥٦٩ .....	الآية: ٤٨ - ٥٠
٥٧٢ .....	الآية: ٥١ - ٥٥
٥٧٥ .....	الآية: ٥٦ - ٦٠
٥٧٦ .....	الآية: ٦١ - ٦٣
٥٧٨ .....	الآية: ٦٤ - ٦٥
٥٧٩ .....	الآية: ٦٦ - ٦٧
٥٨٢ .....	الآية: ٦٨ - ٦٩
٥٨٥ .....	الآية: ٧٠
٥٨٦ .....	الآية: ٧١
٥٨٧ .....	الآية: ٧٢ - ٧٤



www.KitaboSunnat.com



٥٨٩	..... الآية : ٧٥
٥٩١	..... الآية : ٧٦
٥٩٢	..... الآية : ٧٧ - ٧٨
٥٩٣	..... الآية : ٧٩
٥٩٤	..... الآية : ٨٠ - ٨٢
٥٩٦	..... الآية : ٨٣ - ٨٥
٥٩٧	..... الآية : ٨٦ - ٨٨
٥٩٩	..... الآية : ٨٩
٦٠٠	..... الآية : ٩٠
٦٠٢	..... الآية : ٩١ - ٩٣
٦٠٤	..... الآية : ٩٤ - ٩٦
٦٠٥	..... الآية : ٩٧
٦٠٧	..... الآية : ٩٨ - ١٠٠
٦٠٨	..... الآية : ١٠١ - ١٠٣
٦١٠	..... الآية : ١٠٤ - ١٠٦
٦١٣	..... الآية : ١٠٧ - ١١١
٦١٤	..... الآية : ١١٢ - ١١٣
٦١٥	..... الآية : ١١٤
٦١٦	..... الآية : ١١٥ - ١١٨
٦١٨	..... الآية : ١١٩ - ١٢٣
٦٢٠	..... الآية : ١٢٤
٦٢١	..... الآية : ١٢٥
٦٢٢	..... الآية : ١٢٦
٦٢٣	..... الآية : ١٢٧ - ١٢٨